المحتويات



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد ﷺ، بُعث بالدين القويم الذي جاء به سائر الأنبياء من قبل، وبعد؛

فإن أساس الإسلام عقيدته، وجوهر هذه العقيدة هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والإنسان ـ منذ هبط إلى الأرض من لدن آدم عليه السلام، وإلى أن تقوم الساعة ـ في حاجة ماسَّة ومُلِحَّة إلى منظومة من قوانين، تضبط غرائزه وتهذِّبها، وتنظم سلوكه، وتحدد اتجاهاته؛ لتضمن له السلامة في الدارَيْن؛ الدنيا والآخرة.

وإن هذه المنظومة تشريع رباني سماوي مَحْض لا دخل لأهل الأرض فيه. بيد أن الجهل بالدين، والبعد عن تعاليمه وأحكامه، قد ساهما في جعل مفاهيم هذا الدين في صورة غامضة، ولاحت في أذهان الناس عن هذا الدين صورتان متقابلتان ـ على حد تعبير د. محمد الزحيلي:

الأولى: قاتمة تمثل شبهات داكنة عن مبادئه وأحكامه.

الأخرى: برَّاقة تنجلي في التقدم العلمي جاعلة من الدين موجة وقتية ـ موضة ـ لا دخل لها في الحياة ومشاكلها. ومن خلال هاتين الصورتين هاجم الطاعنون العقيدة الإسلامية وأركانها الإيمانية.

وبيانًا لحقيقة هذا الدين، وقيامًا بالواجب والدعوة، ودفعًا لهذه الافتراءات والأباطيل كان هذا الجزء، والذي جاء في محاور عدة، من أهمها:

- شبهات حول الإيمان والتدين، ودعوى أن إيمان المسلم مرض نفسي منشؤه الخوف من الطبيعة وتقلُّباتها، وأنه ميراث تقليدي عن الآباء.
- افتراءات حول الإيمان بالقضاء والقدر، ودعوى أن الإيمان بها يسلب المسلم الإرادة، ويؤصل في داخله مبدأ التواكل وترك الأخذ بالأسباب ومباشرتها؛ اعتمادًا على ما كتب وسجل في اللوح المحفوظ.
- مزاعم الفِرَق والمذاهب الفكرية التي تدَّعي أن الدين ما هو إلَّا مُخدِّر للشعوب ـ الدين أفيون الشعوب ـ ولذا تبارى المبطلون في هدم فكرة الدين تحت شعارات الماركسيَّة[1] والبهائيَّة[2]، وشتى موجات الإلحاد التي ظهرت في الآونة الأخيرة.

١. الماركسيَّة: مذهب قائم على المبادئ التي وضعها ماركس، وتقوم نظريته في الفلسفة والاجتماع على الجدل المادي، وتقول بوجود مادة سابقة للفكر مستقلة عنه، كما أن الفكر مادة واقعية لذاتها.

٢. البهائيَّة: امتداد للبابيَّة على يد "ميرزا حسين" الملقَّب بـ "بهاء الله"، تنزع إلى العالمية في الاعتقاد والتدين، وتبدو عليها مَسْحة مسيحيَّة في الأخلاق والسلوك، ولها اتباع في أوربا وأمريكا.

وفي ضوء ما انطلق منه هؤلاء المدعون، من افتراءات مجانبة للواقع والحقيقة، وما عليه حقيقة هذا الدين خلصت معالجة هذه الافتراءات إلى مجموعة من الثوابت الإيمانية والحقائق العقدية، أهمها ما يأتي:

- العقيدة الإسلامية هي الدين القيم والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وجوهرها الإيمان بوجود الله ﷻ ووحدانيته، هذا الإيمان هو الذي يزيل الحيرة والاضطراب، ويضبط العقائد المنحرفة والأفكار الجامحة، ويحقق السكينة والطمأنينة للنفس البشرية.

- التدين ليس شيئًا عارضًا على النفس البشرية، أو مرتبطًا بطارئ يزول بزواله؛ بل هو ضارب في أعماق النفس البشرية؛ لأنه الفطرة السويَّة، أما الكفر فهو تغيير لهذه الفطرة؛ وعليه فإيمان المسلمين فِطْرِيٌّ لا موروث، وهو الإيمان الصحيح.

- الأمور الغيبية يقينية؛ لأنها قائمة على دلائل قاطعة، وليست خرافات أو أساطير، لأنها تقوم على الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي، والإيمان بها ضرورة عقلية وحيوية وإنسانية.

- مبدأ العدالة الإنسانية في الإسلام يتنافى مع مبدأ نهاية الإنسان بمجرد موته، بلا ثواب ولا عقاب؛ لأن الحياة الدنيا ليست محلًّا للعدالة الحقيقية. ومن ثم كان البعث ليكون الثواب والعقاب، ومن تمام هذه العدالة أنه لا حساب لأحد إلَّا بعد أن يصل أمر الله إليه عن طريق الأنبياء والرسل، وتتوفر حيثيات التكليف.

- الجزاء الأخروي ـ الثواب والعقاب ـ ليس حسيًّا فقط، ولكنه حسي ومعنوي، وهذا ما تميزت به العقيدة الإسلامية؛ لأن الاقتصار على الجانب الروحي فيه تضييق لسعة النعيم الذي أعده الله ﷻ للمؤمنين، ولشمولية العذاب الذي أعده الله ﷻ للكفار والعُصاة.

- الشيوعيَّة[1] أو الماركسية مذهب لا يعترف بالله ولا بالوحي؛ لأنه لا يؤمن بما وراء المادة، ويعتبر الدين خدعة للسيطرة على عقول المستضعفين، والعوامل الاقتصادية ـ في حسابهم ـ هي المحرك الأول للأفراد والجماعات. وقد ساعد على انتشاره فساد الفكر الفلسفي الأوربي في عصر النهضة.

- البابيَّة[2] والباطنيَّة[3] والبهائية وما شاكلها فرق كافرة بإجماع الأمة وعقائد باطلة مبتدعة خارجة عن الإسلام، هدفها هدمه والقضاء عليه وتشكيك المسلمين في ثوابت دينهم؛ ومن ثم فقد تصدَّى علماء المسلمين لهذه

---

١. الشيوعيَّة: مذهب كارل ماركس، وهو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي يقوم على الإنتاج الجماعي، وإشاعة الملكية، وإزالة الطبقات الاجتماعية، وأن يعمل الفرد على قَدْر طاقته، ويأخذ على قدر حاجته.

٢. البابيَّة: عقيدة ظهرت في إيران في القرن التاسع عشر، وتُنسَب إلى "ميرزا علي محمد الشيرازي" الملقَّب بـ "الباب"، تقوم على أساس فكرة المهدي المنتظر، فتقول بظهور مُصْلِح كل ٥٠٠ سنة، أو كل ١٠٠٠ سنة، يُشرِّع على حسب الظروف. وذهب الشيرازي إلى أنه هو المهدي المنتظر، أو باب العلم، ومنه لفظ "البابية".

٣. الباطنيَّة: يطلق على عِدة فِرَق شيعيَّة؛ كالإسماعيلية، والقرامطة، وجماعة الحشاشين أتباع حسن الصباح، وهم أصحاب قلعة "ألموت" الذين عاثوا في الأرض فسادًا، ويُسمَّون "التعليمية".

الدعوة وأبانوا زيفها وفسادها وأفتوا بكفر معتنقيها، وأنها لم تأتِ بجديد على الأمة الإسلامية، فهي سلسلة أفكار مريضة ونحل متعددة وفلسفات شتى ابتليت بها الأمة الإسلامية.

وأخيرًا؛ فإن الإيمان بأركانه الستة يثمر حب الله تعالى وخشيته وتعظيمه، والإنابة إليه، والاستقامة على شريعته وتحقيق سكون النفس ورضاها، وطمأنينة القلب وهدوئه وهدايته.



المحور الأول

شبهات حول الإيمان والتدين

الشبهة الأولى

الزعم أن إيمان المسلم مرضٌ نفسيٌّ وسلوك يدفع للعنف والتعصب(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن امتثال المسلم لتعاليم دينه المتمثِّلة في أدائه الفرائض، وإقامته الشعائر، وتردده على المساجد، كلها أعراض لمرض نفسي هو لُوثة[2] الإيمان، وأن المسلم كلما ازداد إيمانه، ازداد تعصبه، وازدادت رغبته في العنف والتدمير والإرهاب.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإنسان مفطور على الإيمان والإسلام، وطبيعته النفسية والروحية تجعل الإيمان أمرًا ضروريًّا، دفعت إليه الفطرة البشرية دفعًا، ولا مجال لاعتباره مرضًا نفسيًّا ولا اضطرابًا سلوكيًّا.

٢) الإيمان الذي نعنيه هو عقيدة الإسلام التي تحلُّ لغز الوجود وتزيل الحيرة والاضطراب؛ بردِّ العقائد المنحرفة والأفكار المتخلفة.

٣) إن الإيمان يحقق السكينة في النفس والسعادة في الحياة؛ لأن المسلم يستحضر معية الله التي تعصمه من المرض النفسي.

(*) مقال نُشر في صحيفة الحياة، صالح بشير، لندن، عدد ١٧ سبتمبر ١٩٩٥م.

٢. اللَّوثة: الجنون.

٤) الإيمان يرفع من شأن الإنسان ويكرِّمه، بينما الكفر والإلحاد يحطَّان من قدره إلى منزلة أقلَّ من البهائم.

٥) إن إيمان المؤمن قائم على أدلة مركوزة في فطرته، وفي الكون من حوله، فهو أمر يقيني لا شك فيه، وسلوك قويم متَّزن، وليس مرضًا نفسيًّا.

٦) الإسلام دين التسامح والرحمة والتعايش السلمي، أما التعصب والعنف فهما نتاج الإلحاد ومحاربة الدين، وردُّ فعل لهما في غالب الأحيان.

التفصيل:

أولا. الإيمان ضرورة تحتِّمها الحياة النفسية لبني البشر؛ لأن الإنسان مفطور عليه:

إن قضية الإيمان ليست أمرًا على هامش الوجود، يجوز لنا أن نغفله أو نستخفَّ به، أو نَدَعه في زوايا النسيان، كيف وهو أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره؟ بل إنَّ قضية الإيمان هي أعظم قضية مصيرية بالنظر إلى الإنسان، إنها سعادة الأبد أو شِقْوته، إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا، فكان لزامًا على كل ذي عقل أن يفكِّر فيها ويطمئن إلى حقيقتها، وقد فكَّر فيها الكثيرون من أولي الألباب، وانتهى كل منهم إلى إثباتها بطريقته الخاصَّة.

فمنهم من استند إلى صوت الفطرة في أعماقه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية رياضية، فانتهى إلى أن الأضمن لحياته، وما بعد حياته أن يؤمن بالله وبالآخرة والجزاء، وفي مثل هذا يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المَعَرِّي:

قال المُنجِّم والطَّبيبُ كِلاهما

لا تُبْعَثُ الأمواتُ، قُلْتُ: إليكما

إنْ صَحَّ قَولُكما فَلَسْتُ بخاسرٍ

أو صحَّ قولي فالخَسارُ عليكما

وقال الفيلسوف الرياضي باسكال: "إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك، فماذا تختار؟ إن عقلك لعاجز كل العجز أن يختار، وإنما للعبة جارية بينك وبين الطبيعة، رمى فيها كل منكما بسهمه، ولا بد أن يربح أحد السهمين.. فوازنْ بين كل ما يمكن أن تربح، وما يمكن أن تخسر، إذا راهنتَ بكل ما تملك على ظهور السهم الأول على وجود الله ـ فإذا كسبت الرهان، فقد حصلتَ على سعادة أبدية، فإذا أخفقتَ فسوف لا تفقد شيئًا مهمًّا؛ فلست تخاطر بشيء، فإن كل غُرمٍ فانٍ ـ ولو كان محقق الوقوع ـ محتمل ومعقول".

ونحن نزيد على هذا فنقول: إن الذي يؤمن بالله تعالى والدار الآخرة لا يُخاطر بدنياه الفانية ليربح آخرته الباقية، كلا، إنه بإيمانه يربح كلا الحياتين معًا، ويفوز بالحسنيين في الدنيا والآخرة جميعًا. وصدق الله العظيم: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ (النساء: ١٣٤)، وقال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النحل).

إن العبادات التي فرضها الدين إنما هي وسائل لتزكية نفس العبد المؤمن وترقية روحه، وما أقل ما يُبذل فيها من جهد، إلى جنب ما يُكسب وراءها من خير، وإن المحرمات التي حظرها عليه الدين، إنما صان بتحريمها عقله، وخلقه، ونفسه، وماله، وعرضه، ونسله، فهو إنما: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

والدين إذا حرَّم على الناس شيئًا عوَّضهم ما هو خير منه، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرم، إن المؤمن لم يخسر شيئًا بعبادة الله تعالى واجتنابه ما حرَّمه عليه، وإنما ربح الهدى والاستقامة على الحق، والثبات على الخير، والاستعلاء على الشهوات، وربح بعد ذلك هدوء النفس وطمأنينة الحياة.

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مَهَبِّ الريح لا تستقر على حال، ولا تُعرف لها وجهة، ولا تسكن إلى قرار مكين. وإنسان ليس له قيمة ولا جذور، إنسان قلق متبرم حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سرَّ وجوده ولا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟! وهو بغير دين ولا إيمان، حيوان شَرِه أو سبع فاتك، لا تستطيع الثقافة ولا القانون ـ وحدهما ـ أن يُحِدَّا من شراهته، أو يُقلِّما أظفاره.

والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمعُ غابةٍ، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ إذ تكون الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى، لا للأفضل ولا للأتقى، مجتمع تعاسة وشقاء، وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم، مجتمع تافه رخيص؛ لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج، فهم: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ (محمد: ١٢).

والعلم المادي ـ وإن اتسعت ميادينه ـ ليس

بمستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس؛ لأن العلم يَرقى بالجانب المادي للحياة، فيختصر الشُّقَّة البعيدة، والزمن الطويل، إلى مدة أقصر، ولهذا سمّوا عصرنا هذا "عصر السرعة"، أو عصر "التغلب على المسافات".

ولكنْ هل يستطيع أحد أن يُسمِّيه "عصر الفضيلة" أو "عصر الطمأنينة" أو "عصر السعادة للبشر"؟!

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التي تغرس في النفس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير الله ﷻ كفرًا وفسقًا وظلمًا، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

ثانيًا. الإيمان الذي نعنيه هو عقيدة الإسلام التي تحلُّ لغز الوجود وتزيل الحيرة والاضطراب:

إن الإيمان الذي تحدثنا عنه منذ قليل، وذكرنا أن الإنسان مفطور عليه - هو الإيمان الذي يتجسد في خاتمة الرسالات السماوية - رسالة الإسلام - كما بيَّنها القرآن الكريم، وهَدْي الرسول العظيم ﷺ، متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنَّبيين.

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود، وتُفسِّر للإنسان سر الحياة والموت، وتجيب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولِـمَ؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد ﷺ، إنها العقيدة المصفاة التي بُعِثَ بها أنبياء الله جميعًا، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل. إنها الحقائق الثابتة التي لا تتطور ولا تتغير عن الله وعن صلته بهذا العالم، ما نبصره منه وما لا نبصره، وعن حقيقة هذه الحياة، ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التي علَّمها آدم عليه السلام لبنيه، وأعلنها نوح عليه السلام في قومه، ودعا إليها هود وصالح - عليهما السلام - عادًا وثمود، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى وداود وعيسى.

كل ما فعله الإسلام هو أنه نقَّى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفَّاها من الأجسام الغريبة التي أدخلتها العصور عليها؛ فكدَّرت صفاءها وأفسدت توحيدها بالتَّثلِيث[1] والشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهها بالتَّشبِيه والتَّجسِيم[2] ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله ﷻ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه، وما جاء به من تعاليم. كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضًا جديدًا يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية، وأن تكون غاية لكل البشر إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقَّت فكرة التوحيد، وكمال الألوهية مما شابها على مرِّ العصور، ونقَّت فكرة النبوة

١. التَّثلِيث: هو اعتقاد النصارى بوجود ثلاثة أقانيم في الذات الإلهية الواحدة، والأقانيم عندهم ذاتية تقوم عليها الذات الإلهية، فالله يكون أهل الوجود هو "الآب"، ولما كان قد تجسد في المسيح فالمسيح هو "الكلمة"، وهو أيضًا "الابن"، والله أيضًا هو "الروح الإعظم"، وهو لذلك "الروح القدس"، فالآب والابن والروح القدس خاصيات في الذات الإلهية الواحدة.

٢. التَّشبيه التَّجسِيم: تصور الإله في ذاته وصفاته على غرار الإنسان، أي: إثبات الجسم لله تعالى.

والرسالة مما عراها من سوء التصور.

ثالثًا. الإيمان يحقق السكينة في النفس والسعادة في الحياة:

١. الإيمان والسعادة:

السعادة جنَّة الأحلام التي ينشدها كل البشر، ولكن السؤال الذي حيَّر الجميع منذ القديم هو: أين السعادة؟ وهل هي في النعيم المادي؟

لقد ظنَّ قوم ذلك، ولكنَّ نظرة فاحصة إلى من ارتفع مستواهم المعيشي وتيسرت أمورهم؛ فصاروا في أعلى درجات النعيم المادي والرفاهية - توضح لنا أنهم لا يزالون يَشْكون من تعاسة الحياة، بل يحسون بالضيق والانقباض رغم ذلك، ومن هنا نراهم يبحثون عن مصدر آخر للسعادة، كما في الدول التي ارتفع مستوى دخل الفرد المعيشي فيها، مثل: السويد وأمريكا وغيرهما من دول أوربا وإستراليا. يؤكد هذا الأستاذ كلون ولسون في وصفه لعمران نيويورك وازدهارها المادي بأنه "غطاء جميل لحلة من التعاسة والشقاء".

هل السعادة في الأولاد؟! إن الأولاد زهرة الحياة الدنيا وزينتها، ولكن كم من أولاد جرُّوا على آبائهم الويل، وجَزَوهم بالعقوق والكفران، لا بالبر والإحسان، وكم من آباء لاقوا حتفهم على يد أولادهم طمعًا في ثرواتهم، أو لأنهم وقفوا في سبيل شهواتهم.

هل السعادة في العلم التجريبي؟ إن العلم المادي قد كشف لنا عن كثير مما في الحياة، وأتاح لنا الاستمتاع بنعيمها إلى حدٍّ لم يكن يخطر بخيال أحد من قبل، ولكنه لم يحقق السعادة المنشودة للإنسان، فهذا د. هنري لنك - طبيب النفس الأمريكي الشهير - يعارض الذين ينكرون الإيمان بالغيب باسم العلم، واحترام الفكر مبينًا أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة.

- السعادة إذن ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة ولا في العلم المادي.
- السعادة شيء معنوي لا يُرى بالعين، ولا يعكس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشْتَرى بالمال.
- السعادة شيء يشعُر به الإنسان بين جوانحه، فهي صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.
- السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يُستورد من خارجه.

هذه هي السعادة الحقة التي لا يملك بشر أن يُعطِيها، ولا يملك أن ينتزعها ممن أُوتيها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين؛ فقال: إننا نعيش في سعادة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

إذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية والقلب الإنساني، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها. لقد فجَّر الإيمان في قلب الإنسان ينابيع للسعادة لا يمكن أن تغيض، ولا أن تتحقق السعادة بغيرها، تلك هي ينابيع السكينة والأمن والأمل والرضاء والحب[1].

٢. سكينة النفس:

قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

١. الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٧٦: ٨٥ بتصرف.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (الفتح:٤)، فلا سعادة بلا سكينة نفس وطمأنينة قلب، ولا سكينة بلا إيمان بالله وباليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق الذي لا يكدره شك ولا يفسده نفاق. إن أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا وشعورًا بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين.

إن مثيري هذه الشبهة قد خالفوا الصواب، وزيَّفوا الحقائق، بزعمهم أن إيمان المسلم يدفعه للعنف والتعصب، وذلك أن إيمانه يوفر له أسباب السكينة والطمأنينة، وهاك تفصيل الحديث عن هذه الحقيقة التي أغفلها ـ أو ـ تغافل عنها ـ هؤلاء:

أسباب السكينة والاطمئنان لدى المؤمن:

- **إن إيمان المؤمن استجابة لنداء الفطرة:** فهو قد هُدي إلى فطرته التي فطره الله عليها، وهي فطرة متسقة كلَّ الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله، فعاش المؤمن مع فطرته في سلام ووئام، لا في حرب وخصام.

إن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله ﷻ، وستظلُّ الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ حتى تجد الله ﷻ وتتوجه إليه، هنا تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هنا تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة والتيه في الأرض.

فَأَلْقَتْ عَصَاها واستقرَّ بها النَّوَى

كما قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المُسَافِرُ

قال ابن القيم: "في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يُزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلقٌ لا يُسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدُّها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، وإن أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة أبدًا"[1].

وإني لآسى لهؤلاء المساكين أشدَّ الأسى، أولئك الذين صادروا فطرتهم، وغلظ حجابهم، وأظلمت قلوبهم؛ فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان، أولئك الأشقياء المطموسون الذين يجادلون في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

إني لآسى لهؤلاء مرتين: آسى لهم؛ لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان، وآسى لهم مرة أخرى حين أراهم خلعوا رداء العبودية لله، فوقعوا في العبودية لغير الله.

- **نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك:** وبهذا الإيمان البسيط العميق الذي جاء به الوحي، وأيده العقل واقتضته الفطرة، وشهد له كل سطر ـ بل كل حكمة ـ في كتاب الكون المفتوح ـ سَلِم المؤمن من الشك والاضطراب، واستراح من البلبلة والحيرة الذهنية والنفسية، التي يتجرع غصصها الجاحدون المرتابون.

بهذا الإيمان الواضح حلَّ المؤمن ألغاز الوجود

---

١. مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق: حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ج٣، ص١٦٤.

الكبرى حين عرف مبدأه ومصيره وغايته ومهمته، بل عرف مبدأ الوجود كله وغايته وهدفه، فانحلَّت عُقد الشك من نفسه، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته.

أما الملحدون المنكرون للإيمان فلا تستطيع عقولهم المحدودة أن تجيبهم إجابة شافية، تشفي الصدور، وتروي الغلة، وتمحو بنورها الشك والحيرة والاضطراب، فلا يثبتون على قرار، ولا يستقرون على فكرة، ولا يدومون على وجهة، كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق.

- **وضوح الغاية والطريق عند المؤمن**: فغير المؤمن يعيش في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة وتتنازعه غايات شتى؛ فهو في صراع دائم داخل نفسه، وهو في حيرة بين غرائزه الكثيرة. أما المؤمن فقد استراح من هذا كله وحصر الغايات كلها في غاية واحدة، عليها يحرص وإليها يسعى، وهي رضوان الله تعالى، ولا يبالي معه برضا الناس أو سخطهم.

فَلَيْتَكَ تَحْلُو والحياةُ مَرِيرَةٌ

وَلَيْتَكَ ترضى والأنام غِضابُ

وَلَيْتَ الذي بَيْني وبَيْنَكَ عامرٌ

وبَيْني وبَيْنَ العالمينَ خَرَابُ

إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ

وكُلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ

- **أُنس المؤمن بالوجود كله**: إن المؤمن يعيش موصولًا بالوجود كله، ويحيا في أنس به وشعور عميق بالتناسق معه، والارتباط به؛ فليس هذا الكون عدوًّا له ولا غريبًا عنه، إنه مجال تفكره واعتباره ومسرح نظره وتأملاته، ومظهر نعمة الله تعالى وآثار رحمته.

هذا الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله تعالى كما يخضع المؤمن، ويُسبِّح بحمد الله كما يسبح المؤمن، والمؤمن ينظر إليه نظرته إلى دليل يهديه إلى ربه تبارك وتعالى، وإلى صديق يؤنسه في وحشته، وبهذه النظرة الودودة الرحبة للوجود تتسع نفس المؤمن وينشرح صدره وقلبه الذي وَسِعَ العالم المنظور وغير المنظور، وليس هناك ـ بحال ـ أضيق من صدر الملحد، والشاكِّ في الله تعالى والآخرة؛ إن حياته أضيق من "زنزانة" في سجن، إنه يعيش معزولًا عن الأزل والأبد، فهو لا يرى إلا شخصه، بل لا يرى من شخصه إلا جسمه المادي ودوافعه الحيوانية. قال ﷻ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه).

فإذا رأيتَ بعض هؤلاء المعرضين عن هَدْي الله في بُحْبُوحة من العيش المادي، والنعيم الحسي، فلا يخدعنك ذلك عن حقيقة حالهم؛ فإن الضنك الحقيقي في أنفسهم، وإذا ضاقت النفس وضاق الصدر، ضاقت المعيشة وضاقت الحياة كلها، وإذا اتسعت النفس اتسعت الحياة.

لعَمْرُكَ ما ضاقتْ بلادٌ بأَهْلِها

ولكنَّ أخلاقَ الرِّجالِ تَضِيقُ

- **المؤمن يعيش في معِيَّة الله**: فلا يعتريه ذلك المرض النفسي الوبيل الذي يفتك بالمحرومين من الإيمان، ذلك

هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة، فيحس صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه، وأنه يعيش منفردًا معزولًا كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليمُّ، ورمتْ به الأمواج في جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده، ولا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء، ولا يسمع إلا صفير الرياح وهدير الأمواج.

وأي عالم أشدُّ على النفس من هذا العالم ؟ وأي إحساس أمرُّ من هذا الإحساس؟ إن أقصى ما يصنعه السجَّان بالسجين أن يحبسه في سجن انفرادي ليحرمه من لذة الاجتماع وأُنس المشاركة والاختلاط، فما بالنا بمن وضع نفسه دائمًا في تلك الزنزانة، وعاش فيها بمشاعره وتصوره وحده، وإن كانت الدنيا تضجُّ من حوله بخلق الله من بني الإنسان.

إن شعور المؤمن بأن يد الله تعالى في يده وأن رعايته تسير بجانبه، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام، وأنه معه حيث كان، يَطْرُد عنه شبح الوحدة المخيف، ويزيح عن نفسه كابوسها: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ (الشعراء)، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

يقول موريس جوبتهيل مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك: "إن مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية".

ولم يدخر الأطباء وعلماء النفس وسعًا في البحث عن علاج مؤثر لهذا المرض، وبذلوا في ذلك جهودًا جمة، وأجرَوْا تجارب كثيرة، وحاولوا محاولات مخلصة حتى انتهى رأي المنصفين أخيرًا إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى، وإشعار المريض بمعية الله تبارك وتعالى والأُنس به[1] ®.

رابعًا. الإيمان يرفع من شأن الإنسان وكرامته، بينما الإلحاد يحطُّ من قدره:

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء)، هناك فرق كبير بين نظرة الماديين[2] للإنسان ونظرة المؤمنين إليه، ونوضح فيما يأتي هذا الفرق:

- **الإنسان في نظر الماديين:**

الإنسان في نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض، من الأرض نشأ، وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل، وإلى الأرض يعود! هو كتلة من اللحم، والدم، والعظام، والأعصاب، والأجهزة، والغُدَد[3]، والخلايا[4]، وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ، كما تفرز الكبد الصفراء[5]، أو كما تفرز الكلية البول!

---

١. الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٨٨: ١١٦.

® في "**أثر الإيمان في تحقيق السكينة النفسية**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

٢. الماديُّون: جمع المادي، وهو الذي يرجع كل شيء إلى المادة، أي: صاحب نظرة مادية للأمور.

٣. الغُدَد: جمع الغُدَّة، وهي عضو في جسم الإنسان أو الحيوان، يفرز مواد خاصة؛ كالدمع والعرق واللُّعاب والهرمونات والحليب.. وغيرها، مكوَّن من خلايا بشرية، وقد ينتج خلايا التناسل أو الأمشاج كما في الغُدَّة التناسلية.

٤. الخلايا: جمع الخَلِيَّة، وهي وحدة بنيان الأحياء من نبات أو حيوان، وهي صغيرة الحجم، لا تُرى بالعين المجرَّدة.

٥. الصفراء: سائل شديد المرارة يفرزه الكبد يُخزَّن في كيس المرارة، لونه أصفر ضارب إلى الحُمْرة أو الخُضْرة، يساعد على هَضْم المواد الدُّهنيَّة.

هو كائن ليس له أهمية، ولا امتياز على غيره، إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض، بل هو من جنس هذه الهوامِّ والحشرات والزواحف والقرود، غاية أمره أنه "تطور" بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسانَ! والأرض التي يحيا عليها الإنسان إن هي إلا كوكب صغير ضمن المجموعة الشمسية، التي هي مجموعة من مجاميع ضخمة كبيرة كثيرة يضمها عالم الأفلاك، تُعد بمئات الملايين.

هكذا أنبأنا الفلك الحديث، وعرفنا من كوبرنيكس أن الإنسان شيء ضئيل في الكون الكبير، هذا من حيث المكان. أما من حيث الزمان، فقد جاء دارون والجيولوجيون فأثبتوا لنا أن الإنسان شيء تافه أيضًا من حيث الزمان، فإن عمر الأرض يمتد إلى مئات الملايين من السنين، فما قيمة مائة أو حتى مئات من الأعوام يعيشها الإنسان؟ تلك هي قيمة الإنسان من حيث المكان والزمان في نظر الماديين.

- **الإنسان في نظر المؤمنين:**

أما الإنسان في نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله ﷻ، خلقه في أحسن تقويم، وصوَّره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفته في الأرض، ومحور النشاط في الكون، وسخر كل ما في الكون له ولخدمته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، أما هو فجعله تعالى لنفسه.

يقول الله ﷻ في حديثه القدسي: "ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقتُ كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له. ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتني فاتك كل شيء، وأنا أَحَبُّ إليك من كل شيء"[1].

حقًّا إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير، وهل الإنسان في الحقيقة إلا ذلك الروح، وذلك الكيان المعنوي؟ ولله دَرُّ القائل:

دَوَاؤكَ فِيكَ وما تُبْصِر
وداؤكَ مِنكَ وما تَشْعُر!
وتَزعُمُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغيرٌ
وفِيكَ انطَوَى العالَمُ الأكبرُ!

حقًّا إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذَرَّة[2] في صحراء الأزمنة الجيولوجيَّة[3] البعيدة الضاربة في أغوار القدم - إن صحَّ ما قالوا - ولكن المؤمنين يؤمنون أن الموت ليس نهاية الإنسان، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له، إلى دار الخلود.. إلى الجنة.. إلى حيث يُقال للمؤمنين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الزمر)®.

١. فيض القدير، المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج٢، ص٣٨٧.
٢. الذَّرَّة: أصغر جزء في عنصر ما يصحُّ أن يدخل في التفاعلات الكيميائية والتي تؤلِّف الأجسام المركَّبة، وتتكوَّن من نواة تحتوي على: النيترون والبروتون، ومن الإلكترون الذي يدور حول النواة.
٣. الأزمنة أو العصور الجيولوجية: هي الفترة الزمنية التي تشمل التشكيل الفيزيائي أو المادي للأرض وتطورها، خاصة في الفترة التي سبقت تاريخ البشر.
® في **"تكريم الإنسان في الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

خامسًا. إيمان المؤمن قائم على أدلة مركوزة في فطرته وفي الكون من حوله، وليس مرضًا نفسيًّا:

لقد صَوّر مثيرو هذه الشبهة الإنسان المسلم الذي يؤمن بربه ﷻ ويقيم شعائر دينه، أنه إنسان تائه حيران يتخبط في حياته، ولا ينطلق في إيمانه إلا من أمرٍ اصطلحوا على تسميته "لوثة الإيمان"، غافلين ـ أو متغافلين ـ عن حقيقة لا ينكرها إلا جاحد متعصب، مؤداها أن إيمان المؤمن بربه قائم على أدلة مركوزة في فطرته ـ إن سلمت من الآفات ـ، وفي الكون من حوله، وليس ثمة أي وجود لما ادَّعوه من مرض نفسي يساور المؤمن، وفيما يأتي تفصيل لهذه الحقيقة:

دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها[1]:

١. ارتياد الكون عبر آيات القرآن:

يأخذنا القرآن في جولات وجولات، نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض، ويقف بنا عند زهرات الحقول، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها، وهو في كل ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا، فيرينا كيف تعمل قدرة الله تبارك وتعالى وتقديره في المخلوقات، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق، والإيجاد والإنشاء، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا.

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها، وهو حديث شائق تَنْصِت إليه النفس، ويلتذُّ به السمع، ويستثير المشاعر والأحاسيس، وإذا طالعتَ الكثير مما توصَّل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة وهم يبينون أسرار الخلق، ودلالة الخلق على الخالق، فلن تجد في شيء من ذلك كله ما يُوجَد في القرآن من جمال وصف، ووفرة علم، واستثارة مشاعر، وحسن توجيه، ودقة استنتاج، وكيف لا يكون كذلك، وهو تنزيل الحكيم الحميد!

٢. فعل الله في الكون:

تعال معنا لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية نرتاد هذا الكون؛ ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجائه؛ فالحبة تُلْقَى في التربة فتنفلق وتضرب بجذورها فيها، فيخرج من هذه الحبة الجامدة حياة تتمثل في سوق وأوراق وارفة وأزهار تفوح بالشذى، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان. كذلك في الإصباح وهو ينبلج، وفي سكون الليل، ومسير الشمس والقمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام).

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله، والبَرَد كيف يكوِّنه ويصرِّفه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ (النور)، ويحدثنا الله عن فعله في الظلِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ

---

١. العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١١٠ وما بعدها.

قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ (الفرقان). وانظر إلى تصريفه شئون الحياة والأحياء، والليل والنهار: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ (آل عمران).

٣. التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيل حثَّ عليه القرآن:

حثَّ القرآن عباد الله على النظر في آياته الكونية: الأرض والسماء، وما فيها وما بينهما، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين، وقد أطلق بعض المعاصرين على هذا المنهج مصطلح "قانون السير والنظر"؛ لكثرة حثِّ الآيات القرآنية على ذلك، وقد يكون السير والنظر حِسِّيَّيْن، فيسير المرء بقدميه وينتقل من بلد لآخر، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكون بالفكر والعقل، وقد جاء الأمر في القرآن أمرًا عامًّا، قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس: ١٠١)، وقد يأتي أمرًا خاصًّا، فيقول ﷻ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ (الطارق)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ (عبس).

العلوم الحديثة في غيبة الإيمان تقطع الصلة بين الناس والكون:

يقول سيد قطب: إن مناهج البحث التي يسمونها "علمية" في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكونِ الذي يعيشون فيه، فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير، وكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك، أو خاصة من خواصِّ النبات والحيوان، أو خواص الكون على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة - إذا كانت هناك عوالم جامدة - أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود! - كل معرفة علمية يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء، وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علم زائف، أو بحث عقيم.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يُقرأ بكل لغة، ويُدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كلٌّ يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زادًا من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ (ق).

ولكن العلم الحديث قد يطمس هذه التبصرة، أو يقطع الصلة بين القلب البشري والكون الناطق المبين؛ إذا كان في رءوس مطموسة رانت عليها خرافة المنهج العلمي، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه.

و"المنهج الإيماني" لا ينقص شيئًا من ثمار "المنهج العلمي" في إدراك الحقائق المفردة، لكنه يزيد ربط هذه

الحقائق المفردة بعضها ببعض، وردها إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها؛ أي: وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرّها الجميل، والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات؛ ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها بهذا الرباط الوثيق[1].

دلالة الخلق على صفات الخالق:

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع وبديعة التكوين، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه، فلا بد أن ندرك بلا تفكير كثير أن صانعها يتصف بصفة الحياة والعلم، ولديه قدرة وإرادة.. إلى آخر تلك الصفات التي تنبئنا عنها الآلة. وهذا الكون يخبرنا بكثير من صفات الخالق؛ فمن ذلك: قدرته، وعلمه: إن هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع السائر وفق نظام دقيق - لا بد أن يكون صانعه قديرًا عليمًا، والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل، وهذا النظام الكامل ليعرفنا بقدرته وعلمه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق)، ولا بد أن يكون العلم الذي يتصف به خالق هذا الكون شاملًا كاملًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام).

سادسًا. الإسلام دين التسامح والرحمة، والتعصب والعنف من دأب أعداء الإسلام[2]:

إن الدين الإسلامي دين تسامح وتعايش سلمي مع كافة البشر أفرادًا وجماعات، وينظر الدين الإسلامي للإنسان على أنه مخلوق مكرَّم، دون النظر إلى دينه أو لونه أو جنسه، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء).

ووضع الإسلام دستور العلاقة بين المسلم، وغيره في المجتمع الواحد: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة). في هذه الآية يأمرنا الله بالإحسان إلى غير المسلمين، وعدم إيذائهم من خلال قوله تعالى: ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾، والبر: جماع الخير، وكأن الله تعالى يأمرنا ويندب لنا التعاون مع غير المسلمين في كافة سبل الخير.

ولا يخفى على كل من عرف الإسلام مدى اهتمامه بالسلام العالمي؛ حيث جعله دعامته الأولى، بل إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الحشر)، وجعله

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٣٦٠.

٢. البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، المقطم للنشر والتوزيع، مصر، د. ت، ص٨٢ وما بعدها.

تحيته إلى عباده، وأمرهم بأن يجعلوا السلام تحيتهم، يلقيها بعضهم على بعض، وشعارهم في جميع مجالات الحياة، في المسجد والمعهد والمصنع والمتجر. وسميت الجنة دار السلام، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾ (الأنعام). والآيات التي ورد فيها ذكر السلام كثيرة، من هنا كان السلام شعار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها منذ ظهور الإسلام حتى الآن، وهو شعار يُلقيه المسلم على غيره كلما لقيه، وكلما انصرف عنه، فيقول له: "السلام عليكم".

وهذا السلام والأمن لم يكن مقصورًا على المسلمين فحسب، بل يعتقد المسلمون دائمًا أن الإنسان ـ مهما كان معتقده ـ له الحق في العيش في أمان وسلام داخل وطن المسلمين، فإن حماية الآخر من الظلم الداخلي أمر يوجبه الإسلام، ويحذِّر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذِّمَّة[1] بأذى أو عدوان، فالله تبارك وتعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم، بل يعاجلهم بعذابه في الدنيا أو يؤخر لهم العقاب مضاعفًا في الآخرة.

وقد تكاثرت الآيات والأحاديث الواردة في تحريم الظلم وتقبيحه، وبيان آثاره الوخيمة في الآخرة والأولى، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة. ومن ذلك قول الرسول ﷺ: "من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ، فأنا حَجِيجه يوم القيامة"[2].

وحثَّ الإسلام على السلم والأمن؛ لما لهما من تأثير بالغ الأهمية على استقرار حياة البشر، وتقدمها في جميع المجالات، ولكي نعلم مدى تأثير السلم والأمن على التقدم بالنسبة للشعوب، فعلينا أن نلقي نظرة على الآثار المدمرة للحروب على الشعوب وتقدمها ورقيها، فكما يقال: الضدُّ يُظهر حُسنه الضدُّ، وبينما نرى أن أول مقومات الرقي والتقدم للأمة هي صلاحية أفراد المجتمع صحيًّا وبدنيًّا لأداء وظائفهم، نجد أن للحروب والعقوبات الاقتصادية آثارًا وخيمة على صحة الأمم وعافيتها.

إن التسامح مع المخالفين في الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتم لهم به النصر والغلبة ـ أمرٌ لم يُعهد في تاريخ الديانات، وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم، يقول العلامة الفرنسي جوستاف لوبون: "رأينا من آي القرآن أن مسامحة محمد ﷺ لليهودية والنصرانية كانت عظيمة للغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله؛ كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص.

وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابين، أو المؤمنين القليلين الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، يقول ـ على سبيل المثال ـ روبرتس في كتابه "تاريخ شارلكن": "إن المسلمين وحدهم الذين

١. أهل الذِّمَّة: المعاهَدون من النصارى واليهود، ممن يقيمون في دار الإسلام، وسُمُّوا بذلك لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحُسام نشرًا لدينهم[1]، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية".

فنحن مثلًا نعرف عن المسيحية أنها تدعو إلى المحبَّة، وأنها اضطُهِدت وعُذِّبت في وقت ضعفها، فهل نحسب ما قامت به الكنيسة الإسبانية من قَمْع وتعذيب للمسلمين واليهود من تعاليم المسيحية؟! حيث صبَّت جام غضبها على اليهود والمسلمين معًا، وخصوصًا اليهود؛ فحكمت بطرد كل يهودي لا يقبل المعمودية، وأباحت له أن يبيع من العقار والمنقول ما يشاء، بشرط ألَّا يأخذ معه ذهبًا ولا فضة، وإنما يأخذ الأثمان عروضًا وحوالات. وهكذا خرج اليهود من إسبانيا تاركين أملاكهم لينجوا بأرواحهم، وربما اغتالهم الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وحكمت الكنيسة كذلك سنة ١٠٥٢م على المسلمين بطردهم من إشبيلية وما حولها، إذا لم يقبلوا المَعْمُوديَّة[2] بشرط ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل. ولا نحب أن نحسب الحملات الصليبية من تعاليم المسيحية، ونحاول أن نفرِّق بين الديانة المسيحية، وبين ممارسة بعض المسيحيين المرجفين والإرهابيين، فإن القرن العشرين بتجاربه الانقلابية ـ على ما فيها من وحشية كالانقلاب الشيوعي والنازي ـ يعجز أمام فظائع الحروب الصليبية التي كانت تقترفها ضد المسيحيين أنفسهم، فبعضها كان يحرث الأرض بأجساد ضحاياها من المارقين كطريقة لتسميد الأرض!

ويذكر فيدهام أن هذه الحروب كانت مليئة بالفظائع؛ لأن رجال اللَّاهوت[3] الطيبين كانوا مستعدين دائمًا أن يضعوا الزيت على النار، وأن يحيوا وحشية الجنود عندما يساورهم أي تردد أو ضعف، فقد يكون الجنود قساة، ولكنهم كانوا يميلون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجال اللاهوت فاعتبروا الاعتدال والرحمة نوعًا من الخيانة!

يقول الشيخ محمد عبده عن محاكم التفتيش: لقد اشتدت وطأة هذه المحكمة حتى قال أهل ذلك العهد: يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيًّا ويموت على فراشه! ويقول: لقد حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١م حتى سنة ١٨٥٨م على ٣٤٠٠٠ نسمة منهم ٢٠٠٠٠ أُحْرقوا أحياء.

كل هذا وليس ببعيد عنَّا عدد القرى التي دُمِّرت بالكامل في أفغانستان لمعاقبة شخص واحد، وكذلك ما زالت الحرائق في بغداد مشتعلة لمعاقبة شخص واحد؛ لأنه يمتلك أسلحة دمار شامل ليس لها وجود إلا في الأكاذيب المقصودة، والإرهاب الواضح الصريح الذي يقوم به الكيان الصهيوني لا يمكن أن نحسبه على تعاليم الدين اليهودي، فالأديان جاءت لرحمة الناس، ولنشر العدل والسماحة بينهم.

---

١. مع التحفُّظ على ما في قوله: "مع امتشاقهم الحُسام نشرًا لدينهم" من إطلاق.

٢. المَعْمُوديَّة: آية التَّنصِير عند النصارى، وهي أن يُغسل الطفل أو البالغ بالماء مع تلاوة القِسِّيس لفقرات معينة من الإنجيل.

٣. اللاهوت: علم يبحث في العقائد المتعلقة بالله تعالى؛ كوجوده وذاته وصفاته، والإيمان بالنصوص المقدسة وسلطان الكنسية، ويقوم عند المسيحيين مقام علم الكلام عند المسلمين.

وهذا ليس معناه ألا نستنكر ما يحدث من تخريب وإرجاف في بلادنا الآمنة، فهذا فساد العقول وخراب القلوب والكِبْر، يقول الله ﷻ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣)، بل إن هؤلاء يكاد ينطبق عليهم قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ (البقرة).

ونخلص مما سبق إلى أن إيمان المسلم لا علاقة له بما ادَّعاه هؤلاء من مرض نفسيٍّ، وإن المرء ليعجب من هؤلاء الذين قلبوا الحقيقة وزيفوها، فجعلوا هذا المرض النفسي نتيجة مترتبة على تمسك المرء بإيمانه بخالقه، وهو في الحقيقة نتيجة لانعدام الإيمان من قلب الكافر الجاحد، وإلا فأي الرجلين أحقُّ بأن يوصف بأنه صاحب مرض نفسي، وصاحب حياة لا تستقر على حال: المؤمن بربه وخالِقِه، أم الكافر الجاحد الذي يعيش تائهًا حيران[®]؟!

الخلاصة:

- الإيمان ضرورة تحتِّمها الحياة النفسية لبني البشر؛ لأن الإنسان مفطور عليه، والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ إذ تكون الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى، لا للأفضل ولا للأتقى، مجتمع تعاسة وشقاء، وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم، مجتمع تافه رخيص؛ لأن شهوات أهله لا تتجاوز البطن والفرج فهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴿١٢﴾﴾ (محمد).
- الإيمان الذي نعنيه هو عقيدة الإسلام التي تحلُّ لغز الوجود، وتزيل الحيرة والاضطراب، وهو يجعل المؤمن على بصيرة من أمره في هذا الكون والوجود.
- إن الإيمان رفع من شأن الإنسان وكرَّمه، وخلقه الله في أحسن تقويم، وصوَّره فأحسن صورته، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفته في أرضه ومحور النشاط في الكون، وسخر له كل شيء، بينما الإلحاد حطَّ من قدره وجعله كأسفل البهائم، فهو قبضة من تراب الأرض، منها نشأ، وعلى ظهرها يمشي، وإليها يعود، وما العقل والتفكير إلا مادة يقررها المخ كباقي المواد في جسم الإنسان.
- إن إيمان المؤمن قائم على أدلة مركوزة في فطرته وفي الكون من حوله، فهو أمر يقيني لا شك فيه، وليس مرضًا نفسيًّا، بل سلوكًا قويًا مُتَّزنًا، والتأمل في الآيات الكونية يدل على أن لها خالقًا ومبدعًا، والمتصفح لآيات القرآن يلمس هذا صريحًا وواضحًا، كما أنه يلمس فعل الله في الكون، بَيْد أن ما يسمونه اليوم من مناهج علمية تقطع الوشائج بين العبد وخالقه وبما يروجه هؤلاء الطغاة.
- الإيمان يحقق السكينة في النفس، والسعادة في الحياة، وهو وإن كان أمرًا معنويًّا لا يُحَسُّ، غير أنه يبعث السكينة، ورحم الله ابن القيم حين قال: في القلب

® في **"تسامح الإسلام مع أهل العقائد الأخرى"** طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

شعث لا يلمه إلَّا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلَّا السرور بمعرفة الله ﷻ.

- الإسلام دين التسامح والرحمة، وإنما التعصب والعنف من دأب أعداء الإسلام، وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة، وقد أقرَّ بذلك المنصفون من غير المسلمين.

الشبهة الثانية

الزعم أن التدين سببه خوف الإنسان من التقلبات الطبيعية وفَقْر الحال (*)

مضمون الشبهة:

يُخطئ بعض المغالطين في توصيف مفهوم التدين، ويزعمون أنه ظاهرة ناتجة عن خوف الإنسان من تقلبات الطبيعة، ومن كوارثها، وأنه يرتبط بفقر الحال والانغلاق الفكري والفراغ الاجتماعي؛ لذلك تجد أكثر المتدينين من الفقراء والمنكوبين والمضطرين والمنغلقين وذوي الحاجات والمرض، كما يظنون أن هذه الظاهرة ـ التدين ـ سرعان ما تزول بزوال سببها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) التدين ليس شيئًا عارضًا على النفس البشرية، أو مرتبطًا بطارئ يزول بزواله، بل هو ضارب بجذوره في أعماق النفس البشرية؛ لأنه الفطرة السوية التي فطر الله ﷻ الناس عليها!

٢) الظواهر الطبيعية خَلْق من خلق الله، والعلم بخلق الله يهدي للإيمان به، ويقود للتدليل على وجوده وطلاقة قدرته.

٣) ثمرة الإيمان بالله في حياة الإنسان تظهر في سكينة نفسه، وغذاء روحه.

٤) ليس ثمَّة أدنى ارتباط بين التدين وبين ما اصطلحوا على تسميته بـ "فَقْر الحال" و "الانغلاق الفكري" و "الفراغ الاجتماعي". وإن هناك ظواهر مستقاة من التاريخ والعقل والواقع المعيشي تؤكِّد ذلك.

التفصيل:

أولا. أصالة التدين في النفس الإنسانية:

لقد ثبت أن التدين لا تخلو منه أمة من الأمم في جميع أطوارها، سواء في انحطاطها أو تقدمها، أو خوفها أو أمنها، مما يدلُّ على أن التدين ليس شيئًا عارضًا على النفس مرتبطًا بحالة طارئة يزول بزوالها، بل هو ضارب بجذوره في أعماق النفس البشرية، وقد أوحى الله ﷻ إلى الأنبياء أن فطرة الناس السويَّة هي التي تسير إلى التدين سيرًا مستقيمًا.

والفطرة السليمة تقرُّ بوجود الله ﷻ من غير دليل، وتوحّده بدافع فطري فيها، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم)، إلا أن الانحراف بهذه الفطرة وصل اليوم بالبشرية إلى أدنى الدرجات، ومن أجل ذلك، لا بد للإنسان أن يراجع نفسه حتى يجدها،

(*) من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م. الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت. الدين، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ.

فإن كانت في دروب الضلال، فعليه العودة، وإن كانت في دروب الصواب فعليه العزيمة.

الإسلام موافق لفطرة الإنسان:

الفطرة: ما فطر الله ﷻ عليه الخلق من المعرفة به، وقيل: الخلقة التي خُلِقَ عليها المولود في بطن أمه، وبه فُسِّر قوله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠)، وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء"[1]؟

والإسلام عَلَمٌ على هذا الدين الذي أتى به محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٨٥). والدين يشتمل على عقائد وتشريعات عملية، فهل الفطرة هي مجموع ما يشتمل عليه الدين أو بعضه؟

ذهب جَمْع من المفسرين إلى قصر الفطرة على عقيدة الإسلام، وهي التوحيد، وذهب آخرون إلى أن الفطرة مراد بها مجموع شريعة الإسلام، قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي مهيئة لأن يعرف بها الله تبارك وتعالى، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه، وقال صاحب "الكشاف": والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام.

ومن هذا نعلم أن مراد الله ﷻ في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم)، هو دين الإسلام بمجموعه في اعتقاده وتشريعاته، وأن هذا الدين هو الفطرة. هذا والفطرة ما فطر الله تعالى عليه الإنسان ظاهرًا أو باطنًا، فمشي الإنسان على رجليه فطرة ظاهرية جسدية، ومحاولة مشيه على يديه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها فطرة باطنية ـ عقلية ـ، ومحاولة استنتاج الشيء من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، والجزم بأن ما نشاهده من الأشياء هو حقائق ثابتة في نفس الأمر فطرة عقلية، وإنكار قوم ثبوت ذلك خلاف الفطرة العقلية، فوصف الإسلام بأنه الفطرة لا يقصد به أنه الفطرة الظاهرية الجسدية؛ لأن الإسلام عقائد وتشريعات، وكلها مدرَكة بالعقل، وإنما المقصود أنه الفطرة الباطنية العقلية.

وعليه فيتعين أن المراد بالفطرة الموصوف بها الدين هي الفطرة الإنسانية، أي الانفعالات الحاصلة لنفوس البشر في حالة سلامة النفوس من التعاليم الباطلة والعادات السيئة، وهي أساس النظم التي أقيمت عليها الحضارة الأولى في البشر من توخِّي الصلاح، ودرء الفساد، وإصابة الحق، سواء أكان حصولها بالإلهام المودَع في الخِلْقة المشار إليها في مثل قوله ﷻ: ﴿قَالَ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى "كل مولود يولد على الفطرة"، وحكم موت أطفال الكفار (٦٩٢٦).

يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾ (المائدة: ٣١)، أم كان حصولها بواسطة تلقين الوحي الإلهي.

ومما نودُّ التنبيه إليه أن وصف الإسلام بالفطرة ليس معناه أن تعاليم الإسلام لا تشتمل إلا على ما هو بالفطرة، أو ما تشهد الفطرة بصدقه، بل المقصود أن الأصول التي جاء بها الإسلام لا تتعارض مع الفطرة، وتتبعها تفريعات هي من المقبولة لدى الفطرة، فالعادات الصالحة الموروثة في البشر مثلًا هي من المقبولة لدى الفطرة وليست من الفطرة.

ومعنى وصْف الإسلام في الآية الكريمة بالفطرة أنه جارٍ على ما فُطِرَ عليه البشر عقلًا، فهذا هو المقصود بالفطرة، فلأجل تلبسه بدلائل الفطرة أطلق عليه لفظ الفطرة كأنه هو الفطرة نفسها، كما يقال فلان عَدْل، والحكمة في جعل دين الإسلام الفطرة أنه لما أراد الله تعالى أن يجعله عامًّا لكل البشر، ناسب أن يجعله سائغًا لنفوسهم جميعًا، لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم، وهو وصف الفطرة؛ لأن شعوب البشر - وهم على ما نعلم - مختلفون في العادات، وفي الأخلاق، وفي التعاليم، ولا يمكن جمعهم عمليًّا في جامعة واحدة ما لم يكن عمودها وقاعدتها شيئًا مرتكزًا في سائر النفوس، وقدرًا مشتركًا بينهم لا يتخلف ولا يختلف.

ومنه نعلم أن وصف الفطرة للدين مما اختُصَّ به الإسلام، فلم يوصف دين من الأديان السالفة بأنه الفطرة، كما لم يوصف أحدها بأنه عام، ولا بأنه دائم. ومن قضايا الفطرة ما هو بديهي، أي واضح لأدنى عقل سليم، ومنها ما هو خفي عن المدركات، ومنها ما تضاءل في النفوس لما غشيها من سلطان الأهواء النفسية والعادات الذميمة.

ومن هنا كانت الفطرة محتاجة إلى تنبيه، ولا يكون ذلك إلا من معصوم عن الخطأ في تعريف قضاياها، ومواقع دلالتها، وهو التنبيه المتلقَّى من الوحي الإلهي ليعصم الفطرة من الميل عن سواء السبيل.

ففي قوله ﷻ: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ٣٠) تنبيهٌ للعلماء في فهم الشريعة والتَّفقُّه فيها، وفي تنفيذها وسياسة الأمة بها، فعليهم أن يسايروا هذا الوصف الجامع، ويجعلوه رائدهم في إجراء الأحكام[®].

طريقة القرآن في هداية النفس البشرية وردَّها عن شتى الضلالات:

يشير الأستاذ محمد قطب إلى ذلك بقوله: إذا تدبرنا القرآن الكريم - وبخاصة الآيات التي تتناول موضوع العقيدة - نجد أنه يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة، وتصحيح الانحرافات التي يقع فيها الناس حين تستولي عليهم الجاهلية، وتبعدهم عن الهدي الرباني، ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها في النفس، من هذه الوسائل:

١. إثارة الوجدان لتدبر آيات الله في الكون، وإزالة التبلد الذي يقع في حس الإنسان من المشاهدة المكررة، وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة،

® في **"فطرية النزعة الدينية في الإنسان"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة. وفي "الحاجة الفطرية إلى الإيمان" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى؛ من هذا الجزء.

ودقته المعجزة، وظاهرة الموت والحياة، وإجراء الرزق، وإجراء الأحداث، وقدرة الله التي لا تحدُّ، وعلم الله الشامل للغيب، كل ذلك بطريقة فذَّة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها، كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة، فينفعل بها وجدانه، ويستيقظ لحقيقة الألوهية.

٢. إثارة العقل ليتفكر في خلق الله ويدرك أن هذا الكون خالقًا، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك في الخلق، ولا في الرزق، ولا في تدبير الأمر، وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان والانفعال، هو طريق التفكير والتدبر المنطقي. وإن كان يلاحظ أن الطريقتين كثيرًا ما تقترنان معًا في آيات كثيرة من آيات القرآن، فيخاطَب الوجدان ويخاطَب العقل في آن واحد.

٣. مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور في داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى الله ﷻ ونسيان الشركاء، ومن الغفلة والنسيان والبغي في الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة، ونجاته من الخطر. وهي حقيقة كثيرًا ما ينساها الإنسان فيذكِّره القرآن بها؛ ليصحح سلوكه تجاه الله، ويستقيم على العقيدة السليمة.

٤. مناقشة الانحرافات التي يقع فيها الجاهلون تارة بالدليل العقلي وتارة بالدليل الوجداني، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها على أي أساس صحيح. ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيرًا ما يقترن الدليل العقلي بالدليل الوجداني في مناقشة الانحرافات.

٥. التذكير الدائم بقدرة الله التي لا تُحد، وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

٦. التذكير بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه، ثم يحاسبه يوم القيامة على ما عمل من خير أو شر، وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شيء حتى السرَّ وما هو أخفى من السرِّ.

٧. التذكير الدائم بالله ﷻ في حالتي السرَّاء والضرَّاء، ففي السراء ينبغي على الإنسان أن يذكر الوهاب المنعم فيشكره. وفي الضراء يصبر لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضرَّ.

٨. إيراد القصص التي تثبت الإيمان، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى، ونصر الله لهم في النهاية، والكفار وعنادهم، وتدمير الله لهم في النهاية.

رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينالهم من جزاء، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما ينالهم من عقاب[1].

هذه بعض طرق الإسلام في توضيح العقيدة وتصحيح انحرافاتها؛ إذ العقيدة هي الأصل والأساس الذي تُبنى عليه الشريعة، ومن ثَمَّ فلها مجموعة من الأصول التي تعتمد عليها، أولها الإيمان بالله، وهذا الإيمان يستوجب الاعتراف بوجود الله ﷻ بناء على مجموعة من الأدلة النقلية وغيرها، يسوقها إلينا د. شوكت عليّان، مذكِّرًا بأن الأدلة على وجوده ﷻ والتي تدعو إلى الإيمان به كثيرة؛ منها:

١. **الدليل النقلي:**

لقد ورد في القرآن الكريم كثير من النصوص التي تتحدث عن الله تعالى، وعن وجوده، وعن وحدانيته،

---

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٠ وما بعدها.

وعن صفاته تعالى، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنعام). وقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأنعام). وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص). وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران)، أي: أن في ذلك لدلائل واضحة على وجود الصانع، ووحدانيته، وكمال علمه وقدرته.

ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية تبين أن مناط الاستدلال هو التغير، فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها، أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها.

٢. الدليل العقلي:

إن أكبر دليل على وجود الله تعالى هو مخلوقاته، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا إلى الإيمان بأنه لا ريب أن لهذا الكون إلهًا واحدًا.

إن وجود الكون، وهذا النظام العجيب الذي اشتمل عليه، وأسراره الدقيقة - لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه من صنعة خالق لا حدود لقدرته، فالعالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث، ومحدث هذا الكون الله ﷻ.

ذلك لأننا إذا آمنا بوجود هذا الكون فلا بد أن نؤمن بإله لهذا الكون، إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق، ونرفض وجود خالقه؟! ونحن لا نعلم شيئًا جاء إلى الوجود من العدم، دون أن يخلق فكيف بنا نؤمن بأن كونًا عظيمًا مثل كوننا جاء إلى الوجود ذاتيًّا دون خالق؟!

٣. دليل العناية:

وهذا يظهر في العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، فجميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، ثم إن هذه الموافقة ضرورة من قِبَل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، والموافقة تحصل باعتبار موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الزمان والمكان الذي هو فيه أيضًا، والحيوان

والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والنار والهواء، وما إلى ذلك، وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء الإنسان، وأعضاء الحيوان، أي كونها موافقة لحياته ووجوده.

ومن آيات الله في هذا المجال قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١)﴾ (الفرقان). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥)﴾ (النبأ). وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ (عبس). وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)﴾ (الغاشية).

٤. دليل الاختراع:

وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، كاختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقلية، ويدخل فيه وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات؛ وذلك أن هذه الموجودات مخترعة، فإنا نرى أجسامًا جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعًا أن هناك مُوجِدًا لهذه الحياة، وهو الله تعالى، وأما السماوات فنعلم من قبل حركتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما هاهنا ومسخَّرة لنا، والمسخَّر المأمور مخترَع من قبل غيره ضرورة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٣).

إن كل مخترَع له مخترِع، فعلى من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥)، وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾ (الطارق).

إن التفسير الحقيقي لهذا النظام هو أن نؤمن بقدرة خارقة وقوة جبارة، وعظمة إلهية بسطت يديها فسيَّرت الكون على هذا النحو العجيب، فالنظام، والقصد، والانسجام، والحكمة الظاهرة في الطبيعة ومظاهرها المختلفة المتنوعة طرق ظاهرة لإثبات وجود الله عز وجل.

هكذا، لم ينطلق الإنسان المسلم في تدينه من خوفه من التقلبات الطبيعية، ولكنه انطلق من استجابته لنداء الفطرة البشرية، ومن تصديقه للأدلة التي تثبت وجوده عز وجل وقدرته[1] ®.

---

١. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت عليَّان، دار الشوَّاف، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٣١ وما بعدها.

® في **"أدلة المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين على الألوهية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"دلالة الفطرة على وجود الله"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والعشرين؛ من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"بيان القرآن للأدلة العقلية على وجود الله وتدبيره للكون"** طالع: الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

ثانيًا. الظواهر الطبيعية من خلق الله، والعلم بها يهدي للإيمان به والتدليل عليه:

نجد في القرآن الكريم العديد من الآيات الكونية، نقرأ منها على سبيل المثال قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (النحل).

ففي هذه الآيات عَرْض لبعض آيات الله في الكون بطريقة تزيل عن الحسِّ تبلُّده إزاء المشهد المكرر، بأن يلفت هذا الإنسان صاحب الحس المتبلد إلى جوانب إما أنه نسيها، وإما أنه لم يلتفت إليها أصلًا. فحين يدركها أو يتذكرها تصبح المشاهد جديدة في حِسِّه، وينظر إليها برؤية جديدة غير التي كان يراها بها من قبل، فينفعل بها وجدانه، وتتحرك لها عواطفه.

فالإنسان ذو الحسِّ المتبلِّد قد يرى الماء النازل من السماء فلا يتذكر أن هذا المطر هو الذي يتحول إلى عيون وينابيع وآبار وأنهار يشرب منها. أو هو من الجانب الآخر قد يشرب الماء الذي يجده أمامه مُيَسَّرًا، وينسى أن هذا الماء لم يوجد في الأرض من تلقاء نفسه، بل أنزله الله في صورة مطر، وهو لا ينزل إلا بقدر، وبحسب القوانين والسنن التي أودعها الله عز وجل في الكون، فأجرى بها السحاب وأنزل منه الماء.

فالنص القرآني يوقظه إلى هاتين الحقيقتين في آن واحد: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ (النحل: ١٠)، كما يلفته أيضًا إلى الشجر النابت من هذا الماء، فلا يعد المطر النازل من السماء ظاهرة مكررة مألوفة منقطعة في حسه عن الله عز وجل الذي أنزله من السماء، إنما تصبح موصولة بقدرة الله، فتحيا في النفس وتؤثر فيها بربطها بالله المنعم الوهاب.

ويستمر السياق يعرض أنواعًا من النبات الذي أشارت إليه الآية السابقة، فيذكر الزرع بعمومه، والزيتون والنخيل والأعناب: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل: ١١).

وهذه الطريقة في ذكر بعض الأنواع بالتفصيل، والإشارة العامة إلى بقيتها تجعل الخيال يتحرك لتقصِّي ما لم يُذْكر بتفصيله، بعد تتبُّع المذكور منه بالفعل! وهكذا يشترك الخيال مع الوجدان في تصور المشهد، ويعطي له حيوية جديدة فلا يعود هو المشهد المكرر المألوف الذي تبلَّد عليه الحس!

ثم يشير السياق إلى الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وكلها مشاهد مألوفة مما يتبلد عليه الحس بالتكرار، ولكن السياق يذكر أمرًا جديدًا يغير وضعها

في النفس، ويجعلها كأنها تعرض لأول مرة، ذلك هو قوله ﷻ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ ﴾ (النحل: ١٢)، فالليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، لم تعد تلك الظواهرَ الكونية المعتادة التي ألفها الحس ففقدت دلالتها في النفس، إنما هي كائنات مسخَّرة بأمر الله، ولا شك أن هذا المعنى قد غيَّر صورتها تمامًا عن الصورة المعهودة التي تبدو فيها هذه الظواهر وهذه الأجرام السماوية كأنها قائمة بذاتها، مستقلة عن أي شيء بحركتها، كلا! إنها تقوم بعمل معين؛ تقوم بتكليف رباني كلفها الله إياه، وإذن فحركتها الدائبة ليست حركة آلية كما يتصورها الحس المتبلد، إنما هي حركة حية ذات غاية وهدف، وكل جزء من هذه الحركة في ليل أو نهار هو قيام بجزء من التكليف الذي يبلغ غايته يوم يغير الله نظام هذا الكون كله في اليوم الموعود. وذلك فضلًا عن التذكير بنعمة الله في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (النحل: ١٢)، والملحوظ أن جوَّ السورة كلها هو جو تذكير الإنسان بنعمة الله عليه، لكي يتحرك وجدانه لشكر أَنْعُمِ الله، بالتوجه إليه وحده دون سواه.

ثم يخطو السياق خطوة أخرى بلفت الحسّ إلى اختلاف الألوان فيما خلقه الله على ظهر الأرض من كائنات ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ ﴾ (النحل:١٣)، ونلحظ هنا كذلك نوعًا آخر من إثارة الخيال لتتبع المشهد، فالآية تقول: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ ﴾؛ وذلك أن "ما" بدون تخصيص شيء بعينه، نباتًا كان أو حيوانًا أو غيره، تجعل الخيال يتتبع كل ما ذرأ الله في الأرض من الأشياء مختلفة الألوان، فتصبح هذه الأشياء حية في الوجدان، وتتخذ صورة أخرى غير ما كانت عليه في عهد التبلد والنسيان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ ﴾ (النحل).

هل يمكن أن يمر الإنسان بالبحر بعد قراءة هذه الآية دون أن يتحرك وجدانه؟

إن البحر هنا كله حركة وحياة، مرتبط بحس الإنسان بصلات قوية، فمنه يستخرج اللحم الطري ليأكل، والحلية ليتزين بها، وفيه تمخر الفلك لتنقل البضائع والأرزاق، إنه ليس ماء وأمواجًا فحسب، إنه عالم كامل مليء بالحركة والنشاط، وكله من فضل الله، أفلا نشكر الله على فضله؟

ثم يذكر السياق من المشاهد الكونية: الجبال والأنهار، والطرق، والعلامات، والنجوم بالأسلوب نفسه الذي يلفت إليها الحس، ويحرك الخيال، ويذكّر في كل مرة بأنها نعمة من نعم الله على الإنسان.

وبعد هذا العرض الحي لتلك المشاهد، التي تخرج الحس من تبلده، يعود ﷻ فيستعرض الأشياء كأنها جديدة عليه، وينفعل بها ويتحرك معها ـ بعد هذا العرض كله يعقِّب بالحقيقة الكبرى التي يريد أن ينبِّه الإنسان إليها: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ (النحل: ١٧) ويجيء السؤال بعد إثارة الوجدان بآيات الله في الكون

على هذا النحو، فيتلقى إجابته من داخل النفس مؤكدة لا لبس فيها، لا يا رب! ليس الذي يخلق كالذي لا يخلق! سبحانك أنت الخلاق العظيم.

ويختم السياق بما يزيد الوجدان إثارة ويزيد النفس ارتباطًا بالله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (النحل).

ونخلص من هذا كله إلى أن الآيات الكونية والظواهر الطبيعية في الكون من حولنا ـ إنْ هي إلا عالَم من العوالم التي خلقها الله ﷻ، وإن كان ثمة علاقة بين هذا العالَم وبين ظاهرة التدين ـ فإن هذه العلاقة لا تتمثل ـ كما ادَّعى مَنْ أثار هذه الشبهة ـ في أن المتدين ـ أيّ متدين ـ يلتزم بتدينه لخالقه ورازقه ومدبر أمره؛ خوفًا منه من تقلبات الطبيعة وكوارثها؛ من زلازل وبراكين... إلخ، وإذا كان ذلك كذلك فَلِمَ لم يعبد هذه الظواهر الطبيعية، وتوجه بالعبادة إلى مسببها؟!

إن العلاقة بين تلك الظواهر وهذه الآيات وبين تديّن الإنسان تتمثل في أنها تمثل دليلًا قويًّا على وجوده تعالى، وقدرته، وتجعل الإنسان يقف في تدينه على أرض صُلبة، لا تهوِي به.

ثالثًا. أثر الإيمان في حياة الإنسان يظهر في سكينة نفسه وغذاء روحه:

"المؤمن يرى أن النجاة والفلاح لا يكونان إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، وهو على درجة كبيرة وقوة عظيمة من العزم، والإقدام، والصبر، والثبات، والتوكل، مع الشجاعة والجرأة؛ لأن الذي يوهن عزمه حبه للنفس، والمال، والأهل، واعتقاده بأن هناك غير الله من يستطيع تحقيق ضروراته، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة ما.

فالإيمان بالله تعالى يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفع، والقناعة، والاستغناء، ويطهِّر قلبه من الطمع، ومن كل الصفات الذميمة، ومن خاف الله تعالى حق الخوف وأحبه حق المحبة عظم قدره عنده ﷻ، فالخوف من لوازم الإيمان وموجباته. وإنما يقدر الإنسان ربه حق قدره بالعلم والمعرفة، وذلك حاصل من تلاوة كتابه الكريم، وفهمه له وتدبر آياته، ومعرفة أحكامه، وأغراضه، وكذا النظر في حديث رسول الله ﷺ ومعرفة ما أودع الله تعالى فيهما من الأسرار.

وفي الإيمان بالله تعالى ثبات واستقرار للنفس على طاعة الله وعبادته وحده، فالاستقامة تقتضي الصبر على طاعة الله تعالى، والدوام عليها دون انقطاع بدافع من كسل أو غرض، وتعني الانتهاء عن معاصي الله تعالى دون انقطاع بدافع من هوى أو غرض، والصبر على قضاء الله تعالى والرضا به على الدوام دون انقطاع بدافع من خوف أو جزع، فالاستقامة هي التي تدفع المؤمن ليجعل همَّه في الحياة واحدًا هو رضوان الله تعالى، فالأمر عنده سيان، رضي الناس عنه أم سخطوا، فيكفيه الله تعالى هَمَّ الدنيا والآخرة، ويجعل قلوب الصالحين تتجه إلى حبه.

والإيمان بالله يجعل الإنسان متقيدًا بقانونه ﷻ عليه، فهو إن خلا بنفسه ليلًا، أو نهارًا يعلم أن عليه رقيبًا يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة اقترفها، فتراه يسارع إلى التوبة، كما قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ

﴿يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ (آل عمران)، ويسارع كذلك إلى فعل الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فوازِعُه النفسي يحضه على الخير، وينهاه عن كل نقيصة ورذيلة[1].

وعليه يمكن ذكر جوهر الإيمان وآثاره في الآتي:

- الإيمان هو التصديق الثابت القوي بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وهو يثمر الأعمال الصالحة.
- يقوم إيمان المؤمن بالله على الأدلة القاطعة والبراهين القوية، والمؤمن متحرر من كل عبودية لغير الله، وهو يهتدي بهدي خالقه الحق الذي ينجيه من جحيم الاختلافات البشرية.
- يزيد الإيمان بالملائكة في خشية المؤمنين لله واحترامهم لمخلوقاته، كما يسكب الأنس في قلب المؤمن، وينبه فيه مشاعر الخوف من اقتراف المعاصي، والمسارعة في عمل الصالحات.
- من الجهالة عدم الانتفاع بإرشادات الصانع، كما أن من الجهالة الكبرى عدم الانتفاع بكتاب الخالق ﷻ الذي قد حُفِظَ من كل تبديل أو تحريف.
- أرسل الله الرسل ليعلِّموا الناس كيف يتبعون هدى الله ﷻ، وإذا قارنا بين نتائج دعوات الرسل ودعوات غيرهم، وجدنا الإصلاح النبوي شاملًا لكل جوانب الحياة، عميقًا ينبع من داخل النفس، ويقوم إيماننا بالرسل على الدليل والبرهان.
- المؤمن يعرف الحكمة من خلقه ودوره في الأرض والعمل الذي يرضي ربه، ويتجنب ما يغضب خالقه، وهو على علم بالمصير الذي ينتظره بعد موته، وهو عارف بخالقه وبرسوله الذي أرسله إليه، أما الكافر فتلفُّه دياجير الظلام والجهل بكل ما سبق.
- الإيمان باليوم الآخر يدفع إلى عمل الصالحات، وإلى التحلِّي بالأخلاق الفاضلة، وإخلاص العمل لوجه الله، فترى المؤمن مصدرًا لأعمال الخير والصلاح، والمجتمع الذي يؤلفه الأفراد المؤمنون هو أسعد المجتمعات وأفضلها وأتقاها.
- يبعث الإيمان بالقدر - في نفس المؤمن - الرضا، والراحة، والاطمئنان.
- الكفر هو التغطية للحق، والكافر لا يؤمن بخالقه، رغم ظهور آياته في الأرض والسماء، ولا يؤمن برسل ربه رغم ظهور حججهم، وبراهين صدقهم، وتراه عابدًا لإنسان، أو وثن، ومطيعًا لطاغية أو دجال دون دليل أو برهان.
- على الرغم من أن الكافر لم يخلق لنفسه نعمة من النعم، فهو يجحد فضل المنعم عليه، ويستعين بنعم خالقه على ارتكاب معاصيه؛ لذلك فهو يسبح في ظلمات من الجهل بالحكمة من خلقه ومصيره الذي ينتظره والعمل الذي ينجيه.
- تُعلِّم الحضارة الكافرة الناس كيف يعيشون فقط، ولكنها لا تدري لماذا يعيش الناس؟
- حياة الكافر كحياة سَبُعٍ ضارٍّ لا يعرف حلالًا أو حرامًا، همُّه تحقيق مصالحه ولذائذه قبل أن يدركه الموت، ولا يبالي أن يُهلك الحرث والنسل في سبيل تحقيق أهدافه، ومن هذه الصورة السيئة للإنسان يتكون

1. انظر: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت عليّان، مرجع سابق، ص١٣٤: ١٣٦.

المجتمع الكافر.

• يغمر القلق والاضطراب حياة الكافر، وتراه مقيدًا بسلاسل من العبودية لوهم، أو طاغية، أو دجّال، أو هوًى.

يجزي الله المؤمنين رضاه والجنة، ويعاقب الكافرين بغضبه والنار، أعاذنا الله من ذلك[1] ®.

رابعًا. ليس ثمَّة أدنى ترابط بين التدين و ما اصطلحوا على تسميته بـ "فقْر الحال" و "الانغلاق الفكري" و "الفراغ الاجتماعي":

ليس صعبًا على كلِّ ذي لُبٍّ أن يُدْرك أن مثيري هذه الشبهة قد ربطوا بين شيئين لا علاقة بينهما؛ وذلك حينما عقدوا علاقة بين ظاهرة تديُّن المرء، وبين ما اصطلحوا على تسميته بـ "فقر الحال" و "الانغلاق الفكري" و "الفراغ الاجتماعي"، ومن ثمَّ راحوا يرتبون على هذه العلاقة نتيجة مؤدَّاها أن أكثر المتدينين من الفقراء والمنكوبين والمنغلقين وذوي الحاجات والمرض.

وإن المرء ليعجب من جُرْأة هؤلاء الذين تَصَدَّوا لمسلَّمات العقل ورَموا بها عُرْض الحائط؛ وذلك أن هذه المسلَّمات تنصُّ على أنه لا سبيل لعقْد علاقة السبب بالمسبب بين شيئين لا رابط بينهما، ولا أدنى ملابسة.

لقد ادَّعى هؤلاء أن المتديِّن يصدر في تدينه عن رغبة منه في أن يرقى بمستواه الاجتماعي والاقتصادي والفكري، لا عن استجابة لما هو ضارب في أعماق نفسه البشرية من تديُّن لخالقه ورازقه. وقد رتبوا على ذلك نتيجة مؤداها أن هذا المتدين سرعان ما يترك تدينه ويُلْقي به جانبًا، وذلك حينما تتحول أحواله الاجتماعية والاقتصادية والفكرية إلى أضدادها.

وإن التاريخ والواقع المعيشين كليهما كفيل بأن يَرُدَّ هذا الادعاء ويدفعه دفعًا. وفيما نأتي نذكر مقتطفات من وقائع التاريخ والواقع المعيشي تؤكد ما نحن بصدده:

• فالتاريخ يخبرنا أن دينًا من الأديان التي أقامت حضارة من الحضارات العظيمة قبل الإسلام - لم يَخْلُ أبناؤه من ظاهرة التدين، فهل يعقل أن يوصف أبناء هذه الحضارة أو تلك بأنهم فقراء ومنغلقون فكريًّا وذوو فراغ اجتماعي.

إن تاريخ الإسلام - وهو الدين المَرْضِيّ عند الله تعالى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩) - من لَدُن بعثة النبي ﷺ منذ خمسة عشر قرنًا حتى وقتنا الحاضر - يشهد بأن ثمَّة أُناسًا يستحيل حصْر عددهم دخلوا الإسلام عن اقتناع كامل منهم بأنه الدين الحقُّ، وأن النجاة في اتباع تعاليمه، والتاريخ نفسه يشهد كذلك بأن كثيرًا من هؤلاء كانوا قبل اعتناق الإسلام من وجهاء بيئتهم وأثريائها، مما يجعل التدين لديهم ليس عن رغبة منهم في أن يرقوا بمستواهم الاجتماعي والاقتصادي والفكري.

وإن تاريخ الصحابة الكرام رضي الله عنهم الناصع كفيل بأن يؤكد ما نسعى إلى تأكيده وليس ببعيد عنا المكانة الاجتماعية التي كان عليها كبار الصحابة قبل إسلامهم، من أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

• فإذا ما أتينا إلى العصر الحديث وجدنا أن ثمة

---

[1]. توحيد الخالق والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد المجيد عزيز الزنداني، دار السلام، القاهرة، ط٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٨، ١٩.

® في "أثر الإيمان في تحقيق السكينة النفسية" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

أكثر من مستشرق دخل الإسلام رغبة فيه، وذلك حينما سلمت فطرته من الحقد والتعصب، فهل يصح أن يوسم هؤلاء بأنهم صاروا بعد تدينهم وإسلامهم فقراء وذوي انغلاق فكري وفراغ اجتماعي؟!

- إن تديُّن المرء يزيده عزة، ومكانته تكمن في أنه استجابة لنداء فطرته النقية التي سَلِمت من الأدواء والأَدْران.

- إن أدعياء التصوف في عصرنا الحديث الذين فهموا الزهد والتديُّن فهما خاطئًا، فتركوا أمور معاشهم ونسُوا نصيبهم من الدنيا، وزعموا أنهم زهَّاد متدينون، وقد اتخذوا من الثياب المتهرِّئة البالية ملبسًا وكساءً، فأصبحوا عالة على غيرهم، أقول: إن هؤلاء لا يعبرون عن الإسلام ولا عن التصوف الصحيح القائمة أصوله على هدي هذا الدين، وذلك أنهم ضلُّوا الطريق، فتواكلوا ولم يتوكلوا على رازقهم ﷻ، ولم يفهموا قول النبي ﷺ: "لو أنكم تتوكَّلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا"[1] فهمًا صحيحًا.

الخلاصة:

- إن التدين ليس شيئًا عارضًا على النفس، أو مرتبطًا بحالة طارئة يزول بزوالها، بل هو ضارب بجذوره في أعماق النفس البشرية، وقد أوحى الله ﷻ إلى الأنبياء أن فطرة الناس السوية هي التي تسير إلى التدين سيرًا سويًّا مستقيمًا.

- إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ﷻ ويدل على قدرته وعظمته، وعندما يقوم العلماء بتحليل ظواهر الكون، ودراستها، فإنهم يتلمسون فيها نعم الله، وعظمته وقدرته، فالعلم يدعو إلى الإيمان بالله وحده، والجهل يجعل الإنسان يتخبَّط في الظلمات، وكما قال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر).

- إن العلاقة بين التدين وبين الظواهر الطبيعية تتمثل في أنها تمثل دليلًا قويًّا على وجوده ﷻ وقدرته وتجعل الإنسان يقف في تدينه على أرض صلبة لا تهوي به، ولا تتمثل في أن المرء يتمسك بالتدين خوفًا من تقلبات الطبيعة وكوارثها.

- ثمرة الإيمان بالله ﷻ في حياة الإنسان تكمن في السكينة والسعادة وغذاء الروح، فالمؤمن ـ كما ذكر ابن قيم الجوزية ـ يرى النجاة والفلاح لا يكونان إلَّا بتزكية النفس والعمل الصالح، وهو على درجة كبيرة وقوة عظيمة من العزم والصبر والتوكل مع الشجاعة والجرأة، فالإيمان بالله ﷻ يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفع، والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من الطمع، ومن كل الصفات الذميمة، ومن خاف الله ﷻ حق الخوف وأحبه حق المحبة عَظُم قدره عند الله.

- ليس هناك علاقة تجمع بين التدين، وبين ما سمَّوه "فقر الحال" و "الانغلاق الفكري" و "الفراغ الاجتماعي"، وإن الأدلة على ذلك كثيرة منها: إخبار التاريخ أن شعوب الحضارات السابقة على الإسلام

---

[1]. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

لم يخل أبناؤها من التدين، وأن تاريخ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يؤكد على بلوغهم الغاية العظمى من المجد والإنسانية والثقافة التعاملية،ويؤكد ذلك دخول كثير من المستشرقين الإسلام في هذه الأيام عن رغبة واقتناع وذلك حينما سمت فطرتهم، كما أن التدين يزيد المرء عزة ومكانة، وذلك يكمن في استجابته لنداء فطرته.

الشبهة الثالثة

الزعم أن إيمان المسلمين موروث تقليدي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن إيمان المسلمين موروثٌ تقليدي خالٍ من العقيدة الراسخة، ومن ثم فهو سلوكٌ مزيف. ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في حقيقة إيمان المسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإيمان يعني التصديق، فكيف يكون تقليديًّا موروثًا وحقيقته تسليم وانقياد؟

٢) الأصل أن الإنسان مفطور على الإيمان، أما الكفر فهو طمس لهذه الفطرة، وعليه فإيمان المسلمين فطري لا موروث، وشتان ما بين الأمرين، وهذا ما تضافرت على إثباته الأدلة الفلسفية والشرعية الصحيحة، والعقلية الصريحة.

(*) العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق.

٣) أثر الإيمان في الحياة يبرهن على أن وراثة الحق خير من وراثة الباطل، وانظر إلى أوربا لـمَّا أخذت ببعض القيم الحياتية والأخلاقية كيف صلح حالها واستقام أمرها، ولمَّا تركت العمل بمجموعة هذه القيم انتكست شئونها وفسد نظامها الأخلاقي والروحي.

التفصيل:

أولا. الإيمان يعني التصديق وحقيقته تسليم وانقياد:

الإيمان لغة: التصديق الجازم، سواء تبع ذلك عمل أم لا، ومحله القلب. آمن به إيمانًا أي: وثق فيه وصدَّقه[1].

وهذا يعني أن المسلمين إذا قالوا: آمنا بالله ـ مثلًا ـ كان معنى قولهم:

"صدَّقنا بوجود الله وألوهيته، ووحدانيته"، وكذلك آمنا بالإسلام، أي: صدقنا كل ما جاء به الإسلام، ولم يَرِد عن العرب أن جعلوا الدليل شرطًا لصحة هذا التصديق، ونصوص الإسلام ـ القرآن والسنة ـ لا تُفْهم إلا وفق قواعد اللغة العربية. وصدق من قال: "ويُفْهم القرآن الكريم وفقًا لقواعد اللغة العربية من غير تكلُّف، أو تعسُّف". والتكلُّف: إضافة معنى للفظ لا يحتمله، ولم يذكره العرب، والتعسف: هو صرف اللفظ عن أحد معانيه.

الإيمان اصطلاحًا[2]: التصديق بالقلب، والإقرار

١. لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، مادة: أمن. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، مادة: أمن.

٢. الاصطلاح: ما تعارف عليه أهل الشرع من معنى أو تعريف لهذا اللفظ.

باللسان، وها هو رسول الله ﷺ يقول هذا المعنى حينما يُسئل عن الإيمان في حديث سيدنا جبريل عليه السلام المشهور حينما سأله عن الإيمان، فقال ﷺ: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره"[(١)].

أي تصدق بوجود الله، وتصدق أنه رب هذا الكون، أي: خالقه ومالكه ومدبر أمره، وتصدق بوجود الملائكة وتستحيي منهم وتقتدي بهم، وتصدق كذلك أن الله أنزل كتبًا مقدسة، وتصدق أيضًا بأنه أرسل رسلًا إلى الناس ليدلوهم عليه، وتصدق باليوم الآخر، أي: البعث والحساب، وتصدق أن القدر يسير بأمر الله، فلا تحزن لمكروه ولا تفرح بنعمة، بل تشكر الله عليها.

ويقول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال). والآية تتكلم عن الإيمان من الناحية العملية. ويقول ﷻ أيضًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجرات).

ويأتي الإيمان كذلك بمعنى الإسلام مصداقًا لقول النبي ﷺ مجيبًا السائل الذي سأل: فأي الإسلام أفضل؟ قال: "الإيمان..."[(٢)].

ويتضح لنا مما تقدم أن الدليل ليس شرطًا من شروط صحة الإيمان، وتلك رحمة امتن الله ﷻ بها على عباده، فربنا ﷻ يعلم أنه لن يكون بمقدور كل الناس استنباط أدلة على إيمانهم، فهذا الفلَّاح، وهذا العامل، وهذا من ليس له حظٌّ من العلم، لماذا يُحْرَمون من الإيمان؟ هل ترون أن الإسلام إن فعل ذلك يكون منصفًا؟ إن تلك الأصناف التي ذكرناها هي جموع الناس الغفيرة، والإسلام جاء لكل الناس: للغني والفقير، للعالم ولمن لم يتعلم، لمن يستطيع استنباط دليل ومَن لا يستطيع.

وصدق ربنا ﷻ إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء)، وإذا كانت طبيعة الإيمان وعدم اشتراط الدليل فيه رحمة من تلك الرحمات. فإن الواقع يثبت أدلة الإيمان، والشرع يحض عليها؛ لأن الدليل يزيد الإيمان ويعمِّقه؛ لذلك أمر الإسلام أتباعه أن يتفكروا في خلق السماوات والأرض وما فيها من أشياء، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ (الروم) (٤٤٩٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة (١٠٢)، وفي مواضع أخرى، واللفظ له.

٢. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، رواية الإمام عبد الرزاق، باب الإيمان والإسلام (٢٠١٠٧)، وأحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه (١٧٠٦٨)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد (١٧٠٦٨).

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ (ق)، بل إن الحق ﷻ تكفل بإبراز هذه الأدلة وسوق تلك البراهين للناس أجمعين، فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت).

والعقل يندهش حينما يرى كيفية سوق الله ﷻ الأدلة والبراهين على هذا الإيمان، كلٌّ على حسب عقله وثقافته، فكم جلسنا مع أناس بسطاء لا حظَّ لهم من علم أو ثقافة يذكرون لنا أدلة على إيمانهم، أدلة بسيطة لكن الإيمان بها عميق وراسخ، وكثيرًا ما نسمع على لسان هؤلاء كلمة "سبحان الله" إذا نزل مطر، أو هبَّ ريح، أو حدث أيُّ أمر من الأمور المعتادة.

إن الله يسوق الأدلة على الإيمان لكل الناس: العالم وغير العالم، الغني والفقير، القوي والضعيف، من يُعْمِل عقله ومن لا يعمله، إن ذلك من رحمة الله ﷻ بخلقه. إلهٌ ما أرحمه، وإيمانٌ ما أيسره وأعمقه!!

حقيقة الإيمان:

وحقيقة الإيمان هي التسليم والانقياد، فهؤلاء الذين يدَّعون أن إيمان المسلمين اليوم لا حقيقة له لأنه موروث، كان من الواجب عليهم أن يعلموا حقيقة الإيمان أولًا قبل حكمهم هذا الذي أطلقوه على المسلمين من بطلان إيمانهم. "فالإيمان هو الحيثية الجامعة للإنسان على أن يُسْلِم زمامه إلى من آمن به"، إذن الإيمان في الغيبيات وفي الاعتقادات[1].

والحيثية الجامعة: تعني الأهداف أو الغايات التي ترفع المسلم إلى إسلام زمامه لله ﷻ، وهي في جملتها إدراك صحة إيمانه هذا بإسلام أمره كله إلى الله تعالى، والمتتبع لحال المسلمين الآن يجد أكثرهم مُسلِّمين أمرهم لله تعالى إيمانًا وعقيدة، وإن خالفت بعض أعمالهم هذا، وهم بذلك لا يخرجون عن ربقة الإيمان، بل يحيدون عن بلوغ قمته؛ فمثلًا حينما نسمع النبي ﷺ يقول: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين"[2].

فهل معنى هذا أن يَخْرج من لا يصل حبه لرسول الله ﷺ لهذه الدرجة من ربقة الإيمان؟ كلا، بل الأمر - كما فسره علماؤنا - أن إيمانه لم يكتمل، وكماله مشروط بمحبة النبي ﷺ بهذه الدرجة من الحب. وحينما نسمع النبي ﷺ يقول في حديث آخر: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[3]. أو حتى يقول ما هو أشد من ذلك، وهو قوله ﷺ: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لايؤمن"، قيل: من يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه"[4]. فهل معنى الحديثين انتفاء الإيمان عَمَّن فعل ذلك؟ بالطبع كلا. بل إن الأمر

---

١. دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج١، ص٦٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين (١٧٨).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه (١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه من الخير (١٨٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥٦٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار (١٨١)، واللفظ للبخاري.

يتعلق بكمال الإيمان، لا وجوده أو عدم وجوده.

ثانيًا. الإنسان مفطور على الإيمان، أما الكفر فهو طمس لهذه الفطرة:

الإنسان هو الإنسان، له كينونته الخاصة التي خلقه الله عليها، لا تتبدل ولا تتغير، وقد غرسها المولى ﷻ في طبعه، ومن هذه الفطرة قضية التدين، وقد وضح د. محمد الزحيلي ذلك بقوله: إن التدين فطرة في الإنسان، وهو جزء من كيانه ووجوده، مثل بقية الغرائز التي تتكون منها النفس منذ خلقت البشرية، وحتى تقوم الساعة، كغريزة الجنس، وحب البقاء، والطعام، والشراب، وإن التخلي عن إحدى الغرائز شذوذ وانحراف بالفطرة والإنسان، وهذا الانحراف والشذوذ متوفر في بعض الناس لتأكيد صفة النقص، وأن الكمال لله وحده؛ والإنسان مجموع من الجسد ـ المخلوق من الطين ـ والروح، والله قد استخلفه في الأرض وطلب منه أن يتطلع إلى السماء، فإن ظهر الإلحاد أو الكفر أو الانحراف عن الدين، فهذا دليل على جنوح الإنسان إلى الأرض والشهوة، ودليل على بعده عن الروح والسماء، أي: هو تغليب لجانب على جانب في حياته، أو هو إعمال لشطر واحد في فطرته وإهمال للشطر الثاني.

جاء في معجم "لاروس" للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدُّها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية. وهذا معنى كلمة الفيلسوف اليوناني سقراط: "وكما يشعر الإنسان بحاجته الماسَّة إلى الهواء والماء والطعام، تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضًا إلى غذاء معنوي إلهي، وهذا الشعور هو في عُرْفنا الدِّين الذي اهتدى إليه أول إنسان".

ومن الثابت تاريخيًّا أن فكرة التدين لم تفارق البشرية، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة؛ لأنها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعًا، لذلك قال بعض العلماء: إن الحضارات المادية في التاريخ كان مبعثها الدين، وإن المجتمع الأوربي الحديث لم يتخل عن الدين، وإن شعار العَلْمانيَّة[1] الذي رفعته أوربا هو خداع وتضليل، وإن أوربا الحديثة، وأوربا المعاصرة، مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية، وهي مجتمعات ودول أخذت في الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية.

والبحث عن أمور الدين ـ وأهمها وجود الخالق ـ لم ينقطع لحظة في تاريخ البشرية، وقد يصل الباحث إلى الغاية المطلوبة والهدف الصحيح، وقد يضلُّ عن الطريق ويُشْغل ببعض الظواهر، ويتوقف عند بعض العقبات ليحط العقل البشري رحاله، ويتخذ عقيدة ضالَّة ودينًا ممزوجًا بالخرافات والأساطير، وهنا تسمو الديانات السماوية التي أنزلها الله تعالى وأوحاها إلى أنبيائه ورسله؛ لتبين للناس العقيدة القويمة والدين الحق، ويبقى في السمو والارتقاء الدين السماوي المحفوظ الذي لم يتغير ولم تعبث به الأيدي، ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الإسلام الذي

---

١. العَلْمانية: قيل: إن ترجمتها الصحيحة "اللادينية" أو "الدنيوية"، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين، ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني: عزل الدين عن الدولة.

نبحث عنه ونبين وظيفته في الحياة، وحاجة الإنسانية إليه[1].

الأدلة الفلسفية على الغريزة الدينية:

من الأسس الأصلية في المنهج العلمي السليم: أن يعتمد على الاستقراء الذي يدفع إلى الاستنتاج، يفصل القول في ذلك د. محمد الزحيلي فيقول: ويستدل علماء الأديان والاجتماع والفلسفة على كون التدين فطرة بالاستقراء والاستنتاج؛ للكشف عن بواعث التدين الفطرية، وهذه البواعث هي:

١. إن نزعة التديُّن ظهرت من غريزة التطلع إلى الغيب ومحاولة معرفة الحقيقة الرابضة وراءه، وعدم الوقوف عند حدود الواقع الحسي، والعودة إلى التأمل في المسائل الأزلية: لِـمَ خُلِقَ الإنسان؟ ومَنْ خلقه؟ ولِـمَ خُلق الكون؟ ومتى؟ ومن خلقه؟ وما مبدأ الإنسان؟ وما غايته وهدفه؟ وإلى أين يسير؟ وما نهاية الكون؟ وما مصير الإنسان؟ وماذا بعد الموت؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بالله، وإلى البحث والنظر والسعي والعلم والاكتشاف، وهذا التطلع والتأمل في هذه القضايا الغيبية كانت ولا زالت وستبقى الشغل الشاغل للإنسان؛ لأنه يريد الوصول إلى اليقين أمام مشكلات الكون الكبرى، مهما تقدمت به المدنية وتعددت الاكتشافات، وتَرَقَّى العلم؛ لأن العلم عاجز قطعًا عن الإجابة عن هذه الأسئلة، ومقيد بكشف نواميس الكون دون أن يغير منها شيئًا، ومجاله محدد في النواحي المادية التي وضعت تحت حواسه، كما سنرى بعد قليل.

يقول ساتن هيلير: "هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولًا جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة".

٢. العجز في الإنسان وحاجته إلى قوة جبارة تنقذه من المهالك وتعينه وقت الشدة، ويستغيث بها وقت الضيق، فتنجده وتخرجه من المآزق، وتقدم له العون عند الحاجة، وهذا العجز موجود في كل نفس، ويلمسه الإنسان في نفسه، ويسمعه من غيره. سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن الله، فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاَّحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو الله.

هذا الشعور النفسي بوجود المنقذ من الهلاك، والمنجِّي من الهمِّ والغم والحزن والكرب، إمَّا أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمنًا، وإما أن يتنكر ذلك الإنسان له، ويجحد هذا الفضل ويُعْرِض عن ربه، فيكون كافرًا وملحدًا وضالًّا، وقد صوَّر القرآن الكريم في آيات

١. وظيفة الدين في الحياة، د. محمد الزحيلي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٩٩٩م، ص٣٢ وما بعدها.

كثيرة ومواطن مختلفة، هذه النماذج من النفوس، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ (يونس)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الزمر: ٨)، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾ (النحل)، وقال الله تبارك تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ (٦٣) ﴾ (الأنعام).

هذه الآيات الكريمة تكشف هذا الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان، وتذكر بعض الصور الدقيقة التي لا مهرب منها لكل فرد، من إقراره بالعجز، والتجائه إلى القوة الغيبية الخالقة المبدعة التي تتصرف بالكون؛ لتنقذه من المهالك، ويستنجد بها في أحلك الظروف للنجاة، ويعطي الوعود والعهود بالتوبة والإنابة والطاعة والخضوع، ثم لا يلبث أن ينسى حاله، وينقض وعده، ويتيه في غيه وضلاله، إلا من رحم ربك، وأعمل عقله، وفكر في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو على العهد باقٍ، وبالعقيدة والإيمان بالله ملتزم.

يقول الأستاذ محمد قطب: "يحس الإنسان بالعجز إزاء الكيان الكوني من حوله، يبدأ العجز من لحظة الميلاد، ويستمر إلى لحظة الموت، ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت، وإن كان يأخذ صورًا مختلفة في كل سِنٍّ، وكل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي.. ويظل يكبر ويكبر معه العجز حتى يستوي على أشده، وما يزال يحس بالعجز في أكبر مجالاته، العجز عن تحقيق كل ما يريد تحقيقه، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه..."، ثم يقول: "حقًّا إنه يحقق أشياء كثيرة، ويعرف أشياء كثيرة، ولكن هذا لا ينفيه ولا ينفي عن خاطره شعور العجز، فهو يريد أن يحقق كل شيء، ويعرف كل شيء، ويسيطر على كل شيء.. وأشد ما يقف أمامه عاجزًا رغبة الخلود، والرغبة في معرفة الغيب الذي لم يحدث".

٣. ومن دوافع الفطرة إلى التدين الإحساس بالخوف، والرهبة أمام هذا الكون العظيم وما يجري فيه، مما يحرك أحاسيس الإنسان ويوقظ مداركه، ويدفع عقله ـ بالغريزة والفطرة ـ ليبحث عن خالق الكون، فيأنس به، ويطمئن قلبه عنده، ويهدأ روعه وخوفه، ويأمن جانبه، ويعقد أواصر التقرب له، ثم يقدم الطاعة

والعبادة لعظمته، وهذا هو الدين.

وقد لفت القرآن النظر في آيات متعددة إلى هذا الكون العظيم، وما فيه من أجرام ومشاهد ومخلوقات تستحق التأمل والوقوف أمامها، ويقف الإنسان عندها مشدوهًا عاجزًا، لا يملك حراكًا ولا عطاء، بل جاءت بعض الآيات الكريمة تتحدى مظاهر الكون والطبيعة والإنسان على أن تخلق نفسها أو تخلق غيرها، أو تملك النفع أو الضرر لنفسها أو لغيرها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النحل). وقال ﷻ على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم). وقال ﷻ: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يس). وقال ﷻ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ١٨).

وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد)، وقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (الرعد).

ويقول ﷻ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ (لقمان). ويقول ﷻ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، ويقول ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النحل)، ويقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (فاطر). ويقول الله ﷻ متحديًا البشر في الخلق والإعادة: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنعام).

ولنتأمل هذه المحاورة مع الكفار في قول الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ

تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ (القصص)، ويقول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾﴾ (الفرقان).

والآيات كثيرة في هذا الخصوص، ولا يقف الإنسان أمامها عاجزًا فقط، وإنما يصاب بالرهبة والخوف والجمود والحيرة، لولا ثقته بالله وإيمانه به.

وقد يقول قائل: إن هذه الرهبة كانت في القديم، فأثارت نفس الإنسان البدائي، فاندفع إلى التدين ليأمن من خوف الطبيعة والكون، واليوم لا نحس بذلك، ولا نلمسه في النفس الإنسانية، وبالتالي فلا حاجة للدين اليوم؟!

والجواب على ذلك: أن هذا الإحساس بالرهبة كان ولا يزال وسيبقى؛ لأنه نتيجة حتمية للعجز الذي يتركب منه الإنسان بفطرته وملكاته وإمكانيته، ولكن هذه الرهبة تغيرت بواعثها، ففي القديم خاف الإنسان من خسوف القمر، وكسوف الشمس، وأصابته الرهبة من الرياح، والأعاصير، والعواصف، ووقف يرتجف من بعض الحيوانات المفترسة والوحوش الكاسرة، وخشي من القحط والجدب وقلة المطر، وجفاف الأنهار.

أما بواعث الرهبة اليوم فلم تقتصر على ما سبق، وإنما تتحقق في نفوس العلماء الذين وصلوا الليل بالنهار، كلٌّ في اختصاصه، ثم وصلوا إلى الطريق المسدود، ووقفت الوسائل، وعجز العلم أمام اللغز المحير، وأدرك كل عالم أن وراء ذلك قوة كاملة، وإرادة منظمة، وعظمة مطلقة، مثل تفجير الذرة، ومرض السرطان، وبقية الأمراض المستعصية، ومعرفة تركيب العين، والسر في انسجام أعضاء الجسم، ولفظ الأعضاء الأجنبية عند نقل الكلية أو القلب.. والصبغيات في تكوين الجنين، والخلايا في المخ والدماغ، وعصب العين.

ونعود لنسأل: هل استطاعت الإنسانية والعلم أن يضعا حدًّا للزلازل والأعاصير التي تتحرك في جنوب شرق آسيا مثلًا؟ وتزيل مدينة صناعية كاملة من وجه الأرض في الصين، ويذهب ضحيتها الملايين في ثوان معدودة؟ وهل استغنى البشر اليوم عن الأنهار الجارية والأمطار؟ وهل يغيب عن ذهن العاقل أخطار الجفاف وقلة الأمطار التي كانت تهدد أوربا بالأمس، وآسيا وإفريقيا اليوم، وتنذرها بأفدح العواقب؟

وإذا استطاع العلم أن يكشف نظام أحد المخلوقات ويعرف كيفية عمله ويدرك سر تكوينه فإن هذا لا يغير من الحقيقة شيئًا، ولا يفقد الفكرة قيمتها؛ لأن هذا الكائن المخلوق يسير على نسق لا يستطيع العلم تغييره ولا تبديله، مثل تكوين الأمطار وهطولها، مع العجز عن تغيير نظامها، وتبديل الأمطار الشتوية إلى صيفية، والموسمية إلى فصلية، ونقل الأمطار والطوفان من آسيا لتخفيف الجفاف في أوربا، أو بالعكس، كما اكتشف العلم تركيب الهواء، أو الماء، ولكن هل غيَّر من تركيبه؟ وهل أوجد شيئًا من العدم؟ وبذل البشر ملايين الملايين للوصول إلى القمر والمريخ، ولكن هل غيَّروا من نظامهما؟ وهل عدلوا من سيرهما ولو مثقال ذرة؟

وإذا كان بعض العابثين لا يشعرون بهذه الرهبة؛ لأنهم يقنعون أنفسهم بما قدمه العلم من تفسير لبعض الظواهر التي كانت تخيف الناس في السابق، مثل: تفسير ظاهرة الخسوف، أو الكسوف، أو نزول المطر، أو حدوث البرق والرعد، أو دوران الشمس والقمر، ويقفون عند هذه التفسيرات الظاهرية ثم يضعون القفل على العقل، ويسدون الطريق أمامه في متابعة الحكمة والغاية والهدف والسر في هذه الظواهر، والدقة في حدوثها والمحرك لها، فإن هؤلاء أشبه بالطفل الذي يقترب من النار، ولا يرهب حرها، ويرمي بنفسه على السيارة المسرعة ولا يدرك خطرها، ويعبث بسلك الكهرباء ولا يعقل سعيرها، ويلهو بكتب والده أو أدواته الطبية، والهندسية، وآلاته الحساسة، ولا يعرف قيمتها، أما العالم بكل ذلك فهو المقدر لكل شيء قدره، وهو الذي يحس بالرهبة والخوف أمام عظمة الله ﷻ في خلقه وكونه، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨).

٤. ومن الدوافع الفطرية للتديُّن الموت الذي يردع الأحياء ويهزُّهم إلى الأعماق، وينبِّه فيهم القُوَى المعطَّلة، والأجهزة المتجمدة، والإحساس المخدر، ويزيل من أمامهم الحجب، ويكشف لهم الطريق، ويذهب الغبش عن العين، فيصحو الإنسان لنفسه، ويتفكر في حياته، ويبحث عن الهدف من الحياة، ويستطلع ما بعد الموت، ويدرك تمامًا قيمة الحياة الآخرة، وتفاهة الدنيا، وأنها متاع قليل، وأن الكمال الحقيقي الذي يتفق مع تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات أن تكون نفسه وروحه باقية بعد الموت، ويدرك كذلك أن لها حياة أخرى بعد هذه الحياة يلتقي فيها الأحبة والخلَّان، وفيها يحاسب كل إنسان على عمله؛ لتتحقق العدالة المطلقة، فيلقى كل إنسان جزاء عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، يقول سفيان الثوري ﷺ: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا"[1].

ونلمس هذه الأحاسيس يوميًّا في الحياة من الملحدين والفاسقين والغافلين والمقصِّرين والعابثين، فإذا فاجأهم الموت بعزيز أو بقريب أو بحبيب نطقوا بالحق، وصحوا من النوم أو الغفلة، وصرَّحوا بالإيمان ولبُّوا نداء الفطرة، وبحثوا عن التدين، وأسرعوا إلى الطاعة والعبادة، وأنابوا إلى بارئهم، ومنهم من يستمر، ومنهم من ينقلب على عقبيه.

٥. التأمل في نظام الكون وأجزائه والتفكر في المخلوقات، بدءًا من الإنسان وتكوينه وأعضائه وأجهزته، وانتهاءً بالنجوم والمجرات وطبقات الأرض، وكلما تقدم العلم وقف العقلاء مبهورين ومبْهُوتين من عظمة هذا الكون ونظامه الدقيق؛ ليقفوا بكل خشوع وإجلال وتذلل أمام القدرة الخالقة المكونة، وهذا انتقال من المخلوق إلى الخالق، ومن الطبيعة إلى مكوِّنها وبارئها، ومن السبب إلى المسبب، ومن المصنوع إلى الصانع، مما يقتضيه العقل ويسوق إليه الفكر في أدق الأمور وأجلها، وأحقر الأشياء وأعظمها، وهو ما نطق به ذلك الأعرابي بفطرته السليمة، فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على السير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فِجاج،

---

١. حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ، ج٧، ص٥٢.

وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟!

والقرآن الكريم عرض جولات كثيرة جدًّا مع هذا الباعث الفطري للتدين؛ ليحث العقل على التأمل بالكون، والتدبر في المخلوقات والبحث عن نظامها العجيب؛ ليغرس في نفسه الإيمان والعقيدة، من ذلك:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ (الذاريات).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ (الغاشية).

وقوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ (الزمر).

وقوله ﷻ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾ (الفرقان).

وقوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ (يس).

ونستطيع القول: إنه لا توجد سورة في القرآن الكريم - وخاصة السور المكية - إلا وفيها إشارة أو تصريح أو عرض كامل للنظر في الكون والتأمل في نظامه وإبداعه، لتحريك السمع والبصر والحواسّ والعقل للتفكير في خلق الله تعالى، ثم الوصول إلى الاعتراف والإقرار بالألوهية والربوبية.

هذه البواعث الخمسة: "التطلع إلى الغيب، والعجز، والإحساس بالرهبة والخوف، والموت، والتأمل في نظام الكون" هي التي يستدل بها العلماء على كون التدين فطرة في النفس، وقد عرضناها بأسلوبهم، ثم بيَّنا ما يؤيدها ويدعمها من القرآن الكريم، الذي حرص على تحريك الفطرة البشرية، والغرائز الإنسانية لإثبات العقيدة وتنمية الإيمان في النفوس[1].

الأدلة الشرعية على الغريزة الدينية:

ويتابع د. محمد الزحيلي حديثه عن التدين وملازمته للفطرة مع وضوح الأدلة النقلية على ذلك فيقول:

---

١. وظيفة الدين في الحياة، د. محمد الزحيلي، مرجع سابق، ص٣٤ وما بعدها.

"ويمكننا أن نستدل على غريزة التدين في الإنسان، وأنها مفطورة في نفسه وتكوينه بالدليل النقلي الصريح المباشر من كتاب الله تعالى، في الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان وفطرته وجِبلَّتِه، وما رافق ذلك من وجود الدين في النفس البشرية، وذلك على التفصيل الآتي:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة)، ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (البقرة).

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه).

قال المولى تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص).

فالآيات السابقة تُصرِّح في مجموعها بأن الإنسان خليفة الله تعالى في أرضه، وأن الهداية والديانة، والإيمان، أمور رافقته منذ هبوطه إلى الأرض، كما تُصرِّح بطبيعة الإنسان وأصل خلقه وجبلته، وأنه من طين، منفوخ فيه من روح الله تبارك وتعالى، وأن الجسد لا ينفصل عن الروح، وأن كل محاولة للفصل، أو بذر الشقاق بينهما شذوذ وانحراف في السلوك، وعاهة في التكوين، كما أن كل عنصر له متطلبات، وقد خُلقت له ميول للمحافظة عليه؛ فالطعام والشراب والجنس للمحافظة على الجسد، والتدين للمحافظة على الروح.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ (الأعراف: ١٧٢). فهذه الآية صريحة في وجود التدين في النفس الإنسانية قبل وجودها وظهورها على ظهر البسيطة.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠). فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى، وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق، والإنسان مهما ابتعد عن منهج الله، وجحد وجوده، وكفر بالدين، فإنه لن يستطيع أن يغيِّر فطرته: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠)، بدليل أنه لا يستطيع أن يحجب هذه الفطرة عما يجيش فيها عند الأزمات والأوقات الحرجة وأمام البواعث السابقة للتديُّن، وبدليل ما يجده الإنسان من الندم على الأفعال الذميمة، ومن وَخْز الضمير - إن بقي عنده ضمير ولم تفسده المفاتن والشياطين - وهذا ما قصده رسول الله ﷺ في الحديث النبوي الشريف: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه

أو يُمجِّسانه"[1].

فالإنسان لا غنى له عن التدين؛ لأنه جزء من ذاته ونفسه وفطرته، فيجيب أحد الفلاسفة الفرنسيين على سؤال: لماذا أنا متدين؟ فيقول: لأنني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب: وهو: أنا متدين؛ لأنني لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك؛ لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي.

ويقول الشيخ محمد عبده عن الشعور الديني: هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة، المنبعث في جميع الأنفس، عالمها وجاهلها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع.. ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، شعور بهيج بالأرواح التي تحس هذا البقاء الأبدي، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت"[2] ®.

الفطرة في الإسلام وعلاقتها بالأوَّليات العقلية:

لا شك أن الفطرة المركوزة في الإنسان، والتي إن استعملت استعمالًا سليمًا، فإنها تهدي على الفور إلى الدين القويم، ترتبط بالأوليات العقلية البسيطة، وعن هذا الارتباط يتحدث د. عبد الرحمن الزنيدي فيقول:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠). وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء"[3].

ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾.

ما هذه الفطرة؟ وما الشيء الذي يُفطر عليه الإنسان على ضوء هذين النصَّين؟ وما علاقتها بالمبادئ القبلية الفطرية؟

أما الفطرة: فقد فُسِّرت بتفسيرات كثيرة؛ فقيل: هي الإلهام للإيمان والكفر، وذلك مصداق قوله عز وجل: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس). وهذا عند الذين ينكرون فطرية معرفة الله، ويرون أنها نظرية لا تحصل إلا بالاستدلال والنظر، وقيل: هي المعرفة، أي: معرفة الله والإقرار بربوبيته. وقيل: إنها الدين الذي أرسل الله به رسوله، وأعظمه معرفة الله وتوحيده، وهذا مذهب جمهور السلف؛ قالوا: الفطرة: الإسلام، ويؤيد هذا ما جاء في روايات أخرى: "كل مولود يولد على المِلَّة"[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ (الروم) (٤٤٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى "كل مولود يولد على الفطرة"، وحكم موت أطفال الكفار (٦٩٢٦)، واللفظ للبخاري.

٢. وظيفة الدين في الحياة، د. محمد الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٨ وما بعدها.

® في **"فطرية النزعة الدينية في الإنسان"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة. وفي "الحاجة الفطرية إلى الإيمان" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى؛ من هذا الجزء.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى "كل مولود يولد على الفطرة"، وحكم موت أطفال الكفار (٦٩٢٦).

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (٢١٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٦٠).

و"خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم"[1][2]. قال ابن تيمية: "وأصل الدين الذي فطر الله عليه عباده يجمع أصلين:

أحدهما: عبادة الله وحده لا شريك له، وإنما يُعْبَد بما أحبه، وأمر به.

والثاني: حل الطيبات التي يُسْتعان بها على المقصود، وهو الوسيلة، وضدها تحريم الحلال.

أما علاقة الفطرة بالمبادئ القبلية: فإما أن يقال: إن هذه الفطرة الدينية تمثل جزءًا من هذه المبادئ والأفكار الأولية، بل هي أوضح أجزائها؛ فإنها من العلوم اللازمة للخلق، بخلاف كثير من العلوم التي قد تكون ضرورية، ولكن قد يغفل عنها كثير من بني آدم، فإذا تصورت كانت علومًا ضرورية.

وإما أن يقال: إن هذه المبادئ هي قاعدتها التي تقوم عليها بحكم أنها حق، وما تؤدي إليه حق، فالمعرفة الدينية فطرية ضرورية على الحالين، سواء قيل: إنها فطرية بنفسها، أو قيل: إنها تحصل بأسباب؛ كالأدلة التي تنتظم في النفس.. فإن النفس بفطرتها قد يقوم بها من النظر والاستدلال ما لا يحتاج معه إلى كلام أحد.

ولا يعني أن المولى قد فطر الناس على الإسلام أنه يتمثل في عقولهم بالفعل، كما يتمثل لمن قرأ نصوص الكتاب والسنة وفهمها، خصوصًا أن لُوثات الوثنية والجاهليات تغشيها حتى يخفت نورها، إن قليلًا وإن كثيرًا. ولكنها مع ذلك تبقى شعورًا عامًّا في نفس الإنسان - البعيد عن هدى الله - حتى يأذن الله له بسبب يجلو هذه اللوثات، كالاطلاع على الدين الذي جاء به محمد ﷺ والاهتداء به، فيشعر عندئذ شعورًا فعليًّا بأن هذا هو ما كان يبحث عنه، وتتطلع إليه نفسه، كما صرح بذلك كثير من الذين أسلموا.

وبهذا نعلم أن هذه النزعة الفطرية الدينية أبعد مدى من الغريزة الدينية، التي يتكلم عنها علماء الاجتماع، ويؤكدون اشتراك كل الأجناس البشرية فيها، وأصالتها في النفوس؛ لأن هذه الغريزة لا تتجاوز - حسب قولهم - الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة، والتأمل في المسائل الميتافِيزيقيَّة[3] الكبرى، كيف جاء هذا العالم، وما حكمة وجودنا فيه، وما وراءه؟ وغايتها هو الاتجاه إلى الله، ولهذا كان سبيل إرواء هذه الغريزة هو اعتناق الديانات التي تربط بين الإنسان وبين الله، وهي الأديان التي تتطور بتطور البشرية، وتتجاوب دائمًا مع درجة الثقافة العقلية".

أما الفطرة التي فطر الله الخلق عليها - كما أخبر بذلك الوحي - فإنه لا يمكن الوفاء بحقها إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ بعقيدته التي يجد فيها العقل البشري الحل الصحيح المقنع لكل تساؤلاته عن مسائل الوجود والكون والحياة، وبشريعته التي يجد فيها الإنسان الحق واستهداف الخير في كل جزئية منها.

ولهذا اعتبر الإسلام اعتناق الأديان الأخرى حتى ذات الأصل السماوي المبدَّل؛ اليهودية، والنصرانية - انحرافًا عن الفطرة "فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه"، وهذا ما يشهد به الواقع، فإن كثيرًا ممن أسلموا وكانوا قبل

١. اجتالتهم: صرفتهم وساقتهم مائلين عن دينهم.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرفها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٧٣٨٦).

٣. المسائل الميتافِيزيقيَّة: المسائل المتعلقة بالغيبيَّات.

إسلامهم على أديان أخرى، يهودية أو نصرانية أو غيرها يخبرون أنهم لم يكونوا يجدون في أديانهم السابقة انسجامًا مع الفطرة ولا تحقيقًا للسعادة، وإنما وجدوا ذلك - فقط - في الإسلام.

ومثال على ذلك: الفنان الإنجليزي الشهير كات ستيفينز أو يوسف إسلام كما سمَّى نفسه بعد إسلامه؛ فقد نشأ على المسيحية وعرف عقائدها، وسعى لبلوغ الكمال الذي ترسمه المسيحية - كما يقول - ولكن فطرته لم تجدها الدين المناسب لها فلم تنسجم معها، وكانت تتطلع إلى الدين المرضِيِّ وتدفع صاحبها للبحث عنه، يقول عن حاله في هذا الظرف: "وبدأت أفكر بطريقتي لحياة جديدة، أبحث فيها عن السلام والحقيقة، وانتابني شعور هو أن أتجه إلى غاية ما! ولكن لا أدرك كنهها ولا مفهومها، بدأت أفكر، وأبحث عن السعادة التي لم أجدها في الشهرة، ولا في القمة، ولا في المسيحية، فطرقت باب البُوذيَّة[1] والفلسفة الصينيَّة، وصِرْتُ قَدَرِيًّا[2] وآمنت بالنجوم، ولكني وجدت ذلك كله هراء، ثم انتقلت إلى الشيوعية، ولكني شعرت أن الشيوعية لا تتفق مع الفطرة، فأيقنت - إذ ذاك - أنه ليست هناك عقيدة تعطيني الإجابة وتوضح لي الحقيقة - ولم أكن أعرف عن الإسلام شيئًا بعد - فرجعت إلى معتقدي الأول، وهو ما تعلمته من الكنيسة؛ لأن الكنيسة أفضل من تلك قليلًا".

وبعد أن هداه الله إلى الإسلام عن طريق قراءته ترجمة معاني القرآن الكريم وجد الإجابة التي يطلبها، والحق الذي ينشده يقول: "لقد أجاب القرآن على كل تساؤلاتي وبذلك شعرت بالسعادة، سعادة العثور على الحقيقة، ووجدت في القرآن كيف أن هذه السعادة هي الخالدة".

وينبغي أن نشير هنا إلى أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ يتَّحِد فيه الدين الوضعي والعقلي معًا، حسب تقسيم "كانط"، الذي قسم الدين إلى نوعين: وضعي، وهو الموحى به الذي يقوم على عقيدة أُبْلِغَت لنا، وعقلي، وهو القائم على الصدق الكلي الذي تتفق فيه جميع العقول؛ لأنهما جميعًا من الله، وما جاء عن الله لا يمكن أن يتناقض.

يقول د. عبد الرحمن الزنيدي معلقًا على ما ذكره كانط: بل أرى عكس ما رسم كانت من العلاقة بينهما حيث جعل الأصل هو الدين العقلي، ومن ثم ينبغي ألا يقبل من تعاليم الدين الوضعي إلا ما اتفق مع الأول، أما ما أرى أنه منهج الإسلام، فهو أنه يكفي من العقل اقتناعه بأن هذا الدين موحى من الله، ليصبح - نتيجة هذا الاقتناع - الدين الوضعي المتمثل بالوحي المنزَّل هو الميزان الحق؛ لأنه مضمون الصدق بتفاصيله، بحكم أنه وحي منزَّل من علم الله، ومحفوظ من تلاعب البشرية، خلافًا للدين العقلي فإنه غير مضمون الصدق، وإن كان قائمًا - أو هكذا يفترض - على أصل مضمون الصدق وهو الفطرة أو المبادئ القبلية، ولهذا أجمع علماء

١. البُوذيَّة: مجموعة الآراء الفلسفية والدينية التي نشأت عن تعاليم بُوذا، وأساسها أن حياة الإنسان في الدنيا شر وألم، وأن التخلُّص منها إنما يتم بالاندماج في الوحدة الشاملة، وهي "النِّرفانيا"، وسبيل ذلك: الزهد ومحاربة الرغبات والشهوات. وتقول هذه الديانة بالتناسخ، ومبدأ السببية، وتنكر البعث والحساب، وهي من أكثر الديانات شيوعًا في آسيا.

٢. القَدَرِيَّة: هم قوم ينكرون قضاء الله وقَدَرَه، ويقولون: إن كل إنسان خالق لفعله بإرادته.

الإسلام على أن المعتبر هو الإسلام والإيمان الشرعيان دون الفطريَّيْن[1].

ونخلص من ذلك كله إلى أن الإنسان مفطور على الإيمان والتدين، وهما ضاربان بجذورهما في أعماق نفسه البشرية وإذا كان ذلك كذلك فما الكفر إذن؟ وهل هو طمْس للإيمان؟ ويجيب الأستاذ عبد المجيد الزنداني على ذلك فيقول: الكفر تغطية للحق الواضح، وهو جحود بما جاء به المرسلون الصادقون، فكل كافر يعلم أنه ما خلق نفسه، وأن له خالقًا هو مالكه وسيده، ولكن الكافر لا يهتم بمعرفة خالقه، أو تجده قد هام في وثن أصم، أو في أحد الطواغيت، أو طبيعة جامدة بليدة، وقد تجده محتارًا في أمره تائهًا كريشة في مَهَبِّ الريح، وأي عذر للكافر وقد امتلأت الدنيا برسل الله ورسالاته؟ وأي عذر له يوم يسأل غدًا؟ قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (القصص).

والكافر يعرف أن الله قد أرسل رسلًا إلى الناس لهدايتهم وأيَّدهم بالمعجزات والبينات، التي تثبت صدقهم، وتجد الكافرين إما قد اطلعوا على بينات الرسول: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، تكبرًا واستهزاءً واتباعًا للهوى، أو تجد فريقًا منهم قد أعرضوا، ولم يكلفوا أنفسهم أن يعرفوا ما أنزل ربهم من هدى فتعامَوْا، وتناسَوْا، فويل لهؤلاء المتغافلين المتعامين عندما يوجه إليهم غدًا هذا السؤال: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (النمل)، وأيُّ عذر للكافرين وهم يرون أو يسمعون بذلك الموكب الإيماني الكبير الذي يمتد عبر القرون يقوده الأنبياء والمرسلون، وقد التفَّ حولهم وسار خلفهم ملايين الملايين من الناس أمثالهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ (الشورى).

والكافر يعلم أن كل نعمة يتمتع بها في نفسه؛ كالسمع، والبصر، والعقل، والصحة، والحياة، وكل نعمة ينتفع بها في الأرض؛ كالنبات، والحيوان، والماء، والهواء، والخيرات المختلفة، والمعادن، وكل نعمة يستفيد منها في السماء؛ كالشمس والقمر وتقلب الليل والنهار - يعلم الكافر أن كل هذه النعم الظاهرة والباطنة لم يخلقها لنفسه، وأن لها ربًّا وخالقًا أنعم بها عليه، ولكنه يجحد نِعمه، ويتناسى ويتعامى عن فضل خالقه عليه، ويستخدم نعم ربه في المجاهرة بالكفر والمعصية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ (إبراهيم)، وقال ﷻ في موضع آخر: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (العنكبوت). فذلك هو الكفر، فهو باطل وتغطية للحق وضلال.

١. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، ضمن منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ١٩٩٢م، ص٣٤٦ وما بعدها.

والكافر يَسْبح في ظلمات الجهالة الكبرى، لا يعرف خالقه الحق! ولا يعلم لماذا خلقه؟! ولا يدري لماذا جاء به إلى هذه الدنيا؟ يستخدم ما سخر له ربه دون علم بالعمل الذي يريد ربه منه أن يعمله، والذي يغضبه سبحانه منه إن عمله، قد سُخِّرت الدنيا للناس، ولكن الكافر لا يدري ما الحكمة من تسخيرها له؟ يأكل، ويشرب، وينام، ويستقيظ، ويموت كموت البعير، لا يدري لماذا بدأت حياته؟ ولا يدري لماذا انتهت؟ ولا يدري لماذا عاش على الأرض مدة ذلك الأجل المحدود؟ وتجد الكافر يتعاطى الأشياء مجازفة دون إرشاد من الخالق لها، كمن يتعاطى تسيير آلة دون اتباع إرشاد صانعها! فيُفْسد في الأرض وهو يظن أنه يصلح بإفساده: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ (البقرة)، ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) ﴾ (آل عمران).

فما أشبه الحضارة الكافرة التي يعيش فيها الناس بدون إيمان، بدون هدف، بدون صلة بالخالق ﷻ، ما أشبه تلك الحضارة بصانع سفينة ضخمة أنيقة جميلة، قد رتبت فيها أماكن الطعام، وأماكن الرقود، وأماكن اللعب والتسلية، وأخذ صانعها يدعو الناس إلى ركوبها، ويشرح لهم كيف يأكلون ويشربون، وكيف يرقدون، وكيف يلعبون؟ حتى إذا سأله أحد الركاب، وإلى أين تذهب بنا هذه السفينة؟ أجاب: لا أدري!! اركبوا فقط!!

والكافر لا يعرف إلا دنياه، ولا يعرف من دنياه إلا مصالحه ولذائذه، فهي التي توجه عمله، وتحدِّد علاقاته بغيره من الناس. إن الكافرين يبالغون في تقدير هذه الحياة، وترى الفرد منهم يُسرف في عبادة ذاته، وإرضاء شهواته، قد انقطعت الصلة بينه وبين ربه؛ لتكذيبه برسالة الأنبياء، وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد الكافر هو مصدر الشقاء، فإذا كان تاجرًا فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها، ويبرزها عند غلائها، ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيرًا فهو الفقير الحاقد، الذي يريد أن ينال ما في أيدي الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملًا فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ ما له ولا يريد أن يدفع ما عليه، وإذا كان غنيًّا فهو الغني الشحيح القاسي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان واليًا فهو الوالي الغاشُّ، الناهب للأموال، وإذا كان سيِّدًا فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرى إلا فائدته وراحته، وإذا كان خادمًا فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنًا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة، أو رئيس جمهورية، فهو الماديُّ المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وحزبه وشيعته، ولا يعرف غير ذلك، وإذا كان زعيمًا أو قائدًا، فهو الأناني الذي يُعقِّد مصلحة مواطنيه ويدوس كرامة البلاد الأخرى، والشعوب الأخرى، وإذا كان مشرِّعًا فهو الذي يسن القوانين الجائرة، والضرائب الفادحة، وإذا كان مكتشفًا صنع الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد، ولقد أصبحت القنابل الذرية أعظم مشكلة تهدد سلامة العالم كله بين لحظة وأخرى، وإذا كان منقذًا فهو المنقذ القاسي منزوع الرحمة.

وقد يخرج أفراد من الكفار عن بعض الصفات

السابقة، ولكنها حالات نادرة، ومن هؤلاء الأفراد الفاسدين تكونت المجتمعات الكافرة، فكانت مجتمعات مادية اجتمع فيها: احتكار التاجر، وحقد الفقير، وتطفيف العامل، وشح الغني، وغش الوالي، واستبداد السيد، وخيانة الخادم، وسرقة الخازن، ونفعية الوزراء، وأنانية الزعماء، وإجحاف المشرِّع، وإسراف المخترع والمكتشف، وقسوة المنقذ، ومن هذه النفسيات المادية تبتعث المشكلات الكبرى في المجتمعات الكافرة، فأصابت الإنسانية بويلاتها.

وترى الكافر يعيش حياة مضطربة لا اطمئنان فيها ولا استقرار، حياة ساخطة ثائرة، ولكن ذلك السخط والقلق لا يدفع عنه شيئًا، إنما هو العذاب النفسي الذي تكتوي بناره المجتمعات الكافرة في الدنيا.

والكافر - برفضه لعبودية الخالق - سريعًا ما يتحول إلى عبد ذليل لمخلوقين مثله، هو إما أن يكون عبدًا متذللًا لطاغية أو دكتاتور أو زعيم أو وثن، وإما أن يكون عبدًا للأهواء أو الخرافات والأوهام السخيفة[1].

أين المسلمون من الفطرة والوراثة؟!

لقد كان حَرِيًّا بمثيري هذه الشبهة أن يعترفوا بكون إيمان المسلمين فطريًّا لا موروثًا أو تقليديًّا، وذلك أن الإسلام والإيمان به هو فطرة الناس جميعًا، التي فطرهم الله عليها، وقول الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠) يوضح هذا المعنى، وكذلك قول النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه.."[2]. ولم يقل النبي ﷺ: أو يُمَسْلِمانه؛ لأن الإسلام والإيمان به هو فطرة الناس جميعًا.

إن خبرًا جاء إلى العالمين، أن رسولًا بعث منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام بدين هو الإسلام، يدعو الناس إلى الإيمان بإله واحد لهذا الكون، ويدعوهم كذلك إلى الإيمان بملائكته، وكتبه، وجميع رسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره، فصدَّق المسلمون ذلك وكذَّب غيرهم، فما دليل المصدِّقين وما دليل المكذِّبين؟ فكون الخبر قد جاءنا ممن سبقنا لا عيب فيه، بل العيب كل العيب ألا نمتلك دليلًا على تصديقنا أو تكذيبنا.

هَبْ أن رجلًا في البحر ماجت به سفينته، وأيقن بالهلاك، أو اختلت به طائرته في الجوِّ، على الفور تجده يتعلَّق بقوة غيبية، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لا خلاص له مما هو فيه إلا بتلك القوة، وتلك القوة هي قوة الله وقدرة، الله الواحد، مالك السماوات والأرض، وتحرك النفس نحوه هو الفطرة. وعليه فإن إيمان المسلمين فطري لا مورث.

ثالثًا. أثر الإيمان بالقيم الأخلاقية على الدول الأوربية:

إن أثر هذا الإيمان لم يقف عند المسلمين فقط، بل تعداهم إلى بقية أمم الأرض وشعوبها، وفي ذلك يقول

---

١. توحيد الخالق والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد المجيد الزنداني، مرجع سابق، ص١٣ وما بعدها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى "كل مولد يولد على الفطرة"، وحكم موت أطفال الكفار (٦٩٢٦).

الأستاذ محمد قطب: إن أوربا ـ في عصورها المظلمة ـ كانت واقعة في الجهالة العلمية التي حرص عليها حكّام شعوبها، كما حرصت عليها الكنيسة؛ ليظل سلطانها الرهيب قائمًا في قلوب الناس وأرواحهم، وكانت واقعة تحت وَطْأَة الإقطاع[1] ممزقة لا رباط بينها ـ وإن كانت كلها مسيحية ـ لأن السيد الإقطاعي يمثل في إقطاعيته السلطان المطلق، فهو السلطة التَّشريعيَّة[2] والقضائيَّة[3] والتنفيذيَّة[4] في وقت واحد، وواقعة من جهة أخرى تحت سَطْوَة البابويَّة[5] التي تستعبد أرواح الناس وأفكارهم، وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ (التوبة).

١. الإقطاع: نظام يتحكَّم فيه المالك في الأرض ومَن فيها من الناس.

٢. السُّلطة التَّشريعيَّة: مجلس النُّوَّاب، البرلمان، الهيئة الخاصة من مجموعة الأشخاص المنتخَبين رسميًّا، مهمَّتهم وضع القوانين أو تعديلها لدولة أو ولاية.

٣. السُّلطة القضائيَّة: السلطة الممنوحة للقُضاة بأن يقضوا بين الناس فيما يتعلق بالنفس والمال.

٤. السُّلطة التَّنفيذيَّة: الحكومة وهيئة موظفيها التي تُباشر إجراء القوانين التي تضعها السلطة التشريعية والسلطة القضائية.

٥. البابويَّة: رئاسة الكنيسة الكاثوليكية ممثَّلة في شخص البابا أَسْقُف روما، وهي نظام قام منذ عصر الإمبراطورية الرومانية وقد مرَّ بعصور مختلفة، وتغيَّر نشاطه وأثره باختلاف الظروف. والبابا عندهم هو أعلى سلطة في أمور العقيدة، ويملك السلطة والعصمة اللتين للكنيسة كلِّها، وفي اعتقادهم أنه معصوم من الخطأ فيما يُصْدِره في أمور الدين، وهو مشرِّع قاضٍ، له سلطة مجمع الأساقفة، ويمثل السلطة العليا المباشرة على الكهنة وأتباع مذهبه.

وبينما أوربا في حالتها هذه إذ التقت بالإسلام يحيط بها من كل جانب، التقت به سلمًا في الأندلس، والشمال الإفريقي، وصقلية، وغيرها، والتقت به حربًا عبر الحروب الصليبية التي استغرقت حوالي قرنين من الزمان، ثم كان من نتيجة ذلك تلك الآثار في أوربا:

- أخذت أوربا العلوم الإسلامية كلها، وبصفة خاصة المنهج التجريبي في البحث العلمي وأقامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة.
- أخذت معنى "الأمة" التي يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة، ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة؛ لفساد العقيدة عندهم، وفساد القائمين عليها من الكَهَنُوت[6]، فأقاموها على شكل قوميات، هي الأساس الذي قامت عليه دول الغرب الحالية.
- حاولت إصلاح الفساد العقدي والكنسي في حركات كالفين ومارتن لُوثَر، وغيرهما، وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحات جزئية في داخل الفساد الشامل؛ وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداءً، وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقي.
- أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غراره.
- قامت فيها حركات فروسية تحاول أن تقلِّد ما وجدوه عند المسلمين من الشهامة والنجدة والأخلاق العالية.

تأثرت أوربا بالنظم المعمارية الإسلامية، وقلَّدتها في

٦. الكهنوت: جمع كاهن، وهو من ارتقى إلى درجة الكهنوت، وهو عضو يأتي في الرُّتْبَة الثانية ما بين الأَسْقُف والشِّدْياق، له الصلاحية في إقامة المناسك.

بعض مبانيها عامة "خذ مثالًا بسيطًا على ذلك: إدخال الحمامات في البيوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام، ولم تكن أوربا تمارسه حتى التقت بالمسلمين".

بدأت فكرة "الدساتير" التي تشمل أسسًا واضحة للحكم بغير هوى الحكام، وشهواتهم الشخصية، واقتبست أوربا كثيرًا من الفقه الإسلامي، ومما يذكر في هذا الصدد أن القانون المدني الفرنسي أُخِذَ معظمه من فقه مالك؛ لأنه كان أقرب المذاهب إليهم في الشمال الإفريقي.

- استفادت أوربا في الكشوف الجغرافية من الخرائط الإسلامية، فبدأت تنساح في الأرض على هدي هذه الخرائط.

وباختصار فإن أوربا أخذت بذور نهضتها الحالية كلها من الإسلام، وإن كانت جمَّدت أثر الإسلام والمسلمين في حياتها، ورفضت في عصبية جاهلية أن تعتنقه[1].

ماذا عن تجاهل القيم الحياتية والأخلاقية؟

ها هي الحضارة الغربية وريثة الباطل بشتى صوره تُرِي العالمَ كله الفرقَ بين وراثة الحق، ووراثة الباطل، ونترك الكلام لفضيلة الشيخ محمد الغزالي مجيبًا على سؤال طُرح عليه: ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير في ضوء ما يحدث في الدول المتقدمة التي تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط؟

يقول: لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذي بَلَغته الحضارة الحديثة في اكتشاف أسرار الكون؛ إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة، وقد طوَّعت ما بلغته إلى تقدم صناعي باهر طفر بالإنسانية طفرة قوية في جميع المجالات المدنية والعسكرية.

ولكن هناك إحساسًا عامًّا بأن هذا التقدم المادي لم يواكبه تقدم روحي، وأن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيرًا عن إنسان العصر الأول في غرائزه وشهواته! وإذا كانت ثمة فروق ففي الوسائل، لا في البواعث والغايات، بل لقد قيل في إنسان العصر الحاضر: إن عضلاته أكبر من عقله، والواقع أن الإنسان يتضاعف شرُّه عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق، ولطالما ردَّدنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة، وقلب يكره الرذيلة.

إن الكمال الحقيقي امتداد ونضج في جميع الملكات الإنسانية، وهذا التوازن أساس لا بد منه لقيام مجتمع رشيد، وحضارة يانعة الثمار، مديدة الظلال، فهل الحضارة الحديثة ـ بعد تلك المقررات ـ جديرة بالخلود؟ أو هي أرجح من غيرها في موازنة منصفة؟ الحق أن لا؛ فالرجل الأبيض، قائد هذه الحضارة ورائدها، إنسان طافح الأنانية، يشدُّه إلى منافعه ألف رباط، وقبل أن نشرح شرهه المسعور واستعلاءه على غيره، نذكر أحد مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة.

فالعرب الفاتحون قدَّموا الإسلام للأعاجم، ونقلوهم به من الظلمة إلى النور، وبعد ردح من الزمان، كان هؤلاء العرب يُصَلُّون وراء الأتقياء في شتى الأجناس، ويتلقون عنهم العلوم الدينية، دون غضاضة أو كبرياء، فالبخاري هو المحدث الأول، وأبو حنيفة الفقيه الأول، والحسن البصري المربي الأول،

---

١. انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤٣٩ وما بعدها.

وسيبويه اللغوي الأول، ولم يشعر المصريون بأي ضيق من أن يقودهم قُطُز التركي في معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت، وما خامرهم حرج في أن يقودهم صلاح الدين الكردي ضد الصليبيين في معركة "حطين".

إن الإسلام محا النَّعَرات الجنسية في أغلب الميادين، وربط الناس بمُثُلهم العالية وحدها. أما الجنس الأبيض وطلائعه الغازية والمكتشفة، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ويقدسون مصالحهم ولا تحكمهم إلا شريعة الغاب.

اكتشف الإنجليز أستراليا فماذا صنعوا بسكّانها؟ شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر، حتى حصدوا جمهرتهم، وأخبرني ـ والكلام للشيخ محمد الغزالي ـ صديق قادم من أستراليا أن البيض ييسرون أردأ الخمور لهؤلاء السكان الأصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الأخير، وتبقى أستراليا للمغيرين المُسَلَّحين بالتقدم العلمي والصناعي المجردين من كل رحمة وإيثار.

ولم يكن سكان أمريكا الأصليون أسعد حظًّا من أستراليا، فقد كانت رءوسهم تقطع لنيل التيجان المرصَّعة بالذهب، قد يُقال: كان ذلك في الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد وقد ارتقت البشرية اليوم، وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الأولون واستنكرته!

ونجيب بأن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الأبيض وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألقى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكي، فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، ولا ريب أن عُشْر هؤلاء الهلكى فقط هو الذي كان يمكن أن يُجند في الحرب!

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر، لا سيما إذا كان هو نفسه واضع القانون ومُطَبِّقُه! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء، وقد رأينا ونرى كيف يُبَاد الشعب الفلسطيني ويُمْحى وجوده من فوق الأرض، ويُجاء بألوف مؤلَّفة من اليهود لتحيا على أنقاضه، والقانون الدولي مكَمَّم الفم؛ لأن مُلَّاك القوة يريدون ذلك، وأجهزة الدعاية الحديثة قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ (إبراهيم)[1].

إن وراثتكم للباطل جعلتكم في دنياكم لا تذوقون طعم سعادة أو هناء، ولسان حالكم ومقالكم يقول ذلك؛ فها هي أعلى نسب انتحار على مستوى العالم عندكم، وها هو الفساد قد انتشر في شتى مناحي حياتكم، لا وزن للإنسان عندكم، أصبحتم كالذئاب الجائعة تعيشون في الأرض فسادًا، عبيدًا لشهواتكم ونزواتكم، عبيدًا للمادة والمصلحة، لا تملكون من الخير إلا شعارات برَّاقة تطلقونها في الآذان إذا أردتم وراء ذلك مآرب.

إن ما يقع على معظم شعوب الأرض الآن من ظلم من هذه الحضارة العاتية المتجرِّدة من كل الأخلاق

---

١. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٩٥ وما بعدها.

والفضائل لَيُوحِي لنا بأنها وَرِيثة التَّتار، والصَّليبيِّين، وكلِّ المخرِّبين على مدار التاريخ؛ فالتتار الذين أحرقوا العلم بإحراقهم مكتبة بغداد، وإلقاء مئات الآلاف من الكتب في نهر دِجْلَة، وقتلوا مئات الآلاف من البشر حتى تغيَّر لون نهر الفرات بلون الدم من كثرة إلقاء القتلى فيه - أنتم وَرَثَتهم في سفكهم الدماء، وتخريبهم البلاد، فلا غَرْو إذن أن أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية حربها الأخيرة على العراق في ١٤ محرم، وهو نفس اليوم الذي دخل فيه التتار بغداد.

وكذلك الصليبيون وتقتيلهم بشراسة في المسلمين دون تفريق بين كبير وصغير، أو رجل وامرأة، أو شيخ وشاب. وهذا ما فعلتموه في المسلمين في فلسطين، والعراق، والشيشان، وكشمير، والبوسنة، والهَرْسك، وإندونيسيا، ومصر، والجزائر، وأفغانستان، وشتى بقاع العالم الإسلامي، فيا وَرَثَة الباطل، أيُّ الأمرين أولى: وراثة الحق، أم وراثة الباطل؟ قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (إبراهيم).

الخلاصة:

- إن للإيمان معنى وحقيقة، وصحة الإيمان أو بطلانه ليسا مرتبطين بوجود دليل عليه وعدم وجوده، مع التسليم التام بأنه يزيد بالأدلة وينقص بعدم وجودها. وهذه صورة من رحمات الإسلام بالناس ومراعاته لكل مستوياتهم الفكرية والعلمية، إلهٌ ما أرحمه، ودينٌ ما أيسره!!، فالمؤمن بربه ينجو من جحيم الاختلافات بين المذاهب والطرق البشرية القاصرة الضيقة التي يضعها بشر يزدادون علمًا كل يوم؛ لأنه يتلقى الهدى من خالق كل شيء، الذي أحاط علمًا بكل شيء، والذي خلق الناس ومنحهم مقدرة محدودة بها يتعلمون ما جهلوا، ويهتدون إلى ما غاب عنهم.

- إذا اتصف إنسان ما أو شيء ما بصفتين كان من الأولى أن نصفه بالصفة اللاحقة أم السابقة؟ السابقة بالطبع، وفطرة الإيمان ليست سابقة لوراثته فحسب، بل هي أغلب منها؛ لأنها فطرة - أو طبيعة - الناس جميعًا؛ فالرجل الذي ماجت به أمواج البحر حتى إذا أيقن بالهلاك نجده يناجي من أعماق قلبه قوة هائلة خفية لا يراها، ولكنه على يقين من وجودها، ويرجو منها النجاة، هذه القوة هي قدرة الله تبارك وتعالى، ولجوء المضطرين إليها هو الفطرة، وكل الناس مفطورون على ذلك.

- الفطرة لها معنى، والوراثة لها معنى، وحال المسلمين يبرهن على أنهم مفطورون على الإيمان لا مجرد ورثة له، وإلا لكانت أعمالهم نسخة مكررة من أعمال أسلافهم، ولكان الأمر وراثة لا فطرة، فالمعرفة الدينية فطرية دينية على الحالين، سواء قيل: إنها فطرية بنفسها، أو قيل: إنها تحصل بأسباب كالأدلة التي تنتظم في النفس،فإن النفس بفطرتها قد يقوم بها من النظر والاستدلال ما لا يحتاج معه إلى كلام أحد، وهذه الفطرة لا يمكن الوفاء بحقها إلا بالدين الذي جاء به محمد ﷺ بعقيدته التي يجد فيها العقل البشري الحل الصحيح المقنع لكل تساؤلاته عن مسائل الوجود والكون والحياة.

- هَبْ أن إيمان المسلمين موروث، فذاك محل فخر واعتزاز؛ لأنه الحق الأوحد على ظهر هذه الأرض،

فالعقيدة تنشئ الإنسان الصالح، وهو الإنسان العابد لله بالمعنى الواسع للعبادة، الذي يشمل - إلى جانب شعائر التعبد - كل عمل، وكل فكر، وكل شعور فيه وجه الله ويلتزم فيه بأمر الله، فالمؤمن هو المستعلي على شهوات الأرض. المتحرر لعبوديته الحقَّة لله من كل عبودية لأحد أو لشيء سواه، المتوازن في سلوكه وفكره وفي شعوره الذي يعمر الأرض بجهده، وهو يتطلع إلى رضوان الله، والتاريخ يثبت ذلك وحقائق العلم تُقرُّه، وواقع المسلمين وواقع غيرهم ينطق بشهادة الحق، ويؤكِّد أن وراثة الحق أولى من وراثة الباطل.

المحور الثاني

شبهات حول الإيمان بالغيب

الشبهة الرابعة

إنكار الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على عباده(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الجاحدين الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على عباده، والوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف)، مستبعدين حصول هذا الحوار، ومتسائلين: كيف، ومتى حدث هذا، وما الدليل عليه؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الحوار الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) أمر من أمور الغيب التي يعجز العقل البشري عن إدراك كنهها من غير الوحي.

٢) السنة النبوية وتفاسير العلماء وجهت الحوار توجيهًا شرعيًّا ومنطقيًّا بحيث يجوّزه العقل.

٣) محدودية الإدراك العقلي مع جحود الإيمان وراء هذا الفهم الخاطئ.

(*) الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين: نشأته وتطوره ومذاهبه المعاصرة، د. صابر عبد الرحمن طعيمة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

التفصيل:

أولا. الحوار الوارد في آية سورة الأعراف أمر من أمور الغيب التي يعجز العقل البشري عن إدراك كنهها مستقلا عن الوحي:

لقد أخفق العقل في أن يقدم الحقائق الصحيحة، عندما بحث في مجال الغيب، ومن ثَمَّ رفض المتّسمون به - الفلاسفة العقلانيون - أخيرًا الميتافيزيقا، واضطروا إلى إلغائها بحجة أن العقل لا يستطيع تجاوز المحسوس، ومن ثم فهو - المحسوس أو عالم الطبيعة - ميدان المعرفة الوحيد عندهم.

وكان من أدلة رفض الميتافيزيقيا لدى هؤلاء أن العقل مع جهوده الشاقة لم يصل إلى علم فيها، وغاية ما قدَّمه آراء مضطربة متناقضة، ولكن هذا الرفض لا يمكن أن يسدَّ حاجة الناس إلى الدين في تحديد تصورهم وتنظيم حياتهم، كما أنه لن يسده دين يضعه عقل الإنسان الذي اعترف بعجزه لملء هذا الفراغ .

لذا كان الإنسان بحاجة إلى مصدر آخر للمعرفة يتجاوز العقل البشري في قدرته، ولقد حاول الفلاسفة - فعلًا - إيجاد مصدر آخر للمعرفة الميتافيزيقية، ولكنه لم يكن أحسن حظًّا من العقل، إن لم يكن نمطًا من حركاته، ولن يجد الإنسان هذا المصدر إلا عند الذي وهبه المصدر الذي معه، وهو الله ليجد أنه تعالى قد أنزل عليه هذا المصدر، ممثلًا في الوحي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت).

يقول ابن تيمية: "وقد تأملت في ذلك، عامة ما تنازع فيه الناس، وكلٌّ يزعم أن قوله معلوم بضرورة

العقل - فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة، يعلم بالعقل بطلانها، بل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، تأملت هذا في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد، والصفات، والقدر، والنبوات، وغير ذلك ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط"[1].

ويقول ابن تيمية أيضًا: "إن العلم الإلهي لا يجوز أن يُسْتَدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي تستوي فيه أفراده؛ فإن الله ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يُمثَّل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية تستوي أفرادها، ولهذا لَّما سلكت طوائف من المتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية، لم يصلوا إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد الانتهاء الحيرة والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم وعدم تكافئها".

وهذا ما جعل المنصفين من أرباب علم الكلام يعلنون إفلاس العقل، وعجز هذه المناهج عن الإيصال إلى اليقين[2].

ولئن أفلس العقل أن يستقل بمصدرية أمور العقيدة، أو أن يكون الحكم المطلق، فإن ذلك لا يعني إبعادها عن حماه، إن له مهمة جليلة في هذا المقام تنبئ عن جليل الشرف الذي وهبه الله إياه. ونستطيع أن نعرف هذه المهمة من خلال الفطرة الأصيلة في الإنسان، فهي محطة الاستقبال التي يتجه إليها الإسلام، وقد قضى خالق هذه الفطرة، الذي بعث محمدًا ﷺ بالإسلام بالتطابق التام بينهما - الإسلام والفطرة - ويتمثل هذا التطابق في دائرتي: الإلجاء والإمكان.

فأما الإلجاء: فالمقصود به: ما تضطر الفطرة صاحبها إلى الاعتقاد به، والحكم بوجوده أو استحالته بصفتها الفطرية المجردة.

وأما الإمكان: فهو تجويز الفطرة ما جاء به الوحي من قضايا عقدية، قال الغزالي: "إن كل ما ورد به السمع ولم يقضِ العقل باستحالته يجب تصديقه والقضاء بثبوته". وقال ابن تيمية: "نحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل بما تعجز عن معرفته".

فالعقل ذو طبيعة محدودة من حيث نوعية المعقولات؛ لأنه في هذا الحكم يستطيع معرفة كثير منها على وجه صحيح لا زيف فيه، من حيث طبيعته - هو - وفي مقابل تلك أشياءُ أخرى ليس في طاقته علمها؛ لأنها تتجاوز حدود هذه الطاقة.

وفيما يتعلق بأمور الغيب وحقائق العقيدة تتجلى محدودية الإدراك العقلي من خلال التفريق بين وجودها وماهيتها؛ فالإدراك المطلوب إنما يتعلق من تلك الحقائق بإثبات وجودها، وما يترتب على ذلك من آثار وصفات دون تَقحُّم إلى ما رواء ذلك؛ بتعقل الكيفيات التي عليها هذه الأشياء الغيبية؛ لأن العقل عاجز عن التكييف الصحيح لهذه الأشياء بحكم أنها خارجة عن نطاق الزمان والمكان والمادة المحدود بها عقل الإنسان، والذي لا يستطيع تجاوزها مهما حلّق به الخيال؛ لأنه سيركب تصورًا لماهية هذه الأشياء من الأجزاء التي

1. درء التعارض بين العقل والنقل، ابن تيمية، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ، ج١، ص٨٣.
2. المرجع السابق، ص١٩.

يأخذها من عالم المادة، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ (طه)، وكما جاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: "تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله ﷻ"[1].

وليس في هذا حَجْرٌ على العقل الإنساني، ولكنه توجيه له أن يعمل في حدوده ومجاله الذي يدركه، وحِفْظ له من التيه والضياع في أودية ليس له فيها دليل ولا هادٍ.

وإذا عدنا إلى الفلسفة والعلم الطبيعي اليوم - رغم ما امتد إليه من أبعاد - نرى في ضوئه عظمة منهج العقل الذي رسمه القرآن في هذا الأمر. إن "كانط" يقرر في نقده للعقل - أن موضوعات العلم في المجال الطبيعي لا يعدو علمنا بها معرفة الظواهر التي تتجلى لعقلنا، فنحن لا نعرف من الأشياء إلا مظاهرها التي تتجلى لنا عليها، وهناك وراء الشيء المتجلي لنا يوجد الشيء في ذاته "إننا لا نعرف الأشياء كما هي في ذاتها، ولكن فقط كما تظهر لنا".

كما يعترف علماء الطبيعة أن كثيرًا من الحقائق لا ندركها، كما ندرك الأشياء المحسوسة، وإنما نعرفها عن طريق الاستنباط والتعليل، وكلاهما طريق فكري نبتدئ فيه بواسطة حقائق معلومة حتى ننتهي إلى أن الشيء الفلاني يوجد هنا، ولم نشاهده مطلقًا، فلا نستطيع توصيف وضعيته، يقول السِّير آرثر أونجتن: "نجد لكل شيء صورة ذات وجهين: أحدهما ملحوظ، والآخر صورة فكرية، لا سبيل إلى مشاهدتها بأي ميكروسكوب أو تلسكوب".

فإذا كان هذا إقرار العلماء بعجز العقل عن إدراك ماهيات أشياء بين يديه، أو في متناول أجهزته، فلا ريب أن حقائق الغيب أبعد على العقل من أن يحيط بكنهها وماهيتها، ولا يبقى له إلا أن يُثبت وجودها، ويلمس آثارها، وفق ما قدم له الوحي مفوضًا علم ما وراء ذلك إلى علَّام الغيوب.

وصفوة القول فيما نحن بصدده: أن العقل الذي أولاه بعضهم هذه الثقة عاجز عن الاستقلال في ميدان الغيب والعقيدة؛ وذلك:

- لاستحالة تخلص الفطرة عن عوارض المؤثرات البيئية ونحوها.
- لقصور منهجه الذي يسلكه عن تحقيق غاياته.
- ولأن في هذه الأمور تفاصيل ليست في محتوى الفطرة، إلا من خلال دائرة الإمكان، وليس في الإمكان سوى القبول أو الرفض، دون التصدير.
- ولأن النتيجة التي وصل إليها هذا العقل بعدما اقتحم ميدان العقيدة - مستقلًّا - تثبت عجزه وإفلاسه، حيث رجع كثير من أصحاب هذا الاتجاه، وأعلنوا هذه الحقيقة[2] ®.

---

١. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم من اسمه محمد (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالله ﷻ، فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله ﷻ في حدوث العالم (١٢٠)، وحسنه الالباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٨).

٢. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، مرجع سابق، ص٤١١: ٤١٤ بتصرف.

® في **"نفي التعارض بين العقل والإيمان بالغيب"** طالع: الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

ثانيًا. السنة النبوية وتفسير العلماء يوضِّحان المبهم في هذا الأمر الذي يمكن تجويزه ولا يستحيل عقلا:

قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ (الأعراف)، فالله ﷻ أخذ ذُرِّيَّة آدم من ظهره - كمثاقيل الذر - وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ قالوا: بلى شهدنا إنك ربنا؛ فمنهم من أعطى الميثاق - أو الشهادة - وهو طائع، وهؤلاء هم المؤمنون، ومنهم من قالها مكرهًا، وهم المجرمون. وهذه بعض أقوال العلماء والمفسرين حول هذه الآية:

قال الطبري: القول في تأويل قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾. قال أبو جعفر: يقول ﷻ لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به. كما حدثني أحمد بن محمد الطوسي، قال: حدثنا الحسين بن محمد قال: حدثنا جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعْمان - يعني عرفة - فأخرج من صُلْبِه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثم كلَّمهم قبلًا، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ (الأعراف)"[1] [2].

قال الرازي: اعلم أنه ﷻ لما شرح قصة موسى ﷵ مع توابعها على أقصى الوجوه، ذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين.

وفي تفسير هذه الآية قولان:

الأول: وهو مذهب المفسرين وأهل الأثر، ما رواه مسلم بن يسار الجهني أن عمر ﷺ سُئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سُئل عنها فقال: "إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون"، فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل الجنة، وإذا خلق العبد استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله ربه النار"[3].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (٢٤٥٥)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير، سورة الأعراف (١١١٩١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢٣).

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٣، ص٢٢٢.

٣. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب النهي عن القول بالقدر (٣٣٣٧)، وأحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ﷺ (٣١١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤٧٠٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نَسَمَة تكون إلى يوم القيامة..."[1].

وقال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذريَّة بيضاء كهيئة الذر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى، فخرج منه ذُرِّيَّة سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك.

ثم قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي، وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار، ولا أبالي، وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة، ثم أعادهم جميعًا في صُلْب آدم.

وقال ﷻ فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ (الأعراف:١٠٢)، وهذا القول قد ذهب إليه كثير من قدماء المفسرين؛ كسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعكرمة، والكلبي.

أما القول الثاني: فلقد ذهب القائلون به - وهم أصحاب النظر وأرباب المعقولات - إلى أن الله ﷻ أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم، وذلك الإخراج تمثَّل في أنهم كانوا نُطْفَة[2] فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات وجعلها عَلَقَة[3]، ثم مُضْغَة[4]، ثم جعلهم بشرًا سَويًّا، وخلقًا كاملًا، ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان[5].

وقال الشوكاني في "فتح القدير": و "إذ" منصوب بفعل مقدَّر معطوف على ما قبله، وقوله: ﴿مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ استدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا: هم ذرية بني آدم، أخرجهم الله من أصلابهم نسلًا بعد نسل.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: ومعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ دلَّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد. فتكون هذه الآية الكريمة من باب التمثيل، كما في قوله ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت).

وقيل: المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام، وأنه جعل فيها من المعرفة، ما فهمت به خطابه ﷻ.

وقيل: المراد ببني آدم هنا: آدم نفسه، كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره، فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد وهم في عالم الذرِّ، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لثبوته مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وموقوفًا على غيره من الصحابة، ولا ملجئ للمصير

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأعراف (٣٠٧٦)، وأبو يعلى في مسنده، مسند الأعرج عن أبي هريرة ﷺ (٦٣٧٧)، وحسنه الألباني في المشكاة (١١٨).

٢. النُّطْفَة: الخَلِيَّة الجنسيَّة الذَّكريَّة الموجودة في المَنِيِّ.

٣. العَلَقَة: قطعة من دمٍ غليظ جامد، وهي طور من أطوار تكوين الجنين.

٤. المُضْغَة: العَلَقَة التي خُلِق الإنسان منها إذا صارت لحمًا.

٥. التفسير الكبير، الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٠١هـ، عند تفسير هذه الآية.

إلى المجاز. قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ هو بدل من بني آدم، بدل بعض من كل. وقيل بدل اشتمال قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: قرأ الكوفيون وابن كثير "ذريتهم" بالتوحيد، وهي تقع على الواحد والجمع. وقرأ الباقون "ذرياتهم" بالجمع. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أشهد كل واحد منهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾أي: قائلًا: ألست بربكم، فهو على إرادة القول: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾أي: على أنفسنا بأنك ربنا[1].

قال الإمام محمد رشيد رضا في تفسيره "المنار": "هذه الآيات بدء سياق جديد في شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أَوْدَعَ في فطرتهم، وركَّب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتمجيده وشكره، في إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل. فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة، ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة، أو سياق على سياق.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) "الظهور": جمع ظَهْر، وهو العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هوقوام بنيته، و"الذرية": سلالة الإنسان من الذكور والإناث وإن بعد الزمن بين الأصل والفرع.

في إثر ذِكر أَخْذ ميثاق الوحي على بني إسرائيل خاصة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة؛ إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطنًا بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدِث، وأن فوق كل العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات ـ سلطانًا أعلى على جميع الكائنات، وهو الأول والآخر، وهو المستحق للعبادة وحده"[2].

ثالثًا. محدودية الإدراك العقلي مع جحود الإيمان، هما اللذان أوقعا هؤلاء في هذا الفهم الخاطئ:

هناك بعض المسائل يصعب إيضاحها عقليًّا، ولكن يمكن بحث إمكانيتها وعدم استحالتها، وإذا كان الله تعالى يقول شيئًا فلا يبقى هناك مجال لأي اعتراض، ونستطيع تناول الحوار الذي تضمَّنته آية سورة الأعراف من جهتين:

- أحدث هذا الأمر؟ وإذا حدث فكيف يمكن البرهنة عليه؟
- هل شعر الفرد المؤمن بهذا الأمر؟

قِسْم من المفسرين يقولون: إن أخذ هذا العهد تم في عالم الذرة، عندما كان في شكل ذرات، وأنه تمَّ أخذ هذا العهد من هذه الذرات التي ستتركب فيما بعد، ومن روحها أيضًا، وقال آخرون: إن هذا العهد يُؤخَذ عندما يسقط الطفل في رحم أمه.

والحقيقة أن تكلم الله مع مخلوقاته يكون بأشكال مختلفة لا يعلم كيفيتها إلا هو، ونحن نتكلم بشكل وأسلوب معين، ولكن لنا أيضًا أساليب أخرى في

فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، عند تفسير هذه الآية.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت، ج٩، ص٣٨٦، ٣٨٧.

الكلام النفسي واللفظي؛ لأن لنا مشاعر داخلية وخارجية، وعقلًا، وروحًا، وظاهرًا، وباطنًا؛ فمثلًا نتكلم في أحلامنا، ونسمع كلام الآخرين كذلك، ولكن الموجودين بالقرب منا لا يسمعون هذه الأحاديث، ثم نقوم وننقل ما قلناه وما سمعناه في الحلم إلى الآخرين.

والوحي شكل آخر، وكان رسولنا الكريم ﷺ يأتيه الوحي، وهو في كامل وعيه، ولم يكن أي شخص عدا الرسول ﷺ يسمع أو يفهم شيئًا. والإلهام الذي يحل في قلب الولي شكل آخر من أشكال التحدث، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى أنه إن قام بمحاولة قياس ما يراه ويسمعه في عالم المثال، وفي عالم البَرْزَخ[1]، وفي عالم الأرواح بمقاييس هذا العالم فإنه يقع في خطأ جسيم، فالصادق الأمين ﷺ يخبرنا عن سؤال القبر، وكيف يتم، ولكن أحدًا من الموجودين لا يسمع أو يرى شيئًا، لذا فإن قول الله ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ هو خطاب خاص للأرواح، ولا يمكن توقع سماعه، أو حفظه من قِبَلِنا، فربما انعكس هذا في وجداننا، أي نستطيع أن نشعر بهذا الإلهام الذي انعكس على وجداننا.. وعندما يستمع الإنسان إلى وجدانه وينزل إلى أعماقه، يرى ويحس هناك بوجود رغبة شديدة في الإيمان بمعبود أزلي وأبدي، إذن فهذا الجو هو الدليل على الجواب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، للخطاب الإلهي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

وإذ أتينا إلى الإثبات العقلي، فمن الطبيعي ألا يستطيع العقل إلا إثبات المحسوسات كإثبات وجود شجرة الصنوبر.. فمثل هذا الإثبات غير وارد هنا، ولكن من استمع إلى وجدانه واستبطن داخله رأى هذا وسمع ذلك الصوت وأدركه وأحس به.

إن العلم يقين، وظن، وغلبة ظن، وتكافؤ في أدلة، وشك، وفرض، واليقين نفسه مراتب أقلها علم اليقين[2]، ثم عين اليقين[3]، ثم حق اليقين[4].

وقد يشك الإنسان فيما يحصِّله عن طريق حواسه، لكنه لا يشك فيما يأتيه عن طريق الوحي، فالاعتراف يُعرف بسيد الأدلة، وقد يشك في العلم الذي يأتي عن طريقه؛ لأن المعترف ربما يتستر على غيره، ولد أو قريب، أما خبر السماء فصدق وحق.

وقد أتانا في الوحي المعصوم ـ القرآن ـ أن الله قد أخذ الذَّرَّ من أصلاب وظهور بني آدم، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم، وشهدوا من خبر السنة أن الله أذن للكائنات أن تلبي إبراهيم بالحج، فمن لبَّى مرة حج مرة، ومن لبى عددًا حج بقدر العدد الذي لبى.

وإن هذا غيب يمثِّل الإيمان به إيمانًا بالغيب يُمَدْح المؤمنون بقدر تحققه فيهم، فالأصل أن ما لا يستطيع المؤمن أن يبرهن عليه طبق فيه قوانين الغيب، فأجراه على ذهنه مجرى الغيب. وإن أهل التصديق بالغيب أحسُّوا أنهم يتذكرون هذا اليوم من فرط إيمانهم بصدق الوحي عن هذا الغيب.

وليقارن الناس بين موقف أبي بكر الصديق ﷺ، وموقف غيره من حادثة الإسراء، وقد كانت غيبًا على

١. البَرْزَخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى يوم البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ.

٢. علم اليقين: هو ما حصل عن نظر واستدلال.

٣. عين اليقين: هو ما حصل عن مشاهدة وعيان.

٤. حق اليقين: هو ما حصل عن العيان مع المباشرة.

الناس، فقال أبو بكر: إنِّي أصدِّقه في أبعد من ذلك.

ثم: إن الذي يطلب دليلًا على ما أخبر الله في كتابه، يبرهن على أنه شاك في خبر الله نفسه، وفي كتابه، وإن لم يكن هذا فكرًا له، فليراجع إيمانه بخبر الله وكتابه أولًا، وليُقِمْ له الدليل على أن هذا خبر الله الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فليسأل نفسه أولًا: هل قال الله هذا أو لم يقل؟ فإذا كان على يقين بأن الله تعالى قال هذا، فليسأل: هل هذا الخبر الذي أيقنت أنه من عند الله على طريقة الحوار، حدث بالفعل؟ أو أنه صورة تمثيلية حوارية، لما أودعه الله في النفس البشرية من فطرة غريزية ميّالة إلى الإيمان بالله؟

وبناء على هذا يثبت اليقين بالخبر، ويبقى الأمر في فهم الخبر، وإيماننا بفهم الخبر فرع عن إيماننا بالمخبِر، ثم إيماننا بمضمون الخبر وكيفيته، أيًّا كان فهمنا له، ففي كل الأحوال لا يبعد عن الله تعالى الذي آمنا به أن يفعل أية كيفية[1].

ونخلص مما سبق كله إلى أن الذي دعا هؤلاء إلى إثارة هذه الشبهة هو اهتمامهم بالمدركات الحسية وبعالم المحسوسات والماديات فحسب، وإنكارهم لعالم الغيبيَّات.

ومن ثَمَّ راحوا ينكرون مضمون قوله ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ وذلك لأن منهجهم الحسي دفعهم دفعًا إلى أن يثيروا مثل هذه الأسئلة:

كيف حدث مثل هذا الحوار؟ ومتى؟ وما الدليل عليه؟

وواضح أن مَرَدَّ هذه الأسئلة يرجع إلى افتقادهم الدليل الحسي الذي يثبت وقوع مثل هذا الحوار السابق.

وأن فيما ذكرناه في تفسير هذه الآية من أدلة واضحة يؤكد خطأ هؤلاء، وخطأ ما استندوا إليه.

الخلاصة:

- توحيد الربوبية: هو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء، ولا رب غيره، وبعبارة أخرى: هو الإقرار بأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المدبر، وهو الذي يعطي ويمنع، ويحي ويميت، لا يشاركه أحد في فعله ﷻ.
- الذي قاد هؤلاء الجاحدين إلى إنكار الميثاق وإلى التساؤل عن حدوثه ووقته ودليله ـ هو فهمهم الخاطئ، واهتمامهم بالمدركات الحسية وعالم الماديات والمحسوسات فحسب، وإنكارهم لعالم الغيبيَّات، ومن ثم فقدوا الدليل الحسي على الاقتناع بهذا الأمر، بيد أن الإدراك العقلي لأمور الغيب محدود؛ لأن العقل عاجز على التكييف الصحيح لهذه الأشياء بحكم أنها خارجة عن نطاق الزمان والمكان والمادة المحدود بها عقل الإنسان.
- تنص كتب التفسير على أن الله ﷻ أشهد العبادَ على أنه سبحانه الرب المستحق للعبادة، وهم في صلب

---

١. انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ٢٠٠٥م. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م. شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، مرجع سابق.

آدم، ولا غرابة في ذلك، مع عدم وجود الدليل المادي؛ فليس غياب الدليل المادي دليلًا على عدم الحدوث من الأصل، وليس الجهل بالشيء دليلًا على عدم وجوده، وهناك مئات الأشياء تحدث للإنسان، وليس عليها دليل مادي، وأبسطها الحلم الذي يراه الإنسان، فهو يتحدث مع الآخرين ويسمع منهم دون أن يشعر به غيره، بل دون أن يشعر به من يحدثه في الحلم، فهل يمكن مع هذا إنكار حديث الذرات في صلب آدم مع ربها؟!

الشبهة الخامسة

الفهم الخاطئ لحوار الله مع الملائكة حول استخلاف آدم عليه السلام في الأرض(*)

مضمون الشبهة:

يخطئ بعض المغالطين في فهم طبيعة المشهد الذي حاور فيه الله عز وجل ملائكته حينما أمرهم بالسجود - تشريفًا وتكريمًا - لسيدنا آدم عليه السلام قبل استخلافه في الأرض، ويقولون: إذا لم تكن الملائكة قد سجدت لآدم عليه السلام كما أمرها الله عز وجل، فقد عصت أمره واعترضت عليه، وإذا كانت قد سجدت له حقًّا، فقد أشركت بالله حين سجدت لغيره. كما يتساءلون متعجبين: كيف يستشير الله الملائكة في أمر يريد تقديره، ألا يتنافى هذا مع صفته "العليم"؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الفهم الصحيح للحوار الذي جرى بين الله وملائكته من شأنه أن يقوِّم الأفهام المغلوطة؛ وذلك أنه حوار خرج مخرج الاستشارة التعليمية، بَيْد أن الله عز وجل أراد به إطلاع الملائكة على حكمة استخلاف آدم في الأرض.

٢) سؤال الملائكة لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: ٣٠) ليس اعتراضًا، وإنما كان طلبًا لمعرفة الحكمة من استخلاف غيرهم في الأرض.

٣) لم يستشر الله عز وجل ملائكته في استخلافه خليفة في الأرض، وغاية ما في الأمر أنه أخبرهم بشيء قدَّره.

٤) السجود لآدم عليه السلام كان طاعةً لأمر الله تعالى وتكريمًا لآدم عليه السلام في الوقت نفسه، هذا فضلًا عن أن السجود في اللغة من معانيه: التحية، ومن ثم فلا يُحْمَل على سجود العبادة الذي يقتضي الإشراك بالله، وهذا لا يمكن أن يكون بأمر الله.

٥) إبليس ليس من الملائكة كما يفهم هؤلاء، ولكنه مخلوق من النار؛ لأنه من الجن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (الكهف: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، لذلك صدرت منه المعصية؛ ولو كان من الملائكة ما عصى؛ لأنهم مجبولون على طاعة الله، قال تعالى عن الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ (التحريم: ٦).

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. البيان في تحليل الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م. موقع ابن مريم. www.ebnmaryam. موقع إسلاميات. www. islamyat.com.

التفصيل:

أولا. الفهم الصحيح لحوار الله مع الملائكة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة) حوار تثقيفي حول الواقع الجديد الذي أراد الله ﷻ إيداعه في الأرض التي لم يكن لها أي دور في الوجود الحركي آنذاك، وربما كان للملائكة فيها بعض الدور في مهماتها التي أوكلها الله إليهم في النظام الكوني:

قال ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يملك العقل، والإرادة، وحرية الحركة، وإمكانات الإبداع، وتنوع الإنتاج، لينظم لها حركتها، وليدبر أوضاعها، ويصنع فيها مجتمعاتها التي تمتلئ بها ساحاتها، فيكون الإنسان في الأرض تمامًا مثل الملائكة في السماء، مع أن الإنسان مسئول عن أعماله، بينما الملائكة مجبولون على الطاعة. ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، من هذا النوع الإنساني الذي يعيش الصراع بين العقل والغريزة في شخصيته، ويختزن عناصر النزاع والخلاف، والرغبة في التدمير، والأنانية في التملك، والتسلط في ذاته، مما يؤدي إلى الإفساد المادي والمعنوي، وإلى سفك الدماء، فتعيش الأرض من خلال هذه التعقيدات والاهتزازات في جو من الحروب المفسدة والمدمرة للمدن والبشر معًا، مما يبعدها عن السلام الموحي بالخير، والمحبة والصفاء، والمساعدة على الحق في روحانية الإيمان، وحركية التقوى، والقرب منك - والكلام جارٍ على لسان حال الملائكة -، فيحل محل ذلك الحقد والعداوة والبغضاء والتنازع والتقاطع، وينفتح الواقع على الباطل في ضراوة الشر، وقسوة الجريمة، وقذارة الشعور، وسقوط العقل.

وإذا كانت حكمتك - والكلام في معناه للملائكة - من استخلاف الإنسان في الأرض أن يسبحك ويقدس لك ويعبدك، باعتبار أن العبادة هي غاية خلق من تخلقه، فإننا لن نبلغ كنه الحقيقة العميقة فيها؛ لأن الكون لا يعيش الفراغ من هذه الجهة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ الأرض والسماء، حتى يتحول الكون من حولنا إلى تسبيح وانفتاح عليك في كل مواقع القرب إليك، وربما خُيِّل إلينا أننا أقرب إلى الخلافة من هذا المخلوق الجديد؛ لأننا نطيعك، ولا نعصيك، وهو يخلط الطاعة بالمعصية، والاستقامة بالانحراف، مما يجعل النتائج سلبية في حركته، بينما هي إيجابية في وجودنا.

وقال ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنكم تعرفون من الأشياء ظواهرها، ولا تنفذون إلى بواطنها؛ فقد تكون هناك بعض المفاسد في التقديرات الوجودية المتصلة بالكون والإنسان، ولكن المصالح كامنة فيها، وحاصلة في إيجابياتها، وذلك من خلال النظام الكوني المحدود الذي لا تجد فيه خيرًا إلا ومعه شر، كما لا تجد فيه شرًّا إلا وهناك خير في داخله، لتكون المعادلة هي غلبة هذا الجانب على ذلك في مسألة أفضلية الوجود على العدم، أو أفضلية العدم على الوجود.

إن مشكلتكم هي أنكم لا تملكون الوعي الكامل الشامل المنفتح على كل حقائق الكون في حركة الخلق

والوجود، ولذلك فإنكم تعرفون جانبًا واحدًا من الصورة، ولا تعرفون الجوانب كلها، وسوف تعلمون من نتائج هذا الخلق كثيرًا من الأشياء التي تضيف إلى علمكم علمًا وإلى وعيكم سعة وشمولًا.

ولقد أثبت سلفنا الصالح صفة الكلام لله ﷻ، من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تأويل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى).

مَنْ الخليفة: آدم أم النوع الإنساني كله؟

الظاهر من الآية الكريمة أنه النوع الإنساني كله؛ لأمرين:

الأول: أن آدم الشخص محدود بمدة زمنية معينة ينتهي عمره بانتهائها، فكيف يمكنه القيام بهذا الدور الكبير الذي يشمل الأرض كلها ويتسع لكل هذه المرحلة الممتدة من الحياة.

الثاني: أن الملائكة قد وصفوا هذا الخليفة بأنه يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء، وهذا الوصف لا ينطبق على آدم، بل ينطبق على بعض الجماعات التي يتمثل فيها النوع الإنساني في مدى الحياة.

وقد نلاحظ في هذا المجال أن هذا اللفظ "الخليفة" قد استخدم في خطاب بعض الأنبياء والناس في أكثر من آية. وربما نستطيع من هذا، أن نستوحي الفكرة القائلة بأن تعليم آدم الأسماء ليس تعليمًا دفعيًّا، بل هو تعليم القابلية والإعداد بالشكل التدريجي الذي تواجهه البشرية في السلم التطوري للعلم.

وقد يتساءل بعضهم: إن الله حدد في بعض الآيات الكريمة الاستخلاف للمؤمنين، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥)، فكيف تقول: إن المراد بالخليفة النوع الإنساني كله؟

والجواب: أننا قد قلنا: إن الخليفة هو النوع الإنساني في مقابل التحديد بشخص آدم، فإن الخلافة على قسمين: عامة، وخاصة. أما العامة: فهي التي جعلها الله للنوع الإنساني بشكل عام في مقابل الفصائل الأخرى من الموجودات الحية من خلال ما منحه من الطاقات والخصائص العامة التي يستطيع أن يستخدمها فيما يريده الله، أو فيما يمكن أن يصل به إلى رضاه، وأما الخاصة: فهي الولاية والسيطرة على الآخرين بشكل مباشر، وهو ما تعبر عنه هذه الآية التي توحي بأن الله سيمكن للمؤمنين في الأرض، ويمنحهم السلطة الفعلية، كما منح آدم من قبلهم، فلا تنافي بين ما ذكرناه وبين معنى الآية.

ثانيًا. استفسار وتعجب لا اعتراض واستنكار:

أخبر الله ﷻ الملائكة بأنه سيخلق خليفة له في الأرض، فردَّ الملائكة متعجبين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولا يُفْهم هذا التساؤل على أنه إبداء رأي أو اعتراض، ولكنه تعجب مما سمعوا على ضوء ما علموا، من صور الإفساد في الأرض، فهم يعلمون من أحوالهم أنهم لا ينقطعون عن عبادة الله تعالى، وقد علموا من بعض أحوال هذا "الخليفة" أنه يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، فقابلوا حالهم بحاله، فكان التعجب من أن يستخلف ﷻ مكان أهل الطاعة، أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يدبر إلا الخير، وكأن الملائكة كانوا يتطلعون لأن يعمروا الأرض كما عَمَروا السماء، وأنكروا أن يوجد

خلق يعصي الله ويجحد نعمته، وكان التساؤل لمعرفة ما لا علمَ لهم به، ويتفرد بعلمه العليم الحكيم، وهم الذين قالوا في نهاية قصة آدم عليه السلام في هذه السورة: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (البقرة)، ثم إنهم لما عرفوا الحكمة وأُمروا بالسجود له سجدوا ولم يعصوا ربهم.

ثالثًا. الحكمة من إخبار الله ملائكته باستخلاف آدم في الأرض:

الله تعالى لم يستشر الملائكة كما ظن بعض الجاهلين، فهو ﷻ لم يقل: أشيروا عليَّ بمن أخلقه على هذه الأرض ليكون خليفة، ولكنه ﷻ أخبرهم بما قرره، وأكد أنه دبرَّ هذا وكان أمرًا مقدورًا، فالأمر لا يحتمل استشارة أو أخذًا أو ردًّا بعد هذا القرار الصادر المؤكَّد: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ بـ "إن" والجملة الاسمية.

والحكمة في إخبار الله ﷻ للملائكة بخلق آدم عليه السلام، واستخلافه في الأرض، تعليم عباده أن يتشاوروا في أمورهم قبل أن يُقْدِموا عليها، فالشورى مطلوبة في أمور الدين والدنيا، كما قال ﷻ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الشورى: ٣٨). وهذا ما قاله المفسرون، وهم لا يعنون بذلك أن هذا الإخبار استشارة من الله تعالى، بل ينفون ذلك، ويذهبون إلى أن هذا الإخبار جاء على صورة المشورة؛ تعليمًا للخلق أن يستشيروا في أمورهم.

فلم تكن إذن استشارة؛ فلله العلم كله والحكمة كلها، ولا يحتاج لاستشارة، ولكنه إخبار بعلم لم يكن لدى الملائكة، وهو أن الله سيجعل آدم خليفة في الأرض، وموضوع الإخبار ليس خلق الإنسان ولكن جعله في الأرض خليفة.

وقيل: إنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة، وما أجيبوا به من بعد.

ولولا إعلام الله السابق للملائكة بما سيُحدثه الخليفةُ في الأرض من إفسادٍ وسفكِ دمٍ لما علموه من أنفسهم، وهذا الإعلام السابق قد يطويه الحوار هنا، ولا يذكره مفصَّلًا، وقد عودتنا حوارات القرآن الكريم في الموضوعات المختلفة، أن تطوي كثيرًا من التفاصيل فلا تذكرها؛ اعتمادًا على الإجمال وعلى فطنة السامع، وربما تكون كلمة "خليفة" تجمل هذا التفصيل؛ فالخليفة "عن الله" من مهامه الفصل بين المتخاصمين بإقامة العدل بينهم، بشريعة الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (ص)، وهذا يقتضي خصومات وتظالمًا وفسادًا.

وقيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوه ممن كان قبل آدم من الجن، قاله قتادة. وقال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة، فطردوهم إلى جزر البحار. ولعلهم أدركوا ذلك أيضًا من طبيعة تكوينه وعناصره التي رُكِّب منها، فهو مخلوق من طين، وهي مادة قذرة متفاعلة، متغيرة لا تثبت على حال، وقال الزمخشري: عرفوا بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم.

وسؤال الملائكة عن الحكمة، والتعجب مما عرفوا،

لا يعد طعنًا في آدم قبل خلقه، ولا غيبة له، فإن الطعن والغيبة تتحقق عندما يكون القصد إظهار منقصة الغير، وليس الأمر كذلك، كما أن إخبارهم عن أنفسهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) ليس فيه تزكية لأنفسهم؛ فإن التزكية الممقوتة تكون حين يكون الهدف إظهار منقبة النفس، ولكنهم تساءلوا في حدود ما علموا تعجبًا، وطلبًا لعلم أمور لم يعلموها.

رابعًا. سجد الملائكة لآدم عليه السلام بأمر الله طاعة له وتكريمًا لآدم:

إنَّ سجود الملائكة لآدم عليه السلام ليس شركًا كما زعم هؤلاء، ولكنه طاعة لأمر الله عز وجل، وتكريم لآدم عليه السلام المخلوق الذي خلقه بيديه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ (البقرة: ٣٤)، وكان تكريم آدم بسجود الملائكة له تكريمًا بأمر الله تعالى، ولا يمنع أن يأمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم تكريمًا له، مع أنهم يعبدون الله بالسجود له سبحانه وتعالى، كما قال عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ (الأعراف)، وتقديم المعمول على العامل هنا يفيد الحصر، أي أنهم لا يسجدون إلا له سبحانه وتعالى، فإن سجود الملائكة لآدم عليه السلام أمر - أو فرض - مخصوص، وهو عبادة لله كذلك بامتثالهم أمر ربهم سبحانه وتعالى.

فالسجود إذن كان لأمر الله تعالى، والعمل بالنية، والنية في سجود الملائكة لم تكن عبادة آدم، ولكنها طاعة لأمر الله، وأمر الله لا بد أن يُطاع، كما أن في أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تمام تسخيره تعالى الكون بما في ذلك ملائكته المكرمون، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

والملائكة مطبوعون على طاعة الله، وليس لديهم القدرة على العصيان، فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم)، ولذلك عندما أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يسجدوا لآدم عليه السلام لم يكن منهم سوى الطاعة لله، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله وأمره، كما في قول الله عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠)، فإن هذا السجود - أيضًا - بأمر الله فالرؤيا التي رآها يوسف، وقصها على أبيه رؤيا حق، وقد علم يعقوب تأويلها®.

خامسًا. إبليس من الجن وليس من الملائكة:

لم يكن إبليس من الملائكة كما ظن بعض الجاهلين؛ إذ لو كان منهم لسجد معهم لآدم عليه السلام، ولكنه أبى أن يسجد، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (الكهف: ٥٠)، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أخرجه من جنس الملائكة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تأكيد أن إبليس من الجن؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار، يستطيع أن يطيع، ويستطيع أن يعصي، وما دام له اختيار فإنه ليس من الملائكة؛ إذا إنهم مفطرون على الطاعة؛ ولذلك فإن الإنس أو الجن الذي يكون قادرًا على المعصية ويطيع

® في **"حقيقة سجود الملائكة لآدم"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). وفي **"دعوى أن خيرية إبليس تمنعه من السجود لآدم"** طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

الله عن طواعية يكون أعلى منزلة من الملك.

وقيل: إنه أُمِر بالسجود وحده، وليس مع الملائكة، بدليل قوله ﷻ: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف: ١٢)، وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ منفصلًا بمعنى: لكن، أي: فسجدوا، لكن إبليس لم يسجد، وقد سُمِّي إبليس بهذا الاسم لطرده من رحمة الله، مأخوذة من "الإبلاس"، ومعناه اليأس والطرد والإبعاد.

كما أن الملائكة خُلقت من نور، وإبليس خلق من نار، فإبليس يقول عن نفسه بصريح العبارة في القرآن: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف)، وقد ثبت في الصحيح: "خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[1]. والملائكة لا ذرية لهم، ولا تناكح ولا تناسل، بخلاف الجن، فإنهم يتناكحون ويتناسلون ولهم ذرية، قال تعالى عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ (الكهف: ٥٠)، وقد قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين[2] ®.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٧٦٨٧).

٢. انظر: قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، حمزة النشرتي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م. التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، دار الرسالة، القاهرة، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق.

® في **"حقيقة إبليس وكونه من الجنّ أو الملائكة"** طالع: الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- إن الفهم الصحيح للحوار الذي دار بين الله ﷻ وبين ملائكته الكرام في هذا الصدد - يقوِّم الأفهام المغلوطة التي صدر عنها مثيرو هذه الشبهة.
- لا يُفْهَم تساؤل الملائكة في قوله ﷻ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ (البقرة: ٣٠) على أنه إبداء رأي أو اعتراض، ولكنه تعجب مما سمعوا من صور الإفساد في الأرض، وطلب منهم لمعرفة ما خفي عليهم مما لا علم لهم به.
- لم يستشر الله ﷻ ملائكته الكرام في استخلافه خليفة في الأرض، وغاية ما في الأمر أنه أخبرهم بما قدَّره، وإن الحكمة في إخباره إياهم باستخلاف آدم في الأرض هي تعليم العباد أن يتشاوروا في أمورهم قبل أن يُقْدموا عليها.
- لم يكن تعجب الملائكة وإخبارهم عن الفساد الكائن في الأرض، رجمًا بالغيب، وإنما علموا ذلك ممن كان قبل آدم من الجن، أو ربما أعلمهم الله ﷻ به، كما أنه لا يُعَدُّ طعنًا في آدم عليه السلام قبل خلقه، ولا غيبة له.
- إن الامتثال لأمر الله بالسجود لآدم لا يُعَدُّ شركًا بالله، بل هو طاعة وتسليم، كما أنه تكريمٌ وتعظيمٌ لآدم عليه السلام، وفيه دلالة على أن الملائكة مُسَخَّرون لأمر الله رب العالمين كسائر المخلوقات في السماوات والأرض.
- إن إبليس - عليه لعنة الله - ليس من الملائكة؛ إذ إنهم مطبوعون على طاعة الله سبحانه وتعالى في كل أمره، كما أنه مخلوق من نار السموم، فهو من الجنّ وهي

مخلوقات مغايرة للملائكة المخلوقة من نور.

الشبهة السادسة

ادعاء أن النبوات والمعجزات والشعائر الدينية خرافات(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الجاحدين أن النبوات والمعجزات والشعائر الدينية ما هي إلا خرافات وأساطير، وأن الله - في فهمهم - كصانع الساعة؛ صنعها، ثم انقطعت صلته بها، وهي تعمل بذاتها دون تدخل منه.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إن بَعْث الله ﷻ للأنبياء والرسل كان لِحِكَم إلهية جليلة وضرورات بشرية عديدة: عقلية، وتكوينية، وشرعية، ونفسية. فليست النبوات خرافات، وما ينبغي لها أن تكون كذلك.

2) المعجزات خرق للنواميس المعتادة، وهي إحدى علامات النبوة، التي تدفع الناس إلى التصديق بالأنبياء والإيمان بما جاءوا به.

3) الطقوس وشعائر العبادة لا تخلو منها ديانة، والذين ينكرون الأديان هم أنفسهم يقدسون رموزهم، فاستبدلوا بذلك عبادة باطلة بعبادة حقة.

4) الكون لا يشبه الآلة الصماء "الساعة"، ولكنه يمر بتحولات، وينتقل من حال إلى حال؛ فهو بذلك ألسنة ناطقة بافتقاره الدائم إلى صانعه ومدبره.

التفصيل:

أولا. الحكم والضرورات التي تقف وراء إرسال الله ﷻ أنبياءه ورسله:

لقد بعث الله ﷻ أنبياءه ورسله ليبلغوا رسالته لعباده؛ فيخرجوهم من الظلمات إلى النور بإذنه. وإن هناك ضرورات عديدة وحِكَمًا إلهية جليلة، تقف وراء بَعْثهم، وذلك على التفصيل الآتي:

1. **الضرورة العقلية:**

إن الإنسان خُلق - بفطرته - وفي داخله قوتان متصارعتان: الخير والشر، قال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ (الشمس)، وهذا ما نعبر عنه بالجهاز العقلي الكاشف والداعي للخير من جانب، ومن جانب آخر الأهواء والشهوات الداعية للشر واللهاث المادي، فأمام إغراءات الدنيا وشهواتها يتضاءل دور العقل، فينسى الإنسان الفطرة السليمة والعقل النَّيِّر؛ فيمشي خلف شهواته الدنيوية، بينما تبرز حاجة العقل البشري إلى القوة الغيبية المبدعة التي طالما تنادي بيقظة العقل وإثارة دفائنه، وتنبِّهه، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ (الغاشية)، وقال كذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠)﴾ (الأعلى).

فكلما ابتعد الإنسان عن رؤى عقله، أو بمعنى آخر كلما حجبت الأعمال السيئة دور العقل نادى الرسول - أيُّ رسول - ونادت الرسالة الإلهية بالعودة إلى دور العقل والتفكير في سبيل النجاة ضمن البرامج الشرعية، وفَسْح المجال أمام الشهوات لِتُحَقِّق بالطرق

(*) نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، مصر، ط١، ١٩٨٥م.

المشروعة إنقاذَ الإنسان من عُقَد الكبت والانعزال، وهنا تُحقق العدالة الإلهية بأوسع معانيها؛ حيث نلاحظ أن جانب الفجور لدى الإنسان له ما يثيره ويستهويه ويجلبه ويحركه نحو الشر، ويزين له النتائج، ذلك الشيطان والدنيا واللذات والغرائز الفطرية، فمن الطبيعي أن تشملنا العدالة الإلهية، حيث يضع العدل الإلهي من يذكِّر الإنسان ومن ينبهه ويجليه ويهذبه، فمن ذلك الرسول والرسالة، وهذا هو الهدف الرئيسي من إرسالهما.

فالنبي المرسل والرسالة السماوية إذن ضرورة عقلية، فلا بد من الرسول ومن الرسالة لتحقيق العدالة الإلهية، والتوازن الطبيعي ما بين قوى الشر وقوى الخير المتصارعة في ذات الإنسان وعُمْق المجتمع البشري، ولا بد من الانتصار للعقل الإنساني، فهو بحاجة ماسَّة إلى دعْم غيبي لينتصر على قوى الشر، كما أن لقوى الشر من يثيرها وينتصر لها من الأهواء والشيطان والدنيا، والآن وبعد تحقق الموازنة وإتمام الحجج الباطنية والظاهرية يُترك الإنسان إما شاكرًا، وإما كفورًا، كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان).

وأما من يدَّعي قدرة العقل على التوجيه والهداية للإنسان من دون الأنبياء والرسالات، فهو بعيد عن الدقة، مخالف للصواب؛ إذ نلاحظ عبر التاريخ أن المصلحين - مهما بلغوا من القدرة العقلية - ما استطاعوا تحقيق التوجيه والهداية بالشكل المطلوب؛ لأن عقولنا مهما بلغت فهي قاصرة عن الإحاطة بأسرار الكون والغيب، وعن معرفة المكاسب والمصالح بالشكل التام، فنقرأ بالتاريخ أن عقل الإنسان اخترع له ربًّا من حجر أو من تمر فأكله حينما جاع، وقسَّم الآلهة إلى إله للسماء، وإله للأرض، وإله للزرع، وإله للحرب.... ويروون عن الآلهة كيف تفعل النكرات وما شابه ذلك، وكلها تصورات ونظريات ساذجة للعقل الإنساني سرعان ما تتغير، بل كثير من النظريات حتى العلمية الحديثة منها ما يفنّد بعضها بعضًا، فمثلًا الطبيعة تتبدَّل وتتغير من زمن لزمن، وكثير من الأسرار في الطبيعة والكون يكتشفها العقل بعد مرور فترة زمنية.

والله ﷻ لا يفعل شيئًا هباءً أو لَغْوًا، بل إنه يعلم علم اليقين أن هذا المخلوق - الإنسان - لا يستطيع أن يُدبِّر نفسه بنفسه مع منحه القدرة العقلية الكبيرة؛ ولذلك أرسل الرسل - عليهم السلام - وأنزل الكتب؛ لتنظيم حياة الإنسان، ووضع الضوابط اللازمة في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولو أن الله تعالى كان يعلم بعلمه الغيبي أن الإنسان يستطيع أن يستغني عن الرسالة والرسول بالاعتماد على عقله وما زوده من إمكانيات ذاتية - لتركه لشأنه، بينما نحن نلمس الحاجة الماسة للمنهج السماوي، الذي عرَّفه لنا ﷻ، فهو خالقنا وهو العالم باحتياجاتنا، وعقولنا كذلك بحاجة ماسة إلى منهجية السماء الثابتة لرسم قوانين الدنيا من العلاقات الاجتماعية: كالزواج والإرث والمعاملات الأخرى؛ لكي يتحقق رضا الله بتطبيق قوانينه الشرعية، وكذلك تبيان المفاهيم الإسلامية بالشكل العلمي، كالعدالة، والمعاد، والجنة والنار، والثواب، والعقاب.

٢. الضرورة التكوينية:

حينما نسأل عن هدف الخلق، ولماذا خُلِق البشر؟ يجيبنا القرآن الكريم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات)، وإذا سألنا ما الهدف من العبادة؟ حينها نعرف أن العبادة هي التي تضمن لنا سعادة الدنيا والآخرة، فنخرج بنتيجة واضحة، هي أن الهدف هو تحقيق المصلحة والسعادة للإنسان نفسه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ (الإسراء: ٧).

فبالضرورة التكوينية نكتشف ضرورة النبوة كي تكتمل الصورة من كل جوانبها، فلو لم تكن الرسالة السماوية موضحة لنا طريق الكمال والسعادة، ما اكتملت الصورة التكوينية للحياة بصورة عامة، وبالنسبة للإنسان بصورة خاصة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تكوين حياة الإنسان يحتِّم أنه بحاجة إلى أخيه الإنسان، وبحاجة إلى المجتمع والأسرة والأرض:

فالنَّاسُ للنَاسِ من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ

بعضٌ لبعضٍ وإن لم يَشْعُروا خَدَمُ

فالإنسان إذن خليفة الله على الأرض، وهذا المخلوق بحاجة إلى ضوابط للطموحات النفسية التي لولاها لضاعت القيم الإنسانية، وبدأ الواحد يأكل الثاني على قاعدة "فاز باللذات من كان جسورًا".

وهذه الضوابط المذكورة تحدد العلاقة بين العقل الإنساني المدبر والمستثمر لما حوله من الوجود، وما بين العقول الإنسانية الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى بينه وبين الطبيعة ذاتها، أي بينها وبين طرق الاستثمار الممكنة من الموجودات بصورة عامة، والتي يريد استثمارها.

فللنبوة إذن ضرورة تكوينية لاكتمال الصورة التكوينية للوجود، يقول د. إميل درمنجهام في كتابه "حياة محمد": "إن وجود الأنبياء ضروري لهذه الدنيا بمقدار وجود القوى الطبيعية النافعة والعجيبة: كالشمس والمطر..."، فالنبي خليفة الله في الكون خلافة كونية، وعلى الناس والقانون خلافة تشريعية فضرورته إذن تكوينية كما أنها تشريعية.

٣. الضرورة الشرعية:

القوانين الإلهية وتشريعات الحلال والحرام في المسائل الشخصية، والمعاملات العامة، والآداب، والعلاقات العامة، والأخلاق، والسياسة، وما يتصل بهذه القوانين من أمور فرعية كل ذلك بحاجة إلى تبيانه وتطبيقه، وهذا ما يقوم به النبي المرسل لتوضيح رسالة السماء، هناك إذن ضرورة شرعية في بعث النبي والرسالة، فالنبي المرسَل يعتبر المبلغ لإرادة الله الشرعية، وعن طريقه يتم التبليغ بأحكامه الشرعية، ولولاه لما استطعنا أن نحرز رضا الخالق الكريم عبر تطبيق دساتيره، فقد قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأعراف).

ومن ناحية ثانية نحن ـ البشر ـ لا ندرك سوى هذا العالم المحيط بنا بنسب معينة من العلم به، فنحن بحاجة إلى معرفة أبعاد خلق الله عز وجل وما أُعِدَّ للإنسان في الآخرة من ثواب وعقاب، وكيف نعتقد بالعودة يوم القيامة، حيث الحساب؟ وقبل يوم الحساب عالم البرزخ؟ وما الذي يجري في عالم البرزخ وكيف يكون القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر

النيران... ؟ هذه الأمور وضَّحها الأنبياء - عليهم السلام - لنا، فالإنسان وحده لا يمكنه أن يتعرف على هذا المستقبل المبهم بوحي من نفسه لذلك نحن نحتاج إلى من يرفع عنا هذا الإبهام، ويعطينا أسس الاعتقاد والإيمان بالمعاد والبرزخ والجنة والنار والنعيم والعذاب، فمن مهمات الرسالة السماوية والنبي المرسل توضيح هذا المستقبل المرتقب.

ومن ناحية ثالثة نحن بحاجة إلى برنامج روحي يضمن سلامة الاعتقاد وصلاح النفس والثبات على المبدأ عن طريق العبادة، أو سبيل التزكية للنفس لضمان الاستقامة، وهذا ما يوضِّحه لنا كذلك النبي المرسل والرسالة السماوية. قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة).

ومع فقدان هذا البرنامج سَيُجَزَّأ الفراغ العقائدي إلى عقائد، أو اختلاق أفكار تسدُّ هذا الفراغ العقائدي؛ فيتمسك بها الإنسان على مستوى الخرافات والتقاليد الرجعية التي لا تعرف العلم والوجدان والحق، كما كان لدى الهنود تقاليد دفن الزوجة وهي حية مع زوجها المتوفَّى، وكان عند بعضهم الآخر من الهنود عقيدة أكثر فسادًا وانحرافًا من هذه، حيث يحرقون الزوجة أو الزوجات على قبر الزوج المتوفى بعد أن تخرج مسيرة كبيرة لتشييع جثمان الزوج، هذه المسيرة ترفع الأناشيد والأهازيج بالطبول والمزامير حتى تصل إلى القبر، فتنصب محرقة ضخمة على القبر بعد دفن الزوج، لترمى فيها الزوجة المسكينة أو الزوجات طُعْمَة لهذه النار الملتهبة.

بينما الشريعة السماوية تضع برنامجًا روحيًّا خالصًا من هذه الشوائب الغريبة وتحدد حقوق الرجل كما تحدد حقوق المرأة، وتبين ضوابط هذه الحقوق، مما يلائم الفطرة والشرف والكرامة. قال ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

٤. الضرورة النفسية:

قال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، إن مسألة القدوة في الحياة مسألة في منتهى الأهمية، ذلك أن الإنسان يرسم لنفسه أهدافًا معينة في الحياة، فإن كانت هذه الأهداف قد نفذها آخرون من قبله، وهو يعتبرها سامية في نظره، فسرعان ما يطبقها مستلهمًا من المطبِّق الأول أسلوبه ومنهجيته، والمسألة اعتيادية بالإضافة إلى أهميتها الكبيرة، وخاصة في قضية مجاهدة النفس وتزكيتها، وفي القيم الأخلاقية العالية، والتربية المركزة.

وحينما نقف في دراستنا على كيفية تعامل النَّبي - أيِّ نبي - مع الحياة الدنيوية وغرورها، ومتاعها، وزخارفها، ندرك أهمية القدوة الحسنة في الحياة، فيبدأ الإنسان المؤمن مجاهِدًا نفسه للسير على تلك الرؤى السديدة، أو الاقتراب من تطبيق تلك النظرات الواعية.

وهكذا نلاحظ أن حيِّزًا واضحًا في ذهن الإنسان يستدعي التقليد لشخص ما وفي أمر ما إيجابًا أو سلبًا حسب النظرة الأخلاقية، فهناك من يقلِّد رياضيًّا ناجحًا لملء الفراغ الذهني، وهناك من يقلد نبيًّا مقدَّسًا، ويتخذه كما في الآية المتقدمة قدوة حسنة، فمن هنا

جاءت السنة الشريفة في موقع المصدر الثاني ـ بعد القرآن الكريم ـ في القضية التشريعية، فكل قول وفعل وتقرير يصدر عن نبينا المعصوم ﷺ يعتبر سنة، وعلى المسلمين أن يتخذوا ذلك دستورًا في تطبيق أوامر الله ونواهيه.

إن البناء النفسي للإنسان هو الهدف الأسمى في الحياة؛ حيث يجسِّد مهمة الأنبياء والرسل، ومتى بُنِي الإنسان نفسيًّا على الأسس الشرعية بُنِيَت حضارة إنسانيّة ملؤها العدل والحنان، وإن البناء الذاتي المستقيم أصعب المهام التربوية؛ لذلك تسعى التربية الإسلامية لضبط البِنَى التحتية للمجتمع المسلم على أسس نقية لتتم عملية إنماء القيم الإيجابية في الداخل من الخير والعطاء والاستقامة، فالمسألة إذن في غاية الأهمية والخطورة، وقد كان الإسلام حريصًا منذ ظهوره على تربية أفراده على جهاد أنفسهم، وتقويم معتقداتهم وسلوكياتهم كما كان حريصًا على مجاهدة الأعداء الذين يصدون عن سبيل الله وينافحون انتشاره وتبليغه.

وجهاد النفس هو البناء المتين لنفسية الإنسان عبر الترويض والمعاناة لخُلق الإنسان المجاهد المضحِّي العابد المُطبِّق لأوامر الشريعة.

ومسألة نفسية أخرى تتضح من النبوة، وهي أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من البشر أنفسهم، لا من جنس آخر متباين مع الجنس البشري، ولو كان النبي كذلك لصعُبَ اتخاذه قدوة حسنة، فحينما يكون النبي من الناس، اختاره الله تبارك وتعالى لأسباب معينة؛ فهو من صميم المجتمع البشري ويعيش واقعيات الناس، ويتداخل معهم، ويتقاطع مع حياتهم في التعاون والمحبة والزواج والتجارة والقيادة في الصلاة وساحة القتال، فالصورة تكون متكاملة وواضحة وناصعة للجميع، مما يوفِّر على النفس الإنسانية ضغطًا طبيعيًّا للاستجابة للقرار الشرعي والبلاغ الإلهي منه، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠).

فالفارق الرئيسي بين النبي وبقية البشر هو الوحي المنزل من الله ﷻ كما تشير الآية المباركة. أما لو كان النبي من الملائكة أو الجن أو أي جنس آخر، لما استطاع أن يترك الأثر النفسي المطلوب والمناسب في الناس، ولما أمكن اتخاذه قدوة في الحياة البشرية، ولما انسجم الناس معه بالشكل الذي نراه اليوم من تعلق وانصياع وطاعة، وإن كان بعض الناس يعتبر كون النبي من الناس أمرًا لا يستسيغه الذوق؛ فلذلك كانت تكثر الشبهات حول النبي انطلاقًا من هذه الفكرة، لقد كانوا يريدونه نوعًا من المخلوقات خاصًّا بطبائعه مترفِّعًا عن عادات الناس؛ كالملائكة مثلًا، ولنقرأ معًا هذه الآيات الكريمات: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (إبراهيم: ١٠)، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧).

إن النبوة والرسالة تخلقان في الإنسان هذا الجو النفسي الهادئ المطمئن والمطبق للتشريع بكل تطوع وإرادة، وبهذا تتجلى الضرورة النفسية للنبوة بأبعادها الرئيسية.

٥. اللطف الإلهي:

الله ﷻ هو الذي خلقنا وأرشدنا لفعل الخير والصلاح، وحذرنا من فعل الشر؛ لأننا نجهل الكثير من مصالحنا ونتائج أعمالنا، فهو سبحانه أجل وأعظم من أن يُورِّط عباده بجهلهم، بل أراد أن يسعدهم في حياتهم الدنيوية، ويجعلهم في الآخرة من الناجين من العذاب، فهو اللطيف بعباده والرءوف بهم، فلا يترك العباد سُدًى دون توجيه، فمن باب لطفه وحنانه بعث لنا الرسل؛ كي يوضحوا لنا السُّبُل الخيِّرة ويميزوها عن السبل الشريرة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ (الإنسان)، وما دام الشكر والكفر يمثلان الأرضية المناسبة في نفسية الإنسان، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ (الشمس)، وقال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ (العلق).

إن آية سورة العلق السابقة توضح لنا الجانب السلبي لدى الإنسان؛ أي أن هناك استعدادًا بشكل ما في نفسيته لهذا الانحراف والفجور والطغيان إلا من رحم ربي: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ (يوسف).

وأمام هذه الأرضية هنالك أرضية لدى الإنسان موازية لها، وهي الأرضية الإيجابية، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (القيامة)، وقال تعالى أيضًا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ (الفجر).

إن حالة الصراع الدائمة بين الطرفين في داخل النفس الإنسانية في تفاعل مستمر، فلا بد من التوجيه الرباني لهذا الصراع الدائم، فمن كماله ﷻ المطلق، ومن باب لطفه بعباده أرسل الرسل ليتم نعمته على البشر ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، فالله ﷻ يبعث في الناس رحمة لهم ولُطفًا بهم: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة)، وينذرهم مما فيه فسادهم، ويبشرهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم، فهو اللطيف بعباده الجواد الكريم، فلا غرو إذن أن يفيض لطفه؛ إذ لا بخل في ساحة رحمته، ولا نقص في جوده وكرمه.

تعقيب:

على ما تقدم من ضرورات النبوة وقاعدة اللطف الإلهي نرى أن الشريعة الإلهية توفر وتؤمِّن للإنسان حاجاته الفكرية والروحية والمادية بالطرق المشروعة، وتؤمن له حريته في الحياة، وتمنحه حقوقه المشروعة، وتتماشى مع الواقعيات الحياتية بأبعادها الواسعة مراعية للظروف الطارئة والمتغيرات الجزئية أو الكلية.

وبهذا البيان يبطل الزعم القائل: إن النبوات خرافات، بعدما أثبتنا أنها ضرورة لإنقاذ وتوجيه الإنسانية جمعاء، و"الإيمان بالنبوة وبإرسال الأنبياء ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخِّر له ما في الكون جميعًا، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له

زاده الروحي، كما هيأ له زاده المادي، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيي به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيا به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازعه قواه وملكاته المختلفة، وتتنازع الجماعةَ أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة في عكس هذا؛ كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات، ليهدوا قومهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، قال ﷻ حكاية عن هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) ﴾ (الأعراف)، ويقول ﷻ ردًّا على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﷺ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ (يونس)[1] ®.

ثانيًا. المعجزات خرقٌ للنواميس المعتادة وليست خرافة:

إن المعجزة أمر خارق للعادة يُجريها الله على يد أنبيائه ورسله، ليتحدَّوا بها قومهم، والهدف منها تأكيد أن النبي - أيَّ نبي - مرسلٌ من عند الله، فالله هو الذي أوحى إليه وأرسله، وهو الذي أجرى المعجزة على يده، وليس في المعجزة ما يخالف عقلًا ولا علمًا حتى تُوصَفَ بأنها خرافة، والعلم بطرقه المكتسبة وبوسائله المتدرجة يتوصل إلى بعض ما جاء عن طريق المعجزة مختصرًا مختزلًا؛ فحَمْلُ الريح لسليمان وجنوده معجزة لم تأتِ نتيجة اكتساب، واستفادة من قوانين الكون، وطيران الإنسان في الجو اكتسبه الإنسان وتدرج في اكتسابه، وإحضار عرش بلقيس معجزة اختصرت الزمان والمكان، دون وسائل اكتسابه، وتنقُّل الإنسان بين أقطار الأرض عن طريق الطيران أمر اكتسبه، وتدرج في اكتسابه، ومثل ذلك إسراء النبي معجزة جاءت بدون اكتساب، وشقُّ صدر النبي ﷺ معجزة لم يعهدها البشر في عصر النبوة، ولم يعهدوها اليوم بدون اكتساب، وشق الجسد اليوم للعلاج أمر اكتسابي وليس معجزة، فالعلم لا ينكر المعجزة لغرابتها، بل ربما كانت غرابة المعجزة تفتح للعلم آفاقًا رَحْبَة ليسلك الأسباب التي توصل إلى نتائج شبيهة بها.

وما يُقال في المعجزة يقال في الوحي، فالوحي خارج عن دائرة العلم التجريبي، فإذا لم يثبته فإنه لا يحق له أن ينفيه، فليس كل ما لم يثبت عن طريق ينتفي من هذا الطريق نفسه، لأنه قد يثبت من طريق آخر.

ثالثًا. إن الشعائر الدينية الصحيحة تحمي الناس من الخرافات، فكيف تكون خرافة؟!

إن شعائر العبادة لا تخلو منها ديانة حقة أو باطلة، والذين أنكروا الأديان أنفسهم لجئوا إلى تقديس رموزهم، فاستبدلوا عبادة بعبادة. يقول د. يحيى هاشم: "والشيء العجيب أن الديانات الوضعية ما زالت لها معابد حتى اليوم في فرنسا، أي في عام ١٩٧٧م، وما زال يحجُّ إليها الوثنيون من أتباع الوضعية المتطرفة،

---

١. مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٥٢، ٥٣.

® في **"حاجة البشرية إلى الأنبياء"** طالع: الشبهة السابعة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل ٢).

وأشهر هذه المعابد في شارع بابين في باريس، حيث الشقة التي عاشت فيها كلوتيلد، وفي شارع مسيو لي برنس، حيث الشقة التي عاش فيها أوجست كونط، هذا غير عشرات المعابد الأخرى في باريس"[1].

إن الدين الصحيح بعقائده وشعائره يحمي الإنسان من الخرافة؛ لأن الإنسان لا بد أن يدين بدين، ولا بد له من تقديس من يدين له، فإن لم يُطْفَأ هذا الظمأ في دين صحيح؛ فإنه حتما يلجأ إلى سدِّه في خرافة كما رأينا.

إن شعائر الإسلام معقولة المعنى، واضحة الحكمة، ملموسة النتائج والثمار، في تهذيبها للأخلاق، وتقويتها للروابط، وارتقائها بجوانب الحياة كلها: الروحي، والجسدي، والنفسي، والعقلي، والدنيوي، والأخروي منها.

رابعًا. الكون كله ألسنة ناطقة بافتقاره الدائم إلى صانعه ومدبره:

لّما كان الله عز وجل خالق هذا الكون ومُدَبِّر أمره ـ والأدلة على ذلك كثيرة، ولا مجال هنا لبسطها ـ فلا غرو إذن أن يقوم الله عز وجل بتدبيره وتصريفه، والكون لا يشبه بحال ـ كما ادعى مثيرو هذه الشبهة ـ الآلة الصماء كالساعة، ولكنه يمر بتحولات وينتقل من حال إلى حال، وتحدث له في كل دقيقة ولحظة تغيرات وتقلبات لا حصر لها، مما يدل على أن وراء تقلباته مُقلِّبًا، ووراء تصاريفه مُصرِّفًا، ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (يس)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ (فاطر)، وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس)، وقال عز وجل: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (يونس).

وتحت عنوان "الكون تحت سيطرة مركزية" يقول إيريل تشستر ريكي، عالم الرياضيات والفيزياء بعد أن يستعرض بعض ظواهر الكون: "فدراسة الظواهر الكونية دراسة بعيدة عن التحيز، وتتسم بالعدل والإنصاف، قد أقنعتني بأن لهذا الكون إلهًا، وأنه هو الذي يسيطر عليه ويوجِّهه، أي أن هناك سيطرة مركزية، هي سيطرة الله وقوته التي توجِّه هذا الكون"[2].

ونخلص مما سبق كله إلى أن هؤلاء الذين أنكروا حقيقة النبوات والمعجزات والوحي والشعائر الدينية، زاعمين أنها ليست إلا خرافات لا حقيقة لها، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك كله، ولكنهم تخطَّوه فراحوا يتهجمون على الذات الإلهية ويجترئون على الطعن فيها، مدَّعين أنه عز وجل يشبه صانع الساعة، صنعها ثم انقطعت صلته بها، وكذلك الكون كله في نظرهم ـ نخلص إلى أن هؤلاء لم يصدروا في ادعاءاتهم السابقة جميعًا عن أدلة، ولو واهية ضعيفة، فهم يُلقون الكلام جُزافًا.

---

١. في مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم، د. يحيى هاشم، د. ت، ص٢٢٢ وما بعدها.

٢. الله يتجلى في عصر العلم: ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، د. ت، ص١٠٨، ١٠٩.

الخلاصة:

- النبوات ليست خرافات - كما يدَّعي هؤلاء - وإنما هي حقيقة ثابتة، ذات ضرورات عديدة: عقلية، وتكوينية، وشرعية، ونفسية، كما أنها رحمة إلهية، فالنبي - أيُّ نبي - هو حلقة الوصل الطبيعية والشرعية بين الخالق والمخلوق.
- والمعجزات ليست خرافات، وإنما هي خرق للنواميس المعتادة يجريها الله على يدي رُسُله وأنبيائه؛ لتصديق النبي بأنه من عند الله، وليس فيها ما يخالف عقلًا ولا علمًا حتى توصف بأنها خرافة.
- لا تخلو ديانة من الديانات حقَّة كانت أو باطلة - من الطقوس وشعائر العبادة، والذين أنكروا الأديان أنفسهم لجئوا إلى تقديس رموزهم، فاستبدلوا عبادة بعبادة. فلا يمكن أن يُقال إن الشعائر الدينية خرافات، بل إن الدين الصحيح بعقائده وشعائره يحمي الإنسان من الخرافة؛ لأن الإنسان لا بد أن يدين بدين، ولا بد بتقديس من يدين له، فإن لم يطفئ هذا الظمأ في دين صحيح؛ فإنه حتمًا يلجأ إلى سدِّه في خرافة، وإن شعائر الإسلام معقولة المعنى، واضحة الحكمة، ملموسة النتائج والثمار في تهذيبها للأخلاق، وتقويتها للروابط، وارتقائها بجوانب الحياة كلها.
- الكون لا يُشبه آلة صماء، ولكنه يمر بتحولات وينتقل من حال إلى حال، فهو دائمًا يفتقر إلى صانعه ومدبره، فكما أن الله خلقه، كذلك بيده تدبيره وتصريفه وتعالى الله علوًّا كبيرًا عن أن يُشَبَّه بصانع الساعة.

الشبهة السابعة

إنكار الغيبيات بحجة أنها لا تخضع للتجربة والإدراك الحسي (*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الجاحدين الإيمان بأمور الغيب التي أخبر الله رسوله ﷺ بها؛ بحجة أنها لا تدخل تحت علومهم التي تخضع للإدراكات الحسية أو التجارب، ويقولون: لا نؤمن إلا بما أدركته حواسنا واستساغته عقولنا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد استند مثيرو هذه الشبهة على دليل لا يقبله العقل، الذي ينصُّ على أن عدم إدراك الشيء ليس دليلًا على عدم وجوده.

٢) الأمور الغيبية يقينية؛ لأنها قائمة على دلائل قاطعة، وليست خرافات وأساطير، فهي تقوم على الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي.

٣) إن الإيمان بالغيب ضرورة عقليَّة، وحيويَّة، وإنسانيَّة، وعمليَّة. وليس لدى أي إنسان ما يبرهن على عدم وجوده.

التفصيل:

أولا. دليل لا يقبله عَقْل:

تجدر الإشارة في بداية الردِّ على هذه الشبهة إلى أن مثيريها استندوا في إثارتها إلى دليل لا يقبله العقل ولا

(*) نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق.

® في "نفي التعارض بين العقل والإيمان بالغيب" طالع: الشبهة الرابعة عشرة من هذا الجزء.

الواقع المَعيش؛ وذلك أنهم أنكروا أمور الغيب التي أخبرنا بها الله ﷻ ورسوله ﷺ جميعَها، مستندين إلى أن هذه الأمور الغيبية لا تخضع لإدراكهم الحسي، ذاهبين إلى أن عقولهم لا تستسيغ الإيمان بشيء لا يُدْرَك بالحواسّ.

إن العقل الذي احتكم إليه هؤلاء لا يقبل بحالٍ الاستناد إلى ما استندوا إليه من كون الإيمان بوجود الشيء فرعٌ عن إدراك ذلك الشيء إدراكًا حسيًّا؛ وذلك أن عدم إدراك الشيء لا ينفي وجود ذلك الشيء، فكم من أشياء في واقعنا المعيش لا نراها، ومع ذلك فلا يصح لعاقل أن ينفي وجودها.

فهذه الكهرباء التي تسري في أسلاك، هل رأيتموها أو سمعتم صوتها؟! ثم هل بإمكانكم أن تنفوا وجودَها لعدم رؤيتها؟!

وهذا الهواء الذي منحنا الله إياه، ولا حياة لكائن إذا افتقده، هل شاهدتموه أو سمعتم صوته؟! وهل يتسنى لكم ألَّا تعترفوا بوجوده؟!

إن إنكار هؤلاء الماديين الحسّيين الغيبيات ـ أمر بَدَهِي لا يدعو إلى العجب؛ وذلك أنهم لم يؤمنوا بداية بالله تعالى الذي أمرنا أن نؤمن بالغيب، وجعل الإيمان به أول صفة من صفات المتقين، يقول ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ (البقرة).

ما الغيب؟

سؤال يطرح نفسه، وسنترك الإجابة عنه للإمام القرطبي الذي يقول في سياق تفسيره للآيات السابقة: "الشمس تغيب، والغيبة معروفة. واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا؛ فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله ﷻ. وضعَّفه ابن العربي، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها"[1].

إن هؤلاء الحسيين لا يؤمنون بالغيبيات السابقة جميعها؛ لا يؤمنون بقبر، ولا بحشر، ولا بصراط، ولا بجنة، ولا بنار. بل إنهم لا يؤمنون بداية بوجود الله ﷻ؛ إذ لم يقم دليل مادِيٌّ لديهم يدل على وجوده تعالى، ولا يؤمنون بالأنبياء، والرسل جميعهم؛ إذ إنهم لم يَرَوْهم.

ثانيًا. يقينية أمور الغيب:

والغيب كما علمنا أنه كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلَّا عن طريق الخبر اليقيني، وعن يقينية هذه الأمور، يفصل د. عبد الرحمن الزنيدي فيقول: حينما جاء محمد ﷺ معلنًا أنه مبعوث من قِبَل الله سبحانه بما يحمله من شريعة، وأنه يُوحي إليه بما يشاء ﷻ، كان تبليغه مقترنًا بالأدلة على صدق دعواه، ليتبين هؤلاء أنه يخالف ـ في دعوته ـ الدجَّالين والكهنة من المتنبئين، ومدَّعي علم الغيب زورًا وبهتانًا. وقد اتضحت السبل الدالة على حقيقة ما ادعاه وصدق ما نادى به، ومنها:

النظر في شخصية النبي ﷺ؛ حيث يعلمون أنه

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص١٦٣.

يتصف بأكمل الخلال وأعلى الخصال، أمانة وصدقًا، ويعلمون سلامته من عوارض الأمراض النفسية ونحوها، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

البشارات في الكتب السابقة، حيث بشَّرت بخروجه ﷺ وحدَّدت صفاته، بل نصّت على اسمه، ومن خلالها أسلم بعض أهل الكتاب، كابن سلام.

المعجزة التي تحدى بها الناسَ ليثبت من خلال تفرده بالإتيان بها اتصاله بالله الذي أمده بها، والمعجزة: "أمر يجريه الله على يد النبي يفوق طاقات البشر، ويخرق قوانين الطبيعة وخواصَّ المادة، يتحدى بها النبي الناس فلا يقدر أحدٌ على معارضته".

وقد أجرى الله على يَدَي نبيه ﷺ أنواعًا من المعجزات؛ منها: المعجزات الحسِّية: ومن ذلك نبعُ الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل ببركته ﷺ، وانشقاق القمر. ولكن معجزته ﷺ الكبرى هي: معجزة القرآن، وهي المعجزة الخالدة أَبَد الدهر، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بما لها من خصائص تفوق المعجزات الأخرى، وقد أشار إلى هذا رسول الله ﷺ في قوله: "ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"[1].

يقول ابن حجر العسقلاني في شرحه: "المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض عصورهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها. ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر ﷺ أنه سيكون، مما يدل على صحة دعواه".

من ذلك يتبين أن هناك دلائل كثيرة تبرهن على صدق محمد ﷺ في دعواه النبوة، وأن ما جاء به وحي من الله، ولن أستغرق والحديث للدكتور الزنيدي في ذكر هذه الدلائل وبيانها، وحسبي أن أتكلم عن جانبٍ منها، أشار إليه العسقلاني في كلامه؛ لأن البحث فيه في صميم مصدرية المعرفة، ويتمثل في وجهين من وجوه الإعجاز الدالة على صدوره من الله: الإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي، وهما دليلان قويَّان على أن الغيبيَّات التي أخبرنا بها النبي ﷺ، مبلِّغًا إياها عن ربه ﷻ أمر يقيني، وليس خرافة، كما ادعوا:

الوجه الأول: الإعجاز الغيبي.

اشتمل الوحي على أخبار غيبية كثيرة؛ كإخباره ﷺ بأمورٍ غيبية ستقع في المستقبل، ووقعت كما أخبر ﷺ، بشكل مطابق تمامًا لتحديدات الخبر، وربما قال قائل: إن توقُّع حدوث أشياء في المستقبل بناءً على قياس الماضي والحاضر، من قِبَلِ عالمٍ بسنن الحياة أمر من الممكن أن تصدقه الأيام، وهذا لا مِراء فيه، ولكن أمر النبي ﷺ يختلف عن هذا اختلافًا بيِّنًا:

١. فكثير مما أخبر به من غيبيات، ما كانت الأحوال التي أنبأ الناس بها تؤيده، أو تومئ بحصولها.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: "بعثت بجوامع الكلم" (٦٨٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (٤٠٢).

٢. ثم إنه كان يخبر بما يخبر بـه جازمًـا غـير مـترددٍ، واثقًا من صدق ما جاء به أتم الثقة، مما لا يكون مشابهًا لما بُني على الفراسة والدراسة والحسبان.

يضاف إلى ذلك: أن الغيبيات التـي تنبـأ بهـا كثـيرة متنوعة، منها ما هو عام، ومنها مـا هـو خـاص محـدد، ومنها ما هو خاص به ﷺ ومنها ما يتناول أمَّته، ومنها ما يتناول أعداءه.

ومع هذا كلـه، فلـم تتخلّـف منهـا نبـوءة واحـدة، ولم يمترِ المشاهدون لوقوعـه في تمـام التوافـق مـع مـا أخبر ﷺ، وفق هذه الأصول جـاءت النبـوءات الغيبيـة من قبل الوحي الذي جاء به النبـي ﷺ، وإليـك نـماذج منها:

قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ (الروم).

ذكر المفسرون أن المشركين كانوا يجادلون المـسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يقولـون لهـم: تزعمـون أنكم ستغلبوننا بهذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ وها قد غَلبت فارس وليس لهـا كتـاب الـروم، وهـم أهـل كتاب، فسنغلبكم كما غلبت المجوس الروم.

فأنزل الله هذه الآيات يُخبر فيها بأن الـروم ستنتـصر في أقل من عشر سنين، وبأن ذلـك اليـوم سـيكون فيـه نـصر للمـسلمين عـلى أعـدائهم، ولم تكـن الأمـارات والشواهد العقلية تدل على شيء مـن هـذا، لا بالنـسبة للروم، ولا للمسلمين، فقد كـان الـروم منهكـين، قـد غزاهم الفرس في بلادهم، وهزموهم، وأثخنوا فـيهم، كما أن حال المسلمين كانت حالة ضعفٍ قبل الهجرة.

ولكن وعد الله تحقق، فانتصر الروم على الفرس، في أقل من عشر سنين بإجماع المؤرخين، وهـزم المـسلمون قريشًا في بدر في الوقت نفسه.

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧).

جاء عن عائشة أنها قالـت: "كـان النبـي ﷺ يُحْـرَسُ حتى نزلت هذه الآيـة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة فقال لهم: يـا أيهـا الناس: انصرفوا؛ فقد عصمني الله"[1].

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ من هـذا الـضمان الإلهـي، فقد حماه الله من كيد أعدائه مرات كثيرة، لم يحـل بيـنهم وبينه إلا عصمة الله وحدها، وبقي محوطًا بهذه العصمة حتى أكمل الله به الدين الذي بعثـه بـه، وأنـزل عليـه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ (المائدة: ٣).

ومن أعظم هذه النبوءات: إعلانه المصحوب بتقرير أن جميع البشر عاجزون وسيظلون كذلك عن معارضة القرآن، قال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ

١. صحيح: أخرجه الترمـذي في سننه، كتـاب تفـسير القـرآن، سورة المائدة (٣٠٤٦)، والحاكم في مستدركه، كتـاب التفـسير، تفسير سورة المائـدة (٣٢٢١)، وصـححه الألبـاني في السلـسلة الصحيحة (٢٤٨٩).

﴿فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة).

ولقد نزل هذا الحكم الصارم، والنفي المؤبد على أُناس يتمتعون بأرقى مواصفات المجال الذي وقع فيه الإقرار، وهو الأسلوب أو النَّظْم الكلامي، وفي فترة بلغوا فيها الذروة في إتقان هذا الفن، حيث كانت في تلك الفترة الأسواق العربية محتدمة بالتنافس بين الخطباء، والشعراء، والنقاد، يلتقون فيها للمباريات والمعارضات، وكان كثير من أبطال هذا الميدان محاربين لهذا الدين وكِتَابه ورسوله، يلتمسون أوهى الأسباب لتحطيمه والحطِّ من قدره، وإهانته بين الناس.

ومع هذا، لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئًا، بل كانوا - كما أثبت التاريخ - يشهدون بمقامه العلي الذي لا يمكن أن تسمو إليه قدرة البشر، من ذلك ما رُوي عن الوليد بن المغيرة - أحد كبار رجال قريش - أنه قال بعد ما سمع القرآن من رسول الله ﷺ: "فوالله، ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطَلَاوة، وإنه لمُثمِر أعلاه، مُغْدِق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعْلَى، وإنه ليحطِّم ما تحته"[1].

وتتابعت القرون، وازدهر الأدب، وازدهرت الصناعة البيانية، ولكن هذا الكتاب ما زال بمنأى من أن ترتفع إليه قدرات البشر، فتحققت نبوءته وتمَّ حكمه، وفي كتب المعجزات، ودلائل النبوات، كثير من أمثال ما ذَكَرَ ﷺ، إخبار بمستقبل مكنون، مع الجزم الكامل بوقوعه، ثم وقوعه وفق ما جاء به الخبر.

ومما لا يَمتري فيه عاقل - فضلًا عن عالم بالمصادر البشرية للمعرفة - أنه ليس في طوق هذه المصادر مهما بلغت من الرشد والنضوج أن تُصْدِر مثل تلك الأحكام جازمة بوقوعها، ثم تقع كلها طبقًا لما ذكرته لا يتخلف منها شيء.

بعد هذا لا يبقى ريب في أن هذا العِلْم جاء من مصدر أعلى من الإنسان يملك العلم المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل، والقدرةَ على تصريف الأشياء وفق ما يريد، وهكذا يؤدي التسلسل المنطقي السليم في البحث في هذه المسألة إلى أن هذا العلم جزء من علم الله، الذي لا يستطيع البشر بوسائلهم العقلية، والحسية أن ينالوه أو يحيطوا به، أوحى به سبحانه إلى عبدٍ من عباده اصطفاه لذلك وهيأه لتلقيه، وإضاءة العالم بنوره.

الوجه الثاني: الإعجاز العلمي:

استطاعت المصادر البشرية للمعرفة - في عصرها الأخير - نتيجة تطور مناهجها وترقِّي وسائلها، أن تكشف كثيرًا من الحقائق العلمية، خصوصًا في ميدان عالم الطبيعة، مما لم يكن ميسورًا للناس قبل هذا الزمن، فكان البحث فيه - إذ ذاك - لا يعدو أن يكون ضربًا من الاستنتاج، والتأملات العامة، ومن ثم فقد قلب العلم الطبيعي المعاصر كثيرًا من المفاهيم السابقة،

---

١. صحيح: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، باب أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ (٥٠٥)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٥٨).

وبيّن خطأها، وقد شمل هذا كتب الفلاسفة والعلماء الطبيعيين، والديانات المحرفة، ولكنَّ كتابًا واحدًا - وهو القرآن الكريم - عرفته البشرية منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، انفرد من بين ذلك التراث كله:

- بأنه لم يتعارض - على وفرة نصوصه التي تناولت العلم الطبيعي - مع أية حقيقةٍ علميةٍ ثابتة، ولقد أوغل العلم الطبيعي بعيدًا في ميدان الأنفس والآفاق، وحدَّد أشياء كثيرة، وكشف مزيدًا من الحقائق، ومع كل ذلك لم يقدم حقيقة واحدة تنافي ما ورد في الوحي الذي جاء به النبي ﷺ خلافًا للتراث البشري والديني غير الإسلامي، على حد سواء، فقد تزعزعا أمام العلم الطبيعي الحديث، وانكشف عوارهما بتناقضهما مع العلم في كثير من القضايا.
- كما انفرد القرآن - أيضًا - بأنه قد ذكر حقائق علمية جاءت من خلال بيان آيات الله في عالم الشهادة، للدلالة على عظمة خالقها وجلاله، والامتنان على العبد بنعم الله الوفيرة، التي أسداها إليه، وكانت متطابقة تمامًا مع ما وصل إليه العلم التجريبي المعاصر، بعد اعتماده على مناهج ووسائل مكَّنته من الكشف عن هذه الحقائق.

من ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

فقد ذكرت هذه الآيات أن الإنسان مخلوق من طين، وكذلك كثير من الآيات الأُخرى، وهذا ما تقرر في العلم الحديث، فجميع العناصر المكتشفة في جسم الإنسان الآن - وقد بلغت اثنين وعشرين عنصرًا - موجودة في التراب بأكملها.

كما ذكرت الآية المراحل التي يكون عليها الجنين ابتداء من قذفه نطفة في الرحم، ثم تطوره إلى العلقة، فالمضغة، فالمرحلة العظمية، فاكتسائها باللحم، ثم نفْخ الروح فيه؛ ليصبح إنسانًا حيًّا، هذه المراحل هي التي حددها العلم التشريحي الحديث، لدى من لا يعرفون القرآن ولا تَلَقَّوْا مفاهيمه.

ومما ينبغي أن يقترن بحقيقةٍ تفرُّد القرآن الكريم بإثبات حقائقها وصحتها، أن الشخص الذي جاء بهذه الحقائق في ذلك العصر كان أميًّا لم يتلق العلم، وعاش في بيئة أُمِّيَّة جاهليَّة، ولم يكن لدى العرب قبل بعثة الرسول ﷺ، ونزول الوحي أي اهتمام بالمعارف الطبيعية - بالمعنى الذي تُشْعر به هذه الألفاظ - فضلًا عن أن تكون لديهم هذه المعارف.

فإذا جمعتَ بين هاتين الحقيقتين: العلمية والتاريخية، فإنك لن تستطيع أن تَرُدَّ هذا الوحي إلى مصدر من مصادر المعرفة البشرية، ولن يبقى أمام الباحث الحر سوى ردها إلى مصدر أعلى من الإنسان، يتجاوز علمه حدود الزمان، والمكان، ويستغني عن الوسائل المعينة على الوصول إلى الحقائق، وهو علم الله ﷻ، وهذا ما وصل بباحثين أحرارٍ إلى هذه الغاية من خلال هذا الوجه الإعجازي.

ولعل من أشهرهم: العالم الفرنسي المعاصر موريس

بوكاي الذي أجرى مقارنة بين الكتب الدينية ـ التوراة، والإنجيل، والقرآن ـ والعلم بحقائقها التي وصل إليها، فانتهى إلى أن نصوص التوراة التي وصلت إلينا لا تُعبِّر عن الحقيقة، وهل يمكن أن يكون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة، إنه لا يمكن تَصَوُّرُ أنه يُعلمنا بواسطة الأوهام، إنه فوق ذلك، الأمر الذي ينتهي بنا إلى افتراض تشويه حصل بواسطة الناس، وإلى أن الأناجيل تحوي فصولًا ومقاطع ناشئة من مجرد الخيال الإنساني، كما انتهى بالنسبة للقرآن ـ ولم يكن لديه إذ ذاك أي إيمان بالإسلام، كما يصرح بذلك ـ إلى أن حقائق القرآن العلمية تدل جميعها على أن نصوص القرآن الكريم نصوص لا دخل للبشر فيها، وأنها وَحْيٌ لا شك فيه.

وهكذا من خلال وجهي الإعجاز اللذين ذُكِرَا، ينتهي طالب الحق إلى أن الوحي الإسلامي جزء من علم الله ﷻ أنزله على الإنسان ليستضيء بنوره عن طريق محمد بن عبد الله ﷺ[1].

ثالثًا. ضرورات الإيمان بالغيب وأدلتها:

إن للإيمان بالغيب ـ الذي أنكره هؤلاء ـ ضرورات وأدلة تؤكِّد وجوده، ويفصِّل د. حبيب الله الحديث عن هذه الضرورات فيقول:

١. الغيب الذي لا يُدرك بالحس ضرورة عقلية:

إذا أعمل العاقل عقله، وجد نفسه أمام اعتراف بالغيب لا محالة، فهو ـ مبدئيًّا ـ لا يحقّ له أن ينكره، وليس لديه من الحجج ما يبرهن على عدم وجوده، والقول: إن عدم إدراك الحواس للغيبيات دليل على عدم ثبوتها حجة ساقطة، بل إنها قضية تحمل في طيَّاتها دليل كذبها، فلتسأل كلُّ حاسة نفسها، وليسأل كل ذي حاسة نفسه: هل هذه الحاسة تدرك كل شيء؟ هل ترى العين كل المرئيات؟ هل تسمع الأذن كل الأصوات؟ بل إن الحاسة الواحدة تختلف فيما تدركه من شخص لآخر، فقد يرى بعينه ما لا يراه الآخر، ويختلف إدراك الحاسة من كائن إلى آخر، فحاسة البصر عند بعض الحيوانات أقوى منها عند حيوانات أخرى، وكذلك حاسة السمع، والشم... إلخ.

فإذا أنكر كل من لم يدرك شيئًا وجود هذا الشيء؛ بناء على عدم إدراكه، فماذا تكون النتيجة؟ ستكون النتيجة النهائية أنه لن يثبت شيء بالمرة، فالكلُّ ينكر ما أثبته الآخر، وهكذا فلا يَثْبت شيء أبدًا.

إن عدم إدراكنا لأي موجود لا يدل على عدم وجوده إطلاقًا، وإنما يدل على أننا لم ندركه، ومن هنا قال العقلاء: "عدم الإدراك لا يدل على عدم الوجود"، فإذا افترضنا أسوأ الفروض، وقلنا: إن العقل لم يُثْبت الغيب، فليس من حقه أن ينفيه، فإذا ثبت من طريق آخر فقد دخل من باب غير بابه، وطريق غير طريقه.

ما الذي يراه الإنسان من جسده؟ لا يرى منه إلا شكله الخارجي، فهل ينكر أعضاءه، وأجهزته الداخلية؟ بالطبع لا، إنه يُثْبتها، على الرغم من عدم رؤيته لها، ولم يثبتها فقط، بل إنه إذا قارن بينها وبين ما رآه من شكله الخارجي، لوجد أن ما لم يره من أعضائه وأجهزته أكثر أهمية مما رآه، بل هو قوام جسده، وقوام حياته، فإذا انتقل إلى روحه أيًّا كان تفسير المفسرين لها،

---

١. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، مرجع سابق، ص١٦٣ وما بعدها.

فهل يراها، أو يدرك آثارها؟ وهكذا كلما غاب الشيء عن الحس كان بالوجود أولى، وللوجود سببًا.

فإذا أخبر الدين أن وراء هذا التدبير المُشاهَد بنظامه المتقن تدبيرًا من عالَم الغيب، هم الملائكة: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ (النازعات)، ووراء هؤلاء الملائكة مدبِّرٌ يدبِّر أمر الكل، وهو الله تعالى - أفيكون ذلك قد خرج عن منطق العقل أم جاء امتدادًا لما حكم به؟

٢. الغيب ضرورة حيوية:

إننا - بني البشر - نتعامل مع الغيب، وعلى أساس من الغيب، سواء أشعرنا بذلك أم لم نشعر، أنكرنا الغيب أم اعترفنا به، ألا ترى إلى الواحد منا يُضحِّي بنفع عاجل حاضر محقَّقٍ مقابل نفع آجل مَرْجُوٍّ غائب عنه، غير محقق، بل مظنون متوقع.

انظر إلى الزارع، ينثر الحَبَّ في الأرض، يُجهد نفسه، يستأجر العمال، يحرث، يغرس.. لماذا حرم نفسه من هذا الذي بذله؟ هل هو سفيه؟ كلا، إنه يُضَحِّي بعاجل قليل مقابل آجل أكثر، أين هذا الآجل؟ إنه غيب، وهكذا كلُّ إنسان في موقعه، الطالب في دراسته، التاجر في تجارته، الصانع في صناعته... إلخ، كل إنسان في مسعاه يضحِّي بما في يده من عاجل حاضر من عالم الشهادة؛ انتظارًا لآجل أفضل منه في عالم الغيب، فإذا جاء الدين، وقال للإنسان: ما رأيك إذا ادخرتُ لك آجلًا في عالم الغيب: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى) من كل عاجل في حياتك؟ وكل ما هو مطلوب منك أن تضحي ببعض المتع العاجلة، وتضبط حياتك على مثال ما شرع لك ربك، وفي ذلك خير لعاجلتك أيضًا، أيكون الدين بذلك قد خرج عن الخطة التي يعمل بمقتضاها الإنسان لنفسه، ويشكِّل على أساسها حياته؟ كلا، إنه عامله بالمنطق الذي يتعامل به، وأكثر من ذلك، إنه يلبي في نفس الإنسان رغبة جامحة، وطموحات ملتهبة، لا تطفئها هذه الدنيا بحذافيرها.

إن الإنسان مفطور على حب الخلود، ويَودُّ لو يُعمَّر ألفَ سنة، ولو خُيِّرَ لاختار أكثر، إنه مفطور على حب الأفضل والأبقى في كل شيء في حياته، وفيما تملك يداه، إن الإنسان عالَم من الطموحات والتطلعات لا تلبيها هذه الدنيا، كما شخَّص الصادق المصدوق ﷺ نفسية الإنسان أصدق تشخيص قائلًا: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب"[1]. وغريزة حب البقاء والخلود، والتطلع إلى الأفضل كغيرها من الغرائز، ما خُلقت عبثًا، ولا وُجدت باطلًا، وهي تُلبَّى كما تلبى بقية الغرائز.

فإذا كانت هذه الدنيا بحذافيرها لا تُلبِّي حاجة الإنسان، ولا تطفئ نهمه، فإن ما بعدها من نعيم الآخرة كفيل بأن يلبِّي هذه الغرائز، كما أخبرنا النبي ﷺ في قوله: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[2].

٣. الغيب ضرورة إنسانية:

وأعني بوصف "إنسانية" الجانبَ الإنساني في

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (٢٤٦٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب حدثنا عبد الله بن مسلمة (٧٣١٠).

الإنسان من مكارم الأخلاق، ونبل الصفات، فكيف يكون الغيب ضرورة إنسانية؟

إن من يحترم إنسانيته ويَعْتَمِد عليها في مهمات الأمور هو من يتعامل مع الغيب كما يتعامل مع المشاهدة، أما إذا كان لا يحسب حسابًا إلا للمشاهَد فقط، فإذا ما اختفى هذا المشاهَد من أمام عينيه فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه، فإن أقل وصف يمكن أن يوصَف به هذا المرء "عدم احترامه لإنسانيته"، ولنضرب على ما نقول مثلًا فنقول: لو كان عندك اثنان من الأبناء: أحدهما ـ وهو الأصغر سنًّا ـ يحسب لك حسابًا في غيبتك كما يحسب لك حسابًا في حضورك، برًّا وتقديرًا، والآخر ـ وإن كان الأكبر ـ لا يطيعك إلا وأنت حاضر أمام عينيه، بل لا يطيعك إلا تحت وسائل الزجر والتهديد، فإذا أردت أن تسافر خارج البلاد، وأردت أن تسند بعض شئون الأسرة وتبعاتها إلى أحدهما، فبمن تثق؟ وعلى من تعتمد في مهام الأمور؟

فالذي يعمل للشهادة فقط، للحظته الحاضرة، أشبه بالحيوان الذي لا هَمَّ له إلا إشباع شهواته الحاضرة، لكن الإنسان يتميز عن الحيوان بالتفكير في العواقب، وكلَّما امتد نظره إلى العقبى أكثر وأكثر شعر بإنسانيته أكثر وأكثر، وكذلك تقوم حياة البشرية، وتُحَدَّد مصائر الأمم والشعوب على أكتاف نماذج من البشر، شعروا بإنسانيتهم، وتعاملوا مع منطق الغيب، لا مع منطق الشهادة، انظر إلى هؤلاء الذين سقطوا في ميادين الجهاد، وضحُّوا بأغلى ما عندهم: حياتهم، لو ركنوا إلى عالم الشهادة، لما بذلوا النفس والنفيس، لكن ذلك كله هوَّن عليهم ابتغاء ما هو أغلى وأبقى، ولو ركنوا إلى عالم الشهادة لما قام دين، ولا قامت دنيا.

٤. الغيب ضرورة عملية:

إن منطق الإلحاد الذي ينكر الغيب لو طُبِّق لتعطلت مسيرة العلم، كما تتعطل مسيرة الدين، فالعلم دائمًا يبحث عن مجهول مفترض وجودُه، فلو سار العلم مع منطق الإلحاد، في كوْن ما لا يُدْرك لا وجود له، لما كان هناك جدوى للبحث، ولتوقف العلم؛ فواقع العلم والعلماء الاعتراف بالغيب، وإن جحد الجاحد ذلك بلسانه[1].

ونعود فنقول لمن يجادل فيما جاء به القرآن والسنة من أمور غيبية، ويزعم عدم وجودها، نقول له: دونك هذه الأمثلةَ التي ربما صادفتك في أمور حياتك، أو قد تصادفها يومًا ما:

- قال لك الطبيب ـ وقد تأمَّل في كأس الماء التي في يدك لتشربها: إن هذا الماء ملوَّث، وإن شربته عَرَّضَ حياتك لخطر مؤكد؛ قال لك هذا الكلام، وأنت لا تعلم شيئًا عن الطب، وعناصر الأشياء، وطبائعها، وكل ما تعلمه أن الذي يقول لك هذا الكلام طبيب حاذق صادق.
- بلغك أن علماء الأرصاد والفلك في العالم، أخبروا عن خسوفٍ يظهر على سطح القمر في ليلة معينة، بعد أيام معدودة، وبحثتَ، فأيقنتَ أن الخبر ليس شائعة مجردة، بل هو خبر رسمي منقول بطريق

١. الإنسان والغيب، د. حبيب الله حسن، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، طبعة خاصة، ص٤٦: ٨٥.

يقيني عن المصادر المختصة.

• سمعتَ من مصادر رسمية موثوق بها أن المسئولين في مؤسسة الكهرباء سيقطعون التيار الكهربائي في ساعة معينة من ليلة معينة.

• لا شك أنك تستيقن في المثال الأول خطورة شرب ذلك الماء، وتمتنع عن أن تطعم شيئًا منه، وتستيقن في المثال الثاني حدوث الخسوف في الوقت الذي عَيَّنه أرباب الاختصاص، كما تستيقن في المثال الثالث أن تيار الإضاءة الكهربائية سينقطع في الوقت المعين المذكور، وتأخذ الأُهْبَةَ لذلك. فلماذا تستيقن هذه الأمور، وما البرهان العلمي الذي أخضع عقلك لتصديقه؟

والجواب: أن عقلك اضطر إلى تصديق ذلك بدافع برهانين اثنين:

أولهما: يقينك بأن الطبيب حاذق وصادق، وبأن الطب حقيقة ثابتة، ويقينك بأن علماء الأرصاد والفلك، لا يفوتهم معرفة ما قد يحدث من تقلبات الجو، وأمر الخسوف والكسوف، إن هم دققوا النظر واطّلعوا على ما هو مُطَّرد من سنن الكون ونظامه الذي أقامه الله ﷻ، ويقينك بأن تنظيم الإضاءة في البلد المعين منوط بمؤسسة معينة عُهِدِ إليها بكل شئونها.

الآخر: يقينك بأن ما بلغك من كلام الطبيب، وعلماء الأرصاد، والفلك، وبلاغ المؤسسة الكهربائية ـ خبر يقيني تولت نقله إليك جهة رسمية، على نحو لا يحتمل التأويل والكذب.

فثبوت البرهان الأول، ثم إثبات البرهان الثاني يترتب عليه لا محالة تَيَقُّن تلك الأخبار الثلاثة، وإن لم يكن مضمونها قد تحقق بعد، وإن كنا نسميها بسبب ذلك أمورًا غيبية [1].

وبعد عرض أمثلة تلك الحقائق الواضحة التي لا يُـمَارِي فيها عاقل نبادر فنقول: لا شك أن من العبث المضحك، أن نخاطِب بشيء من الحقائق الغيبية، من لم يؤمنْ بعدُ بوجود الله ﷻ، و لم يصدق بعدُ ببعثة الأنبياء والرسل وبأن القرآن هو كلام الله. ونخلص مما سبق إلى أن مسائل الغيب فوق قدرة العقل البشري، أمرنا الله ﷻ أن نؤمن بها، وإيماننا بها نابع من إيماننا بطلاقة قدرته ﷻ؛ فالله لا يستشير الإنسان ولا يحتكم إليه في أية قاعدة من القواعد التي شرعها، فله ﷻ الكمال المطلق، وهو مُنَزَّه عن النقص.

الخلاصة:

• استند من أثار هذه الشبهة إلى دليل لا يقبله العقل؛ وذلك أنهم عقدوا علاقة تلازمية بين إدراك الشيء بإحدى الحواس وبين وجود ذلك الشيء، وإن العقل ينصُّ صراحة على أن عدم إدراك الشيء ليس دليلًا على عدم وجوده.

• إن الغيبيات أمور يقينية، وليست خرافة أو أساطير؛ وذلك أن الإيمان بها قائم على دلائل قاطعة، لا سبيل إلى تجاهلها، وهناك وجهان من وجوه الإعجاز الدال على أن الغيبيَّات التي يتحدث عنها القرآن والنبي

١. كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤٠٢: ٤٠٤.

من عند الله، وهما الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي ولكل شواهده.

- إن الإيمان بالغيب ضرورة عقلية، وحيوية، وإنسانية، وعملية. وليس بوسع أي إنسان أن يبرهن على عدم وجوده.
- إن منطق الإلحاد وإنكار الغيب لو أَذِنَتْ به البشرية لتعطلت مسيرة الحياة، ولن يجني الإنسان سوى التيه والتخبط، إذا ما أنكر ما تنزلت به الشرائع السماوية.
- لا تستقل الإدراكات الحسية بتحصيل المعرفة العلمية، وإن كانت تُشكِّل أساسًا تقوم عليه، ودعوة القرآن الكريم إلى استخدام الحواس، إنما هي في الأساس دعوة إلى تحقيق هذه المعرفة، والتي يصل إليها الإنسان من خلال حركة العقل وإدراكه، فيما تُقدِّم له الحواس. أما الإحساس المجرد فليس مقصودًا بتلك الآيات.
- مسائل الغيب فوق مدارك العقل البشري، أُمرنا أن نؤمن بها؛ لأن ذلك من تمام الإيمان وتُعدُّ أحد أركان الإيمان، فضلًاعن كون إيماننا بها نابع من طلاقة قدرة الله تعالى.

الشبهة الثامنة

الزعم أن معجزة الإسراء والمعراج خرافة مستوحاة من التراث الفارسي والأوربي(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن معجزة الإسراء والمعراج مستوحاة من التراث الفارسي الوارد في كتاب الأساطير الفارسية باللغة البهلوية، وكذلك من الأدب الأوربي وبخاصة ملحمة دانتي، ويتساءلون: ما الجديد الذي جاء به رسول المسلمين، وما وجه الإعجاز فيه؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) إذا سلَّمنا بأن الإسراء والمعراج قصةٌ مستوحاة من التراث الفارسي والأوربي، فكيف للنَّبي الأُمِّي أن يقتبس من تراثٍ لا يعرف لغته؟ ولِمَ لم يردَّ أهل هذا التراث على الاقتباس من تراثهم؟ أما من قالوا: إنها مقتبسة من الأدب الأوربي متمثلًا في ملحمة دانتي، فإن التاريخ يرد هذا الزعم؛ لأن دانتي متأخر زمنيًّا، فكيف يقتبس المتقدم من المتأخر؟!

٢) أخذًا بمقولة: الحق ما شهدت به الأعداء، نسجل أن أحد بطاركة الروم بمسجد إيلياء يشهد بأنه عِلمَ تلك الليلة التي أسرى الله فيها بنبيه ﷺ إلى بيت المقدس، وهو دليل قوي على صحة إسرائه ﷺ ومعراجه.

(*) مصادر الإسلام، زكريا بطرس، قناة الحياة. اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، د. إدوار جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.

٣) معجزة الإسراء والمعراج ثبتت بالقرآن والسنة الصحيحة، ثم إنها لا تَعْظِم بحال من الأحوال على قدرة الله ﷻ المطلقة.

التفصيل:

أولا. كيف يتأتَّى للأمي أن يقتبس من تراث أجنبي؟

نقول للذين يزعمون أن حادث الإسراء والمعراج، استوحاه النبي ﷺ من مصادر فارسية أوربية: حنانيكم؛ إن النبي ﷺ كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يعرف اللغة الفارسية، ولم يطلع على آدابها، وحتى لو سلَّمنا جدلًا أن قصة الإسراء والمعراج لها نظير في الفارسية، فعند الرجوع إلى الملحمة الفارسية نجد أنها مختلفة تمامًا عن "الإسراء والمعراج" النبوي؛ وذلك أنه يوجد في الملحمة أن من الأنبياء والملائكة مَنْ أرسلهم الله إلى الجحيم عقابًا لما ارتكبت أيديهم من إثم، فهل هذا يُعقل؟! وهل مجرد التشابه بينهما هو مؤشر وحدة الزمان والمكان ووحدة الموضوع التي تتوافر في الملاحم؟

وعندما نعود إلى حادثة الإسراء والمعراج نجد أن أحداثها موثَّقة تاريخيًّا، ونجد أحداثًا واقعية، كالمشاهد التي رآها الرسول ﷺ وحدثت بالفعل، مثل وصفه للقافلة العائدة إلى قريش، والبعير الذي ضلّ منها، ثم وصفه للمسجد الأقصى وصفًا دقيقًا لأهل مكة، وهم على دراية تامة به... إلخ.

فبالبحث وجدنا اختلافًا كبيرًا بين الملحمة الفارسية، وحادثة الإسراء والمعراج، وأيضًا عند مناقشة ما جاء في الكتاب المقدَّس من صعود "أخنوخ وإيلياء" والمسيح إلى السماوات، وصعود هؤلاء الثلاثة لا دليل على ذكره إلا في الكتاب المقدس.

لقد كذَّب مثيرو هذه الشبهة بصعود الرسول ﷺ في قصة الإسراء والمعراج، رغم قيام الأدلة الثابتة من القرآن، يقول الله ﷻ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (الإسراء)، وثمة أحاديث صحيحة تدل على صدق حدوث هذه الرحلة "الإسراء والمعراج".

ولا وجه للمقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس؛ لأن القرآن يتحدث عن الواقع، ويثبت التاريخ ما جاء في القرآن الكريم.

وإذا كانت قصة الإسراء موضع إنكار؛ لتشابهها - في زعمهم - مع بعض الوقائع الأسطورية في ثقافات سابقة لم يطلع عليها النبي ﷺ لأميته ولم يطلع عليها قومه كذلك - فعقيدتكم في المسيح من أولها إلى آخرها متشابهة، بل متطابقة تمام التطابق مع عقيدة الهنود[1].

ولقد طرح اسين بلاسيوس[2] - وهو مستشرق إسباني - مسألة كوميديا دانتي والمؤثرات الإسلامية طرحًا علميًّا في مطلع القرن العشرين، فأحدث هزة كبيرة في حقل الدراسات المقارنة، وركز بلاسيوس على القرائن النَّصيَّة بين ملحمة دانتي وجملة الأعمال الإسلامية، وفي صدارتها قصة "الإسراء والمعراج"، بالإضافة إلى مؤلفات أدبية وصوفية، ولقد اعتقد

١. انظر: عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا، د. ت، ص١١٧، ١١٨، وقد أخذ النصارى عقيدتهم في صلب المسيح من الهنود الوثنيين في "كِرشنا" إلههم.

٢. دانتي ومؤثرات المعراج بالنص والوثيقة، د. نذير العظمة، موقع www.suhuf.net. sa١٩٩٩

بلاسيوس أنها أثرت في الشاعر الإيطالي، وعندها اعترض المستشرقون الطليان، وبخاصة أنصار الدراسات المتعلقة بدانتي بشكل عام؛ لأنهم يستكبرون أن يكون شاعر أوربا المسيحية مدينًا بعبقريته إلى التراث الإسلامي.

ولكن هذه المناظرة التاريخية بين أنصار دانتي وخصومهم، لم تقف عند القرائن النصية، ففي عام ١٤٤٩م، قام عالمان جليلان بنشر مخطوط لترجمة قصة "الإسراء والمعراج" برعاية ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم في عام ١٢٦٤م، في مدرسة إشبيلية للترجمة، هذان المستشرقان هما: الإسباني خوزي مونيث سنديتو، والطلياني ازيكوتشيرولي، دون أن يعرف كل منهما مشروع الآخر، واعتمد كل منهما على المخطوطات الموجودة في مكتبة أكسفورد أو مكتبة الفاتيكان، وأضاف سنديتو بناء الترجمة باللغة الأسبانية الحديثة، وكان د. نذير العظمة من أوائل من نبهوا إلى هذه الترجمات التي اطَّلع عليها من خلال ما قدَّمه المستشرق سنديتو، فنشرها في مجلة وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٩م، وتُرجمت عن الفرنسية القديمة عناوينُ رءوس موضوعات نسخة "قصة الإسراء والمعراج الأندلسية" التي تَمَّتْ ترجمتها برعاية ألفونسو العاشر قبل أن يبدأ دانتي مخطوط الجزء الأول من ملحمته الشعرية عام ١٣٠٥م.

وقد أشار إلى ذلك د. محمد غنيمي هلال في كتابه "الأدب المقارن"، وقام د. صلاح فضل بطرح الموضوع في كتابه "مؤثرات الثقافة الإسلامية" بشكل موسَّع ومستوفٍ.

نستنتج من ذلك أن هناك من المصادر الإسلامية المتعددة ما كان مترجمًا إلى اللاتينية والفرنسية والإسبانية، وهذه المصادر كانت موجودة في مكتبات أكسفورد والفاتيكان قبل أن يكتب دانتي الجزء الأول من ملحمته بأربعين عامًا، وهذا يدل على تأثر دانتي بالمصادر الإسلامية، وعلى رأسها "قصة الإسراء والمعراج"، ونستخلص من هذه الدراسات كلها أن دانتي قد تأثر في الكوميديا الإلهية بالأوليات الإسلامية الخاصة برحلة "الإسراء والمعراج" المترجمة في مكتبات أكسفورد والفاتيكان عن طريق الأندلس والمغرب العربي، فالطبيعي إذن أن المتأخر زمنًا - دانتي - هو من يقتبس من المتقدم وليس العكس®.

ثانيًا. شهادة بطريرك الروم على صحة معجزة الإسراء والمعراج:

وإذا عدنا إلى التاريخ وجدنا ما يثبت حدوث"قصة الإسراء والمعراج" للرسول ﷺ، فعندما أرسل رسول الله ﷺ دِحْية بن خليفة ﷺ إلى قيصر الروم هرقل، وكان هرقل صاحب عقل موفور، استدعى هرقل مَنْ الشام من التجار العرب، فجيء بأبي سفيان بن حرب ﷺ، وكان وقتئذ على الكفر ومعه أصحابه، فسألهم عن تلك المسائل التي يُحدِّث بها محمد ﷺ، فكان أبو سفيان يجتهد أن يُحقِّر أمر النبي ﷺ ويصغره عند هرقل[1].

® في **"أمية النبي ودلالتها على أن القرآن وحي من عند الله"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها). والوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

١. أضواء البيان، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، عند تفسير سورة الإسراء.

وقال في هذا السياق: أيها الملك، ألا أخبرك خبرًا تعرف به أنه كذب كذبة عظيمة، قال: ما هو؟ قال: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا الحرام في ليلة، فجاء مسجدكم هذا ـ مسجد إيلياء ـ ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح! قال ذلك وبطريرك إيلياء عند رأس القيصر، فقال بطريرك إيلياء: قد علمتُ تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقتُ الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنتُ عليه بعُمَّالي ومن يحضرني كلهم، فغلبنا، فلم نستطع أن نحرِّكه، كأنما نزاول جبلًا، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه وقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، ولا نستطيع أن نحرِّكه حتى نصبح فننظر من أين أتى.

قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا المجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مَرْبَط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حُبس هذا الباب الليلةَ إلا على نبي، وقد صلَّى الليلة في مسجدنا.

ومن هذه القصة نستنتج أن حادثة الإسراء والمعراج قد حدثت للنبي ﷺ من خلال روايات التاريخ، بالإضافة إلى مشاهد الواقع، وإخبار القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة كما سيتضح من الوجه الآتي:

ثالثًا. معجزة الإسراء والمعراج ثابتة بالقرآن والسنة، ولا تعظم على قدرة الله المطلقة:

من الأمور المعلومة من الدين الإسلامي بالضرورة كون معجزة الإسراء والمعراج ثابتة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الصحيحة[1]، يقول ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (الإسراء).

والإسراء والمعراج أمران ممكنان عقلًا أخبر بهما الله تعالى في القرآن الكرم المتواتر، والصادق المصدوق ﷺ في الأحاديث الصحيحة، فوجب التصديق بوقوعهما، ومن ادَّعى استحالتهما وكونهما خرافة فعلية البيان، وهيهات ذلك.

ثم ما قول هؤلاء المنكرين لمثل هاتين المعجزتين فيما صنعه البشر من طائرات نفاثة، وصواريخ جبارة عابرة للقارات، تقطع آلاف الأميال في زمن قليل؟ فإذا كانت قدرة البشر استطاعت ذلك، أفيستبعدون على مبدع البشر وخالق القوى والقدر تبارك وتعالى أن يُسَخِّر لنبيه ﷺ "بُراقًا" يقطع هذه المسافة في زمن أقل من القليل[2]؟!

إن الرسول ﷺ عندما أخبر أهل مكة، وأظهرهم على ما تم له في ليلة الإسراء والمعراج، أوغلوا في التكذيب، ثم طلبوا منه طلبًا معجزًا، ألا وهو أن يصف لهم المسجد الأقصى، إذا كان صادقًا، والنبي ﷺ لم يكن رآه من قبل، فجاء جبريل عليه السلام له بالمسجد فوصفه ونعته نعتًا دقيقًا ثم سألوه عن حال عِيرهم، فجاء

1. انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٤٢١: ٤٢٨.
2. المرجع السابق، ص٤١٩.

بحديث لا مجال للحدس فيه والتخمين، وأخبرهم أنها راجعة من الشام مع شروق الغداة، فكان ما قال حقيقة ناصعة واقعة، فكان هذا برهانًا قاطعًا على صدقه فيما حدَّث به في هذا النبأ العظيم.

الخلاصة:

- كيف يتأتى للنبي ﷺ الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة أن يطلع على التراث الفارسي، ويستوحي منه "قصة الإسراء والمعراج"؟! ثم هل يمكن أن يستوحي ما جاء فيها من رجلٍ - دانتي - أتى بعده بقرون عدة؟!
- شهادة أحد بطاركة الروم بعِلْمه بليلة الإسراء والمعراج أحد الأدلة التي تثبت صدق هذه المعجزة، فضلًا عن ثبوتها بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة، ولا تَعْظُمُ على قدرة الله ﷻ المطلقة، ولقد ذكر النبي ﷺ براهين قاطعة على صدقه فيما حدَّث به عن الإسراء والمعراج.

الشبهة التاسعة

إنكار عقيدة البعث(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الطاعنين إيمان المسلمين بعقيدة البعث، كما ينكرون طلاقة قدرة الله ﷻ على إحياء الإنسان بعد موته وفناء عظامه، ويستدلون على إنكارهم هذا بعدم وجود دليل مادي يهديهم إلى هذه العقيدة. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في ركن من أركان الإسلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) البعث أمرٌ غيبي، وليس كل غيبي معدومًا؛ ففي الكون بلايين الظواهر والكائنات التي لم تكن معروفة قبل حدوث التقدم العلمي، وبحدوثه علمها الإنسان، فهل كانت هذه الأشياء معدومة، ثم ظهرت؟

٢) إن مبدأ العدالة الإنسانية في الإسلام يتنافى مع مبدأ نهاية الإنسان بمجرد موته، بلا ثواب ولا عقاب؛ لأن الحياة الدنيا ليست محلًّا للعدالة الحقيقية.

٣) الموت لا يعدو كونه انتقالًا من حياة فانية إلى حياة باقية يُخلَّد فيها المرء، إما في جنة، وإما في نار؛ وذلك أن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف.

(*) قضايا إسلامية: مناقشات وردود، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٤م. شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨م. نظرات جديدة في القرآن المعجزة، محمد عادل القلقيلي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

® في **"بيان القرآن حقيقة البعث وإمكانه"** طالع: الشبهة السابعة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

التفصيل:

أولا. ليس كل ما هو غيبي معدومًا:

في الكون بلايين الأشياء أو الكائنات لم تكن معروفة قبل حدوث التقدم العلمي، وبالتقدم ظهرت للإنسان، فهل هذه الأشياء أو الكائنات كانت معدومة، ثم ظهرت؟ إن الماديين لا يعرفون للوصول إلى الحقيقة غير الحواس والمادة، سواء بتلك الحواس المباشرة، أو بالآلات العلمية المخترعة، والتي يتمكن بواسطتها الإنسان من إدراك الأشياء الدقيقة والبعيدة، مما تعجز الحواس المباشرة عن إدراكها.

ولكننا نقول لهؤلاء: ألم تكن هذه الأشياء الدقيقة، قبل حدوث هذا التقدم العلمي مجهولة بالنسبة للإنسان؟ ألم تكن هذه الأشياء غيبية؟! بلى، كانت غيبية، فهل كان عدم العلم بها، أو عدم إدراكها دليلًا على عدمها؟ كلا، ولكن عقل الإنسان قاصر، وحواسه بسيطة لا تدرك إلا ما في طاقتها، وهذه الأشياء فوق طاقة العقل، وقدرة الحواس.

وإن كنتَ لا تؤمن إلا بالمادة، فأين عقلك؟! إن آمنتَ أنه لا عقل لك؛ لأنك لا تدركه ولا تحسُّه، فأنت مجنون، وهذا ما يدرؤه كل إنسان عن نفسه.

إذن ليس كل ما هو غيبي معدومًا، أو غير موجود؛ فكثير من الميكروبات - مثلًا - التي نعرفها الآن بعد حدوث التقدم العلمي والتكنولوجي لم تكن معروفة من قبل؟ فهل كانت معدومة؟ إن هؤلاء المنكرين أنفسهم يتكونون من شيئين أساسيين، وهما الجسم والروح معًا، فالجسم محسوس وملموس، ولكن الروح غير مُدْرَكة ولا محسوسة، فهل يستطيع هؤلاء المنكرون أن ينكروها؟

إن هؤلاء المشككين دائمًا ما يحاولون إخضاع الدار الآخرة بما فيها البعث للمقاييس التجريبية التي يخضع لها هذا الكون المادي، مع أن الدار الآخرة بطبيعتها لا تخضع لهذه المقاييس الدنيويَّة، وكأنهم في معملهم هذا، أشبه بمن يقيس الضغط الجوي[1] بميزان البقَّال، أو يزن الكثافة بميزان الحرارة، أو يقيس مقدار الذكاء بمساحة الجمجمة، أو يزن بحور الشعر بالسنتيمترات[2]!!

وحين نمعن النظر في الواقع والحقيقة، نجد أن الملحدين هم الذين يريدون أن يسيطروا على الكون وفق رغباتهم وأهوائهم؛ وذلك لأن الإيمان بالدار الآخرة إيمان بمحكمة العدل الرباني، وما تستتبع من جزاء، وفي هذه المحكمة العظمى يحاكَم الناس، ويحاسبون على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. والرغبات الإنسانية لو تُرِكَت وشأنها لحل لها أن تتخلص من قانون الجزاء، حتى تنطلق في تلبية مطالب أهوائها وشهواتها، دون أن تقف في طريقها حدود ولا ضوابط، فقضية الإنكار هي القضية التي تحاول إخضاع الواقع الكوني للأهواء والعواطف والرغبات، ولا تؤمن باليوم الآخر والحياة الآخرة، وقد كشف القرآن هذه الحقيقة من حقائق نفوس المنكرين، فقال ﷻ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ

---

١. الضَّغط الجوي: الضغط الذي يتركَّز على نقطة معينة بفعل الثقل الذي يحدثه عمود الهواء على هذه النقطة ويؤثر في جميع الاتجاهات.

٢. السنتيمتر: وحدة لقياس الطول، تُقدَّر بجزء من مائة جزء من المتر، ويرمز إليها بـ (سم).

﴿ ... ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ (القيامة)[1].

ثانيًا. إن مبدأ العدالة الإنسانية الحقة ينافي مبدأ نهاية الإنسان بمجرد موته:

عن انعدام تحقيق العدالة في الحياة الدنيا يشير الشيخ محمد الغزالي إلى هذا المعنى بقوله[2]: إن العدالة الحقة لا تتحقق في هذه الحياة الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعباقرة تَوَسَّدوا التراب، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم، وعادوا يضحكون.

إن اثنين وسبعين ألفًا من عرب فلسطين ومسلمي لبنان قُتِلوا في إحدى الحروب، فلنفرض أن الله جعل الدائرة للعرب ـ وستكون إن شاء الله ـ وارتدت الكرَّة بعد سنين طويلة أو قصيرة، سيكون هؤلاء المعتدون السفَّاحون قد ماتوا، وقد يُعْفى عن أبنائهم وأحفادهم وإن اقتُصَّ فسيُقْتَصُّ ممن لم يقترف جرمًا!!

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا في حركتها الدائبة، يقول الشاعر:

وقالوا يَعُودُ الماءُ في النَّهْرِ بَعْدَما
ذَوَى بَيْنَ جَنْبَيْه وجَفَّتْ مَنابِعُهْ
فَقُلْتُ إلى أن يرْجِعَ النَّهْرُ جاريًا
ويَعْشَبَ جَنْباه تموت ضفادعه!!

"إن الوجود الإنساني كله عبر تاريخه الطويل، بهذا التصور المادي، يُمْسِي مسرحيَّة من مسرحيَّات العبث، ولو أن حياة الإنسان تنتهي كلها في ظروف هذه الحياة الدنيا، ثم لا شيء وراءها، فأين تحقيق قانون العدل الإلهي في ظروف هذه الحياة الدنيا؟

إن المنطق الحق، والضمير النقي لَيُشْعِر بداهة ـ ولو لم تنزل آيات الوعد، والوعيد، وأنباء اليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء ـ أن مرحلة حياتية غير هذه المرحلة لا بد منها لتحقيق العدالة، ولا بد أن يلاقي الناس فيها جزاء أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ولئن كنا نشاهد أن بعض تطبيقات العدل الإلهي جارية في ظروف هذه الحياة الدنيا، ضمن سنن الله الثابتة، فإن الصورة الكاملة للعدل غير مستكملة في هذه الحياة، ولذلك كانت الضرورةالأخلاقية الإيمانية تقتضي أن هناك حياة أخرى؛ لإقامة العدل الحقيقي"[3].

إن البعث حق، والآخرة حق؛ لأنهما تصحيح لأوضاع، وَرَدٌّ لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين، هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولا بد من مراعاته؛ وذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم: "وعِزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين"[4][5].

وقد تأمل كثير من أهل الفكر والنظر والخبرة والدراية في ظروف هذه الحياة الدنيا، دون ملاحظة الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، فرأوا أن تاريخ الإنسان في هذه الحياة صورة للجرائم والمصائب،

---

١. صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن، دار العلم، دمشق، ط٤، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥، ص١٦٩ وما بعدها.

٢. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٠.

٣. صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حَبَنكة، مرجع سابق، ص١٧٢، ١٧٣.

٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٠٣٠)، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته (١٧٥٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٠).

٥. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤١.

وتهريج لا جدوى منه، وسِجِلٌّ للجرائم والحماقة وخيبة الأمل، وقصة لا تعني شيئًا، وقد عبَّروا عن نتاج فكرهم ونظرهم بأقوالهم الآتية:

قال فولتير: "إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب".

قال هربرت سبنسر: "إن التاريخ تهريج، وكلام فارغ لا جدوى منه".

قال واردجين: "إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلًّا للجرائم، والحماقة، وخيبة الأمل".

قال نابليون: "إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئًا".

قال هيكل: "إن الدرس الوحيد الذي تعلَّمَته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئًا".

هذا وقد علَّق المفكر الإسلامي وحيد الدين خان على ذلك، فكان مما قال: "هل قامت مسرحية العالم كله لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ إن فطرتنا تقول: لا.. فدواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا الإمكان، لا بد من يوم يميِّز بين الحق والباطل، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان"[1] ®.

إن المشاعر، مشاعرَ الفطرة والنظر، لا تنكر البعث، ومن هذه النظرات نظرات الفلاسفة اليونانيين، الذين سجلوا كلامًا واضحًا في ذكر اليوم الآخر، وما فيه من حياة أبدية؛ فهذا سقراط يقول: "إن الذين يمضون إلى الآخرة، وقد أفنوا أعمارهم بالطهارة، وسبيل القصد، فإن الملك يقودها إلى أرض مشرقة عجيبة، وما نبت فيها من الأزهار، والأشجار، بخلاف هذه، إذا كانت التربة والأحجار بخلاف تلك الأحجار.. إن الذين عظمت ذنوبهم وجناياتهم، وتركوا واجبات الشريعة، فإنهم يُحْمَلون إلى نهر يلتهب بنار عظيمة، ويغلي بماء وطين، فيكونون فيه أبدًا، لا يخرجون منه، وأما الذين برزوا في حسن السيرة، فإنهم يصيرون إلى فوق، إلى المسكن النقي فيسكنونه". وقال سقراط عند موته: "إلى الله أبتهل في أن يكون نقلي من هذه الدار إلى دار الآخرة نقلة سعادة"[2].

وعلى الرغم من إنكار كفار قريش للبعث بعد الموت، وسخريتهم من إمكانية عودة الحياة لأجسام بَلِيَتْ، وعظام تفتت، إلا أننا نجد بعضهم ينصُّ على حياة أخرى وحساب وجزاء، كما ورد عن زهير بن أبي سلمى، أنه قال:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكم
لِيَخْفَى فَمَهْما يُكْتَمُ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فيوضع في كتابٍ فَيُدَّخَرْ
لِيَومِ الحِسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

---

1. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م، ص٨٦ وما بعدها.

® في **"اقتضاء العدل الإلهي لعقيدة البعث"** طالع: الوجه الثامن، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

2. أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ثالثًا. ليس الموت نهاية المطاف، ولكنه انتقال من حياة إلى حياة:

الحياة في الإسلام تمتد عبر الزمان والمكان والعوالم، فعبر الزمان تشمل الحياة الدنيا والآخرة وعن هذه الحياة يتحدث د. عثمان جمعة فيقول: "إن زمن الحياة الدنيا محدود صغير مهما بدا للناس واسعًا شاملًا، تستغرق جهودهم بعضه، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة، والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل، فكيف إذا ضممنا إلى الحياة الدنيا الحياة الآخرة، فكانت هي أيضًا حلقة في سلسلة النشأة والمعاد؛ لأن الدنيا والموت ليسا هما نهاية المرحلة بالنسبة للإنسان.

فالآخرة حلقة في سلسلة النشأة، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة. والذين لا يدركون حكمة النشأة، ولا يدركون ناموس الوجود، يغفلون عن الآخرة، ولا يقدرونها حق قدرها، ولا يحسبون حسابها، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود، لا تتخلف مطلقًا ولا تحيد.

والناس في هذه الحياة على أصناف أربعة: فمنهم من همُّه من الحياة المتعة والأكل: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾(محمد). وقوم آخرون مهتمون بالزينة، والشهوات: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران).

ومنهم من لا همَّ له إلا الشر إيقاد الفتن، وإظهار الشر وإيجاده: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة).

وإذا كانت هذه هي مقاصد معظم الناس في الدنيا، فالله ﷻ قد نزَّه طائفة من الناس، ليسوا كهؤلاء الناس البهائميين، ولكنهم صنف خصَّهم الله تعالى، وميَّزهم عن سائر البشر، هؤلاء هم المسلمون الذين ألقى الله على عاتقهم مهمة الرسالة المحمدية، مُهمة هداية البشر وإرشادهم إلى الحق والخير: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (البقرة).

وقد يكون المسلم ـ مع نُبل هدفه ونقاء رسالته ـ مظلومًا ومسلوب الحق وغير مُمكَّن له في الأرض، وقد تكون السيادة والزعامة، لمن لا هَمَّ له إلا ملء البطن، وسفك الدم، وترميل النساء، وتشريد الشعوب، وتيتيم الأطفال، فهل يكون ذلك من العدالة في شيء؟ بالطبع لا. ومن ثم كان من الواجب والمفروض حتمًا أن يكون هناك مَرَدٌّ للإنسان؛ ليكون عزاءً لكل من ظُلِمَ في هذه الحياة الدنيا.

إن الإنسان لم يُخْلَقْ لكي تنتهي حياته بموته، وإنما خُلق ليُخلد، وقد وُجدَتِ هذه المفاهيم لدى الفراعنة والإغريق، وفلاسفة اليونان، فقد تصوروا ذلك، وآمنوا بالحياة الأخرى، وآمنوا بالحساب، والجزاء، إما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم. وهؤلاء قد عاشوا قبل الميلاد، وقد رسخت هذه المفاهيم في عقولهم.

فكيف بهؤلاء الماديين بعد هذا التقدم العلمي الهائل في العصر الحديث، الذي كشف عن حقائق علمية أخبر عنها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، كيف

بهم ينكرون بعد ذلك حقيقة البعث التي أخبر بها القرآن؟ ولماذا لم يُسلِّموا بحقيقته، لِما رأوه من صدق هذا القرآن؟

أيعجز الله تعالى عن أن يحيي الخلائق بعد موتها؟ إن الله ﷻ أيّد نبيه إبراهيم عليه السلام بإحياء الموتى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ (البقرة).

وأيّد موسى عليه السلام ببث الروح في العصا، فإذا هي حية تسعى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ (طه).

وأيّد المسيح عيسى عليه السلام بإحياء الموتى، وتصوير الطين على هيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا بإذن الله، وكل ذلك ثابت تاريخيًّا وقرآنيًّا. أيعجز بعد ذلك عن إحياء الخلائق بعد الموت: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾ (البقرة)[1].

الخلاصة:

- إن الدار الآخرة التي خلقها الله تعالى لعباده لا تخضع للمقاييس التجريبية التي تخضع لها الحياة الدنيا، ومن أراد أن يخضعها لهذه المقاييس، فمثله كمثل من يقيس الضغط الجوي بميزان البقّال، أو يزن الكثافة بميزان الحرارة، أو يقيس الذكاء بمساحة الجمجمة، أو يزن بحور الشعر بالسنتيمترات.
- ليست الحياة الدنيا بمسرحية قامت لتنتهي بظلم الأقوياء للضعفاء، ولكنها اختبار أُجِّلَتْ نتيجته ليوم الجزاء، ليعلم الله الصابرين من الجازعين، وليحاسب كلٌّ على أعماله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.
- إن الإنسان لم يُخْلَق لكي ينتهي وجوده بموته وإنما خلق لكي يحيا في هذه الحياة الدنيا ما شاء الله سبحانه وتعالى له أن يحيا، ثم يموت، ثم يبعث، فيحاسب على أعماله، ثم يدخل الجنة، أو النار، فما الموت الذي نراه إلا انتقال من حياة إلى حياة. وهذه الحقيقة آمن بها كل الخلائق إلا الماديين منهم، فالفراعنة آمنوا بها وكذلك الإغريق وفلاسفة اليونان، وبعض من المشركين العرب.

الشبهة العاشرة

الطعن في عدل الله ﷻ؛ لإدخاله من لم تبلغه الدعوةُ النارَ(*)

مضمون الشبهة:

يخطئ بعض الواهمين في فهم معيار الثواب والعقاب يوم القيامة، ويذهبون إلى أنه غير عادل، ويستدلون على هذا الفهم الخاطيء بإدخال الله ﷻ من

١. التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، عثمان جمعة ضميرية، دار الكلمة الطيبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ، ص٥٣ وما بعدها.

(*) أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

وُلد في غير ديار المسلمين النار؛ لعدم إسلامه، ويتساءلون: ألا يتعارض دخول جميع هؤلاء الناس النار، لمجرد عدم اعتناق الإسلام، مع طبيعة العدل الإلهي، خاصة وأنَّ سُبل الإيمان لم تتوفر لهم مثلما توفَّرت لغيرهم؟

وجها إبطال الشبهة:

١) بلوغ الدعوة في الدنيا هو المعيار الذي يترتب عليه الحساب على الإيمان أو الشرك، وليس موطن الإنسان وبيئته؛ ثم إن من لم تبلغه دعوة نبي، يُطلق عليهم "أهل الفترة"[١]، وهؤلاء يُمتَحَنون في عَرَصَات القيامة بأن يُؤْمَروا باقتحام النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن أبى عُذِّب فيها.

٢) منهج الإسلام هو منهج العدل والرحمة بالإنسانية جمعاء؛ فهو لا يحاسب أحدًا إلا بعد أن يصل إليه أمرُ الله وبلاغه عن طريق الأنبياء والرسل.

التفصيل:

أولا. بلوغ الدعوة هو معيار الثواب والعقاب:

إن الادِّعاء بأن الذين يُولدون في غير ديار الإسلام سيدخلون النار ادِّعاء مُغْرِض ومنافٍ للحقيقة، فلا هو من تعاليم الإسلام، ولا هو موجود في عقيدة المسلمين، وكذلك لم يقل به أحد من علماء المسلمين ولا أئمتهم، ولا حتى ورد مثل هذا الادعاء في عقيدة أية فرقة من فرق الإسلام، فلا توجد قاعدة أو حكم يقول: إن جميع هؤلاء سيذهبون إلى جهنم، ولكن القاعدة الأصلية المقررة تتمثل في: أن الذين سمعوا بدعوة رسولنا ﷺ وشاهدوا النور الذي جاء به ﷺ، ولكنهم أَبَوْا وعاندوا وصموا أسماعهم عن هذه الدعوة، مثل هؤلاء سيكون مصيرهم إلى جهنم دون شك، ومن الحماقة التظاهر برحمةٍ تفوق الرحمة الإلهية.

فأما من لم تبلغهم الدعوة في مجتمعات غير المسلمين، سواء كانت شرقية أم غربية، في عصرنا الحالي، أو العصور السابقة، هؤلاء جميعًا حكمهم حكم "أهل الفترة" الذين لم تبلغهم دعوة نبي. فهم يمتحنون في عرصات القيامة فيؤمرون بأن يقتحموا النار فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا ومن أبى عُذِّب فيها، وكذلك حكم الأطفال غير المسلمين الذين ماتوا قبل البلوغ، والمجانين ونحوهم؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء). وقوله تبارك وتعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

والآيات في ذلك كثيرة، لذلك ليس من الصحيح ادِّعاء أن الذين يعيشون في بلاد غير بلاد المسلمين ولم يؤمنوا يدخلون النار، وأن ذلك يتنافى مع العدالة الإلهية.

إن ما يجب معرفته، والإشارة إليه، والتنبيه عليه هو: أن من سمع بالقرآن الكريم، وعلم بنبوة خاتم الرسل محمد ﷺ، ولم يبحث عن صحة هذه النبوة، ولم يصرف أي جهد، أو تدقيق في هذا الموضوع، سيذهب إلى جهنم، ولكن من لم تتيسر له مثل هذه الفرصة، ونشأ في الظلام، وبقي فيه طوال حياته ـ مثل هؤلاء لا يُلامون ولا يُؤَاخَذون على الصحيح الراجح عند

---

١. أهل الفترة: أهل المدة التي تقع بين نبيَّين.

جمهور المسلمين.

فخلاصة الأمر إذن تكمن في بلوغ الدعوة وعدمه، فالدعوة إذا لم تبلغ رجلًا ما فلا يُكلَّف كما نُكلَّف، وقد تطير لتصل إلى رجل في آخر العالم، فهذا هو المكلَّف.

والناس عند تلقيهم للدعوة التي تبلغهم أنواع؛ فمنهم من يتقبَّل وينصر ويأوي، فهذا من المسلمين، وإن كان يعيش في بلاد غير بلاد المسلمين، ومنهم من يرفض ويجابه الدعوة ويموت في سبيل ذلك، فهذا لا ينفعه شيء من عمله هذا، حتى وإن كان ذا قربى وصلة دم مع نبي هذه الأمة محمد ﷺ، وإن عاش معهم في بلادهم.

المهم أن قضية مولد الإنسان ونشأته في بيئة معينة، سواء إسلامية، أم غير إسلامية، لا تتدخل في تحديد المصير.

لكن هناك نقطة أخرى مهمة جدًّا يجب التنويه عليها في هذا المقام، وهي أن الواقع يستبعد أن يكون هناك أناس لم تبلغهم دعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن انتشار دعوات الديانات في زماننا صار لا تحُدُّه أطر الزمان والمكان، بسبب التطور التقني في الاتصالات الذي يجعل الداعي يدعو للدين في آخر أنحاء الأرض، وهو في بيته، فمن مجيب ومن ممتنع، ولا يستويان.

فلا عذر لمن سمع برسول الله ﷺ ثم لم يؤمن به، كما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كان من أهل النار"[1][2] ®.

ثانيًا. منهج الإسلام هو منهج العدل والرحمة بالناس جميعًا:

من عظيم رحمة الله بعباده أنه لا يحاسب أحدًا إلا بعد أن يصل إليه أمره وبلاغه عن طريق المرسلين، ومن لم تبلغه الدعوة، فالله لا يُعذبه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء).

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة، وهي حاكمة بأن الله تبارك وتعالى لا يُدْخل أحدًا من البشر النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، يهدي إلى الحق، ويردع عن الضلال، ويقيم الحجَّة، ويمهد الشرائع، ويبلغ دعوته. ولا فرق بين زمن النبي ﷺ والأزمنة المتتالية من بعده، فمن لم تبلغه الدعوة، ولم يسمع بالنبي ﷺ، فحكمه حكم "أهل الفترة".

وقد ورد في الحديث الشريف أنهم يُمْتَحَنون يوم القيامة، فعن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: "رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبَعْر، وأما الهَرِم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، أما الذي

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (٤٠٣).
2. انظر: أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٢٣٥ وما بعدها.
® في **"أثر مبدأ الثواب والعقاب في تحقيق العدالة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني من رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعوه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار. فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا"[1].

يزيد على هذا أن أولاد المشركين إذا ماتوا صغارًا فقد ورد النص أنهم "دعاميص الجنة"[2][3] وقد ذكر ابن حجر أنهم يُمْتَحنون في الآخرة بأن تُرفع لهم نار، فمَن دخلها كانت عليه بَرْدًا وسلامًا، ومَن أبَى عُذِّب. وقد صحَّت مسألة الامتحان في حق المجنون ومَن في الفترة من طُرق صحيحة، وحكى البيهقي في كتاب "الاعتقاد" أنه "المذهب الصحيح"[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولكن لا يُعذِّب الله أحدًا حتى يَبْعَثَ إليه رسولًا، وكما أنه لا يُعذبه، فلا يدخل الجنةَ إلا نفسٌ مسلمة مؤمنة، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتُحِن في الآخرة. ولا يدخل النارَ إلا من اتبع الشيطان، فمن لا ذنب له لا يدخل النار، ولا يعذب الله بالنار أحدًا إلا بعد أن يبعث إليه رسولًا، فمن لم تبلغه دعوة رسول كالصغير والمجنون والميت في الفترة المحضة، فهذا يمتحن في الآخرة، كما جاءت بذلك الآثار، فيجب الفرق في الواجبات والمحرمات، والتمييز بينهما هو اللازم لكل أحد على كل حال، وهو العدل في حق الله وحق عباده بأن يعبدوا الله مخلصين له الدين ولا يظلم الناس شيئًا"[5].

هذا هو منهج الإسلام، فلا ظلم فيه ولا جَوْر، فلا يُؤاخذ إنسان بجريرة غيره، بل كل إنسان مرهون بعمله، كما قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ (المدثر)، وقال عز وجل: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)، وكيف يُعذَّب إنسان بذنبٍ لم يقترفه سوى أن القدر أَوْجَده في بيئة معينة، أو أنه وُلِدَ لإنسان جائر أو كافر، وغير هذا مما يدعيه بعض الجهال بالمنهج الإلهي، بل ينسبونه - ظلمًا وزورًا - إلى الإسلام، والإسلام من افتراءاتهم بَرَاء.

وهكذا دلَّت النصوص وشروح العلماء لها على أن مَن لم تبلغه دعوة النبي ﷺ لا يقوم بحقه تكليف، وبالتالي لا يقوم بحقه ثواب أو عقاب، حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ.

هذا هو منهج الرحمة الربانية الذي قال عنه القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء)، وقال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة إلا

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المدنيين، حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه (١٦٣٤٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس في ذلك اليوم (٧٣٥٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣٤).

٢. دَعامِيص الجنة: خَدَمُ الجنة من الأطفال الذين يموتون صغارًا.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٦٨٧٠).

٤. الجنة والنار، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٩٥.

٥. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ، ج١٤، ص٤٧٧.

رحيم"، قلنا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: "ليست الرحمة أن يرحم أحدكم خاصته حتى يرحم العامة ويتوجَّع للعامة"[1].

وهذا هو المنهج الذي رُفِعَ فيه الحرج واللَّوم عن المُخطئ والنَّاسي والمُكرَه. ومن مجالات الرحمة العظيمة في الإسلام أن القَلَم[2] رُفِعَ فيه عن الصبي حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ.

الخلاصة:

- إن البلاغ والإنذار مناط أحكام الدنيا وجزاء الآخرة، وليس موطن الإنسان وبيئته.
- إن من لم تبلغه دعوة نبي يطلق عليهم في الإسلام مصطلح "أهل الفترة"، وهؤلاء يُمْتَحَنون في عَرَصات القيامة بأن يؤمروا بالاقتحام في النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن أبى عُذِّبَ فيها.
- منهج الله ﷻ هو منهج الرحمة والعدل، فهو لا يظلم الناس شيئًا، ولا تزر وازرة وزر أخرى، فمن لا ذنب له لا يُعذَّب حتى يُمْتَحن ويأخذ فرصته في الاستجابة أو عدمها.

1. حسن لغيره: أخرجه عبد بن حميد في مسنده، مسند أبي هريرة ﷺ (١٤٥٤)، والحاكم في مستدركه، كتاب البر والصلة (٧٣١٠)، وقال عنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره (٢٢٥٣).
2. القَلَم: المؤاخَذة.

الشبهة الحادية عشرة

الزعم أن الجنة والنار لا حقيقةَ لهما وأنهما مجرد وسيلة لخداع الناس(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الجاحدين المعاندين حقيقة وجود كلٍّ من الجنة والنار، ويزعمون أنهما مجرَّد وسيلة اصطنعها رسول المسلمين محمد ﷺ؛ ليغري أتباعه ومريديه ببذل المال والنفس في سبيل دعوته، وهم بهذا ينكرون مبدأ الثواب والعقاب في الآخرة، وما بَلَّغ الرسول ﷺ عن ربه تبارك وتعالى من وعد بالجنة في الآخرة للمتقين الطائعين، ووعيد بالنار للمشركين العاصين.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إن أقوى الأدلة على صدق ما جاء به الحبيب المصطفى محمد ﷺ في مسألة إثبات وجود كلٍّ من الجنة والنار في الحياة الآخرة، زهده ﷺ في الدنيا وإعراضه عنها، وهي طوع يده؛ رغبة في الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ينتظر المؤمنين.

2) الإيمان بالدار الآخرة عقيدة ثابتة في جميع الأديان، فالنبيون والمرسلون جميعًا كانوا يَدْعون أقوامهم إلى الإيمان بالدار الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب.

3) العدالة الإلهية تقتضي أن يُجازَى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وألا يُتْرَكَ الناس سُدًى.

(*) موقع صيد الفوائد.

التفصيل:

أولا. لو كانت الجنة والنار وسيلتا خداع، فلماذا يزهد محمد ﷺ الدنيا ويزهد فيها وهي طوع يده رغبةً في الآخرة؟

هذا الزعم - الذي زعموه - من خيال مريض يصطدم مع أصول الدين الثابتة؛ فالنبي ﷺ لم يبدأ دعوته بالترويج لما في الجنة من مباهج ونِعَم، بل بالدعوة إلى التوحيد والرسالة وإلى الإيمان بالبعث بعد الموت، وجعل ذلك كله مرهونًا بالإيمان القلبي العقلي والعمل والجهاد، والجنة ليست اختراعًا أو بدعة إسلامية، بل هي الفردوس الموعود في كل دين، وبخاصة في الأديان السماوية.

ينطلق صاحب هذا الادعاء من خياله المريض حينما يرى أن فكرة الجنة الموعودة في الدار الآخرة ما هي إلا خدعة، أراد بها المروِّجون لها وعلى رأسهم النبي الأعظم، حاشاه ﷺ، أن يُضلُّوا العامة والسُّذَّج من البشر الذين يبحثون عن الروحانيات والنعيم المقيم في الفردوس المفقود، وعليه، دَفَعَهم النبي — حاشاه - إلى العمل والجهاد؛ لتحقيق غايات وأهداف حاضرة في مقابل نتيجة آجلة هي الفوز بالجنة، ولكن غاب عن هؤلاء أن النبي محمدًا ﷺ لم يصبح ملكًا مُتَوَّجًا، ولا سلطانًا مُعَظَّمًا، بل ظل يصوم ويُفطر، يشبع يومًا فيشكر، ويجوع يومًا فيصبر، يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، يدخل عليه من لا يعرفه وهو في وسط أصحابه فيسألهم أيكم محمد ﷺ؟

لو كان محمدٌ كاذبًا لانكشف أمره، ولظهرت خديعته؛ لأنه من المستحيل أن يكذب على الناس جميعًا، ويُصَدِّق هو كذبته، لقد مات النبي محمد ﷺ وليس في بيته شيء من متاع هذه الدنيا؛ لأنه آثر ما عند الله على ما عند الناس، ومن ثم لقي ربه ودرعه مرهونة دون أن يشبع من خبز الشعير.

وإن نظرةً إلى بداية دعوته ﷺ لكفيلة بأن تخبرنا أنه بدأ دعوته لقومه بالإيمان بالأصول الثلاثة الكبرى، وهي الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بالرسالة والنبوة، التي جاء بها من ربه، والإيمان بأن لهذه الحياة الدنيا نهاية، وبعد انقضاء أجل الدنيا ستكون دار آخرة للحساب والثواب والعقاب، هذا ما عبَّر عنه النبي ﷺ في خطبته الشهيرة في بني قومه: "إن الرائد لا يَكْذِب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا"[1].

فلماذا إذن يخدع النبي ﷺ قومه - كما يدعي هؤلاء - وما الهدف من وراء ذلك؟

يجيب د. البوطي فيقول: ثم إنَّا نعود فنقول مرة ثانية لهذا المستخف بالجنة والنار والمستهزئ بحديث القرآن عنهما: إن المشركين الذين لاقى منهم رسول الله ﷺ ما لاقى لم يكونوا أقل منك حقدًا على رسول الله، واستخفافًا بدعوته، وبالرسالة التي جاء بها إلى العالم من عند الله. فلماذا لم يتهموه بهذا الذي تقول؟ لماذا لم يقولوا له: إنك تدغدغ بجنتك التي تغرينا بها أحلامنا بأرض خضراء رائعة، وينابيع من المياه الثرَّة؛ لنستجيب

---

١. سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٤٣٢.

في مقابل ذلك لدعوتك التي تُريد من ورائها أن تتخذ من أكتافنا عرشًا لك، تمارس فيهِ الرئاسة فينا ؟!

ألم يكن أولئك المشركون أولى منك بهذا الاتهام؟ أم هل كانوا من السذاجة بحيث انطلى عليهم مَكْرُه وغاب عنهم قصده، في حين أنك ــ أيها الملحِد المعاصر ـ أدركتَ بذكائك الخارق قصده وبُعْد مرماه؟

ولكن دعني أسألك: أهو الذكاء وضياء الفراسة ذاك الذي كشف لك عن قصد محمد ﷺ في القرآن الذي بلّغه، والجنة التي وصفها ووعد بها، والنار التي حذَّر منها؟ أم هو شيء في نفسك التهب بين جوانحك، فأقحمك في الكذب والافتراء، وساقك إلى أن تصف رسول الله بنقيض ما فيه، وإلى أن تتهمه بلحاق التفاهة التي تعلم أنه مستعلٍ عليها؟

إذن فمحمد ﷺ إنما كان ـ في زعمك ـ يحوك من دعوته وقرآنه سُلَّمًا إلى الرئاسة والملك. ولكنك تعلم أن أبواب كل منهما تفتحت له فأعرض ولم يبال بها، وآثر أن يظل عبدًا منكسرًا في قبضة الله، يجوع يومًا فيسأل الله، ويشبع يومًا فيشكره.

أجل إنك تعلم ذلك، وتعلم ـ وأنت الدارس لحياته المنقِّب عن الثغرات والنقائص في سيرته، ولن تَجِدْ ـ أن عتبة بن ربيعة أقبل على رسول الله رسولًا إليه من قِبَلِ مشركي مكة، يعرض عليه الرئاسة، والملك والثراء، والتمتع بأجمل النساء، على أن يترك هذه الدعوة التي جاءهم بها ويُقلع عن الخوض في آلهتهم وتسخيفهم وتسخيف آبائهم، فكان جواب محمد ﷺ هذه الكلمات التي تعلمها بلا ريب: "ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا، نذيرًا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ، أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال ﷺ".

لعلك تتابع المكابرة والعناد، فتقول: هذا الذي قاله لعتبة ولقومه، إنما قاله تحببًا وتجملًا بالزهد، ليُقْبِلوا عليه فيتعلقوا به، فيحملوه على الرئاسة والملك، وهو لذلك في الظاهر كاره.

نقول: وها هم أولاء تعلقوا به وعرضوا عليه الرئاسة والملك من منطلق ما أُعْجِبوا به من أمانته وسموِّ أخلاقه وعجيب تواضعه، فكان المفروض ـ لو صدقت فراستك فيه واتهامك له ـ أن يتبوأ هذا العرض الذي كان يسعى إليه من الباب الذي ابتغاه، وقد فُتِحَ له على النحو الذي ابتغاه ـ فيما تزعم ـ وأكثر، فهلا سار إليه، وهلا حقق لنفسه الأمنية التي يسعى إليها، لعلك ترى أنه قد تَبَوَّأ مركز الرئاسة والملك فعلًا، وأنه حقق طموحاته التي رافقت حياته منذ صغره، إذن فأرني مظاهر شيء من ذلك في حياته.. متى تربَّع على هذا العرش؟! أفي مكة حيث الإيذاء الذي انهال عليه بكل ألوانه؛ اللهم إلا القتل الذي عصمه الله منه؟ أم في المدينة حيث كانت معيشته البيتية مضرب المثل للزهد والتقشف والانصراف عن زينة الدنيا ومبهجاتها؟ أم في الأيام أو الساعات الأخيرة من حياته، وقد عَلِمت الدنيا كلها أنه مات ودِرْعُه مرهونة؟

ولقد طاف بذهن عَدي بن حاتم الطائي هذا الذي تتهم به ـ أيها الملحِد ـ محمدًا ﷺ، ثم تبادر فتحيل

اتهامك له إلى حكم عليه، ولكنه كان موضوعيًّا في هذا الاحتمال الذي خطر في باله وهو بعيد عن الجزيرة العربية مقيم في الشام، فوضع احتماله هذا تحت مجهر النظر والبحث.

وتعال فاسمع ما يقول هذا الرجل عن عمله الذي سلكه في ذلك ليتجاوز مرحلة الافتراض إلى معرفة الحقيقة، يقول: "لو أتيت محمدًا؛ فإن كان ملكًا أو كاذبًا لم يَخْفَ عليَّ، وإن كان صادقًا اتبعته، فخرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله في المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: "من الرجل"؟ فقلت: عَدِي بن حاتم، فقام رسول الله فانطلق بي إلى بيته، فوالله، إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلًا، تُكلِّمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.. ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل داره تناول وسادة من أَدَمٍ[1] محشوَّة لِيفًا فقذفها إليَّ وقال: "اجلس على هذه"، فقلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: "بل أنت"، فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، فقلت في نفسي: والله، ما هذا بِمَلك.. يقول عدي: فعلمت أنه صادق وأنه رسول، فأسلمتُ.

ولو أنك أمعنتَ النظر بإنصاف لرأيت هذا الذي رآه عدي، ولأدركت أن محمدًا ﷺ كان رسولًا من الله إلى العالم كله، ولم يكن ملكًا، فإن لم تكن تقنع بما تقدم ذكره فأصغِ إلى هذا الذي يقوله رسول الله، أتشم فيه رائحة تَوَجُّهٍ إلى الدنيا؟ يقول: "ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة

١. الأَدَم: الجِلْد.

ثم راح وتركها"[2]. ويقول: "فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبسَط الدنيا عليكم كما بُسطِتْ على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلِككم كما أهلكتهم"[3].

ويقول ـ وقد مرَّ في السوق بِجَدْي ميِّتٍ فتناوله فأخذ بأذنه: "أيُّكم يحب أن يكون له هذا بدرهم"؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: "أتحبون أنه لكم"، قالوا: والله، لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أَسَكُّ[4]، فكيف وهو ميت؟! فقال: "فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"[5].

أترى أن هذا الكلام ممن يسيل لعابه على الملك والرئاسة والمال، ويخدع قومه ابتغاء الوصول إلى هذا الحلم؟! فإن لم تكن ترى الحق الذي عُرض عليك، فإليك هذه المعلومات عن حياته البيتية:

روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت لعروة: ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوقِدَت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٨٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقاق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦١٤)، واللفظ له.

٤. الأَسَكُّ: مقطوع الأذن.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٠٧).

التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول ﷺ من ألبانهم فيسقينا[1].

وقد صَحَّ أن نساء النبي ﷺ اجتمعن عليه وسألنه مزيدًا من النفقة، بحيث تكون حال الواحدة منهن كحال أية امرأة من نساء الصحابة، فلم يجبهن رسول الله إلى ذلك، وأنزل الله تبارك وتعالى عليه في ذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ (الأحزاب).

فجمع رسول الله ﷺ نساءه وخَيَّرهن بين الصبر على الحالة التي هن فيها من شظف العيش[2]، وبين الاستجابة لرغباتهن على أن يسرحهن بعد ذلك سراحًا جميلًا، أي يطلقهن بالمعروف، قالت عائشة: فبدأ رسول الله بي، فقال: "إني ذاكرٌ لك أمرًا، فلا عليك ألّا تستعجلي حتى تستأمري أبويك"، وتلا عليَّ رسول الله هاتين الآيتين، فقلتُ: أفي هذا أستأمر أَبَوَيَّ؟ بل إني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

قل لي الآن: ألا تستحيي من تجاهل كل هذا الذي يمزِّق خيالك، أو افتراضك الذي افترضته في حق الجنة والنار اللتين تحدث عنهما القرآن، وفي حق محمد رسول الله، شرَّ ممزق؟ إنك إذن ممن يثور على العقل؛ إذ يفرق بين النقائض ويباعد بين المشرق والمغرب. إنك إذن ذاك الذي يُصَفِّق له الشاعر قائلًا:

فَضَاحِكِ الشَّمْسَ في الدَّياجِي
ودَاعِبِ البَدْرَ في المحَاقِ
ولَا تُحَقِّقْ ولا تُدَقِّقْ
وانْسِبْ شَآمًا إلى عِرَاقِ
وقُلْ كَلَامًا بَغَيْرِ مَعْنًى
واحْلِفْ على الإفْكِ بالطَّلَاقِ
فَأَيُّ شَخْصٍ كَأَيِّ شَخْصٍ
بِلا اختلافٍ ولا اتفاقِ[3] ®

ثانيًا. الإيمان بالدار الآخرة وارد في جميع الأديان:

الإيمان بالدار الآخرة أمر لا يقتصر على الإسلام دون سواه من الأديان، وبخاصة السماوية، حيث حكى لنا القرآن الكريم أن النبيين والمرسلين جميعًا كانوا يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالدار الآخرة، وما فيها من حساب، وجزاء بالنعيم للمحسنين، والعذاب الأليم للظالمين، فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)﴾ (نوح)، وقال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) ﴾(الشعراء)، وقال تعالى

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٢٤٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٤٢)، واللفظ للبخاري.

٢. شظف العيش: ضيقه.

٣. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٨٥ وما بعدها.

® في **"زهد النبي وعدم تطلعه إلى جمع المال بالجهاد"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

أيضًا: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ (إبراهيم)، وقال القرآن على لسان مؤمن آل فرعون الذي آمن بموسى عليه السلام وتبعه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (غافر)، إلى أن قال لقومه: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ (غافر).

ثالثًا. العدالة الإلهية تقتضي أن يُجازَى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته:

هناك في يوم القيامة - في الصورة المكتملة في نهاية المطاف - تتبدَّى عدالة الله، ويتبدى الحق الذي خُلِقَتْ به السماوات والأرض، وخُلِقَ به الموت والحياة، ويتلقى كل إنسان دينه الحق، وتكتمل دلالة كل شيء في هذه الحياة: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (النور).

وعن نهاية الرحلة الدنيوية يشير أ. محمد قطب فيقول: "نهاية الرحلة الطويلة التي بدأ طرف منها على الأرض في الحياة الدنيا، واليوم تصل إلى نهايتها بعد البعث، والحشر، والعرض: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأعراف).

أمَّا الذين استقاموا في حياتهم الدنيا على الطريق، فآمنوا بالله، والتزموا بأوامره وأيقنوا بيوم لقائه، فتجنبوا سخطه وسَعَوْا إلى رضاه، وكدُّوا في سبيل ذلك وكدحوا، واحتملوا ما احتملوا من مشقة، وصبروا على ما لاقوا من الأذى والنصب في الطريق - فأولئك قد استحقوا رضوان الله وجنته، استحقوا أن يصلوا إلى دار الأمان حيث لا شيء يقلق، ولا شيء يخيف، ولا شيء ينغِّص النعيم: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الدخان).

وأمَّا الذين كفروا وأصرُّوا على غيِّهم، وخالفوا أمر ربهم تبارك وتعالى ورسله واستمتعوا في الدنيا بغير الحق، وكدحوا ولكن للشيطان، وفَرِحوا بأعمالهم الخاطئة، فَطَغَوْا بها وتجبروا، فقد استحقوا أن يصلوا إلى الجحيم، حيث لا موت ولا حياة، ولا يخفف عنهم يوم من العذاب"[1].

الخلاصة:

- صاحب هذا الادعاء ينطلق من خياله المريض حينما يرى أن فكرة الجنة والنار الموعودة في الدار الآخرة ما هي إلا خدعة، أراد بها المروِّجون لها أن يُضلُّوا العامة والسُّذَّج من البشر الذين يبحثون عن الروحانيات والنعيم المقيم في الفردوس المفقود، وعليه دفعهم النبي ﷺ - وحاشاه - إلى العمل والجهاد؛ لتحقيق غايات وأهداف حاضرة في مقابل نتيجة آجلة هي الفوز بالجنة، ولكن غاب عن هؤلاء أن النبي محمدًا ﷺ

---

1. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤٠٩، ٤١٠.

لم يصبح ملكًا متوَّجًا، ولا سلطانًا معظَّمًا، بل ظل يصوم ويُفطر، يشبع يومًا فيشكر، ويجوع يومًا فيصبر، يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، يدخل عليه من لا يعرفه وهو في وسط أصحابه فيسألهم أيكم محمد ﷺ؟

- لو كان محمدٌ ﷺ كاذبًا لانكشف أمره ولظهرت خديعته؛ لأنه من المستحيل أن يكذب على الناس جميعًا، ويصدِّق هو كذبته!
- الإيمان بالدار الآخرة أمر لا يختص به الإسلام دون سواه من الأديان وبخاصة الأديان السماوية، وقد حكى لنا القرآن الكريم أن النبيين والمرسلين ـ عليهم السلام ـ جميعًا كانوا يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء بالنعيم للمحسنين والعذاب الأليم للظالمين.
- العدل الإلهي يقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء في الآخرة؛ لئلا يقنط المظلومون في الدنيا بإفلات من ظَلَمَهم بموته.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن الخطاب بالمحسوسات في أمر الجنة والنار مقصورٌ على العقيدة الإسلامية (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن ما ورد في وصف ما يَرْفُل فيه أهل الجنة من صور النعيم؛ كالمآكل والمشارب والقصور والرياحين والحور العين، وما يَتَضَوَّر منه أهل النار؛ من جحيم وغِسلِين[1] وزَقُّوم[2] ـ أوصاف حسيَّة تندرج تحت الخطاب الحسي المادي؛ لترغيب المُتديِّنين من ذوي الحاجة والعاهة والمساكين، وترويع العُصاة أو غير المسلمين من أفعالهم وخروجهم عن الدين. ويتعجبون من اقتصار هذا الخطاب على العقيدة الإسلامية فقط.

وجوه إبطال الشبهة:

1) الجزاء الأخروي ليس حسيًّا فقط، بل حسي وروحي، وهذا مما تميَّزت به العقيدة الإسلامية، وإن كان ما ذُكِرَ في وصفه لا تستطيع الأذهان الإحاطة بِكُنْهِه.

2) إن الاقتصار على الجانب الروحي في وصف الجزاء الأخروي فيه تضييق لسعة النعيم الذي أعده الله ﷻ للمؤمنين، ولشمولية العذاب الذي أعدّه ﷻ

(*) الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١. الغِسْلِين: ما يسيل من جلود أهل النار؛ كالقيح وغيره.

٢. الزَّقُّوم: كل طعام قاتل.

للكفار العصاة.

٣) لا يلزمنا إلا ما جاء في القرآن الكريم؛ لأنه الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ والمعصوم من أي تحريف أو تبديل؛ حيث نصَّ على إقرار الأشقياء ـ أهل النار ـ بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر، كما حكى أن أتباع الرسل يُبَشرون بالجنة ويحذرون من النار.

٤) الوصف الحسي للجنة والنار موجود في جميع الأديان السابقة، ومن ثم فلا حجة لمن يَقْصُر هذا الوصف على العقيدة الإسلامية.

التفصيل:

أولا. الجزاء الأخروي ليس حسيًّا فقط، ولكنه حسي وروحي:

وهذا من مزايا العقيدة الإسلامية لأنه:

جزاء شامل يتلائم مع طبيعة الإسلام والروح والجسد؛ فلم يهتم بجانبٍ ويهمل الآخر، ولقد جاء وصف الجنة والنار، ووصف النعيم والعذاب في مواضع كثيرة جدًّا من القرآن الكريم.

وأول ما يُلاحَظ على وصف النعيم والعذاب في القرآن الكريم كونُه وصفًا حسيًّا ومعنويًّا لأن هذا هو الذي يتلاءم مع طبيعة الإنسان؛ فالإنسان الذي يعيش في الدنيا مزيج من الجسد والروح، وهو الذي يُكرم في الآخرة أو يُهان، فإذا كُرِّم فإنما يُكَرَّم كله، بجسده وروحه، وإذا عُذِّب فإنما يُعَذَّب كله، بجسده وروحه سواء.

مغاير لما عليه الناس في الدنيا؛ فلقد وصف الله عز وجل الجنة والنار، وصفًا دقيقًا شاملًا، ولكن خيالنا قاصر عن الإحاطة بهما؛ فإن الرسول ﷺ قال عن الجنة: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[1].

فنحن نتصور النعيم ـ سواء الحسي منه أو المعنوي ـ في حدود خبرتنا وتجاربنا في الحياة الدنيا، ولكنه في حقيقته أجمل من كل ما نستطيع أن نتخيل، فليس الشجر كالشجر، وليست الثمار كالثمار، وليس جمال الحور العين كأيِّ جَمال نستطيع أن نتصوره في الأرض، وكذلك الرِّضوان، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢)، إن أي تصور لهذا الرضوان ومدى الراحة النفسيَّة له والفرحة الروحية به، لا يمكن أن يصل إلى شيء من الحقيقة، ولكن هذه طبيعة البشر مع اللغة، لا يستطيعون أن يدركوا من معانيها إلا ما يدخل في دائرة تجربتهم وتصورهم!

والأمر مع العذاب كذلك.. إننا لا نستطيع أن نتصور من أمر النار إلا ما شاهدناه في حياتنا الدنيا، وقد نضاعف القدر في خيالنا مرات ومرات، ولكنا مع ذلك لا نصل إلى حقيقة عذاب الحريق الذي ينتظر الكفار في جهنم، وكذلك الأمر بالنسبة للعذاب النفسي؛ من خِزْي وحسرة وهوان.

وفيما يلي نعرض مقتطفات من الآيات الكريمة التي تشتمل على بعض أوصاف الجنة وأهلها، وأوصاف النار وأهلها: يقول الله تعالى في أوصاف الجنة وأهلها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب حدثنا عبد الله بن مسلمة (٧٣١٣)، واللفظ له.

﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ (٦٠) ﴾ (الرحمن).

ويقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (١٨) كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ (٢١) وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ (٢٣) ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ (٢٤) وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) ﴾ (الطور).

ويقول ﷻ: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا (١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا (١٦) وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا (١٨) ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا (١٩) وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا (٢٠) عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا (٢٢) ﴾ (الإنسان).

وفي أوصاف "النار وأهلها" يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ (النساء: ٥٦).

ويقول ﷻ: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٩٧) إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ (١٠١) فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠٢) ﴾ (الشعراء).

ويقول ﷻ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٥٦) ﴾ (الواقعة).

وهكذا نجد المقابلة تامة بين الجنة وأهلها، والنار وأهلها، فبينما الأولى تحوي كل ما يتخيَّله الإنسان من ألوان النعيم، بل فوق ما يستطيع تخيله، وأهلها في سمر ورضا، ضاحكة وجوههم، ناعمة مشاعرهم، يتجلَّى عليهم ربهم برضوانه ـ نجد على الجانب الآخر النار في الآخرة، تحوي كل ما يتخيله الإنسان من ألوان العذاب الحسي، وفوق ما يستطيع تخيله كذلك، والخزي والندم والحسرة كل هذا يمثل عذابهم النفسي الدائم، ويجيئهم مع العذاب التبكيت والتوبيخ والتقريع[1].

---

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤١٠ وما بعدها.

وقد بين القرآن الكريم أيضًا سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا من وجوه متعددة، يوضحها د. عمر سليمان الأشقر على النحو الآتي:

أن متاع الدنيا قليل، قال ﷻ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ (النساء). وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة، بمثال ضربه، فقال: "والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار بالسَّبابة ـ في اليَمِّ، فلينظر بمَ يرجع"[1].

ما الذي تأخذه الإصبع إذا غمست في البحر الخضم؟! إنها لا تأخذ منه قطرة، وهذه هي نسبة الدنيا ونعميها، إلى الآخرة ونعيمها، ولما كان متاع الدنيا قليلًا، فقد عاتب الله المؤثرين لمتاعها على نعيم الآخرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ (التوبة).

إن نعيم الجنة ـ إلى جانب كثرته ـ نعيم دائم غير منقطع، وهو الأفضل من حيث النوع، فثياب أهل الجنة، وطعامهم وشرابهم، وحليهم، وقصورهم ـ أفضل مما في الدنيا بمراحل، بل لا وجه للمقارنة بينهما، قال ﷺ: "موضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها"[2].

الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط[3] والبول، والروائح الكريهة، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والمحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله؛ فأهلها لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يَتْفلون.

وماء الجنة لا يَأْسَن[4]، ولبنها لا يتغير طعمه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ (محمد: ١٥)، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس قال ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (البقرة).

ونعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم، ولذلك سَمَّى الحق ﷻ ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعًا؛ لأنه يُتَمَتَّع به ثم يزول.

أما نعيم الآخرة فهو باقٍ ليس له نفاد، قال ﷻ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (النحل)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ (ص)، وقال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ (الرعد).

والعمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة تعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٧٣٧٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨)، وفي موضع آخر.

٣. الغائط: ما تطرحه الأمعاء من فضلات.

٤. يَأْسَن: يتغيَّر أو يفسد.

﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (آل عمران).

ومن الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالية من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، بل هي صافية كما قال ﷻ: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الصافات).

لقد وصف الله جمال لونها ﴿ بَيْضَآءَ ﴾، ثم بيَّن أنها تلذُّ شاربها من غير اغتيال لعقله، كما قال ﷻ: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (محمد: ١٥)، ثم إن شاربها لا يمل شربها: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وروى الضحاك عن ابن مسعود أنه قال: "في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة، ونزَّهها عن هذه الخصال".

وقال الله ﷻ في موضع آخر: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المطففين)، والرحيق الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين:

الأول: أنه مختوم، أي موضوع عليه الخاتم.

الأمر الثاني: أنهم إذا شربوه وجدوا في ختام شربهم له رائحة المسك.

- وطعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه، ويتحول الطعام والشراب إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم، روائح طيبة عبقة عطرة.

ونعيم أهل الجنة وكسوتهم، ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية، ونِعَم متتابعة، ألا ترى قوله ﷻ لآدم: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ (طـه).

وحكمة ذلك أن الله عرَّفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا هو ﷻ.

وتأسيسًا على ماسبق نتوجه إلى من أثار هذه الشبهة بسؤال مؤداه: إلامَ استنتدتم في زعمكم أن العقيدة الإسلامية اقتصرت في وصفها للجنة والنار على الجانب الحسي والمادي فحسب، وأنه لا مكان فيها للجانب المعنوي الروحي[1]؟!

ثانيًا. الاقتصار على الجانب الروحي فقط تضييق لسعة النعيم:

لقد ادعى مثيرو هذه الشبهة أن الأوصاف الحسية المادية للجنة والنار، وللنعيم والعذاب، لم ترد إلا في العقيدة الإسلامية فحسب، دون غيرها من العقائد التي اقتصرت على الجانب الروحي وركزت عليه وأغفلت الجانب المادي.

ولو افترضنا جدلًا صحة ادعائهم هذا، فإن القول بالاقتصار على النعيم الروحاني فيه تقصير شديد من قائله في سعة النعمة، وتمام الكرامة.

إن ما رسخ في عقيدة المسلمين من اشتمال الجنة والنار على الجوانب الحسية المادية ـ بالإضافة إلى الجوانب الروحية والمعنوية ـ يجزم العقل الشريف، بأن مثله لا تعرى عنه دار، أُريدت لغاية الإكرام أو الإهانة، بل لو فرض عدم هذه الملاذ البديعة منها، لقال العقل

---

١. الجنة والنار، د. عمر الأشقر، مرجع سابق، ص٢١٦ وما بعدها.

الوافر: لو كان فيها هذه الملاذ لكانت أتم وأكمل.

وهي أولى بقول الشاعر:

لَيْسَ فيها ما يُقَالُ لَه

كَمُلَتْ، لو أنَّ ذا كَمُلَا

فظهر إصابة المسلمين للصواب ببيان الجواب، واندفع السؤال.

إن النعيم الجسماني الذي يثبته المسلمون، ليس مُفَسَّرًا بما ذكرتموه - أيها الطاعنون - من التشنيع، بل إنه آنٍ على وفق الكرامة الربانية والسعادة الأبدية، وتقريره: أنَّا نجد في هذه الدار الملاذ الجسمانية تترتب على أسباب عادية؛ فالملاذ إما علوم خاصة حسية كإدراك الحلاوة، وأنواع الطعوم الملائمة، وإدراك الأرايج المناسبة لجواهر النفس البشرية، وإدراك السلامة للأجسام الموافقة لجواهر الطباع، وإدراك المبصرات من الألوان والأضواء وتفاصيل أنواع الحسن والجمال، وغيرها من المبصرات السارة للنفس.

وإما إدراك الأحوال النفسانية؛ كاشتهاء النفس حصول الشراب والغذاء عند حاجتها للاغتذاء والإرواء ونحو ذلك، ويقترن بذلك قاذورات تصاحب المباشرات، والمسلمون يثبتون اللذات وأسبابها في الجنة، مجردة عن القاذورات وأنواع الحاجات، فيقولون: الأكل والشرب والنكاح في الجنة من غير جوع ولا عطش، ولا بُصاق ولا مُخاط ولا دَمْع، ولا بول ولا غائط، ولا ريح، ولا حَيْض[1]، ولا مَنِيّ[2]، ولا رطوبات مستقذرة، ولا إبداء عورة منقصة، ولا زوال أُبَّهة، ولا شيء مما يُعاب بنوع من النقيصة، بل يجد المؤمن غاية ما يكون من لذة الأكل بمباشرة نفس المأكل من غير بُصاق ولا تلويث، ولا ألم جوع سابق ولا شيء لاحق، وكذلك يحصِّل أعظم ما يكون من لذة الشراب عند مباشرة أشرف المشروبات من غير عطش، ولا حاجة سابقة ولا تلويث لاحق، ولا شيء يُعاب، وكذلك يحصل الجِماع بمباشرة أجمل النساء من الحوريات، والآدميات التي كل واحدة منهن لو ظهرت لأهل الأرض لهاموا أجمعين بجمالها، وتحيَّرت عقولهم بكمالها وبديع حسنها، والمسلم مع هذا كله يقضي وَطَرَه من غير إنزال فضلات، ولا رطوبات مستقذرات منزَّه عن جميع الدناءات، بل كل حالة منها في غاية الرتب العليات، وكل جزء من أجزاء حسنها في غاية الشرف والجلالة، فلا عورة لها، ولا للمؤمن، ولا سوءة فيها ولا فيه؛ لأن العورة إنما تبدت في هذه الدار لكونها مخرج النجاسات، والنتن والرطوبات، فإذا ذهبت هذه المعيبات المنقصات ذهبت بذهابها العورات وبقيت المحال شريفة عَلِيَّة، لا يُنْسَبُ إليها خصلة دَنِيَّة.

ونخلص من هذا كله إلى أن الاقتصار في أمر الجنة والنار والنعيم والعذاب على الجانب الروحي المعنوي فيه تضييق لسعة النعيم الذي أعدَّه الله ﷻ للمتقين في الجنة، وفيه كذلك تضييق لشمولية أنواع العذاب التي

---

١. الحَيْض: دم يسيل من رَحِم المرأة البالغة في أيام معلومة من كل شهر.

٢. المَنِي: سائل أبيض غليظ تَسْبَح فيه الحيوانات المنويَّة، ينشأ من إفرازات الخُصْيَتين ويختلط به إفراز الحَوْصَلتين المنويَّتين والبروستاتا، يخرج من القَضِيب إثْر جِماع أو نحوه.

أعدَّها الله ﷻ للعُصاة في النار.

ثالثًا. لا يلزمنا إلا ما جاء في القرآن الكريم لأنه المصدر الوحيد الذي لم يُحرَّف، أما الكتب السابقة فقد تم تحريفها:

إن القرآن الكريم - وهو كتاب الله تبارك وتعالى المحفوظ الذي لم يبدَّل ولم يُحرَّف حرف واحد منه - يدل دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعًا عرَّفوا أممهم بالقيامة وبشَّروهم بالجنة، وأنذروهم بالنار، ويدل على ذلك أمور، منها:

أن القرآن ذكر إقرار الكفرة والأشقياء - أهل النار - أن رسلهم أنذروهم باليوم الآخر، قال ﷻ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ (الملك). فالكفار جميعًا عندما يُسألون عند ورودهم النار يُقرِّون بأن رسلهم خوَّفتهم لقاء ذلك اليوم، ولكنهم كفروا وكذَّبوا.

وأبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ﷺ ذكر اليوم الآخر كثيرًا، ففي دعائه ربه لمكة وأهلها قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ (البقرة).

وجاء في مناجاة الله ﷻ لموسى ﷺ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)﴾ (طه).

وقد حكى القرآن الكريم أن بعض أتباع الرسل يعرفون البعث ويبشرون بالجنة، ويحذرون من النار، مثل ذي القرنين عندما بلغ مغرب الشمس ووجدها تغرب في عين حمئة، ووجد عندها قومًا، يقول الله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ (الكهف).

وقد حكى القرآن الكريم أيضًا كلام رجل مؤمن من آل فرعون كان موقنًا بالبعث عارفًا به، قال ﷻ على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١)﴾ (غافر)، وقال مؤمن آل فرعون أيضًا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)﴾ (غافر).

وذكر القرآن أيضًا قصة سَحَرَة فرعون، عندما رأوا الآية الباهرة التي جاء بها موسى ﷺ خرُّوا ساجدين، وأصبحوا مؤمنين، فتهددهم فرعون بالعذاب الأليم، فاعتصموا بالله ربهم، ولم يلتفتوا إلى تهديد أو وعيد، وأجابوا - كما حكى القرآن الكريم عنهم - قائلين: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ (طه).

رابعًا. ورود الوصف الحسي للجنة والنار في الأديان السابقة جميعها:

لم تكن الدعوة الإسلامية بدعًا في وصفها للجنة والنار وأنها جزاء للمحسن والمسيء فقد سبقتها الأديان الأخرى في ذلك، وعن هذا يتحدث الأستاذ العقاد فيقول: إن الأنبياء والقِدِّيسين[١] في جميع الأديان الكتابية قد تمثلوا النعيم المحسوس في رضوان الله تبارك وتعالى ووصفوه على هذه الصفة في كتب العَهْد القديم[٢] والعهد الجديد[٣]، وفي كتب التراتيل[٤] والدعوات.

ففي العهد القديم وصف أشعياء يوم الرضوان في الإصحاح الخامس والعشرين من سفره، وقد جاء وصف النعيم المحسوس في العهد الجديد في مواضع؛ منها وصف يوحنا اللاهوتي في الإصحاح الرابع من رؤياه، وكذلك في الإصحاح العشرين، والواحد والعشرين، كما جاء وصف النعيم المحسوس في تراتيل القديس أفرايم، وكذلك اتفق أحبار[٥] الغرب والشرق في وصف النعيم بهذه الصفة المحسوسة، ولم يقتصر الأمر في الإسلام على مجرد اللَّذة الحسيَّة العابرة، ولكنه يَقْرِن بين متطلبات الجسد والروح معًا في الدنيا، فضلًا عن الآخرة، وينهى المسلم أن يقيس نعيم الرضوان على نعيم الدنيا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (السجدة).

أو كما جاء في الحديث الشريف: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[٦].

وفي الإنجيل: قال المسيح عليه السلام لتلاميذه: "طوبى للجِياع العِطاش إلى البِرِّ؛ لأنهم يشبعون". (متى ٥: ٦).

أما اليهود فقد ورد في نبوءة أشعياء عليه السلام: يا معاشر العطاش والجياع، توجهوا إلى الماء المورد، ومن ليس له فضة، فليذهب يستقي ويأكل ويتزود من الخمر واللبن، موافقة لقول الله الكريم: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (محمد: ١٥).

فقد تضافرت كتب اليهود والنصارى على النعيم الجسماني، وهو كثير في كتبهم، ولكنهم لا ينظرون[٧].

إن جمهور علماء العقيدة المسيحية يرون أن الحياة

١. القِدِّيس عند النصارى: المؤمن الذي يُتوفَّى طاهرًا فاضلًا، كالوَلِيِّ عند المسلمين.

٢. العَهْد القديم: أسفار الكتاب المُقدَّس التي كُتِبت قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

٣. العَهْد الجديد: كتاب يحتوي الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل، والرسائل والرؤيا.

٤. التَّراتيل: جمع تَرْتِيلة، وهي أُنشودة تُتْلَى مُنَغَّمة عند النصارى في الكنيسة.

٥. الأحبار: جمع حَبْر، وهو لقب يُطلق على عالم الدين، وخاصة لغير المسلمين، مثل رئيس الكَهَنة عند اليهود، والبَطْرك عند النصارى.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب حدثنا عبد الله بن مسلمة (٧٣١٣)، واللفظ لمسلم.

٧. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، مرجع سابق.

الأخرى ستكون مثل الحياة الدنيا، فيها أكل وشرب ونكاح... إلخ.

وهذه هي القاعدة العامة لدى الكنيسة، إذ يعلِّم آباء الكنيسة وفقهاؤها أتباعهم عقيدة بعث الجسد، وعقيدة اشتراكه مع الروح في الجزاء، وهما عقيدتان قائمتان على أساس متين من تعاليم السيد المسيح والدعاة، فقد قال يسوع لحوارييه: "ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحريِّ من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم". (متى ١٠: ٢٨).

ومع أن الإشارة إلى الجنة، كانت أقل ترديدًا في العهد الجديد من موضوع النار، فإنها تحمل كثيرًا طابع السعادة الحسية، بجانب السعادة الروحية... فقد قرر يسوع في أكثر العبارات صراحةً وعمومًا: "وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتًا لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تَدِينون أسباط إسرائيل الاثني عشر". (لوقا ٢٢: ٢٩، ٣٠).

وأكثر من ذلك تحديدًا قوله في آخر اجتماع مع حوارييه: "وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب من نِتاج الكَرْمَة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي". (متى ٢٦: ٢٩).

بيد أن الجانب الحسي من نعيم الجنة أكثر ظهورًا في رؤيا القديس يوحنا: "مَن يَغْلِب فسأُعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٧)، "من يغلب فذلك سيلبس ثيابًا بيضًا". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٣: ٥).

وبهذا يتبين خطأ ما ذهب إليه بعضهم من أن المسيحية تنكر النعيم المادي في الحياة الأخرى.

"ومما لا شك فيه أن النفوس هي المتلذذة بالمطاعم والمشارب وسائر اللذات، من الروائح الطيبة، والمناظر الحسنة. كذلك هي المتألمة أيضًا بضد ذلك من المكاره.

ومما لا يشك فيه أحد، أن الحواس الجسدية هي المنافذ لوصول هذه اللذات إلى النفوس"[1].

فإذا اتفقنا على أن الله سبحانه وتعالى سيجمع يوم القيامة أنفسنا والأجساد المركبة لها، ويعيدها كما كان الحال أول مرة، يلزمنا أن نصدِّق أنها ستذوق هنالك من اللذات والآلام بما تستدعيه طبائعها التي لم توجد إلا كذلك".

الخلاصة:

- ورد ذكر الجنة والنار بالصفات الحسية لهما في جميع الأديان السابقة للإسلام؛ لأن مصدر الديانات واحد، وهو الله ﷻ الذي خلق الإنسان مركَّبًا من جسد وروح، يُنعَّمان معًا أو يعذَّبان معًا، حسب إيمان الإنسان أو كفره وعصيانه.
- إن الجزاء الأخروي في عقيدة الإسلام ليس حسيًّا فقط، ولكنه حِسِّيٌّ وروحيٌّ، والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمات التي تصف الجنة ونعيمها، والنار وعذابها ـ وصفا حسيًّا ومعنويًّا.
- لقد أراد مثيرو هذه الشبهة أن يُفضِّلوا العقائد المختلفة على عقيدة الإسلام، فراحوا يدَّعون أن الجزاء الأخروي في هذه العقائد اقتصر على الجانب الروحي، ولم يُعْن بالجانب الحسي الذي طُعن به على عقيدة

---

١. انظر: بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.

المسلمين فأصبح مقصورًا عليها دون غيرها من العقائد المختلفة، ولقد وصم هؤلاء هذه العقائد بالنقص، من حيث أرادوا مدحها؛ وذلك أن قصْر الجزاء الأخروي على الجانب الروحي فقط فيه تضييق لسعة النعيم من ناحية، وتضييق لشمولية العذاب من ناحية أخرى.

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء أن اللعنة حلَّت على آدم وحواء بخروجهما من الجنة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن اللعنة التي حلَّت على إبليس وتسببت في طَرْده من رحمة الله - هي اللعنة نفسها التي حلَّت على آدم وحواء وتسببت في إخراجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، ولو أن اللعنة لم تحل عليهما لَبَقِيا في الجنة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله تبارك وتعالى خلق إبليس لطاعته وعبادته، وكان في منزلة رفيعة شريفة بين الجن، ينعم فيها برضا ربه عليه، فعندما عصى واستكبر استحق الطرد من رحمة الله.

٢) عصيان آدم وحواء كان نتيجة ضعف بشري وتغرير من الشيطان ومخادعة وتزْيين منه، ثم تابا فتقبَّل الله منهما، أمَّا إبليس فلم يتب، ولو تاب لتاب الله تعالى عليه.

٣) هبوط آدم وحواء إلى الأرض كان لحكمة الاستخلاف التي أخبر الله بها ملائكته قبل خلق آدم، ولم يكن عقوبة لهما؛ بدليل أن الله تعالى أهبطه إلى الأرض بعد أن تاب عليه.

التفصيل:

أولا. لعنة الله إبليسَ وطَرْدُه من رحمته:

إبليس خُلِقَ لطاعة الله وامتثال أوامره وعبادته، ولم يُخْلَقْ لمعصيته ومعاندته، كما أنه لم يُخْلق كذلك للإفساد بين العباد، ثم إن مسألة سجوده لآدم عليه السلام أو عدم سجوده له كانت باختيار مطلق جَبَله الله عليه، ولكنه تكبَّر على أن يُطيع أوامر مولاه وخالقه فيسجد - امتثالًا وخضوعًا له - لعبده آدم، فقال: أنا خير منه، وكيف يسجد الأفضل للمفضول ؟! هذا ما ظنه، وهو قائم على اعتقاد خاطيء عنده أن النار أفضل وأشرف من الطين! ولا مجال للمقارنة بين الاثنين؛ فلا النار أفضل من الطين، ولا الطين أفضل من النار على وجه العموم، وأما على وجه الخصوص، فكلاهما فاضل في أداء مهمته التي خلقه الله من أجلها.

لقد كان إبليس - عليه لعنة الله - في منزلة رفيعة شريفة في الجن، ينعم فيها برضا ربه عليه، ولكنه عصاه وتكبر وذهب مغاضبًا، لحسده آدم وكِبْره في نفسه، وهذه الآفات لا ينبغي أن تكون في عباد الله المتقين، ومن يقترفها وجب أن يخرج من رضا الله إلى سخطه، ومن جنته إلى عذابه، وصدق الله عز وجل إذ يقول: "الكبرياء رِدائي، والعظمة إزاري، فمن ينازعني واحدة

(*) إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي سيد عبد الله، دار الآفاق العربية، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م. سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، د. حمزة النشرتي، مرجع سابق.

منها ألقيته في جهنم"[1].

فما ينبغي لمخلوق ـ مهما علا قدره ـ أن يتكبر، وكفى المخلوقات جميعها عجزًا ونقصًا أنها مخلوقات، أي لم تخلق نفسها، وعليه لن ترزق نفسها، بل لا تملك من أمرها شيئًا، فكيف تتكبَّر وتتعاظم؟ وعلى أي شيء تفعل ذلك؟

قال ﷻ: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الأعراف)، فكِبْره أخرجه وحوَّله من منزلة المكْرَمين إلى درجة الأذلاء المحتقرين. وهذا شأن كلِّ عِصيان لله ﷻ، يهبط بالمرء من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات، فلْيَنْتَبِه العصاة، وعلى رأسهم المتكبرون، ولا أحد يدري في أي معصية يهبط، والمعصوم محمد ﷺ يخبرنا بذلك فيقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلْقِي لها بالًا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يَهْوِي بها في جهنم"[2].

وكان لإبليس فرصة بعد أخرى ليتوب إلى ربه، ويعود إلى كنف طاعته، إلا أن كِبْره منعه فاستحقَّ الطرد من رحمة الله[3].

ثانيًا. عصيانٌ ثم استغفار وتوبة:

عصيان آدم وحواء جاء نتيجة ضعف بشري، وتغرير شيطاني، وصل إلى حد قَسَمِه لهما بأنه لهما من الناصحين ـ وهما يظنان أنه لا يقسم أحد بالله كذبًا ـ ومازال إبليس بهما حتى لانا وتناولا من الثمار التي حرمها الله عليهما فأكلاها، وسرعان ما تابا واعترفا بذنبهما، فتاب الله ﷻ عليهما يقول ﷻ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأعراف)، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (البقرة).

ومن الجدير بالذكر أنه كان لإبليس فرصة بعد أخرى ليتوب إلى ربه، ويعود إلى كنف طاعته، إلا أن كبره منعه، في حين سأل آدم ربه التوبة بعد أن عصاه فتاب عليه، وهنا ينبغي بيان أن آدم وإبليس كانت لديهما فرصة متساوية للتوبة والإنابة، فتاب آدم وحواء، ولم يمنع الله تعالى إبليس من التوبة، ولو تاب لتاب عليه، ولكنه آثر الهوى والكِبْر، ولعبت به شهوات نفسه؛ فلجَّ في عناده، وبدلًا من أن يتوب قال لربه:

---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٥٠٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤١).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦١١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٧٦٧٣)، واللفظ للبخاري.
3. إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي سيد عبد الله، مرجع سابق، ص٢٧ وما بعدها.

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف).

ويُرْوَى أنه قيل لإبليس بعد موت آدم عليه السلام: تُبْ، فقال: وكيف ذلك؟ فقيل له: تسجد لقبر آدم، فقال: لم أسجد له حيًّا أفأسجد له ميِّتًا[1] ®؟

ثالثًا. هبوط كل من آدم وحواء إلى الأرض كان لحكمة الاستخلاف في الأرض وليس عقوبة:

لقد تحققت بهبوط آدم وحواء حكمة الاستخلاف في الأرض، فقد أخبر الله تبارك وتعالى ملائكته قبل خلق آدم باستخلافه إياه فقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة)، وخلق آدم ليكون خليفة الله تبارك وتعالى في أرضه، عليها يحيا وفيها يَكْدَح، ويسعى ويموت، ومنها يُبعث بعد ذلك.

ولقد كانت سُكْناه في الجنة فترة تكريم له، ونِكاية في إبليس الذي حاول والحطَّ من قَدْره، ولم يكن إخراجه من الجنة عقوبة له؛ لأن الله عز وجل أهبطه بعد أن تاب عليه، لقد ندم آدم على زلَّته، وكان ندمه هو طريق توبته، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "النَّدَم توبة"[2].

وفيما يرويه ابن كثير عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال آدم عليه السلام: أرأيتَ يا رب إن تُبْتُ ورجعتُ أُعادُ إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله عز وجل: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (البقرة)"[3] ®.

الخلاصة:

- الله عز وجل خلق إبليس لطاعته وامتثال أوامره، لا لمعصيته ومعاندته، فلما تكبَّر وعصى أخرجه عز وجل من رحمته وحوَّله من منزلة المكْرَمين إلى درجة الأذلاء المحتقَرين.
- عصيان آدم وحواء جاء نتيجة ضعفٍ بشري، وتغريرٍ شيطاني، ومخادعةٍ وتزيينٍ، وسرعان ما تابا عن خطيئتهما، فتاب الله عليهما.
- هبوط آدم وحواء كان لحكمة الاستخلاف في الأرض التي أخبر بها الله ملائكته قبل خلق آدم عليه السلام، ولم يكن إخراجهما من الجنة عقوبة لهما، لأن الله تعالى

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٢ بتصرف.

® في "**حقيقة عصيان آدم لربه في الأكل من الشجرة**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٤٠١٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٢).

٣. سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، د. حمزة النشرتي، مرجع سابق، ص٣٢، ٣٣.

® في "**استخلاف آدم في الأرض**" طالع: الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

أهبطهما بعد أن تاب عليهما وقبل توبتهما.

الشبهة الرابعة عشرة

دعوى رفض أمور الدِّين لتعلُّقها بغيبيات قد تتعارض مع العقل والمنطق (*) ®

مضمون الشبهة:

يرفض بعض الطاعنين أمور الدين؛ لارتباطها بالغيب وبالوحي، وبطبيعة لا تتفق مع العقل والمنطق.

وجها إبطال الشبهة:

١) الدين ضرورة حياتِيَّة، وحاجة نفسيَّة وروحيَّة، ولا توجد أمة من الأمم بلا عقيدة أو دين.

٢) لقد أعلى الإسلام من شأن العقل الإنساني ورفع من مكانته، إلا أنه قد حدَّد له نطاق بحثه؛ فمنعه من أن يخوض في الأمور التي يعجز عن إدراكها، لعجزه وقصوره، ومن هذه الأمور أمور العقيدة والغيبيات.

التفصيل:

أولا. ضرورة الدين وحاجة الإنسان إليه:

الإيمان ضرورة حياتية، لا تصلح الحياة بدونه، وعن ضرورة الإيمان وحاجة الإنسان إليه يُورد د. محمد سيد المسير الضرورات المتنوعة للإيمان فيقول: "الدين ضرورة من ضرورات الحياة للبشر في كل العصور؛ فالإنسان إذا أظلم عليه السبيل، أو هاله ليل، أو جاءته ريح عاصف رجع إلى صوت الفطرة، وتضرع إلى الله وحده؛ رجاء كشف الضر، فتتداركه عناية الله ﻷ وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها، وفي تصوير معجز لحال الإنسان المضطربة أمام اعترافه بخالقه يقول ﻷ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٦٧).

أي: أنه في حال شدة البحر وإشراف الإنسان على الغرق ينسى جميع الشركاء، ولا يعتقد إلا في قدرة الله ﻷ، فيحقق الله رجاءه وينقذه مما هو فيه من أهوال، ولكن الإنسان تلهيه النعمة، قال ﻷ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء).

ومما يُثبت ضرورة الدِّين ـ في حياة البشر ـ أنه راعى مصالحهم أعظم ما تكون المراعاة؛ فمعلوم أن للدين مقاصد خمسة، هي: حفظ الدِّين والعِرض والمال والنفس والعقل، فهل للإنسان ضرورة أكثر من هذه الضرورات الخمس؟ ثم إن الدين لما حرَّم لم يُحرِّم إلا الخبائث والمَضارّ، ولما أحَلَّ لم يحل إلا الطيبات والمنافع، والدين الإسلامي هو الخاتمة الذهبية لسلسلة طويلة من الرسالات، وهو كغيره من حلقات تلك السلسلة الطويلة يفهم النفس البشرية حق فهمها، ومن ثم كان يتخذ منها منطلقًا لكل إصلاح.

إن الغيب واقع يتعامل معه الإنسان، والعلم يتعامل مع منطق الغيب؛ إذ هو بحث مجهول، والمجهول غيب، لكنه مجهول يفترض الباحث وجوده، مع أن حواسه لا تدركه، فهل من المنطق أن يقول: ما

(*) العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.

® في **"إنكار الغيب لعدم خضوعه للإدراك الحسي"** طالع: الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

دامت حواسِّي لا تدركه فهو غير موجود؟ وإذا افترض عدم وجوده، فكيف يبحث عنه؟! أيبحث عن معدوم لا وجود له؟!

فما دام الغيب يُبحث عنه فهو موجود، وإن غاب عن إدراكنا، وإن كان مجهولًا، ومنطق الإلحاد يُضاد منطق العلم، ولو طُبِّق لأوقف العلم، كما يحاول أن يوقف الدين، فلو قال العلماء والباحثون - مثل الملاحدة: لا نؤمن إلا بما نراه؛ لأمسكوا عن البحث، وامتنعوا عن طلب المعرفة.

ولا يطبق منطقَ الإلحاد علماءُ الملاحدة أنفسهم؛ لأنهم يوقنون أنه ضد طريق العلم وضد العقل السليم، وأخيرًا فإن التاريخ وواقع الإنسان - على مستوى الأفراد والجماعات - يشهد بتأثير الدين في الأفراد والأمم تأثيرًا لا يضارعه أي أمر أو أية قوة أخرى.

الدين ضرورة نفسيَّة للإنسان:

ما خلَّدت رسالات النبيين، وتكوَّنت حولها جماهير المؤمنين، إلا لأن النفس الإنسانية كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، فلم تكن تعاليمهم قشورًا ملصقة؛ فتسقط في مضرب الحياة المتحركة، ولا ألوانًا مفتعلة؛ فتبهت على مر الأيام.

فبالدين يتحقق التوازن النفسي للإنسان، ومن هنا كانت العقيدة الدينية مكوِّنًا أساسيًّا من مكوناته؛ لأن اختلال التوازن النفسي للإنسان يهدمها هدمًا.

والعقيدة الدينية تكاد تكون غريزية فطرية، شأنها شأن الغرائز الفطرية الأخرى؛ كالمحافظة على النفس، والمحافظة على النوع، وغير ذلك، فلم تخل أمة من الأمم من أقدم العصور إلى الآن من عقيدة دينية.

فالإنسان يولد في الحياة وعنده إحساس عميق - يظل يلازمه طيلة حياته - بأن هناك قوة عليا تسيطر عليه، وعندما يفتقد هذا الشعور يحس بفراغ عظيم.

وتجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، أو يستطيع الفرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله.

ويقرر التاريخ أيضًا أنه لم يكن قطُّ لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثرٌ أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة في حركات الأمم تتفاوت بمقدار ما بينها وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة، فقوة الدين لا تضارعها قوة أخرى من عصبية، أو وطنية، أو عُرْف، أو قانون، أو غير ذلك.

وواقع الإنسان يشهد بذلك؛ لأن الناس بغير الدين يأكل قويهم ضعيفهم، ويستعبد غنيهم فقيرهم، ولننظر إلى قول فيلسوف ملحد مثل فريدريك نيتشه في كتابه "هكذا تكلَّم زرادشت": "إذا ما رأيتم متداعيا إلى السقوط، فادفعوه بأيديكم، وأَجْهِزوا عليه، وكل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه - على الأقل - أن يسرع بالسقوط". سقوط الموت والهلاك، ولا ضير، فالمهم أن تستقرَّ الحياة للملاحدة أو من بَدَّلوا وغيَّروا دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها، وسِواهم لا وزن له ولا قيمة"[1].

---

١. الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد المسير، دار الاعتصام، مصر، ١٩٩٩م، ص٤١ وما بعدها.

ثانيًا. أعلى الإسلام من شأن العقل، إلا أنه حدَّد له نطاق بحثه، وحظر عليه أن يخوض في أمور العقيدة والغيبيات:

لقد خلق الله الإنسان، وجعله خليفة في الأرض، وسخَّر له الكون كله، وطلب منه عمارة الأرض، وذلك يدلُّ على أن الله ﷻ أراد للإنسان أن يكون سيدًا في هذا الكون، ولكنه في الوقت نفسه مخلوق لله، فلا يجوز له أن ينسى هذه الحقيقة.

وبهذا المعنى فهو عبدٌ لله، ولكن ليس معنى ذلك عبودية المذلة والاحتقار؛ فقد أعطى الله ﷻ للإنسان الحرية الكاملة لقبول طاعة الله أو عصيانه، وللإيمان أو الكفر به قال ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

الإسلام هو الدين الوحيد الذي أعلى من شأن العقل الإنساني، ورفع من مكانته، فالعقل هو مناط التكليف والمسئولية، وبه يتعرف الإنسان على خالقه، ويدرك أسرار الخلق وعظمة الخالق ﷻ، والقرآن الكريم في خطابه للإنسان يخاطب عقله، ويحثه على النظر في الكون والتأمل فيه ودراسته؛ من أجل خير البشرية وعمارة الأرض ماديًّا ومعنويًّا، وليس في الإسلام شيء يناقض العقل أو يصادم الفكر السليم.

لقد طلب الإسلام من الإنسان ضرورة استخدام العقل، وعاب على الذين يعطِّلون قواهم الإدراكية ـ وعلى رأسها العقل ـ عن أداء وظائفها، ولذلك يَعُدُّ القرآن هؤلاء أناسًا تخلَّوْا عن إنسانيتهم، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف)، فجعل القرآن الكريم تعطيل القوى الإدراكية ـ وعلى رأسها العقل ـ ذنبًا من الذنوب[1].

ولهذا كان لا بد أن تجتمع رسالات السماء في رسالة تخاطب العقل مراعيةً نمُوَّه، وتتخذ من هذا العقل منطلقًا إلى صحة العقيدة، وتضع للناس ـ في كل زمان ومكان ـ إطارًا عامًّا عريضًا للحياة الفاضلة، في مجتمع مثالي، كثيرًا ما حلم به الفلاسفة ولم يجدوا إلى تحقيقه سبيلًا، فكانت رسالة الإسلام®.

وعلى الرغم من أن الإسلام أعلى من شأن العقل الإنساني ورفع من مكانته، إلا أنه قد حدَّد له مهمته، وبيَّن له نطاق بحثه، موضحًا الأمور التي يُناط به أن يعمل في إطارها، فلا يقف حِيال هذه الأمور إلا مذعِنًا مستسلمًا.

ومن هذه الأمور التي لا يصح للعقل الإنساني أن يخوض في البحث عنها أمور العقيدة والغيبيات؛ فلا يصح لهذا العقل أن يفكر في هذه الأمور أو أن يبحث عن أوجه المطابقة بينها وبينه؛ فلا يصح له تجاه أمور العقيدة أن يسأل التساؤلات الآتية:

لِـمَ جُعلت أركان الإسلام خمسة فحسب، ولم تزد عن هذا الرقم، أو تنقص عنه؟ ولم فُرض على المسلم

---

١. حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٧٣ وما بعدها.

® في **"حث الإسلام على طلب العلم وإعمال العقل"** طالع: الوجه الأول، والوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي **"منزلة العقل في الإسلام"** طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

خمس صلوات فحسب؟ ولم لا نصلي صلاة الظهر والعصر والعشاء ثلاث ركعات؟ ولم لا نصلي صلاة المغرب أربع ركعات أو أكثر؟ ولم يصوم المسلم في رمضان دون غيره من أشهر السنة ؟... إلخ.

ولا يصح لهذا العقل كذلك أن يبحث في أمور الغيب؛ فلا يصح للمسلم أن يعرض أمور: البعث والحشر، والثواب والعقاب، والحساب، وعذاب القبر ونعيمه.

وهكذا فإن العقل لا يهتدي إلى الأمور السابقة جميعها إلا في ضوء الشرع الذي أرسل الله به الرسل، وأنزل الكتب. فإذا ثبتت هذه الأمور عن طريق الشرع الذي يتمثل في النقل الصحيح، غير المزيف أو المحرَّف فليس على العقل إلا أن يستسلم ويعلق السمع والطاعة[1].

إن الملحدين الذين أثاروا هذه الشبهة لا يؤمنون إلا بالمادة، وبما تدركه حواسّهم، فإذا كانوا لا يؤمنون بالله ﷻ الذي خلقهم وخلق الكون كله فلا غرو ألا يؤمنوا بالأديان التي أرسل بها رسله، وأن يدَّعوا أن أمور الدين تتنافى وتتعارض مع عقولهم®.

الخلاصة:

- الدين ضرورة تقتضيها الفطرة وتحتمها الحياة النفسية لبني البشر، والتاريخ يشهد بأثر الدين القوي في مواقفه الحاسمة؛ فقد كانت أبوابه الرئيسية قصة الصراع الفكري بين الإيمان والكفر.
- لم تخلُ أمة من الأمم ـ قديمًا وحديثًا ـ من التدين الذي هو فطرة أو غريزة موجودة داخل الإنسان.
- كان الدين يقود خُطى البشرية، فارتبطت به الحضارات على مر العصور، سواء كان اعتقادهم صحيحًا أم فاسدًا، ولم تخلُ أمة من الأمم من الدين.
- الدين هو الذي يقود العقل ويرشده إلى الحقائق التي تغيب عنه، مما يكون فيه النفع للإنسان.

ولقد ارتقى العقل في ظل الدين الإسلامي، الذي رفع مكانته، ولم يأت في الإسلام شيء يناقض العقل، بل إنه طلب من الإنسان استخدام عقله، وعاب من عطَّل وظائفه الإدراكية، وقد بين الشرع الإلهي أن حدود العقل مجالها الكون كله، بيد أنها تضيق عن معرفة العلل المتصلة بالتشريعات والإلهيات والغيبيات، مما يفوق قدرة العقل.

الشبهة الخامسة عشرة

التشكيك في حشر الوحوش يوم القيامة (*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المغالطين في حشر الوحوش يوم القيامة، ويتساءلون: كيف تحشر الوحوش والطيور

---

1. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١١٢ وما بعدها.

® في **"انتفاء التعارض بين المعقول والمنقول في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"ضرورة الجمع بين العقل والوحي الإلهي"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة المائة، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

(*) العقيدة في الله في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، مرجع سابق.

والبهائم وهي غير مكلَّفة كالإنسان؟

وجها إبطال الشبهة:

١) الحشر هو سَوْق الخلائق إلى الموقف لفصل القضاء، ولا فرق فيه بين من يعقل ويُجازى، وهم الإنس والجن المكلَّفون، ومَنْ لا يعقل ولا يُجازى، كالحيوان وجميع ما لا يعقل،وذلك لتحقيق غاية العدالة التي لم تتحقق في الدنيا.

٢) للخالق ﷻ أن يفعل ما يشاء، كيفما يشاء ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْألون.

التفصيل:

أولا. مفهوم الحشر وغايته:

١. مفهوم الحَشْر:

الحشر لغة: الجَمْع، **وشرعًا:** سوق الخلائق إلى الموقف لفصل القضاء، ولا فرق فيه بين من يعقل ويُجازى، وهم الإنس والجن المكلَّفون، ومن لا يعقل ولا يُجازى، كالحيوان وجميع ما لا يعقل. فالحشر يتناول كل شيء، لا فرق بين عاقل وغيره، أو صغير أو كبير حتى السَّقْط، فكل المخلوقات في ذلك اليوم - يوم الحشر - تُجمع في ساحة العرض والحساب، قال ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (الكهف).

وقد بين الله سبحانه وتعالى في موضع آخر أن الحشر شامل للعقلاء وغيرهم من أجناس المخلوقات في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام)[1].

يقول القرطبي في سياق تفسيره لهذه الآية: قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(الأنعام)؛ أي: للجزاء، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لَتُؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقَاد للشاة الجَلْحَاء[2] من الشاة القَرْناء"[3].

ودلَّ بهذا على أن البهائم تُحْشَر يوم القيامة، وهذا قول أبي ذر وأبي هريرة والحسن وغيرهم، وجاء عن ابن عباس: حَشْر الدوابِّ والطير موتُها، وقاله الضحاك، والأول أصحُّ؛ لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ (التكوير)[4].

٢. غاية الحشر:

يحشر الله الوحوش وغيرها مما لا يعقل حتى يُقْتَصَّ لبعضها من بعض، وذلك لتحقيق غاية العدالة والقصاص العادل الذي لم يتحقق في الدنيا؛ فعن ابن عباس قال: "تُحشَر الوحوش غدًا (يوم القيامة)؛ أي: تُبعث وتُجمع حتى يُقتص لبعضها من بعض، فيُقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ثم يقال لها: كوني ترابًا، فتموت"، كما رُوي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "إذا كان يوم القيامة، مُدَّ الأديم، وحُشِر الدوابّ والبهائم والوحش، ثم يحصل

---

١. اليوم الآخر في الكتاب والسنة، د. عبد الباقي أحمد عطا الله، دار المنار، مصر، ط١، ١٩٨٨م، ص١٦٢.

٢. الجَلْحاء: التي لا قرن لها.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٥).

٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٤٢١.

القصاص بين الدوابِّ، يقتصُّ للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدوابِّ، قال لها: كوني ترابًا، قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ (النبأ)[1].

ويتضح مما سبق كله أن حشر البهائم والوحوش أمر لازم لتحقيق العدالة الإلهية المطلقة التي تشمل كل شيء في الوجود، حيث يُقتص من كل ظالم ومعتد، مهما كان أمره؛ ليتحقق موعود الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ (غافر).

فإذا ما تم القصاص عادت تلك الكائنات إلى الموت من جديد بعدما تحقق الهدف من بعثها وإحيائها، وهذا الحشر لتحقيق الغاية المشار إليها، وهي العدالة والقصاص العادل الذي لم يتحقق في الدنيا، وحانت لحظة تحققه في الدار الآخرة: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ (الأنبياء).

عدل ما أعظمه؛ وقسط ما أوسعه!! فهو يَسَع جميع المخلوقات بشرًا وغير بشر، وتلك حقيقة تبعث في النفس طمأنينة وراحة، وتُوجِد نفوسًا صحيحةً خاليةً من الهموم والأحزان؛ لأنها تعلم جيِّدًا أن حقَّها المسلوب مردودٌ إليها لا محالة، فإن كان هذا شأن الوحوش وغيرها مما لا يعقل، فالأمر أوجب وأدعى في الإنسان.

ثانيًا. الله يفعل ما يشاء، ولا ينبغي لأحد أن يسأله عن فعله:

الله ﷻ قادر على كل شيء، يفعل ما يشاء، ولا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون، فإذا حشر من لا عقل له أو من له عقل فإن ذلك سواء عنده ﷻ؛ فالكل خَلْقُه، وهو يتصرف فيهم بما شاء، كيفما شاء، وهذا معنى الإسلام الذي يعني الاستسلام التام لله بكل أمر ونهي، والتصديق الجازم لكل خبر، فإذا كانت العقول والجوارح لا تدرك بعض الأشياء المحسوسة؛ كالكهرباء، فمن باب أولى ألَّا تدرك حشرًا وبعثًا، ونعيمًا وعذابًا؛ لذا وجب التسليم والإيمان بما أخبر به الله ﷻ، وأخبرنا به نبينا ﷺ؛ لأن العقول الإنسانية قاصرة عن إدراك الحقائق الإلهية الغيبية.

ثم إنه تعالى قد يُنشئ للوحوش عقلًا يوم القيامة، كما يفعل تعالى مع أهل الفترة، ومع من جاءته الرسالة وهو مجنون لا يعقل، فيقول: يا رب لم أعقل، فيعدُّ لهم الله تعالى اختبارًا، ويوقد له نارًا، ويعد له جنة، ثم يقول تعالى له: ادخل النار فإن دخلها واستجاب للأمر الإلهي وجدها بردًا وسلامًا، وإن عصى ولم يدخل، فقد اعترض على أمر الله ولم يرض بأمره، ومن ثَمَّ يحق عليه العذاب، وهذا عدل إلهي لا يضاهيه عدل.

الخلاصة:

- الحشر هو سَوْق الخلائق إلى الموقف لفصل القضاء، ولا فرق فيه بين من يُجازى ـ وهم الإنس والجن المكلَّفون ـ بالثواب والعقاب، ومن لا يُجازى؛ كالحيوان وجميع من لا يعقل، فالحشر شامل للعقلاء وغيرهم من أجناس المخلوقات وغايته تحقيق العدالة

---

1. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، ج٢٤، ص١٨٠.

الإلهية المطلقة التي تشمل كل شيء في الوجود؛ حيث يُقْتص من كل ظالم ومعتد مهما كان أمره.

- قدرة الله ﷻ مطلقة لا تحدُّها حدود، ولا تقيدها قيود، فهو قادر على أن يفعل كل شيء كيفما يشاء، وليس لأحد أن يسأله عن شيء.

الشبهة السادسة عشرة

إنكار خروج الدَّابَّة(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الجاحدين خروج الدابة التي تُعَدُّ علامة من علامات الساعة، ويخطئون في فهم الوصف القرآني لها في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾ (النمل)، وكذلك أحاديث النبي ﷺ، ويتعجبون من وصفها بأن رأسها رأس ثَوْر، وعينيها عينا خنزير، وصدرَها صدرُ أسد، ويتساءلون: ألا يُعَدُّ هذا من خرافات العقيدة الإسلامية. ويرمون من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين في إيمانهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) خروج الدابة من الأرض، خروجُ شيء مادي من مادة كحال الكائنات الحية، وتلك قدرة الله التي نراها رأي العين، لكن العجيب أن يتحول جسد الإنسان إلى جسد إله بزعمهم، ويستسيغون هذه الصورة ولا يستسيغون الأولى (خروج الدابة).

٢) خروج الدابة أمر من أمور الغيب التي لا يُحْتَكم فيها إلى العقل، وإنما يُحْتكم إلى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

٣) قد وردت في أمر الدابة أحاديث كثيرة صحيحة، إضافة إلى ما ورد في سورة النمل.

التفصيل:

أولا. خروج المادة من المادة قدرة ليست مستحيلة على الله ﷻ:

نشير بادئ ذي بَدْء إلى أن أمر الدابة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾ (النمل) - مهما قيل في تفسيره - أقرب إلى التصديق من عقائدهم التي تقوَّلوها على الله تعالى.

فخروج الدابة من الأرض في نهاية الأمر، خروجُ شيء مادي من مادة، والكائنات الحية في محصلتها النهائية تخرج من الأرض، من عناصر ترابية يتغذى عليها النبات، وعلى النبات يتغذى الحيوان، والإنسان يتغذى على النبات والحيوان، ثم إن الإنسان الأول خُلق من تراب، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢)﴾ (المؤمنون)، وقال ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ (طه)، وكم من الحشرات، والديدان يتخلق من الأرض مباشرة، ونراه رأي العين، فأي غرابة في ذلك؟! وكل شيء خاضع لقدرة الله ﷻ التي لا تعجز عن شيء.

لكن العجيب الذي لا يصدقه عقل عاقل أن تتحول

(*) قناة الحياة الفضائية، زكريا بطرس، الحلقة ٨٨.

كلمة الله ﷻ إلى جسد إنسان، أو يتجسد الإله، ويكون في رحم امرأة، ويخرج ليمشي بين الناس، فيأكل ويشرب، ويتغوط، ويبول، ثم ماذا ؟! يُقتل ويُصلب، ثم ماذا؟! هل هناك عقيدة تسفِّه العقل وتحطُّ منه مثل هذه العقائد؟! وهل هناك عقيدة تزري بالإله وبرُسُلِه مثل هذه العقائد؟!

يقول القاسمي في تفسير هذه الآية التي ذكرت فيها الدابة: اعلم أن في هذا الوعيد وجوهًا من التأويل:

الأول: أنه دنيوي، عُني به نصر الرسول ﷺ، والمعنى أن أولئك الذين صمُّوا عن سماع الآيات، وعموا عن النظر فيها وجحدوها ستأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعي، وهو الرسول ﷺ وأتباعه، وتكثير سوادهم، حتى يظفروا بمناوئيهم، ويظهروا على عدوهم، وذلك بأن تدبَّ إليهم دابة عظيمة تملأ السهل والرُّبى، تزلزل أركانهم، وتهدم بنيانهم، وتقوِّض خيامهم، وتدك أعلامهم، فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال؛ لأنهم إنما أُخذوا بالعقاب، وحل بهم الفساد في الأرض، فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح، وقائد الفلاح والنجاح، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (الصافات).

الثاني: أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه، يختص خروجها بحين القيامة، قال بعضهم: والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعًا مخصوصًا من دواب هذه الأرض، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى، ويُنْطِقه، فيوبخ الإنسان على كفره، كما يُنْطِق أعضاءه في ذلك اليوم أيضًا، فليس المراد من قوله "دابة" الفرد، بل النوع، كما في قولك: "أرسل الله عليهم دودة أتلفت زرعهم"؛ أي: ديدانًا كثيرة من نوع واحد مخصوص.

الثالث: نقله الراغب في مفرداته، قال: وقيل: عنى بالدابة: الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب، فتكون الدابة جمعًا اسمًا لكل ما يدب، نحو "خائنة" جمع خائن، ومن الآية قوله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (الأنبياء)... فإن يأجوج ومأجوج كالدابة، لما يغطي بدبيبه وجه الأرض، فهو مَثَلٌ في الكثرة، والله أعلم[1].

ثانيًا. أمور الغيب يُحْتكم فيها إلى النقل، لا العقل:

إن خروج الدابة التي أخبرنا الله ﷻ بها يعد أمرًا من الغيبيات التي لا يُحْتكم فيها إلى العقل، وإنما يحتكم إلى النقل الذي يشمل القرآن الكريم والسنة الصحيحة[®].

هذا وقد انطلق هؤلاء الطاعنون في إنكارهم خروج الدابة ـ وكذا في إنكارهم الغيبيات جميعها ـ من مذهبهم الحسي العقلي، فأدَّاهم ذلك إلى إنكار الغيبيات التي أشارت إليها مصادر التشريع.

وقد رُوي في أمر الدَّابة أحاديث وآثار كثيرة؛ منها:

ما جاء عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: "إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج

١. انظر: الفتن والملاحم، ابن كثير، دار الصابوني، السعودية.

® في **"عجز العقل البشري عن تصوُّر أمور الغيب"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة. وفي **"نفي التعارض بين العقل والإيمان بالغيب"** طالع: الشبهة الرابعة عشرة؛ من هذا الجزء.

الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا"[1]. ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لما عهده البشر من الدواب، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم.

وروي عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: "تخرج الدابة، فتَسِمُ الناس على خراطيمهم، ثم يغمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المُخَطَّمين"[2][3].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: إنها دابة لها رأس وزَغَب وحافر، ولها ذَنَب ولها لِحْية، وإنها تخرج حضر الفرس الجواد ثلاثًا وما فرج ثلثاها.

وعن قتادة عن ابن عباس قال: هي دابة ذات زَغَب وريش، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية تهامة[4].

وما لنا ألَّا نصدق ما جاء به نبينا ﷺ وقد صدق فيما أخبر من حقائق كانت قبلُ من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، بل إننا نجد من بين هؤلاء المنكرين الذين أنكروا الأحاديث التي وردت في أمر الدابة جميعها من يلهث خلف آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ليثبت بالأبحاث العلمية الحديثة أن كل ما أخبر عنه القرآن صدق، وكل ما قاله الرسول ﷺ حق، والكلام عن إعجاز القرآن لا يتسع له المجال، ولكنه حقيقة لا ينكرها إلا جاحد.

فإذا كان الرسول ﷺ صادقًا فيما أخبرنا من غيبيات عن القيامة، وأمور الآخرة وغيرها، فلماذا الإنكار والعناد وقد تحقق بعضها فعلًا بما لا يدع مجالًا للشك؟ فنحن نرى علامات القيامة الصغرى رأي العين، وننتظر الكبرى في أي وقت، فلا يعلم زمنها إلا الله.

فخروج الدابة من الأرض حق، والأحاديث التي وردت فيها ـ الصحيحة منها ـ صدق، ولا تحتاج إلى إبداء رأينا فيها، ومن نحن حتى نعقِّب على قول أخبر به الصادق المصدوق ﷺ؟!

الخلاصة:

- خروج الدابة من الأرض ليس غريبًا على قدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، فنحن نرى رأي العين تكوُّنَ بعض ديدان الأرض وحشراتها من لا شيء، فما العجيب في ذلك؟ وهل خروج شيء مادي من مادة كحال الكائنات الحية يُعَدُّ أمرًا خارقًا وقد ألفته عيوننا منذ بدء الخليقة؟!
- الأحاديث التي وردت في ذكر الدابة بعضها صحيح، وبعضها ضعيف السند، ولا نأخذ منها إلا ما كان صحيح الثبوت، وصحيحها لا مجال لنكرانه، إذ إنه من الغيبيات التي يجب التصديق بها، والإيمان بما جاء فيها، وكيف لا نصدق ونحن نرى الآيات تترى واحدة تلو أخرى بما لا يدع مجالًا للشك.



١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى عليه السلام وقتله إياه (٧٥٧٠).

٢. أحد المُخَطَّمين: الذي فيه العلامة كافر أو مؤمن.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان عن النبي ﷺ (٢٢٣٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢).

٤. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٦٠).

الشبهة السابعة عشرة

ادعاء كون إبليس من الملائكة يتعارض مع عصيانه لربه (*)

مضمون الشبهة:

يستند بعض المشككين إلى رأي من ذهب من المفسرين إلى أن إبليس من الملائكة ـ في القول بالتعارض بين ما ذهبوا إليه وبين عصيانه لربه؛ إذ لم يسجد لآدم، متسائلين: كيف يعصي إبليس ربه، وهو من الملائكة الذين وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التحريم).

وجوه إبطال الشبهة:

١) اختلف المفسرون في حقيقة إبليس: هل هو من الملائكة، أو من الجنِّ؟ فانقسموا فريقين: أحدهما ذهب إلى عَدِّه من الملائكة، والآخر صنَّفه ضمن الجنِّ.

٢) ليس ثمَّة تعارض بين كوْن إبليس من الملائكة ـ على رأي من عدَّه منهم ـ وبين عصيانه لربه، وذلك أن طبيعته تختلف عن طبيعتهم.

٣) لقد عصى إبليس ربه ولم يسجد لآدم كما أمره؛ لظنِّه أنه أفضل منه؛ إذ خُلِق هو من نار، و آدم من طين.

التفصيل:

أولا. حقيقة إبليس:

اختلف العلماء والمفسرون قديمًا وحديثًا حول طبيعة إبليس وحقيقته: هل هو من الملائكة أو من الجن؟ وذلك على قولين:

القول الأول: إبليس من الملائكة:

وهذا رأي الجمهور: ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيِّب وقتادة وغيرهم، وهو اختيار أبي الحسن، ورجَّحه الطبري، قال ابن عباس، وكان اسمه عزازيل، وكان من أشراف الملائكة ـ وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِسَ بعد. وقال ابن عباس كذلك: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانًا. وحكى الماوردي عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف الملائكة يقال لهم: الجِنَّة. وقال سعيد بن جبير: إن الجِنَّ سبط من الملائكة خُلِقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور[1].

القول الثاني: إبليس من الجن:

وأصحاب هذا القول يذهبون إلى أن إبليس من الجن، وأن اسمه الحارث، وخلق من نار السموم، يؤيد هذا قوله ﷻ: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة، د. عبدالمنعم القيعي، مجلة رسالة الإمام، العدد ٩، ١٩٨٦م. البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق. موجز دائرة المعارف، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٤.

﴿ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (الرحمن)، وقوله: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحجر)[1].

فقبل أن يخلق الله ﷻ الإنس على الأرض خلق الجن من مارج من نار، ومنهم إبليس، وأمرهم أن يطيعوه، ويعبدوه حق عبادته، ونهاهم عن أن يعيثوا في الأرض فسادًا، وعن إظهار المعصية فيما بينهم، ولكنهم لم يستجيبوا لأمر الله، ولم ينتهوا عما نُهوا عنه، فأفسدوا وبغى بعضهم على بعض، فأرسل ﷻ إليهم قبيلًا من الملائكة طردوهم إلى جزائر البحار وأطراف الجبال، وقتلوا من شاء منهم، وكان إبليس طائعًا في أول أمره، فلم يلحقه الأذى الذي أصاب قومه، وكان قد طلب من ربه أن يرفعه من بين هؤلاء العُصاة الذين لم يستجيبوا لنصح، ولم يسترشدوا برشد، فرفعه الله إلى السماء، وصار مع الملائكة يعبد الله وحده ويقدِّسه ونزل مع الملائكة الذين حاربوا المفسدين.

فأول من سكن الأرض هم الجن، فأفسدوا فيها، وقتل بعضهم بعضًا؛ فبعث الله إليهم إبليس في جُنْد من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه، وقد أصاب إبليس الغرور والزَّهْو بنفسه، لأنه ارتفع عن طائفته، وصار مع الملائكة الذين خلقهم الله من نور واصطفاهم لعبادته، واعتقد أنه أفضل من غيره؛ إذ إنه صنع شيئًا لم يصنعه أحد من جنسه[2].

وقد كان أمر السجود لآدم عليه السلام للملائكة خاصة، لكنه شمل إبليس أيضًا؛ لأنه كان في صحبتهم وكان يعبد الله ﷻ كعبادتهم، فلما أُمروا بالسجود لآدم والتواضع له؛ كرامة له، كان الجن الذي معهم إبليس أجدر بأن يتواضع، فإذا وُجِّهَ أمرٌ للأعلى ـ وهم الملائكة المخلوقون من نور ـ فإنه يشمل الأدنى ـ وهم الجن المخلوقون من نار ـ من باب أولى، ولم يشمل الأمر بالسجود لآدم سائر الجن؛ لأنهم لم يرتقوا بعبادتهم إلى صفوف الملائكة مثله[3].

ولقد أخبر النبي ﷺ أن الملائكة خُلِقُوا من نور، وأن الجن خُلِقُوا من نار، ففرَّق النبي ﷺ بين الأصلين للدلالة على أنهما من عالمين، لا من عالم واحد، ولو أن إبليس كان من الملائكة ـ وهم مجبولون على الطاعة ـ كان لا بد أن يطيع أمر الله ويسجد، ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا أو يعصوا مكَّنه من أن يعصي أمر السجود.

ولقد استثناه الله تبارك وتعالى من الملائكة برغم أنه من الجن في الآية ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾؛ لأنه لما دخل معهم في الأمر بأن يسجد لآدم، أريد منه ذلك بهذا القول، فصح الاستثناء؛ لأن الاستثناء من جهة المعنى لا يكون إلا كذلك، وكان كفر إبليس وخلوده في النار لأنه عصى الأمر، ولم يكتف بذلك، وإنما رد الأمر على الآمر ﷻ. ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ

1. إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي، مرجع سابق، ص١٧، ١٨.
2. سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، د. حمزة النشرتي، مرجع سابق، ج١، ص١٣.
3. دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام، دار الفكر العربي، مصر، ط٢، ١٩٨٧م، ص٨٠.

﴿خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ (الإسراء).

ثانيًا. عدم التعارض بين كون إبليس من الملائكة، وبين عصيانه لربه:

لقد استند مثيرو هذه الشبهة إلى رأي بعض المفسرين الذين ذهبوا إلى أن إبليس من الملائكة في الخلوص إلى تعارض رأيهم هذا مع معصيته لربه، متسائلين: كيف يعصي ربه، وهو من الملائكة؟!

وقد تجاهل هؤلاء الأقوال التي ذكرها أصحاب هذا الرأي في دَفْعِهم ما يُتَوَهَّم من تعارض بين كون إبليس من الملائكة، وبين عصيانه لربه.

فلقد ذهب هؤلاء المفسرون إلى أنه "لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلًا منه، لا يُسأل عما يفعل، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة"[1].

والذي حققه ابن تيمية: "أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله، ولا باعتبار مثاله"[2].

ونخلص من هذا كله إلى أن إبليس وإن كان من الملائكة على رأي بعض المفسرين، إلا أن له طبيعة تختلف عن طبيعة الملائكة المجبولين على الطاعة.

ثالثًا. معصية إبليس لله ﷻ:

إبليس اسم عربي مشتق من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله أو الإبعاد عن الخير، وهو أصل الشياطين الأُوَل؛ وطبيعة أعمال الشياطين تتجه دائمًا إلى التمرد على الله، وإلى التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير، وقطْع ما أمر الله به أن يُوصل، ووصل ما أمر الله به أن يُقطع، فما من شر في الأرض ولا فساد في الوجود إلا لهم به صلة، فمعصيته إذن راجعه إلى طبيعته الشيطانية المتمردة، فلا تناقض بين ذلك، وبين قوله ﷻ في وصف الملائكة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ (التحريم)[3].

ومن الجدير بالذكر أن عصيان إبليس بُني على ظنٍّ منه بأنه أفضل من آدم؛ لأنه خُلِقَ من نار، وآدم من طين، فاعتقد أن النار أشرف من الطين وخير منه، ولربما كان الطين أكثر فائدة في أصله من النار، وهو لا يدري، وكان قياس إبليس قياسًا خاطئًا؛ لأنه نظر إلى عنصره وإلى عنصر آدم؛ ورأى أن عنصره خير من عنصر آدم، ولم ينظر إلى تشريف الله تعالى لآدم حين خلقه بيديه، ولا إلى تشريفه له حين أمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتعظيمًا.

وإبليس كان قادرًا على طاعة الله ﷻ والسجود لآدم، ولكنه اختار العصيان بكبره وصَلَفِه، وذلك لأنه من عالم الجن المخَيَّرين الذين منهم المطيع والعاصي، فاستحق الطرد من رحمة الله تعالى، أما الملائكة فهم من خلق الله، وهم مجبولون على عبادته وطاعته ﷻ، وعندما سجدوا لآدم كان سجودهم طاعة لأمر الله،

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٤.
2. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٣.

3. العقائد الإسلامية، السيد سابق، مطبعة دار التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٦م، ص١٢٢، ١٢٣.

فهو سجود طاعة لأمر الله، وهو موافق لطبيعتهم التي جُبلوا عليها®.

الخلاصة:

- انقسم المفسرون في حقيقة إبليس إلى فريقين: فريق عدَّه من الملائكة، وفريق عدَّه من الجن، وقال الفريق الأول: كان إبليس من الملائكة، فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانًا. وقال أصحاب الفريق الثاني: إنه قبل أن يخلق الله الإنس على الأرض خلق الجن من مارج من نار ومنهم إبليس.
- تجاهل مثيرو هذه الشبهة الأقوال التي رُوِيَت عن المفسرين في عدِّ إبليس من الملائكة، محاولة منهم - أي: المفسرين - دَفْع التعارض بين كونه من الملائكة وبين عصيانه لربه.
- لقد عصى إبليس ربه ظنًّا منه أنه أفضل من آدم؛ وكان قياس إبليس قياسًا خاطئًا؛ لأنه نظر إلى عنصره وإلى عنصر آدم، ورأى أن عنصره خير من عنصر آدم، ولم ينظر إلى تشريف الله عز وجل لآدم حين خلقه بيديه، ولا إلى تشريفه له حين أمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتعظيمًا.

® في "دعوى أن خيرية إبليس تمنعه من السجود لآدم" طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

الشبهة الثامنة عشرة

إنكار حقيقة الجن الواردة في القرآن الكريم (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حقيقة الجن الواردة في القرآن الكريم، متوهمين أن القرآن يتعارض مع الحقائق التي أثبتها الكتاب المقدس فيما يتعلق بالجن وحقيقتهم؛ ففي الوقت الذي أقر فيه الكتاب المقدس بأنهم أرواح شيطانية؛ جاء القرآن ليقول: إن الجن جنس عاقل بين الإنس والشياطين، وإنهم لما سمعوا القرآن آمنوا به وبالله، وبشَّروا غيرهم من الجن، وقالوا: إن القرآن جاء من بعد موسى، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ (الأحقاف)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾ (الجن)،

(*) مفهوم الشيطان في الفكر العربي، د. ناصر وهدان، القاهرة، ١٩٩٩م. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق. وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد بن عبد السلام، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١١، ١٤٢٢هـ.

ويتساءلون: لماذا لم يسمح الله للجن بسماع رسالة موسى وعيسى؟! ولماذا خص الجن بالقرآن وحده؟ ولماذا يقول الجن: إن القرآن جاء من بعد موسى، ولم يقل من بعد الزبور والإنجيل مع أن الإنجيل أقرب إليهم من عهد موسى؟ وكيف يتصور صاحب القرآن أن الجن أرواح يتزوجون ويتناسلون؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن هو الكتاب الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف أو التغيير، ولم يدخل فيه ما ليس منه، وعلى هذا فالتعارض بين القرآن وبين ما أثبته الكتاب المقدس فيما يتعلق بالجن - لا بد أن يُحتكم فيه إلى ما أثبته القرآن الذي سلم من التحريف.

٢) الجن جنس يشارك الإنس في نوع التكليف بالأمر والنهي والتحريم والتحليل، وعالمهم فيه المؤمن والكافر، وكفارهم هم الشياطين، وهم ليسوا أرواحًا فقط؛ بل لهم نسل وذرية.

٣) رسالة محمد ﷺ رسالة عامة للإنس والجن، ومن ثَمَّ فلا غَرْو إذا وجدنا القرآن يتحدث عن سماع الجن للذِّكر الحكيم وإيمان طائفة منهم به. وأما عدم سماع الجن لرسالتي موسى وعيسى عليهما السلام فلأن رسالتيهما جاءتا لقومهما خاصة ولم تأتِ لجميع الخلائق.

التفصيل:

أولا. ما ورد في القرآن عن الجن هو الحَكَم فيما نؤمن به، لا ما ورد في الكتاب المقدس:

إن ما جاء في القرآن الكريم عن الغيب هو المعبِّر عن الحقيقة؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف أو التغيير، ولم يدخل فيه ما ليس منه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، وبلاغة القرآن وفصاحته وما حوى من أوجهٍ أخرى من وجوه الإعجاز دليلٌ على ذلك، بل الأشد من ذلك هذا التحدي - إن صحَّ التعبير - المعجز للإنس والجن معًا على عدم قدرتهم على الإتيان بمثل هذا الكتاب، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء).

والقرآن الكريم يخبرنا أن الجن من عالم الغيب الذي لا نراه بأعيننا ولا ندركه بحواسنا؛ لأننا لسنا مهيئين لرؤيته، بينما هو يرانا: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأعراف). ثم إن أي تعارض بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في الكتاب المقدس لا بد أن يُفسَّر في إطار قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)؛ مع الأخذ في الاعتبار التحريف الذي اعترى التوراة والإنجيل.

وعلى هذا النحو يمكن تفسير التعارض الذي ركَّز عليه مثيرو هذه الشبهة، والذي وُجِدَ في حديث القرآن الكريم والكتب الأخرى عن عالم الجن. فلا يسعنا إلا أن نؤمن بما ورد في القرآن الكريم الذي سَلم من التحريف والتبديل®.

® في **"بعض الدلائل الرقمية على سلامة القرآن من التحريف"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السابعة. وفي **"تحريف التوراة والإنجيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة؛ من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن).

ثانيًا. الجن عالم حقيقي، وليس أرواحًا:

إن الغاية التي خُلِقت من أجلها الجنُّ هي الغاية نفسها التي تقف وراء خلق الإنسان: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات)، ولكن يقول ابن تيمية: "ليست الجن كالإنس في الحد والحقيقة، فلا يكون ما أُمروا به وما نُهوا عنه مساويًا لما على الإنس في الحد والحقيقة، لكنهم مشاركون في جنس التكليف بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم بلا نزاع عُلِمَ في ذلك بين العلماء"[1].

وعالم الجن فيه الكافر والمؤمن، وكفارهم هم الشياطين، ورأس الكفر عندهم هو رأس الشر كله وهو إبليس، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (الكهف)، والجن يتفاوتون في الكفر والمعصية كما يتفاوتون في الطاعة شأن كل مكَلَّف، وسورة الجن تتحدث عن هذه التفاصيل، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الجن).

ووجود مخلوقات من عالم الغيب فيها المؤمن والكافر مقابل وجود مخلوقات في عالم الشهادة فيها المؤمن والكافر، ووجود مخلوقات خالصة في الخير - وهم الملائكة - في مقابل مخلوقات هي شر خالص - وهم الشياطين - مع وجود مخلوقات لا تكليف لها - وهي الحيوانات التي لا عقل لها - هذه المخلوقات بأجمعها - على اختلافها - تبرز قدرة الله عز وجل، وأنه قادر على كل شيء.

الجن ليست أرواحًا فقط، بل لهم ذرية:

لم يذكر القرآن أن الجن أرواح فقط، وما الذي يمنع من أن يكون هناك عالَم من الغيب يتزاوج ويتناسل، كما يتزاوج الكائن الحي في عالم الشهادة ويتناسل؟ والقرآن الكريم ينص على أن لإبليس ذرية، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (الكهف)، فهذا يدل على أنهم يتناكحون من أجل الذرية، واستدل بعض العلماء على ذلك بقوله عز وجل في أزواج أهل الجنة: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الرحمن)، والطَمْث في لغة العرب: الجماع.

ثالثًا. رسالة محمد ﷺ رسالة عامة تشمل الإنس والجن:

أما كوْن القرآن الكريم لم يذكر سماع الجن لرسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - واكتفى بذكر سماع رسالة محمد ﷺ؛ فلأن النبي محمدًا ﷺ مُرْسَلٌ إليا الجن والإنس، ويدل على ذلك تحدي القرآن - إن صحَّ التعبير - للجن والإنس: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)، وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا

---

1. مفهوم الشيطان في الفكر العربي، د. ناصر وهدان، مرجع سابق.

عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ (الجن). وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأحقاف).

يشير إلى أنهم سمعوا رسالة موسى عليه السلام من قبل، أمَّا أن الجن قالوا: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأحقاف)، ولم يأت في القرآن الكريم أنهم قالوا: أنزل من بعد الزبور أو الإنجيل، أو من بعد عيسى عليه السلام، مع أن عيسى أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ من موسى عليه السلام - فذلك له احتمالان: إما لأنهم كانوا على اليهودية، وإما لأنهم قالوا حسب علمهم، ولم يعلموا إلا بموسى عليه السلام وشريعته[1].

الخلاصة:

- ما جاء في القرآن الكريم عن الغيب - ومنه الجن - هو المعبِّر عن الحقيقة؛ لأنه الكتاب الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف والتغيير، ولم يدخل فيه ما ليس منه.
- الجن جنس يشارك الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم، وهم يتفاوتون في الكفر والمعصية، كما يتفاوتون في الطاعة شأن كل مكلف، والجن يتزاوج ويتناسل كما يتزاوج الإنس في عالم الشهادة ويتناسل.
- والقرآن لم يذكر سماع الجن لرسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - ذلك لأن رسالة محمد ﷺ هي المقصودة بالحديث، وهو ﷺ مُرْسَل إلى الجن والإنس، والآيات تشير إلى أنهم سمعوا رسالة موسى عليه السلام من قبل، فهم إما أنهم كانوا على اليهودية، وإما أنهم لم يسمعوا بأمر عيسى عليه السلام.

الشبهة التاسعة عشرة

الزعم أن خلق الجن من نار خرافة من خرافات العرب التي توارثها المسلمون وآمنوا بها (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن خلق الجن من نار خالصة لا يشوبها الدخان خرافة من الخرافات التي يعتقدها العرب ويؤمن بها المسلمون، ويتساءلون: إذا كانت الجن مخلوقة من النار كما يدعي المسلمون فكيف يُعذَّب كافرُهم بالنار؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الجن من الأمور الغيبية التي نأخذ عِلْمها عن النقل - بنوعيه القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ - الذي نصَّ على أنها خُلِقت من مارج من نار، والذي خلقهم من نار قادر أن يعذبهم بها.

٢) الجن من الأمور الغيبية، وعدم العلم بها ليس دليلًا على عدم وجودها؛ لأن وجودها معلوم من الدين بالضرورة، كما أنه لا سبيل إلى إنكار أمر غيبي.

٣) أنبياء بني إسرائيل - وعلى رأسهم سليمان عليه السلام - عرفوا الجن وسُخِّر لهم من قِبل الله عز وجل.

---

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت، ج٣، ص٥٢٧.

(*) عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. لا سبيل إلى معرفة خَلْق الجن من نار إلا عن طريق النقل الصحيح:

الجن أمة كالإنس، والواحد جِنِّي، سُمِّيت بذلك لأنها تتوارى عن الأنظار ولا تُرى، أما الشياطين فجمع شيطان، وهو كل عاتٍ متمرد سواء من الإنس أو الجن أو الدوابِّ، وعليه فالشياطين ليسوا سوى عتاة الجن ومَرَدَتِهم، وليس في القرآن الكريم خرافات؛ لأنه الحق المبين الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(فصلت)، ولا يستمد حقائقه من مصدر أي بشري: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾(الواقعة).

خلق الجن من نار حقيقة لا خرافة:

والقرآن الكريم صريح في أن الجن خُلِقَ من نار، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾(الرحمن)[1]، كما قال ﷻ: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾(الحجر)، وقال ﷻ حكاية عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾(ص)، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: "خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم"[2].

وقد يسأل بعضهم: إذا كانت الجن مخلوقة من النار، فكيف يُعَذَّب كافرهم بها؟ **والجواب ما يأتي:**

إن الإنسان خُلق من طين، ولكنه الآن ليس طينًا، بل أصله فقط هو الطين، وكذلك الجن خُلقت من نار، ولكنها الآن ليست نارًا، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن رسول الله ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان، فأخذه فصرعه فخنقه، قال الرسول ﷺ: "حتى وجدت بَرْد لسانه على يدي"[3]. ومن هنا يتبين لنا أن الجن ليست نارًا؛ إذ لو كانت كذلك ما وجد الرسول ﷺ للسان الشيطان بردًا.

قول الرسول ﷺ: "إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي"[4]. والشاهد من هذا الحديث أن إبليس لو كان باقيًا على ناريَّتِه ما احتاج أن يأتي بشهاب من نار.

قول النبي ﷺ: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم"[5]. فلو كان باقيًا على ناريته لاحترق الإنسان، فإن قيل: المقصود بهذا الحديث هو وسوسة الشيطان. نقول: اتفق علماء الأصول على أنه لا يجوز

---

١. المارِج: أخص من مطلق النار؛ لأنه اللَّهب الذي لا دُخان فيه.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٧٦٨٧).

٣. إسناده قوي: أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الصافات (١١٤٣٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره (٢٣٥٠)، وقوى إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان (٢٣٥٠).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٩).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا (٥٨٠٧).

صرف الكلام عن ظاهره إلا بقرينة. وأين القرينة هنا؟!

وبهذا يُعْلَم أنه كما يتأذى الإنسان من ضربة بالطين والحجر، مع أنه خلق من طين، فإن الجن يتأذون ويحترقون بالنار مع أنهم خُلقوا منها، ونضيف إلى ذلك أن الإنسان خلق من طين، ويمكن أن يُعَذَّب به، كما أنه خلق من ماء أيضًا، ويمكن أن يتعذب به، والأحسن من هذا أن نقول: إن الله على كل شيء قدير.

ثانيًا. الجن من الأمور الغيبية:

عدم العلم ليس دليلًا على عدم الوجود:

غاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم، وعدم العلم ليس دليلًا على عدم الوجود، وهل يعلم الإنسان كل شيء حتى يُريد أن يتدخل أيضًا في الغيبيات التي اختص الله ﷻ نفسه وأنبياءه بأخبارها، وهل عدم سماعنا للأصوات التي يَعُجُّ بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها حتى إذا اخترعنا "المِذْياع" واستطاع التقاط ما لا نسمعه بآذاننا صدقنا بذلك ؟!

يقول الأستاذ سيد قطب: إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن، ليستمعوا القرآن من النبي ﷺ، وحكاية ما قالوا وما فعلوا، هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن، ولتقرير وقوع الحادث، ولتقرير أن هؤلاء الجن يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق، كما يلفظه الرسول ﷺ، ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران، مستعدون للهدى والضلال، وليس هناك من حجة إلى زيادة تثبيت، أو توكيد لهذه الحقيقة، فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة كما يقررها ﷻ ثبوتًا.

ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني؛ فالكون من حولنا حافل بالأسرار، ما ندري كُنْهَه وما لا ندري، هذا عن كوكب الأرض وحده، وليس في الكون ككل - وهو بالطبع يمتلئ بالعجائب والغرائب مما لا يدركه الإنسان - ونحن ما نزال في أول طريق المعرفة في هذا الكون، فما نعرفه اليوم عن الذرة، وغيرها كان لأسلافنا عجائب أضخم من عجيبة الجن، فلو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنونًا.

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية المُعَدَّة للخلافة في هذه الأرض، وما عدا هذه الدائرة فلم نُكَلَّف بالتنقيب عنه؛ إذ نحن قاصرون عن فهم مداركه، لذا رحمنا الله ﷻ من مشقة الغول فيه، وسنكشف الكثير مما قد تعد أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال، ولكن في حدود قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء)، فليس لنا إزاء هذه الحالة أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره، أو عدم تصوره من عالم الغيب المجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه المجردة؛ وذلك أنه خارج عن مألوفنا العقلي، أو تجاربنا المشهورة؛ فهذا لا يفيد في مسألة خلافتنا في الأرض[1].

والقول الحق: أن الجن عالم ثالث غير الملائكة والبشر، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة، ليسوا بأعراض ولا جراثيم، وأنهم مكلَّفون مأمورون

---

١. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١٤ وما بعدها.

منهيون، ولهم عقائد وديانات مثل الآدميين تمامًا[1].

وجود الجنّ معلوم من الدين بالضرورة:

يقول ابن تيمية: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم. وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر، وليسوا على صواب، وإذا كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواتُرًا تعرفه العامة والخاصة، فلا يمكن لطائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكره، والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها:

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأحقاف).

قوله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ (الأنعام).

قوله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمن).

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ (الجن).

قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ (الجن).

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (النور).

بل إننا نجد سورة كاملة في القرآن الكريم تتكلم عن الجن، وقد وردت كلمة "الجن" في القرآن اثنتين وعشرين مرة، وكلمة "الجان" سبع مرات، والشاهد أن الآيات في ذكر الجن والشياطين كثيرة[2] ®.

لا سبيل إلى إنكار أمر غيبي:

لقد عرف العرب الجن قبل البعثة المحمدية، كما قال ابن عبد البر: "الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان مُنَزَّلون على مراتب: فإذا ذكروا الجن خالصًا قالوا: جِنِّي، وإن أرادوا من يسكن مع الناس قالوا: عامر، والجمع: عُمَّار وعوامر، وإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا: أرواح، وإن خبث وتعزم فهو شيطان، وإن زاد على ذلك فهو مارد، وإن زاد على ذلك وقوي أمره قالوا: عفريت، والجمع: عفاريت".

هذا عند العرب، وعرفه ـ كما أسلفنا ـ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أما المنكرون، فليس لهم أدلة على

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٢٧٠.

٢. المرجع السابق، ص١٧.

® في "إنكار حقيقة الجن الواردة في القرآن الكريم" طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من هذا الجزء.

إنكارهم، ومن نحن حتى نقر أو ننكر أمرًا أثبته الله ﷻ خالق الكون والعالم بما فيه! وخلاصة القول في هذا الأمر أن الجهل بالشيء ليس دليلًا على عدم وجوده، إنه الجدال والمكابرة وحسب في كل ما أنزله الله ﷻ.

فالجن مخلوقات مثلنا لا يعلم كيفيتها إلا الله، لكنهم مكلَّفون مثلنا، ومنهم الصالح والطالح، وقال ﷻ على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ١١﴾ (الجن)، والثابت أن لهم أشكالًا مختلفة، وذلك على النحو الآتي:

جاء عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "الجن على ثلاثة أصناف: صِنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصِنف حيَّات، وصِنف يحلُّون ويُظْعِنون"[1][2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الجن يتصوَّرون في صورة الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير، وفي صور بني آدم... وقد أتى الشيطان لقريش في صورة شيخ نَجْديٍّ لما اجتمعوا بدار الندوة، هل يقتلون الرسول ﷺ أو يحبسونه أو يخرجونه. والأحاديث عن أشكالهم وصورهم أكثر من أن تُحصَر.

ثالثًا. أنبياء بني إسرائيل ـ وعلى رأسهم سليمان ﷺ ـ عرفوا الجن، بل سخَّروهم:

لقد أعطى الله الجن قدرة لم يعطها للبشر، وقد حدثنا الله ﷻ عن بعض قدراتهم؛ فمن ذلك: سرعة الحركة والانتقال، فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان ﷺ بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام رجل من جلوسه. قال ﷻ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩﴾ (النمل)، فقال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٤٠﴾ (النمل).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بأنه سخر الجن لسليمان ﷺ، إذ قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ (سبأ)، وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ (ص)، وقال أيضًا: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾ (النمل).

فهذا يدل على أن الله ﷻ سخر لسليمان ﷺ الجن تطيعه وتنفذ أمره فيهم، ويعملون له ما يشاء من ضخم المباني والعمائر والتماثيل ـ وكانت التماثيل يجوز صنعها عندهم ـ والقُدُور[3] الراسيات[4] والجِفَان[5] التي تشبه الحِياض لسِعَتها.

وقد ذُكِر في سفر الملوك الأول العمائر التي قام بعملها سليمان ﷺ، وهي:

---

١. يحلُّون ويُظْعِنُون: يقيمون ويرحلون.

٢. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦١٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير، باب اللام ألف (٥٧٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٤١٤٨).

٣. القُدُور: جمع قِدْرة، وهي إناء يُطبَخ فيه الطعام.

٤. الرَّاسيات: الثابتات على المواقد لا تنزل عنها لعِظَمها.

٥. الجِفَان: جمع جَفْنة، وهي البِئْر الصغيرة.

١. بيت الرب.
٢. بيت الملك.
٣. سُوْر أورشليم.
٤. حاصور.
٥. مجد.
٦. جازر.
٧. بيت حورون السفلي.
٨. بعلة.
٩. تدمر في البرية.

ومن نظر إلى هذه الأعمال وفخامتها وضخامة أحجارها لم يستبعد أن يكون للجن عمل عظيم في ذلك، وبعض آثارها الضخمة ماثل اليوم.

قال البيضاوي: رُوي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونِسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما، ويصنعون له القُدُور الراسيات على أثافيها لا تحرك لعظمها وثقلها، والجفان كالجواب؛ أي: الحياض الكبيرة، وقد كان بناء الهَيْكَل[1] وما معه في سبع سنوات فقط، وهو زمن يسير بالنسبة لعظمه. وهكذا نجد الجن حقيقة في كل الأديان والعقائد، وإن لم يقر هؤلاء الملحدون بوجودها فقد أقرَّها الله ﷻ وكفى بالله حسيبًا[2].

الخلاصة:

- الجن من مخلوقات الله تعالى، وهو أعلم بخلقهم ولا نعلم منهم إلا ما علَّمنا سبحانه، وقد أخبرنا ﷻ في محكم كتابه أنهم مخلوقون من النار، كما أخبر رسوله الكريم بذلك، وما الضير؟ فقد خلقت الملائكة من النور، وخلق الإنسان من الطين، والجن من نار، سبحانه له في خلقه شئون.
- الجن من الأمور الغيبية التي تُؤْخَذ عن السمعيات، وقد ورد ذكرهم في القرآن وصحيح السنة بالتواتر، فلا سبيل إذن إلى إنكارهم؛ إذ إن عدم العلم بالشيء ليس دليلا على عدم وجوده، فكيف يكون الحال إذا وجدت الأدلة؟!
- من الثابت تاريخيًّا عند المسلمين وغيرهم أن من أنبياء بني إسرائيل من سُخِّرت له الجن، ومن هؤلاء سيدنا سليمان عليه السلام الذي بنت له الجن التماثيل، والمحاريب والحِيَاض، كما نقلوا له عرش ملكة سبأ، وغيرها الكثير من الخوارق التي لا سبيل إلى إنكارها، وهذا من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.

١. الهَيْكَل: موضع مقدَّس في صدر المعبد أو الكنيسة، تُقرَّب فيه القُرْبان.
٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، عند تفسير الآية.

الشبهة العشرون

ادعاء أن ما جاء به محمدٌ ﷺ لم يقدِّم دليلا على أنه وحي إلهي جديد(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن ما جاء به النبي ﷺ ليس فيه ما يثبت أنه وحي إلهي جديد، ذاهبين إلى أن الدين الذي جاء به مصدره اللاشعور، كما أن الوحي الذي

(*) مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، المقاولون العرب، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
® في "ردّ القرآن الكريم إنكار المشركين للوحي" طالع: الشبهة السبعين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

يدَّعيه محمد ﷺ لم يوافق الشروط التي وضعها (اللاهوتيون) في قبول أي وحي مُفْتَرض، وهي أنه:

١. يجب أن يفي برغبة الروح البشرية في الحصول على السعادة الأبدية.

٢. يجب أن يتفق مع الضمير، وهو القانون الأخلاقي المكتوب في عقل الإنسان.

٣. يجب أن يكشف عن الصفات الحقيقية للإله.

٤. يجب أن يؤكد اعتقاد الإنسان بأن الله واحد.

٥. يجب أن يجعل طريق الخلاص واضحًا جليًّا.

٦. يجب أن يُعْلن عن نفسه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) معنى الوحي لغة: الإعلام، وشرعًا: إعلام الله أنبياءه بما يريد وحيًا.

٢) الوحي الإلهي معصوم؛ لأن الله تعالى هو الذي ضَمِنه وعصمه، وعصمة النبي ﷺ في تبليغه إياه ثابتة بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة وإجماع الأمة.

٣) العلم الحديث يؤيد معنى الوحي وإمكانه.

٤) إن أكبر دليل على إلهية الوحي المحمدي اشتماله على وجهين من وجوه الإعجاز: الإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي.

٥) الوحي الإلهي ثابت في رسالات الأنبياء والرسل جميعًا، ومن ثَمَّ فالوحي المحمدي لم يكن بِدْعًا من وحي الرسالات السابقة.

٦) فكرة الوحي النفسي فكرة باطلة، وهي مما تنكره العقول بداهة، وإن الأدلة على بطلانها كثيرة ومتعددة.

٧) الشروط التي وضعها اللاهوتيون لصحة الوحي تحرَّوا فيها أن تتفق مع معتقداتهم، وخاصة الشرط السادس، ومع ذلك فالشروط الخمسة الأولى - إذا اتفقنا على اشتراطها للوحي الصحيح - لا تتحقق في كتابهم المقدس، بينما تتحقق على أتمها في القرآن.

التفصيل:

أولا. الوحي لغة واصطلاحًا:

قال الراغب: أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، يعني: سريع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح بالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ (مريم)؛ أي: أشار إليهم ولم يتكلم.

ومنه الإلهام الغريزي؛ كالوحي إلى النحل، قال عز وجل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل: ٦٨)، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة، الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، ومنه ضده، وهو وسوسة الشيطان، قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٢١)، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢).

فالخلاصة في معنى الوحي اللغوي: أنه الإعلام الخفي السريع، وهو أعم من أن يكون بإشارة أو كتابة أو رسالة، أو إلهام غريزي، أو غير غريزي، وهو بهذا المعنى لا يختص بالأنبياء، ولا بكونه من عند الله عز وجل[1].

---

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٨٣، ٨٤.

وأما في الشرع فالوحي: يُطلق ويراد به المعنى المصدري، ويطلق ويراد به المعنى الحاصل بالمصدر، ويطلق ويراد به: الموحَى به.

ويعرَّف من **الجهة الأولى** (المعنى المصدري): بأنه إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة، فهو أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده، فقد خص المصدر بالله وخص المورد بالأنبياء.

ويعرف من **الجهة الثانية** (المعنى الحاصل بالمصدر): بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله، سواء أكان الوحي بواسطة أم بغير واسطة.

ويعرف من **الجهة الثالثة** (الموحَى به): بأنه ما أنزله الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع، والحكم، ومنهم من أعطاه كتابًا، ومنهم من لم يعطه[1].

ويمكن أن نقدم مفهومًا ميسَّرًا للوحي في الاصطلاح الشرعي وهو: أن الوحي صلة بين الرب تعالى ومن يصطفيه من خلقه ليتحمل أمانة التبليغ عن الخالق إلى الخلق، وهذه الصلة يصحبها علم ضروري بمصدرها، ويصاحبها ظواهر نفسية وبدنية للشخص المصطَفَى، ويتبعها آثار توجيهية يعلنها المصطفى لمن حوله. ولتوضيح هذا المصطلح نقول: إنه يقوم على أسس هي:

١. الاصطفاء من الله تعالى.
٢. العلم الضروري بمصدر الوحي.
٣. الحالة النفسية والبدنية المناسبة للوحي.
٤. الرسالة التي يتحملها المصطفى لقومه.

١. المرجع السابق، ص٨٤، ٨٥.

وهذه الأسس واضحة تمامًا فيما حكاه القرآن المجيد عن موقف اصطفاء موسى عليه السلام للنبوة والرسالة،في قوله عز وجل: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ (طه)[2].

ثانيًا. عصمة الوحي الإلهي، وعصمة النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغه إياه:

الوحي الإلهي معصوم من قِبَل الله عز وجل:

يوضح ذلك د. محمد سيد المسير فيقول: "إن الملك أو الرئيس إذا بعث مندوبًا عنه لا بد أن يتحقق لدى المرسَل إليهم شخصية هذا المبعوث؛ حتى يحظى بالقبول، وربُّ الناس أقدر على ذلك، فهو يؤيد رسله بالمعجزات الباهرة التي يقف أمامها العقل والجهد الإنساني، عاجزًا عن الإتيان بمثلها أو محاكاتها، ويمتنع عقلًا وشرعًا أن تقع المعجزة على أيدي المتنبئين الكذابين، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة).

فلو أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ـ ويقاس عليه كل نبي ـ افترى على الله شيئًا من الوحي بالزيادة أو النقص؛ لعاجله الله بعقوبة صارمة لا تُبْقِي ولا تذر.

ومعنى قوله: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ لأخذناه بالبطش

٢. الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، مصر، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٠.

الشديد، أو لسحبناه من يمينه إلى حتفه بقطع الوتين، الذي هو شريان بالقلب، إذا قطع انتهت الحياة.

وهذا على فرض التَّقوُّل ببعض الرسالة، فما بالك بمن يتقول الرسالة كلها؟! فوصول الوحي إلى الأنبياء محوط بضمان إلهي يمنع التزيد على النص، ويحول دون التدخل الشيطاني في التبليغ، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ (الجن)، فهناك حراسة مشددة من الملائكة تتنزل مع ملك الوحي؛ حتى يصل الوحي إلى الرسول محفوظًا من تدخل الشياطين.

فالله ﷻ يصطفي جبريل عليه السلام ويطلعه على غيب الوحي، ويكلِّفه ببلاغه إلى النبيﷺ المصطَفى من البشر، ويرسل معه حفظة من الملائكة حتى تتم عملية الإيحاء إلى النبي كاملة غير منقوصة.

والضمير في قوله ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ عائد إلى الله تعالى أو إلى النبي أو إلى البشر، والمعنى: ليعلم الله، أي: ليَظْهر علم الله بأن الوحي قد وصل إلى النبي ﷺ مصونًا من التبديل والتحريف، أو ليعلم النبي ﷺ أن الوحي قد وصل إليه مصونًا تحفُّه الملائكة دون تدخل شيطاني، فيؤمن يقينًا باصطفاء الله له، أو ليعلم الناس أي المكذِّبون الذين أشارت إليهم الآيات قبل ذلك في قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ (الجن).

فليعلم هؤلاء أن الله تعالى يحفظ وحيه إلى أنبيائه، وإذا كان الشيطان مُنع شرعًا من التمثُّل بالرسول ﷺ في الرؤيا كما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثَّل بي"[1]. وإذا كان الرسول قد أخبر أن الشيطان لا يلقى عمر بن الخطاب في طريق واحدة، فقال: "يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فَجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجِّك"[2]. فهل يُتصَوَّر أن يوقع الشيطان في وحي الله إلى رسله؟! وهل يُعقل أن يتمكن الشيطان من التلبيس على الأنبياء[3] ®؟!

عصمة النبي ﷺ ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع:

الأدلة التي تثبت عصمة النبي ﷺ في تبليغه الوحي الذي أُنْزِل إليه، والتي تثبت في الوقت نفسه إلهية هذا الوحي ـ كثيرة ومتنوعة، وهاك تفصيل د. عماد السيد الشربيني عنها:

١. دلائل عصمته ﷺ في تبليغ الوحي من القرآن الكريم والعقل:

لقد جاءت آيات القرآن الكريم تثبت عصمته ﷺ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في النام (٦٥٩٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: "من رآني في المنام فقد رآني" (٦٠٥٦)، واللفظ له.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي رضي الله عنه (٣٤٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٦٣٥٥)، واللفظ للبخاري.

٣. الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد المسير، مرجع سابق، ص٣٦، ٣٧.

® في **"تكفُّل الله بحفظ القرآن الكريم"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

وصدقه في كل ما يبلغ عن الله ﷻ، وهذه الآيات تتضمن أيضًا أدلة عقلية على صدقه ﷺ، ومن هذه الآيات ما يأتي:

قوله ﷻ: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر)، والذي جاء بالصدق كما يدل عليه سياق هذه الآية هو نبينا محمد ﷺ، وقد حكم الله ﷻ على ما شهد لما جاء به ﷺ من عنده سبحانه - قرآنًا وسنة - سمّاه صدقًا، ويلزم من صِدْق ما أتى به صدقه هو في نفسه؛ إذ لا يأتي بالصدق إلا كاملُ الصدق، وذلك مما لا جدال فيه؛ إذ كان صدقه معلومًا منذ حداثة سِنِّه.

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة)، فهذه الآيات دليل صدقه وعصمته في تبليغه الوحي "قرآنًا وسنة"، بدليل التمانع؛ فقد امتنع أخذه ﷻ لنبيه ﷺ بتلك الصفة؛ لامتناع تَقَوُّله عليه، وامتناع التقول عليه يعني الصدق والعصمة فيما يقول ويبلغ عن ربه.

وبالجملة: فالآيات من جملة مدحه، ودليل عصمته في البلاغ لوحي الله تبارك وتعالى؛ إذ إن فيها القسم على تصديقه بجميع الموجودات، وأنه لا يمكنه الافتراء ليه، قال ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الحاقة).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، فكلمة: ﴿يَنطِقُ ﴾ في لسان العرب تشمل كل ما يخرج من الشفتين قولًا كان أو لفظًا، أي: ما يخرج نطقه ﷺ عن رأيه، إنما هو بوحي من الله ﷻ. وقال ﷻ: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (الإسراء).

فهذه الآيات من جملة الآيات المادحة للنبي ﷺ، والتي تشهد بعصمته في كل ما يبلِّغ عن ربه ﷻ.

٢. دلائل عصمته ﷺ في تبليغ الوحي من خلال السنة المطهرة والسيرة المعطرة:

حاله ﷺ قبل النبوة: فصدقه مع الناس دليل على صدقه فيما يخبر به عن ربه؛ إذ لا يترك إنسان الكذب على الناس، ثم يكذب على الله تعالى، وقد شهد له الأعداء بالصدق فضلًا عن الأصدقاء، ومن شهادات الأعداء: ما جاء عن ابن عباس قال: لَمَّا نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء)، ورَهْطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفا، فهتف: "يا صباحاه"، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ"؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا، قال: "فإني نذير لكم بين يَدَي عذاب شديد"[1].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المسد (٤٦٨٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩)، واللفظ للبخاري.

سأل الأخنس بن شريك أبا جهل - وقد خلا كل منهما بالآخر يوم بدر - فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللِّواء والحِجابة[1] والسِّقاية[2] والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قول الله ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد أنك تَصِل الرَّحِم، وتصدق الحديث ولا نكذبك، ولكن نكذِّب الذي جئت به، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

شهادة أُميَّة بن خلف عندما قال له سعد بن معاذ: إني سمعتُ محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله ما يكذب محمد إذا حدَّث[3]، وقد تحقَّق ذلك يوم بدر، حيث اشترك في الغزوة، فقتله النبي ﷺ شرَّ قِتْلَة.

ومن شهادات الصحابة ﷺ بصدقه ما يلي:

قول خديجة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ في قصة بدء الوحي: "كلَّا! أَبْشِر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتَصِل الرَّحِم، وتَصْدُق الحديث، وتَحْمِل الكلَّ[4]، وتُكسِب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق". فهذه الشهادة من أقرب الناس إليه، تعدُّ من أبلغ الدلائل على صدق دعواه ﷺ وعصمته في بلاغ الوحي.

عن ابن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا..."[5].

ما كان من أبي بكر الصديق ﷺ من التصديق الكامل بكل ما يقوله النبي ﷺ، ويدل عليه قوله يوم الإسراء والمعراج: "إن كان قال فقد صدق".

من دلائل عصمته ﷺ في نقل الوحي: ما ثبت من أخباره وآثاره وسيره، وشمائله المستوفاة تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر عنه؛ رجوعًا عن كذبة كذبها، أو اعترافًا بخلف في خبر أخبر به، ولو وقع منه شيء من ذلك لنقل إلينا.

ومما يشهد بعصمته في بلاغ الوحي فترة الوحي في قصة الإفك، فقد كانت تنزل برسول الله ﷺ نوازل من شأنها أن تحفِّزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالًا ومجالًا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها وحيًا من قرآن أو سنة

1. الحِجابة: خِدْمة الكعبة.
2. السِّقاية: سقاية الحاج الماء وتوفيره لهم، وكانت من مآثر قريش.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٣٣).
4. الكَلُّ: الذي يحتاج إلى رعاية ونَفَقَة.
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله (٦٨٩٣)، واللفظ له.

يقرؤه على الناس.

ولو كان يقول في شيء برأيه لأدلى بدلوه في تبرئة عائشة من تُهمتها حال وقوع الحادثة، لكنَّه كان يقول - فقط -: "إني لا أعلم عنها إلا خيرًا"، وكان يقول لها: "فإن كنتِ بريئة فسيُبَرِّئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذَنْب فاستغفري الله"[1].

ومن أقواله ﷺ التي تدل على عصمته في بلاغ الله ﷻ، ما ورد في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه؟ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟! قال: فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فأَوْمَأ بإصبعه إلى فيه فقال: "اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما يخرج منه إلا حق"[2]، ومن ذلك أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إني لا أقول إلا حقًّا"، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله، قال: "إني لا أقول إلا حقًّا"[3].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٢٥١٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٧١٩٦).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة رضي الله عنهم، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (٦٥١٠)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٨٤٦٢)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب المزاح (١٩٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٩٤).

٣. من دلائل عصمته ﷺ في تبليغ الوحي إجماع الأمة:

أجمع أهل الملل والشرائع كلها على عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من أي شيء يُخِلُّ بالتبليغ، فلا يجوز عليهم التحريف، ولا الكذب: قليله وكثيره، سهوه وعمده، فكل هذا مما يُنزَّه عنه منصب النبوة، وإلا فلم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع، واستدلوا على ذلك بأنه لو جاز عليهم التَّقوُّل والافتراء في ذلك عقلًا لأدى إلى إبطال المعجزة القاطعة بصدقهم، وإبطال المعجزة محال، فالكذب في التبليغ وعدم الصحة فيه محال أيضًا[4].

مما سبق يتقرر لدى كل منصفٍ عصمته ﷺ في تبليغ الوحي من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، والسيرة العطرة، وإجماع الأمة، فضلًا عن المعجزات المتواترة المعنويَّة والحسيَّة الدالة على صدق دعوته.

كما أن محمدًا ﷺ لم يدَّعِ أن هذا الوحي هو أرفع منزلة، أو أسمى درجة من وحي الأنبياء السابقين، إلا أنه قد جُمع له جميع مراتب الوحي: الرؤيا الصادقة، والنفث في روعه، ورؤية الملك في حالته الملائكية، أو في صورة بشر، أو بدون واسطة®.

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٨٥: ٢٩٨.

® في **"عصمة النبي"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي **"عصمة النبي وبطلان قصة الغرانيق"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. وفي **"عصمة النبي من كيد الشيطان وتَمْنِيته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين؛ من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

ثالثًا. العلم يؤيد معنى الوحي وإمكانه:

يقول د. محمد محمد أبو شهبة: "وإذا ثبت وجود عالم الروح، لم يبق مجال إذًا لإنكار وجود الملائكة، وقد استفاضت الأخبار بوجودهم عن الأنبياء والشرائع السماوية، وقد تمخَّض العصر الحديث عن عِلْم يُسَمَّى "علم التَّنوِيم الصناعي" أو "التنويم المغناطيسي"[1]، وقد أثبت هذا العلم وجود قوة خفيَّة وراء هذا الهيكل الإنساني، وهو الروح، وبهذه القوة الخفية أو الروح يتسلَّط المنوِّم على المنوَّم، ويلقي الأول إلى الثاني ما يشاء، ويستجيب الثاني إلى ما يريد الأول، وقد أُجرِيت في هذا تجارب عِدَّة حتى أصبح أمرًا مُسَلَّمًا به، وهذا يُقرِّب معنى الوحي إلى حدٍّ كبير[2]، وقد أصبح هذا شَجًى في حُلُوق الماديين، ولم يجدوا لدفعه سبيلًا.

ثم إن بعض المخترعات الحديثة كاللاسلكي، والمذياع، والتليفزيون، ونحوها قد أمكن للإنسان ـ بوساطتها أن يبلغ كلامه إلى من هو أبعد منه بآلاف الأميال، فإذا توصل الإنسان ـ على عجزه ـ إلى هذه المخترعات أفنستبعد على خالق القوى، أن يبلِّغ رسله ما يريد بوساطة أو بغير وساطة؟ وأن يهيئ للموحَى إليهم من الوسائل ما يجعلهم مستعدين لتلقي الوحي[3]؟

رابعًا. الإعجاز بنوعيه: الغيبي والعلمي يقطع بإلهية الوحي المحمدي:

لقد اشتمل الوحي على وجهين من الإعجاز: الإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي، وهذا يدل على أنه من عند الله تعالى وحده، وعن هذين الوجهين يتحدث د. عبدالرحمن الزنيدي فيقول:

الوجه الأول: الإعجاز الغيبي:

اشتمل الوحي على أخبار غيبية كثيرة، كإخباره ﷺ بأمور غيبية ستقع في المستقبل، ووقعت كما أخبر بشكل مطابق تمامًا لتحديدات الخبر. وربما قال قائل: إن توقُّع حدوث أشياء في المستقبل بناءً على قياس الماضي والحاضر من قِبَل عالمٍ بسُنَن الحياة أمرٌ من الممكن أن تُصدِّقه الأيام، وهذا لا مِراء فيه، ولكن أمر محمد ﷺ يختلف عن هذا اختلافًا بيِّنًا؛ فكثيرًا مما أخبر به من غيبيات، ما كانت الأحوال التي أنبأ الناس بها تؤيده أو تومئ ـ ولو من بعيد ـ بحصوله، ثم إنه كان يخبر بما يخبر به جازمًا غير متردد، واثقًا من صدق ما جاء به أَتَمَّ الثقة، مما لا يكون مشابهًا لما بُني على الفِراسة والدراسة والحسبان.

يضاف إلى ذلك أن الغيبيّات التي تنبأ بها كثيرة متنوعة، منها ما هو عام، ومنها ما هو خاص محدد، ومنها ما هو خاص به ﷺ، ومنها ما يتناول أمته، ومنها

---

١. التَّنوِيم المغناطيسي: ويُسمَّى أيضًا بـ "التنويم الصناعي"، وهو الحالة المصطنعة الشبيهة بالنوم التي يصبح فيها الشخص المنوَّم تحت تأثير المنوِّم، فيوحَى إليه ببعض الأعمال أو التأثير بكلمات إيحائية على شخص ما تنقله إلى حالة شبيهة بالنوم ولا يفقد شعوره، بل يستجيب لإيحاءات المنوِّم وأوامره.

٢. مع التأكيد على أن الأنبياء عند تلقي الوحي لا يكونون في نفس الحالة التي يكون عليها المنوَّم مغناطيسيًّا؛ حيث يكون في وضع غير طبيعي، أما الأنبياء فيكون الوحي إليهم في شدة الصَّحْو، وأما ما يَطْرَأ عليهم من أمور شكليَّة ـ كشدة العرق وما إلى لك ـ فهذا لا يَقْدَح في طبيعة ما هم عليه.

٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٨٨، ٨٩.

ما يتناول أعداءه.

ومع هذا كله، فلم يَتخلف منها نبوءة واحدة، ولم يمتر الشاهدون لوقوعها في تمام التوافق مع ما أخبر كما أخبر، وفق هذه الأصول جاءت النبوءات الغيبية من قِبَل الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، وإليك نماذج جَلِيَّة؛ منها:

قال تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ (الروم).

ذكر المفسرون أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة يقولون لهم: تزعمون أنكم ستغلبوننا بهذا الكتاب الذي جاء به محمد، وها قد غَلَبَت فارس، وليس لها كتاب، والروم أهل كتاب، فسنغلبكم، كما غلبت المجوس الروم، فأنزل الله هذه الآيات يخبر فيها بأن الروم ستنتصر في أقل من عشر سنين، وبأن ذلك اليوم سيكون فيه نصر للمسلمين على أعدائهم، ولم تكن الأمارات والشواهد العقلية تدل على شيء من هذا، لا بالنسبة للروم، ولا للمسلمين. ولكن وعد الله تحقق، فانتصر الروم على الفرس في أقل من عشر سنين، بإجماع المؤرخين، وهزم المسلمون قريشًا في بدر في الوقت نفسه.

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧). جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة فقال لهم: "يا أيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله"[1].

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ من هذا الضمان الإلهي، فقد حماه الله من كيد أعدائه مرات كثيرة، لم يحل بينهم وبينه إلا عصمة الله وحدها، وبقي محوطًا بهذه العصمة حتى أكمل الله به الدين الذي بعثه به.

ومن أعظم هذه النبوءات: إعلانه المصحوب بالتحدي، أن جميع البشر عاجزون وسيظلون كذلك عن معارضة القرآن. قال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ (البقرة).

ولقد نزل هذا الحكم الصارم، والنفي المؤبَّد على أناس يتمتعون بأرقى مواصفات المجال الذي وقع فيه التحدي، وهو الأسلوب، أو النظم الكلامي، وفي فترة بلغت فيه الذروة في إتقان هذا الفن. ومع هذا كله لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئًا.

لقد كانوا ـ كما أثبت التاريخ ـ يشهدون بمقامه العلي، الذي لا يمكن أن تسمو إليه قدرة البشر حتى

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة المائدة (٣٠٤٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة (٣٢٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٩).

قال الوليد بن المغيرة، أحد كبار قادة قريش بعدما سمع القرآن: والله لقد عرفت الشعر والرجز وأشعار الجن، والله ما يشبه ما يقوله محمد ﷺ شيئًا من هذا، وإنه ليعلو وما يُعْلَى، وإنه ليحُطِّم ما تحته..."، وتتابعت القرون وازدهر الأدب، والصناعة البيانية، ولكن هذا الكتاب ما زال بمنأى عن أن ترتفع إليه قدرات البشر، فتحققت نبوءته وتم حكمه.

بعد هذا لا يبقى ريب في أن هذا العلم جاء من مصدر أعلى من الإنسان يملك العلم المحيط بالماضي، والحاضر، والمستقبل، والقدرة على تصريف الأشياء وفق ما يريد.

الوجه الثاني: الإعجاز العلمي:

استطاعت المصادر البشرية للمعرفة - في عصرها الأخير - نتيجة تطور مناهجها، وتَرَقِّي وسائلها أن تكشف كثيرًا من الحقائق العلمية، خصوصًا في ميدان عالم الطبيعة، مما لم يكن ميسورًا للناس قبل هذا الزمن، فكان البحث فيه - إذ ذاك - لا يعدو أن يكون ضربًا من الاستنتاج، والتأملات العامة، ومن ثم فقد قلب العلم الطبيعي المعاصر كثيرًا من المفاهيم السابقة، وبين خطأها، وقد شمل هذا كتب الفلاسفة، والعلماء الطبيعيين والديانات المحرفة.

ولكن كتابًا واحدًا عرفته البشرية، منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، انفرد من بين ذلك التراث كله بأمرين:

- أنه لم يتعارض مع أية حقيقة علمية ثابتة.
- انفراده بذكر حقائق علمية جاءت من خلال بيان آيات الله في عالم الشهادة، للدلالة على عظمة خالقها، وجلاله والامتنان على العبد بنعمه الوافرة التي أسداها إليه، وكانت متطابقة تمامًا مع ما وصل إليه العلم التجريبي المعاصر بعد اعتماده على مناهج ووسائل مكَّنته من الكشف عن هذه الحقائق.

من ذلك - مثلًا - قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

فقد ذكرت هذه الآيات أن الإنسان مخلوق من طين، وكذلك كثير من الآيات الأخرى، وهذا ما تقرر في العلم الحديث، فجميع العناصر المكتشفة في جسم الإنسان الآن - وقد بلغت اثنين وعشرين عنصرًا، موجودة في التراب بأكملها.

كما ذكرت الآية التشكيلات التي يكون عليها الجنين ابتداء من قذفه نطفة في الرحم، ثم تطوره إلى العلقة، فالمضغة، فالمرحلة العظمية، فاكتسائها باللحم، ثم نفخ الروح فيه ليصبح إنسانًا حيًّا، هذه المراحل هي التي حددها العلم التشريحي الحديث، لدى من لا يعرفون القرآن ولا تلقَّوا مفاهيمه.

الذي جاء بهذه الحقائق في ذلك العصر هو شخص أُمِّي لم يتلق العلم، وعاش في بيئة أُمِيَّة، ولم يكن لدى العرب قبل بعثته ونزول الوحي عليه أيُّ اهتمام بالمعارف الطبيعية.

فإذا جمعتَ بين هاتين الحقيقتين: العلمية والتاريخية، فإنك لن تستطيع أن ترد هذا الوحي إلى أي مصدر من مصادر المعرفة البشرية، ولم يبق أمام الباحث سوى

ردها إلى مصدر أعلى من الإنسان يتجاوز علمه حدود الزمان والمكان، ويستغني عن الوسائل المعينة على الوصول إلى الحقائق، وهو علم الله ﷻ، وهذا ما وصل بباحثين أحرار إلى هذه الغاية من خلال هذا الوجه الإعجازي.

فها هو العالم الفرنسي المعاصر موريس بوكاي يُصَرِّح أن حقائق القرآن العلمية، تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها، وأنها وحي لا شك فيه.

وهكذا - من خلال وَجْهَي الإعجاز اللذينِ ذُكِرَا - ينتهي طالب الحق إلى أن الوحي الإسلامي جزء من علم الله ﷻ أنزله على الإنسان ليستضيء بنوره عن طريق محمد بن عبد الله ﷺ[1].

إن ظاهرة الوحي كما حددها الإسلام، وحقيقة النبوة كما صححها، وما تضمنته النبوة والوحي من علوم ومعارف، وما قامت عليه من أدلة عجز العقلاء جميعًا عن الوصول إليها، كل ذلك يثبت أن مصدر الدين الحق عُلْوِي لا أرضي ®.

خامسًا. الوحي الإلهي ثابت في الرسالات السابقة للأنبياء والرسل السابقين:

١. الوحي في العهد القديم:

إن موضوع الوحي كما تبينه دراسة أسفار العهد القديم تُعْلِمنا أن "رجال الله" الذين عاشوا على الأرض قبل أن يوجد إسرائيل وذريته، وكذلك الذين ظهروا في الشعب الإسرائيلي من أنبياء ومرسلين، قد تلقوا وحي الله تعالى بطرق مختلفة يمكن اعتبارها مرجعًا مقارنًا لدراسة حالات الوحي، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

- الوحي بالكلام شبه المباشر بين الله والإنسان، أو بتعبير أدق: بكلام من وراء حجاب، وقد تعرض لذلك آدم وموسى - عليهما السلام -.

كان أول الوحي إلى البشر ما كان من كلام الله إلى آدم عليه السلام، وتعليمه من الوصايا ما يميز به بين ما ينفعه وما يضره "وأخذ الربُّ الإلُه آدمَ ووضعه في جنَّة عَدْنٍ ليعلمها ويحفظها، وأوصى الربُ الإله آدمَ قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت". (التكوين ٢: ١٥ - ١٧).

الوحي بالرؤيا المنامية كما حدث لإبراهيم، ويعقوب، وسليمان - عليهم السلام - وغيرهم، وكان وحي الله إلى خلقه عن طريق الرؤيا التي يراها النائم حتى إذا ما استيقظ من نومه شعر أن رؤياه قد ملكت عليه كل نفسه، واطمأن بها قلبه، وعلم أن ذلك وحي من الله ﷻ.

فلقد كان هذا هو الحال مع إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمن عليه السلام، و"بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى إبرام في الرؤيا قائلًا: لا تخف يا إبرام، أنا تُرْسٌ لك، أَجْرُك كثيرٌ جدًّا، فقال إبرام: أيها السيد الرب، ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيمًا"؟ (التكوين ١٥: ١ - ٢).

وكانت الرؤيا هي سبيل الوحي لأغلب الأنبياء:

١. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، مرجع سابق، ص١٦٥ وما بعدها.

® في **"الإعجاز العلمي في القرآن الكريم"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم).

"وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلًا: "اذهب وقل لعبدي داود: هكذا قال الرب: أأنت تبني لي بيتًا لسُكْناي؟ لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدتُ بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنتُ أسير في خيمة وفي مسكن. في كل ما سِرْتُ مع جميع بني إسرائيل، هل تكلمتُ بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يَرْعَوا شعبي إسرائيل قائلًا: لماذا لم تبنوا لي بيتًا من الأرز؟ والآن فهكذا تقول لعبدي داود: هكذا قال رب الجنود: أنا أخذتك من المَرْبَض[1] من وراء الغنم لتكون رئيسًا على شعبي إسرائيل. وكنتُ معك حيثما توجَّهت، وقرضت جميع أعدائك من أمامك، وعملت لك اسمًا عظيمًا كاسم العظماء الذين في الأرض. وعينت مكانًا لشعبي إسرائيل وغرسته، فسكن في مكانه، ولا يضطرب بعد، ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما في الأول، ومنذ يوم أقمتُ فيه قضاة على شعبي إسرائيل. وقد أرحتُكَ من جميع أعدائك. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتًا. متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك، أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته. هو يبني بيتًا لاسمي، وأنا أُثبِّت كرسي مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا. إن تَعَوَّج أُؤدِّبه بقَضِيب الناس وبضربات بني آدم. ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك. ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد". فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كذلك كلّم ناثان داود". (صموئيل الثاني ٧: ٤ ـ ١٧).

١. المَرْبَض: مَأوَى الماشية.

ظهور الملائكة في صورة بشرية تُعَلِّم الناس بلُغاتهم وَحْي الله، وتلك إحدى الطرق الشائعة التي تعلم بها إبراهيم، ولوط، ويعقوب، وإيليا، ودانيال الذي علمه جبريل، وكذلك الحال مع غيرهم من الأنبياء. ومن ذلك: "كان في سنة الثلاثين، في الشهر الرابع، في الخامس من الشهر، وأنا بين المَسْبِيِّين عند نهر خابور، أن السماوات انفتحت، فرأيت رُؤَى الله. في الخامس من الشهر، وهي السنة الخامسة من سَبْي يوياكين المَلِك، صار كلام الرب إلى حزقيال الكاهن ابن بُوزِي في أرض الكَلْدانيِّين عند نهر خابور. وكانت عليه هناك يد الرب. فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان، ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات. وهذا منظرها: لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه، ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة، وأقدام أرجلها كقدم رِجل العِجل، وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. ووجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة. وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه. لم تَدُر عند سيرها. كل واحد يسير إلى جهة وجهه. أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها، ووجه ثور من الشمال لأربعتها، ووجه نسر لأربعتها. فهذه أوجهها. أما أجنحتها فمبسوطة من فوق... هكذا منظر اللمعان من حوله. هذا منظر شبه مَجْد الربِّ. ولما رأيته خررتُ على وجهي، وسمعت صوت متكلِّم. فقال لي: "يا ابن آدم، قم على قدميك فأتكلَّم معك". فدخل في روح لما تكلَّم معي،

وأقامني على قدميَّ فسمعت المتكلِّم معي. وقال لي: "يا ابن آدم، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمرِّدة قد تمردت عليَّ. هم وآباؤهم عصوا عليَّ إلى ذات هذا اليوم. والبنون القُساة الوجوه، والصِّلاب القلوب، أنا مرسلك إليهم. فتقول لهم: هكذا قال السيد الرب. وهم إن سمعوا وإن امتنعوا، لأنهم بيت متمرِّد، فإنهم يعلمون أن نبيًّا كان بينهم. أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم... وأنت يا ابن آدم، فاسمع ما أنا مكلِّمك به. لا تكن متمردًا كالبيت المتمرد. افتح فمك وكل ما أنا مُعْطِيكَه". فنظرتُ وإذا بيدٍ ممدودة إليَّ، وإذا بدَرْجِ سِفْرٍ فيها. فنشره أمامي وهو مكتوب من داخل ومن قفاه، وكُتِب فيه مَراثٍ ونَحِيب ووَيل". (حزقيال ١، ٢).

وقد ينظر العبد الصالح إلى السماء فيرى ظلًّا من النور أو النار، تشد نفسه إليها، وتستولي على مشاعرها، وعندئذ يسمع وحي الله، فذلك كان أول الوحي إلى موسى عليه السلام، "وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حَمِيه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقَّد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: "أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة؟". فلما رأي الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: "موسى، موسى!" فقال: "هأنذا". فقال: "لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك؛ لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة". ثم قال: "أنا إله أبيك، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب". فغطَّى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله". (الخروج ٣: ١ ـ ٦)، "فكَلَّم الربُّ موسى قائلًا: سمعت تذمر بني إسرائيل"؟ (الخروج ١٦: ١١، ١٢).

- وقد تُسْمَع أصوات الملائكة من بُعْد، وفي خفاء وهي تلقي بالوحي إلى العبد الصالح، كما كان الحال مع صموئيل وغيره.
- وقد يرى العبد الصالح مناظر عجيبة في السماء تصاحبها عواصف وزوابع، ثم يجيئه صوت الوحي يعلمه كما كان الأمر مع إيليا وحزقيال "وأنت يا ابن آدم، فاسمع ما أنا مكلمك به، لا تكن متمرِّدًا كالبيت المتمرد". (حزقيال ٢: ٨).
- كذلك قد تنفعل نفس العبد الصالح بما يفيض على لسانه كلامًا يشتهر بين الناس بأنه وحي الله، ونجد ذلك ما كان من أمر الأنبياء: أشعياء، وأرميا، وصموئيل، وعاموس، وبقية الأنبياء الاثني عشر.

ونجد الكثير من أسفار العهد القديم قد كُتب على أساس أنه كان وحيًا نطق به عبد صالح: "رؤيا أشعياء بن آموص التي رآها على يهوذا وأورشليم، في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا: اسمعي أيتها السماوات وأصغي أيتها الأرض، لأن الرب يتكلَّم: "ربَّيتُ بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا عليَّ. الثَّور يعرف قانيه، والحمار مَعْلَف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف. شعبي لا يفهم". ويلٌ للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نَسْل فاعلي الشر، أولاد مفسدين! تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدُّوا إلى وراء. علامَ تُضرَبون بَعْدُ؟ تزدادون زيغانًا! كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم". (إشعياء ١: ١ ـ ٥).

هذا هو الوحي في العهد القديم، فهل لأحد أن

ينكره بعد، وقد ثبت في الرسالات السابقة لرسالة محمد ﷺ؟ ومن رحمة الله بخلقه أن اصطفى من الناس أنبياءه ورسله، ممن عطرت سيرتهم، وطابت ذكراهم، وكانوا فوق مستوى الشبهات[1].

٢. الوحي في العهد الجديد:

تقرر أسفار العهد الجديد أن طرق الوحي إلى أنبياء الله كثيرة ومتنوعة، وأنها جميعًا تهدف إلى تعليم الناس دين الله عن طريق رسله الذين جُعِلوا أئمة للبشر: "الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديمًا بأنواع وطرق كثيرة، كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه". (الرسالة إلى العِبرانيين ١: ١، ٢). وبذلك تعترف المسيحية بجميع طرق الوحي، وبجانب ذلك فإنا نجد في أسفار العهد الجديد تفصيلًا لحالات الوحي ووسائله، منها:

ظهور الملائكة للبشر في صورة جسمية، تخاطبهم بلغاتهم، وتبلغهم وحي الله، كما فعل جبريل مع زكريا حين بشَّره بابنه يحيى: "فقال زكريا للمَلَاك: كيف أعلم هذا؛ لأني أنا شيخ وامرأتي متقدِّمة في أيامها؟ فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله، وأُرْسِلت لأُكلِّمَك وأُبَشِّرك بهذا". (لوقا ١: ١٨، ١٩).

وجاء الملاك جبريل على هيئة رجل من البشر رسولًا من الله إلى مريم يبشرها بمولد المسيح: "وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المُنعَم عليها! الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رَأَته اضطربت من كلامه، وفكرت: ما عسى أن تكون هذه التحية! فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه يسوع". (لوقا ١: ٢٦ـ ٣١).

وقد يظهر الملك للبشر في طبيعته النورانية، وعندها تكون في هيئة وضاءة مشرقة: "ملاكُ الرب نزل من السماء، وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه. وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض كالثلج". (متى ٢٨: ٢، ٣).

ويكون الوحي برؤيا يراها العبد الصالح في نومه، ويوقن أنها تعليم من السماء، فيتصرف على هذا الأساس، ولقد تعرض المجوس الذين زاروا مريم وابنها إلى وحي في الرؤيا المنامية أبعدهم عن طريق هيرودوس الملك الذي كان يطلب قتل الصبي المبارك: "أتوا إلى البيت، ورأوا الصبي مع أمه مريم، فخرُّوا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدَّموا له هدايا: ذهبًا ولُبانًا ومُرًّا.. ثم إذ أُوحِي إليهم في حُلْم ألَّا يرجعوا إلى هِيرودوس انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم". (متى ٢: ١١، ١٢).

والخلاصة: أن حالات الوحي ووسائله في المسيحية لا تخرج عما رأيناه في اليهودية[2].

سادسًا. بطلان فكرة الوحي النفسي:

فلماذا لم يظهره الرسول ﷺ قبل بلوغ سن الأربعين

١. الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، لواء. أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٠.

٢. المرجع سابق، ص٢١.

أي قبل البعثة؟

وإن ثمة أدلة كثيرة تتكفل بالرد على فكرة الوحي النفسي المدَّعاة، وهاك تفصيلها:

إن صورة الوحي النفسي - كما صوروه - مبنية على وجود معلومات وأفكار مُدَّخَرة في العقل الباطن، وأنها تظهر في صورة رؤى، ثم تقوى فيخيل لصاحبها أنها حقائق خارجية، وإننا نتساءل: هل كان الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء ﷺ بعقائده وتشريعاته في العبادات والمعاملات، والحدود، والجنايات، والاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، والآداب، وأحوال السلم والحرب، مركوزًا أو مدخرًا في نفسه ﷺ؟!

هذا ما تنكره العقول بداهة؛ لأن ما جاء به ﷺ وما بلَّغه من وحي الله في العقائد يعتبر مناقضًا لكل ما كان سائدًا في العالم حينئذ من عقائد، كالوثنية، والمجوسية، والتأليه، والتثليث، والصلب، وإنكار البعث واليوم الآخر، وكذلك جاء النبي ﷺ بتشريعات ما تُعْرَف في الشرائع السابقة سماوية، وغير سماوية.

واشتمل الوحي الإلهي الذي بلَّغه المصطفى ﷺ سواء أكان قرآنًا أم سنة على أسرار في الكون، والأنفس والآفاق، ما كانت لِتخطر على بال بشر قط، ولم يظهر تأويلها إلا بعد تقدم العلوم، والمعارف في العصر الأخير، فكيف تكون هذه الأسرار من داخل نفس النبي ﷺ وهي لم تخطر له على بال؟!

وإذا كان الوحي بعد نزول صدر سورة "اقرأ" على النبي ﷺ وهو يتعبد في غار حراء قد انقطع مدة من الزمان لم ينزل فيها قرآن، فَلِمَ سكت النبي طوال هذه المدة وهو صاحب العقل الباطن المملوء بالمعارف، والوجدان الملتهب والنفس الـمُتوثِّبة للإصلاح؟

١. إن العقل الباطن - على ما يقول علماء النفس - إنما يفيض بما فيه في غفلة من العقل الظاهر، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى والأحلام، والأمراض كالحمى مثلًا، وفي الظروف غير العادية.

والقرآن الكريم نزل على النبي ﷺ، وهو في اليقظة وفي اكتمال من عقله وبدنه، ولم ينزل منه شيء في الرؤى والأحلام، وهكذا نرى أن ما استندوا إليه من فكرة العقل الباطن لا تساعدهم، بل تردُّ عليهم[1].

٢. ليس كل ما في الوحي الإلهي - قرآنًا وسنة - مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور، ففي الوحي جانب كبير من المعاني النقلية البَحْتَة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتَّلَقِّي والتعليم.

كان رسول الله ﷺ رجلًا أميًّا نشأ بين قوم أميين أربعين سنة من عمره، لم تظهر عليه أمارات من علوم ومعارف تقارب ما جاء به القرآن والسنة، ثم يطلع علينا بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لا عهد له به، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في كتبهم، وحجبوه عن الناس، أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره[2]؟

لقد بيَّن الله ﷻ أن الوحي أمر خارج عن نفس النبي ﷺ وليس نابعًا من داخلها، بما حمله جبريل عليه السلام

---

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٠١.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٠٦.

من عند الله إليه، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء)، فحال الوحي ملك منفصل عن ذات النبي محمد ﷺ ليس فيه خيالٌ، وله من الصفات ما بينها الله في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (التكوير).

إن النبي ﷺ لم يكن يستشرف النبوة، وما كان يرجوها، ولم يطمع في حصولها لنفسه، بل لم يرد في الأخبار الصحيحة أنه ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظَر، الذي يتحدث عنه علماء اليهود والنصارى قبل البعثة، ولو ثبت ذلك عنه لما ترك المحدثون تدوينه، وقد دوَّنوا ذلك عن أمية بن أبي الصلت لما كان يتوقع أن يكون نبيًّا، وقد جاء في القرآن نفْي ذلك عنه ﷺ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (القصص: ٨٦). فما كان ﷺ يظن أن الوحي قبل إنزاله عليه ينزل عليه، وإنما أنزله الله رحمة به وبالعباد، فهو نعمة من الله وفضل[١].

إن الوحي الذي حدَثَ للنبي ﷺ هو حدث إلزامي فجائي طارئ، لا يمكن إحضاره واجتلابه، ومن ثَمَّ لا يمكن دفعه. ومن أوضح الأدلة على ذلك:

ما يعتريه ﷺ من أعراض جسدية لا سيطرة له عليها.

ما انتابه من أحوال نفسية تمثَّلت في خوفه من ملك الوحي في بداية أمره كما جاء في قوله: "لقد خشيت على نفسي"[٢].

- أن هذه الأعراض والشدائد كانت لا تعتريه إلا في لحظات وجيزة، وبرهات متقطعة، وذلك عند نزول الوحي عليه.
- أنه لا قدرة له ﷺ على إحضار الوحي وجلبه، بدليل فتور الوحي، وانقطاعه عنه مدة من الزمن حتى شق ذلك عليه وأحزنه، وأَقَضَّ مضجعه، ثم جاءه جبريل بعد ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ (الضحى).

النبوة ليست أمرًا كسبيًّا يناله المرء بسعيه وكسبه، ولا تخضع لجهد فكري، أو تَرَقٍّ روحي وأخلاقي، ولا تُنَال بالقيم الدنيوية، ولا الاعتبارات المادية، فليست بابًا مفتوحًا يلج من خلاله من سمت نفسه، أو عظم إشراقه، بل هي اصطفاء إلهي يختص به الله من يشاء من عباده، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وهكذا نرى أن ما زعموه من فرية الوحي النفسي، ما هو إلا اختلاق كان دافعه ومبعثه الحقد على الإسلام والمسلمين، وإرادة إبطال عصمة النبي ﷺ فيما بلغ من الوحي[٣]، قال تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟

---

١. الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط٦، ١٩٦٠م، ص١٢٣، ١٢٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٠٩.

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ (التوبة)[®].

سابعًا. مناقشة شروط الوحي التي ذكرها مثيرو هذه الشبهة:

إن الشروط التي ذكرها مثيرو الشبهة لصحة الوحي وقبوله - إذا اتفقنا على اشتراطها للوحي الصحيح - لا تتوفر في كتابهم المقدس، بل تتحقق على أتمها في القرآن الكريم، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: الوفاء برغبة البشر في الحصول على السعادة الأبدية:

وهذا لا يتوفر في الكتاب المقدس، فهو لا يفي برغبة البشر في الحصول على السعادة الأبدية، وما يلقاه الإنسان فيها، والعهد القديم يكاد يخلو من ذكر الآخرة خلوًّا تامًّا، وهو مشغول ببناء مجد بني إسرائيل الزائل في هذه الدنيا، فنجد الكتاب المقدس يقول في هذا الشرط: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧ : ٣).

إن هذا القول يحمل الدعوة إلى الشهادتين، شهادة وحدانية الذات، وشهادة صدق الرسول، وهو ما جاء القرآن الكريم يثبته ويؤكده، وأن الله تعالى واحد أحد: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (النحل: ٥١)، والشهادة بصدق أنبيائه ورسله أجمعين: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة).

فهل آمن أصحاب تلك النظرة اللاهوتية بهذا الاعتبار الذي وضعوه؟! أو آمنوا بغيره من تحريف النص عن معناه، من وجوب توحيد ذات الله تبارك تعالى وتنزيهه لتحقيق السعادة الأبدية إلى التثليث والتجسيد والحُلول والاتحاد[1]، كي يتفق مع نظرتهم اللاهوتية؟!

الشرط الثاني: الاتفاق مع القانون الأخلاقي:

فليسأل هؤلاء أنفسهم أولًا: هل يتفق ما جاء في كتابهم المقدس مع القانون الأخلاقي، في أن الإنسان يرث خطيئة غيره، وأن غيره يطهِّره ويخلِّصه من الخطيئة؟ أو أن الذي يتفق مع القانون الأخلاقي الذي يقره العقل هو ما قرره القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم).

الشرطان الثالث والرابع: الكشف الحقيقي عن الصفات الإلهية وتأكيد اعتقاد الإنسان بأن الله تعالى واحد:

فهل يتفق هذان الشرطان مع ما جاء في كتابهم المقدس من الخلط بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، فالخالق يوصَف بصفات المخلوقين،

® في "نفي كون القرآن وحيًا نفسيًّا من خيال النبي" طالع: الشبهة الثالثة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن).

١. الحُلول والاتحاد: يقتضي وجود خالق ومخلوق، وأنه بمداومة المخلوق على رياضات روحية معينة يحلُّ الخالق في المخلوق حلول الزُّبدة في اللبن أو الماء في الإناء، ثم يتَّحد به حتى يصيرا شيئًا واحدًا.

والمخلوقون يوصَفُون بصفات الخالق؟

إن ما جاء في القرآن الكريم من الوضوح التام في صفات المولى ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص). فلينظروا في كتابهم الذي يقرر الشرك والتعدد أكثر منه تقريرًا للتوحيد، ولينظروا في القرآن إن كانوا منصفين.

الشرط الخامس: **الوحي** هو طريق الخلاص والنجاة الواضح:

لا نجد لهذا الشرط مصداقيةً في الكُتب السابقة كما هو موجود في القرآن الكريم، فطريق الخلاص والنجاة فيه واضح كل الوضوح؛ فالإنسان بإيمانه وعمله الصالح يسعى لخلاصه ونجاته قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ ﴾ (المدثر)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ ﴾ (الإسراء).

الشرط السادس: أن يُعلن الوحي عن نفسه:

لقد وضع أهل الكتاب هذا الشرط ـ بالذات ـ لكي يتفق مع معتقداتهم التي حرَّفوها عن أصلها الصحيح، فحَسْب الوحي السماوي ـ عندهم ـ أن يُعلن عن نفسه بكل الحجج والدلائل التي لا تُبقي رِيْبَة[1].

الخلاصة:

- الوحي لغة: الإعلام، وشرعًا: إعلام الله أنبياءه بما يريد وحيًا. وهو معصوم بعصمة الله ﷻ له، ودليل عصمته ثابت بالقرآن والسنة، ويؤيد الواقع، كما يؤيده الإعجاز العلمي والغيبي.
- لقد ثبت الوحي في الرسالات السابقة في التوراة والإنجيل، فلِمَ يدَّعي هؤلاء الطاعنون عدم أصالة الوحي المحمدي.
- لقد اجتمعت الأدلة على بُطلان فكرة الوحي النفسي ، ولو كانت صادقة لادَّعى النبي ﷺ هذا الوحي قبل بلوغه الأربعين من عمره، وما الذي كان ﷺ يمنعه أن يُظهر شيئًا من الوحي في شبابه؟ ولماذا لم تظهر عليه ﷺ أمارات من علوم ومعارف من شأنها أن تقارب ما جاء به القرآن والسنة، فهل يُعقَل أن يطلع علينا ﷺ بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لاعهد له به، ويُبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في كتبهم وحجبوه عن الناس؟
- أما عن الاشتراطات الستة التي اشترطها هؤلاء المدعون في قبول أي وحي مفترض، فنقول: من أين استاقوا تلك الشروط، وعلى أي أساس تم وضعها وأين سيد الاعتبارات وإمامها، وهو ألا يكون في الكتب الموحَى بها أي تناقض أو تعارض أو اختلاف؟!
- إن الشروط الخمسة الأولى ـ إذا اتفقنا معهم على اشتراطها للوحي الصحيح ـ لا تتوفر في كتابهم المقدس، بينما تتحقق على أتمها وأوضحها في القرآن الكريم. أما الشرط السادس فهو لا يوافق العقيدة الإسلامية السَّمْحة.



1. انظر: محمد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا.

الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أن الشفاعة تحمل المسلمين على التواكل (*)

مضمون الشبهة:

يخطئ بعض الواهمين في فهم ما خصَّ بـه الله تعـالى نبيَّه ﷺ من الشفاعة لأتباعه يوم القيامة، ظانِّين أن طمع المسلمين في نَيْل نـصيبهم مـن الـشفاعة يحملهـم عـلى التَّواكل والتهاون وعدم الجِدِّيَّة، ما دام كلٌّ له حظُّه من الجزاء والثواب والجنة والنعيم، ويتـساءلون: ألا يعـد هـذا مناقـضًا لمبـدأ الثـواب والعقـاب في العقيـدة الإسلامية؟

وجها إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ يأذن بالشفاعة لمن يشفع عنده من أجـل أن يُكرمه وينال المقام المحمـود؛ لعلـو مقامـه، ورفعـة منزلته، ومن ثم فمقام الشفيع لا يناله أي أحد، وإنما فئة خاصة من الأتقياء.

٢) للشفاعة شروط وخصوصية وليـست مُطْلَقـة؛ فلا بد من رضـا الله تعـالى عـن الـشافع والمـشفوع لـه والإذن في الشفاعة. ثم إن لها أنواعًا ستة، كـل نـوع لـه حكم خاص به.

التفصيل:

أولا. إِذْن الله بالشفاعة لمن ارتضى من عباده:

الله ﷻ هـو الـذي يتفـضل عـلى أهـل الإخـلاص، فيغفر لهـم بواسـطة دعـاء مـن أذن لـه، فيـشفع عنـده ليكرمـه، وينـال المقـام المحمـود، وقيـل: إن الحكمـة من الشفاعة هـي الحكمـة نفسها مـن تـشريع التوبـة، وهو منْع المذنبين من أهـل التوحيـد عـن القنـوط مـن رحمته تعالى، وبعـثهم نحـو الابتهـال والتـضرع إلى الله تبارك وتعـالى رجـاء شـمول رحمتـه إيـاهم، وعـودتهم إلى الطريـق الـصحيح في المجتمـع الإسـلامي، فـإن العاصي لو اعتقد بأن عصيانه لا يغفر ألبتة، فلا شك أن ذلك يؤدي إلى حصول حالة نفسية لديـه تدفعـه إلى أن يتمادى في اقتراف السيئات؛ لأنه يعتقد أن ترك العصيان لا ينفعه في شيء، فـإذا أيقـن أن رجوعـه عـن المعـصية يغير مصيره في الآخرة، فإن ذلك يبـثُّ الطمأنينـة التـي تـساعده عـلى تـرك العـصيان، كـما أنـه لـو اعتقـد أن الرسول ﷺ قد يشفع في حقه إذا لم يتعمـق في المعـاصي، ولم يبلغ الحد الذي يُحْرَم فيه من الـشفاعة، فعنـد ذلـك ربما يحاول تطبيق حياته على شرائـط الـشفاعة حتـى لا يحرمها.

ثانيًا. شروط الشفاعة وأنواعها:

عندما أَذِن الله ﷻ بالشفاعة وضع لها شروطًا ثلاثة، وهي:

١. رضا الله ﷻ عن الشافع.

٢. رضاه عن المشفوع له.

٣. إذنه تعالى في الشفاعة، والإذن لا يكون إلا بعـد الرضا عن الشافع والمشفوع له، ودليل ذلك قولـه ﷻ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النجم)، فهذه الآية تضمنت الشروط الثلاثة المذكورة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم أن الشفاعة ستة أنواع:

(*) الـشفاعة: محاولـة لفهـم الخـلاف القـديم بـين المؤيـدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، أخبار اليوم، يوليو، ١٩٩٩م.

١. الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم - عليهم الصلاة والسلام - حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: "أنا لها"[١]، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند ربهم؛ حتى يريحهم من مقامهم في الموقف، وهذه شفاعة يختص بها النبي ﷺ، لا يشترك معه فيها أحد.

٢. شفاعته ﷺ لأهل الجنة في دخولها.

٣. شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم ألَّا يدخلوها.

٤. شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

٥. شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم.

وهذه الشفاعات لا يستفيد منها إلا الموحدون من المسلمين الذين لم يتخذوا من دون الله وليًّا ولا شفيعًا، كما قال ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ (الأنعام: ٥١)، ولكنهم اقترفوا بعض الآثام والذنوب، فتأتي الشفاعة لتطهِّرهم وتنقِّيهم.

٦. شفاعته ﷺ في بعض الكفار من أهل النار، حتى يخفَّف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب عمِّ النبي وحده[٢].

الخلاصة:

- الله ﷻ يأذن بالشفاعة لمن يشفع عنده من أجل أن يكرمه، وينال المقام المحمود، فعندما يأذن الله ﷻ بالشفاعة للنبي ﷺ فإنها يدل هذا على تكريم الله ﷻبالشفاعة له، ورفعه في مقام محمود بين الرسل.
- الله ﷻ يأذن بالشفاعة عندما تتوفر شروط ثلاثة، وهي: رضاه عن الشافع، رضاه عن المشفوع، إذنه في الشفاعة. ثم إن لها أنواعًا ستة، وليست مقتصرة على نوع واحد.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٠٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠٠).

٢. شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد العثيمين، مرجع سابق. شرح المجيد في شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن النجدي الحنبلي، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤١٩هـ.

المحور الثالث
شبهات حول الإيمان بالقضاء والقدر والحريات

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر يجعلهم مسلوبي الإرادة (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن إيمان المسلم بالقضاء والقدر يُفْقده القدرة على الاختيار، ويجعله مسلوب الإرادة، ويدفعه إلى السلبية والكسل والتواكل وترك العمل، ويدَّعون أن هذه العقيدة أدت إلى تأخر المسلمين، ويتساءلون: إذا كان الإنسان يصيب ويخطئ بقدر الله ومشيئته، فكيف يحاسبه الله على فعل هو مُسيَّرٌ فيه؟ ألا يتعارض هذا مع العدل الإلهي؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإيمان بالقضاء والقدر لا يرفع مسئولية الاختيار عن العبد إذ الإيمان به شيء، ومسئولية العبد عن عمله شيء آخر لا يناقضه.

٢) لقد وقع التاركون للعمل اتكالًا على القدر في ضلالات كثيرة؛ فقد تركوا العمل كلية واحتجوا بالقدر على ما يقع من أعمال مخالفة للشرع، وبذلك لم يفرِّقوا بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، ولا يستقيم أن نلصق جريرة سوء الفهم لهذا الأصل الإيماني بالإسلام.

٣) الفهم الصحيح للإيمان بالقضاء والقدر وتطبيقه هو ما دفع المسلمين إلى العمل والاجتهاد وعدم التواكل حتى حققوا الريادة المنشودة في قيادة الأمم، ومن أراد أن يحكم فليحكم على حال المسلمين الأوائل من الصحابة ليعرف الفرق، والفتوحات الإسلامية خير شاهد على ذلك.

٤) إن لعقيدة الإيمان بالقدر مفهومها وحدودها في الإسلام.

٥) ليس ثمة أدنى تعارض بين الإيمان بالقضاء والقدر والعدل الإلهي.

التفصيل:

أولا. الإيمان بحقيقة القضاء والقدر لا يرفع مسئولية الاختيار عن العبد:

الإيمان بالقضاء والقدر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، كما دل على ذلك حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[1].

إن الله خلق الخلق وجعل فيهم القدرة على الإيمان

(*) قضايا إسلامية: مناقشات وردود، د. محمد رجب البيومي، مرجع سابق.

® في "مدى الارتباط بين إرادة الله وإرادة العبد" طالع: الشبهة السادسة والثلاثين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم). وفي "ردّ القرآن على المحتجّين بالقدر على الشرك بالله" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ (الروم) (٤٤٩٩)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة (١٠٢)، وفي مواضع أخرى، واللفظ له.

والكفر، قال ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان)، فالإنسان وإن كان مكلَّفًا شرعًا إلا أن له حرية الاختيار كونًا وقدرًا، وهذا الأمر واقع مشاهَد، فما من إنسان إلا وهو يشعر بهذه الحرية في الاختيار، وبناءً على هذه الحرية جاء التكليف الشرعي بوجوب الإيمان وحُرْمة الكفر، فعندما لا يؤمن الإنسان يكون هو الذي لا يريد الإيمان، وعندما يكفر يكون هو من أراد الكفر، ونضرب مثالًا لهذا:

الإنسان مختار في عمله وكسبه، غير مجبر، وهو كذلك مفطور على حركة الاختيار، يمثل هذه الحركة ويطبقها في حياته اليومية، ويقرر الإنسان بعمله وسلوكه الاختيار وينكر الجبر، فمثلًا لا يعاقب الجماد، ولا يغضب على الحجر، والخشب، والماء، والنار، والريح، مهما لحقه الأذى والضرر والعنت من هذه الأشياء؛ لأنه يعلم أنها غير مخيرة، أما إذا تعرض إنسان لإهانتك أو هَتَك عرضك أو ثُرت عليه ثورانًا عجيبًا وعاقبته عقابًا شديدًا، أفلا يدل ذلك على أن الإنسان يميز بين المجبَر والمختار، وأنه صاحب اختيار وإرادة؟!

ولو كان الاحتجاج بالجبر والقدر صحيحًا لاحتج به أهل النار عندما سُئِلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ (المدثر)، فأجابوا: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (المدثر)، فلو كان الاحتجاج بالقدر صحيحًا لقال أهل النار: أُجبرنا على فعل الكفر، ثم عوقبنا عليه. وفي رسالة الحسن البصري في رده على مِثْل هؤلاء الطاعنين قال: "لو أجبر الله الخلق على الطاعة، لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزًا في القدرة"[1].

وقال ابن قيم الجوزية: فالله ﷻ إذا أراد فعل العبد خلق القدرة، والداعي إلى فعله، ويضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة المسبب إلى سببه، ويضاف إلى قدرة الرب ﷻ إضافة المخلوق إلى الخالق. ولو قام العبد بالأكل والشرب والزنا والسرقة عادت أحكام هذه الأفعال إليه وامتنع عود أحكامها إلى الرب تعالى، ولكن من أين يمنع أن تكون معلومة للرب سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك).

وإن العقلاء ليتفقون ـ بداهة ـ على أن أفعال الإنسان تنقسم إلى أفعال اضطرارية، وأخرى اختيارية، وهذا ما يحسه ويشعر به كل إنسان في أنه في أفعاله الاختيارية يستطيع أن يفعل الشيء أو يتركه وله الحرية الكاملة في ذلك، فالقدرة على الفعل والترك دليل الاختيار، وحرية الإرادة.

والقرآن والسنة يقرران حرية الإنسان في كل أفعاله وخصوصًا التي تمس الدين، ويكون عليها الجزاء مثوبة، أو عقوبة، فقال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩). وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت)، وقال ﷺ: "إنما الأعمال

---

١. تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٠٣.

بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..."[1][2].

ثانيًا. ضلالات التاركين للعمل اتّكالا على القدر:

سلك الناس في باب القدر كل وادٍ وأخذوا في كل طريق وتكلمت فيه الأمم قديمًا وحديثًا وقد ضل فريق البحث، وعن هذا الضلال يتحدث د. عمر الأشقر فيقول: ضلَّ فريق في باب القدر، فقالوا: إذا كان الله عالمًا بكل شيء نفعله، وعالمًا بمصيرنا إلى الجنة أو النار، وكان هو الخالق لأفعالنا، فلماذا نعمل وننصَب؟ ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أَعِنَّتِها، وسيأتينا ما قُدِّر لنا شئنا أم أبينا؟.

وقد تَعَمَّقت هذه الضلالة عند بعض طوائف المسلمين، وكان ـ ولا يزال ـ هذا القول على ألسنة كثير من جُهَّال المسلمين وأهل الزَّيغ والزندقة، وهذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات، ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبه، وقد قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر)، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل، والأخذ بالأسباب، فما قُدِّر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مُجْبَرون على أفعالهم؛ فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مَهَبِّ الريح، وكالساقط من قمة جبل شامخ إلى واد بعيد غوره، سحيق قعره، لا يملك ـ وهو يتردى فيه ـ من أمره شيئًا.

لقد ترك هؤلاء العمل احتجاجًا بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال؛ لأن جميع ذلك خلق الله.

إن هذه العقيدة المنحرفة أضلَّت عقولًا كثيرة، وانحرف مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي، وأقعدتها عن العمل.

لقد كان من آثار هذه العقيدة الزعم أن الله أحب الكفر، والشرك، والقتل، والزنا، والسرقة، وعقوق الوالدين، وغير ذلك من الذنوب والمعاصي؛ لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله، وأوجده فهو يحبه ويرضاه، ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخَيِّرة التي توصلهم إلى الجنة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثيرًا من الموبقات بدعوى أن القدر آتٍ آت، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنَّصَب؟ لقد ترك هؤلاء الأخذ بالأسباب؛ فتركوا الصلاة والصيام، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه؛ لأنه لا فائدة منها، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل.

ورضي كثير من هؤلاء بظلم الظالمين، وإفساد المفسدين؛ لأن ما يفعلونه قدر الله وإرادته، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (٥٠٣٦).

2. تاريخ الفرق الإسلامية، د. محمود محمد مزروعة، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ١٩٩١م، ص٧٦، ٧٧.

الحدود والقصاص؛ لأن ما وقع من المفاسد والجرائم قدر لا بد منه.

ويمكن الرد على هؤلاء من وجوه:

١. خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يؤديه الإنسان من أفعال:

استعمل هؤلاء لفظًا لم يرد به الكتاب والسنة، والواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص، روى اللالكائي بإسناده: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدِّر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وإطلاق هذا على الله ﷻ خطأ بيِّن؛ فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحدًا، وإنما يجبر غيرُه العاجزُ عن أن يجعله للفعل مختارًا له محبًا، راضيًا به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريدًا له محبًا إياه راضيًا به، فكيف يقال أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق.

٢. إنكار الاختيار في أفعال العباد نَقْص في العقل:

الذين يزعمون أن الإنسان ليس له إرادة ألغَوْا عقولهم، فَضَلُّوا وأضلوا، وإلا فإننا نعلم من أنفسنا أن حركتنا ليست كحركة الجماد، الذي لا يملك شيئًا لذاته في تحركه وسكونه، بل إننا نفرق بين الحركات غير الإرادية التي تجري في أجسادنا وبين الحركات الإرادية، فحركة القلب، وحركة الرئتين، وجريان الدم في دورته في عروق الإنسان، وآلاف العمليات المعقدة التي تجري في أجسادنا ـ من غير أن نعرفها ونعلم بها ـ ليس لنا فيها خيار، بل هي حركات اضطرارية ليس للإنسان إرادة في إيجادها وتحقيقها، ومثل ذلك حركة المرعوش الذي لا يملك إيقاف اهتزاز يده.

أما أكْل الإنسان وشربه وركوبه، وبيعه وشراؤه، وقعوده وقيامه، وزواجه وطلاقه، ونحو ذلك، فهو يتم بإرادة وقدرة ومشيئة، والذين يسلبون الإنسان هذه القدرة ضلت عقولهم، واختلَّت عندهم الموازين، والقرآن الكريم مليء بإسناد الأفعال إلى مَن قاموا بها؛ كقوله ﷻ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (يس: ٢٠)، وقوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الصافات)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص: ١٥)، وقوله ﷻ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ (القصص: ٧٩)، والنصوص في هذا كثيرة يصعب إحصاؤها، وهي تسند الأفعال إلى من قاموا بها.

٣. زعمهم أن كل شيء قدَّره الله وخلقه فقد رضيه وأحبه:

وهذا زعم باطل، فالله شاء وجود الكفر، والشرك، والذنوب والمعاصي، من الزنا، والسرقة، وعقوق الوالدين، والكذب، وقول الزور، وأكل مال الناس بالباطل، ولكن كرهها وأبغضها ونهى عباده عنها. قال ابن القيم: "أخبرني شيخ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ أنه لام بعض هذه الطائفة على محبة ما يبغض الله ورسوله. فقال له الملوم: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، وجميع ما في الكون مراده، فأي شيء أُبغض منه؟ فقال له الشيخ: إذا كان الله قد سخط على أقوام ولعنهم وغضب عليهم وذمَّهم، فواليتهم أنت وأحببتَ أفعالهم ورضيتها، تكون مواليًا له أو

معاديًا له؟ قال: "فبُهِتَ الجبري ولم ينطق بكلمة، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧).

٤. زعْمهم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال وإهمال الأسباب:

لقد أخطأ هذا الفريق في دعواه أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل، وذهل هؤلاء عن حقيقة القدر؛ فالله قدَّر النتائج وأسبابها، ولم يقدر المسببات من غير أسباب، فمن زعم أن الله قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها فقد أعظم الفرية؛ فالله إذا قدر أن يرزق فلانًا رزقًا، فقد جعل لذلك الرزق أسبابًا يُنَال بها، فمن ادعى أنه لا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق، وأن ما قدر له من رزق سوف يأتيه ـ سعى أو لم يسع ـ لم يفقه قدر الله في عباده.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شئون الحياة، فقد أمرت بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار.

قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠)، وقال: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك)، وقال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وأمر المسافرين للحج بالتزود، فقال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وأمر بالدعاء والاستعانة، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال ﷻ: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

٥. احتجاجهم بالقدر على مقارفة الذنوب باطلٌ:

الحق أن الإيمان بالقدر لا يستلزم الرضا بالمعاصي، ولقد ضلَّ أقوامٌ وسلَّموا للمفاسد التي وقعت بحجة فاسدة، وهي قولهم: هذه إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك، وقد أدى هذا بهم إلى ترك الباطل يستشري في ديار الإسلام، وترى هذا الصنف من البشر خاضعين للظلمة، بل إن بعضًا منهم يصبح أعوانًا للظلمة، وتراهم يخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدره فيكم.

وترى بعض هؤلاء يفعلون الموبقات، ويرتكبون المنكرات من الزنا، والفسوق، والعصيان، ويحتجون لأفعالهم بالقدر. وهؤلاء إن اعتقدوا أن كل شيء واقع فهي حجة أضحكوا العقلاء منها، وأوقعوا أنفسهم في مأزق لا يجدون منه خلاصًا، ولقد ذكر ابن القيم وقائع من هؤلاء تزري بأصحاب العقول، وتجعل أصحابها في مرتبة أقل من البهائم، يذكر عن واحد من هؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما، وكان غلامه يعرف مذهبه في القدر، فقال له: إن القضاء والقدر لم يَدَعانا حتى فعلنا ذلك. فقال ذلك الجاهل: لعلمك بالقضاء والقدر أحبُّ إليَّ من كل شيء، أنت حر لوجه الله. ورأى آخر يفجر بزوجته، فأقبل يضربها وهي تقول: القضاء والقدر فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أوَّه، تركتَ السنة، وأخذتَ بمذهب ابن عباس، فتنَّبه ورمى بالسوط من يده واعتذر إليها، وقال: لولا أنت لضللت. ورأى آخر

رجلًا يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء وقدره، فقال: الخيرة فيما قضى الله، فلقّب بـ "الخيرة فيما قضى الله". ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحًا، لأمكن لكل واحد أن يقتل ويفسد، ويأخذ الأموال، ويظلم العباد، فإذا سُئِلَ عن أفعاله احتجَّ بالقدر، وكل العقلاء يعلمون أن هذه الحجة مرفوضة غير مرضية، وإلا فإن الحياة تفسد.

وكثير من الذين يحتجون بالقدر لظلمهم وفسقهم وضلالهم يثورون إذا ما وقع عليهم الظلم، ولا يرضَوْن من غيرهم أن يحتج على ظلمه لهم بالقدر.

إن المنهج الذي فقهه علماؤنا عن ربنا ﷻ ونبينا ﷺ أنه يجب علينا أن نؤمن بالقدر، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ارتكاب منكَر العمل وفاسده، كما لا يجوز لنا أن نحتج به على مخالفتنا للشرع، وإنما يحتج بالقدر على المصائب، دون المعايب، يقول شيخ الإسلام: "العبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر، وحال بعده، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله، ويتوكل عليه، ويدعوه، فإذا قدر المقدرو بغير فعله، فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله - وهو نعمة - حمد الله على ذلك، وإن كان ذنبًا استغفر إليه من ذلك، وله في الأمور حالان:

- **حال قبل الفعل**: وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك.

حال بعد الفعل: وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير. قال ﷻ: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾(غافر: ٥٥)، أمره أن يصبر على المصائب المقدورة، ويستغفر من الذنب، وقال ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾(آل عمران)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾(يوسف)، فذكر الصبر على المصائب، والتقوى بترك المعائب، وقال النبي ﷺ: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[1].

إن الإيمان بالقدر والاحتجاج به يأتي لمعالجة المشكل النفسي الذي يذهب الطاقة الإنسانية ويبددها في حال الفشل والإخفاق، ولا يكون مانعًا من العمل والإبداع، في مقبل الزمان[2].

٦. يلزم من قولهم التسوية بين المختلفين:

لقد أدى هذا المذهب بأصحابه إلى التسوية التامة بين الأخيار والفُجَّار، والأبرار والأشرار، وأهل الجنة وأهل النار، وقد فرَّق بينهم ﷻ فقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾(ص)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾(الجاثية: ٢١)، ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (القلم).

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقدر وترك العجز والاستعانة بالله (٦٩٤٥).

٢. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٧٢ وما بعدها.

أسباب الضلال في القدر:

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، هذا التصور لا يكون صحيحًا إلَّا إذا اتسم بالشمولية، ومن تحدثوا في القدر وضلوا من النفاة والجبرية رأوا جزءًا من الحقيقة وتركوا الباقي،ومن ثم جاء حكمهم باطلًا، وعن أسباب هذا البطلان يتحدث د. عمر الأشقر فيقول: إن السبب في ضلال كل من القدرية النفاة والقدرية المجبرة في هذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءًا من الحقيقة وعمي عن جزء منها، فكان مثله مثل الأعور الذي يرى أحد جانبي الشيء، ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر، والذنوب والمعاصي، ولا يحبها ولا يرضاها، فكيف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي، والقدرية المجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فآمنوا بالحق الذي عند كل واحد من الفريقين، ونفوا الباطل الذي تلبس به كل واحد منها، فهم يقولون: "إن الله وإن كان يريد المعاصي قدرًا، فهو لا يحبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها". وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبًا أو مستحبًا. ولو قال: إن أحب الله حنث إن كان واجبًا أو مستحبًا.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

وعليه فالإرادة الشرعية هي المتضمنة المحبة والرضا والقبول، والكونية القدرية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ٦)، وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء)، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

فهذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة، وهذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يحب الذنوب والمعاصي، والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقًا وإيجادًا، وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية، ويرضاها ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين. وهذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث.

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع

الموجودات، التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة مثل قوله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ (هود: ٣٤)، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (الكهف: ٣٩).

وهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر، والبار والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي، دون ما لم يحدث منها.

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة؛ فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمر به وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدَّره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت، ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي. والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشقي من أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرًا، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور؛ مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام:١٤٨)، قال الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأنعام)[1].

ثالثًا. الفهم الصحيح للإيمان بالقضاء والقدر دفع المسلمين إلى العمل والاجتهاد وعدم التواكل:

لو أن المسلمين في خير القرون ساروا على هذا الفهم الخاطئ للإيمان بالقدر، ما انتصر لهم دين، ولا قامت لهم دولة ولا تأسست لهم حضارة، ولا مُكِّن لهم في الأرض، ولا قادوا العالم إلى الحضارة والتقدم والرقي،

١. المرجع السابق، ص١٠٥: ١٠٨.

فإن هذا التوجه السلبي غريب على العقل الإسلامي، والروح الإسلامية، والنهج الإسلامي الذي يعمل على تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة؛ والمجتمع الصالح والأمة الصالحة، والدولة الصالحة، لذا أنكره فقهاء الأمة المتَّبعون وأئمتها المعتبرون، فهذا الإمام سفيان بن سعيد الثوري، وهو إمام في الفقه والحديث يقول: "العالِم إذا لم تكن له معيشة صار وكيلًا للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة، صار وكيلًا للفساق".

ويقول الطبري: لقد ظاهر ﷺ في الحرب بين دِرْعَين، ولبس على رأسه المِغْفَر[1]، وأقعد الرُّماة على فم الشِّعْب، وخندق حول المدينة، وأَذِن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وقال للذي سأله: أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: "اعقلها وتوكل"[2]، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل، وقال عز من قائل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولقد طبَّق الأنبياء جميعهم مبدأ التوكل على الله ﷻ، وأخذوا بالأسباب؛ فقد كان آدم حرَّاثًا، ونوح وزكريا نجارَيْن، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط مزارعَيْن، وصالح تاجرًا، وسليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدروع، وكان موسى وشعيب ومحمد - صلى الله عليهم جميعًا - رُعاة، فقد قال ﷺ: "ما بعث الله نبيًّا إلا رعي الغنم"، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[3]. ولقد طبَّق هذا المبدأ كذلك الصحابة الكرام ﷺ، إذن فالإسلام يدعو إلى العمل والاجتهاد، وعدم الكسل والتواكل، وهذه النماذج خير شاهد على ذلك[4].

الفتوحات الإسلامية دليل واضح على أخْذ المسلمين بالأسباب:

يزعم أعداء الإسلام أن الإيمان بالقدر هو سر تخلف المسلمين وقعودهم عن اللحاق بركب الحضارة المادية، مستدلين على ذلك بواقع المسلمين اليوم؛ إذ انتشر فيهم التخلف والفقر والجهل، زاعمين أن الإيمان بالقدر يدعو إلى الكسل، وترك العمل تحت دعوى أن هذا مُقَدَّر فسيكون.

وجوابًا على هذا الزعم نقول: إن الأسباب وراء تخلف المسلمين في هذه الأيام كثيرة؛ منها: أسباب داخلية، وخارجية، وإن جَعْل الإيمان بالقدر من بين تلك الأسباب، مَرَدُّه إلى الفهم الخاطئ لهذا الركن العظيم من أركان الدين، ونقول لهم أيضًا: إنه من غير الممكن أن يكون حال المسلمين حاكمًا على الإسلام نفسه، وإذا أراد هؤلاء أن يحاكموا الإسلام بالنظر إلى حال معتنقيه فليحاكموه بحال معتنقيه الأوائل من

---

١. المِغْفَر: ما يلبسه المقاتل على رأسه في الحرب لحمايتها من الطَّعنات، وهو مصنوع من حديد وما شابهه.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٥١٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل (٧٣١)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢١٤٣).

٤. التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٤٦ وما بعدها.

الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وكيف أنهم في فترة وجيزة فتحوا جزيرة العرب، وخضعت لهم مملكتا فارس والروم، وشمال إفريقيا، فلو كان الإيمان بالقَدَر سر تخلف المسلمين لما وصلوا في العهد الأول ـ وكانوا مؤمنين بالقدر ـ إلى ما وصلوا إليه من تقدم وازدهار؛ فبعدما كانوا رعاة للغنم صاروا قادة للأمم، ولو قعد بهم عن العمل ما وجدنا هذه الثمار العظيمة لعقيدة الإيمان بالقدر، ومن هذه الثمار على سبيل المثال لا الحصر:

- جعل قلب المؤمن معلقًا بالله الذي يدفع عنه كل سوء ويوفقه لكل خير.
- معالجة أمراض المجتمع الناشئة عن عدم الرضا بقضاء الله وقدره؛ كالحسد، والحقد، فإذا علم العبد بأن الله هو المعطِي وهو المانع، وهو الرازق فسيقنع بما رزقه، ولو علم أن ما كُتِبَ له سيأتيه شعر بالاطمئنان والسكينة والرضا.
- بعث الشجاعة والإقدام والثبات في النفوس في ساحات القتال.
- تحرر العبد من الخوف إلا من الله ﷻ، فلا يُرهبه ظلم ظالم ولا تجبُّر جبَّار.
- كان هذا الاعتقاد إذن مبعث حضارة وتقدم وازدهار وقيادة للعالم في كل الميادين.

رابعًا. عقيدة الإيمان بالقدر لها مفهومها وحدودها في الإسلام:

الإيمان بالقدر: هو الإيمان بتقدم علم الله ﷻ بما يكون، وبما كان، وبما سيكون من أعمال المخلوقات، وصدور جميعها عن تقدير منه وخَلْق لها، خَيْرِها وشَرِّها، فقال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الحج)، وقال ﷻ: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الفرقان).

والقدر هو تقدير الله ﷻ للأشياء، وقد كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة"[1]. فالقدر علم علمه الله ﷻ وكتابة كتبها، ثم شاء ذلك، ولا بد أن تقع مشيئته تلك فينا، فيجب أن نتسابق ونحرص على طاعة الله، ونجتهد في الطريق إلى مرضاته، وإلى جنته ﷻ؛ لكي نكون من أهل السعادة الميَسَّرون لها.

إن مشكلة القدر هي مشكلة الإنسان أينما حل، ومتى حل، وليست مشكلة فرد بعينه، أو أمة بعينها، لذلك وجدناها في كل الأمم والثقافات والديانات، ووجدنا الجبرية الخالصة في جميع الديانات والثقافات، حتى في بعض الفلسفات الحديثة؛ كالماركسية باسم "الحتمية"، أكثر مما في الإسلام، ولم تجد مشكلة القدر حلًّا أمثل وأعدل مما وجدته في الإسلام.

مفهوم القضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، وعن مفهوم القضاء والقدر وموقف المسلمين من هذا الركن يحدثنا المفكر الأستاذ

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٦٩١٩).

محمد قطب فيقول: الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيسي من عقيدة المسلم، كما بينها حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره"[1]. وهو من مميزات هذه الأمة في تاريخها الطويل، ولكنه كان في حِسِّ الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بنَّاءة محرِّكة، بقدر ما صار في حس الأجيال المتأخرة منها قوة سلبية هَدَّامة مخذلة، حين انحرف مفهوم القضاء والقدر في حسها عن صورته الصحيحة التي عاشت بها الأجيال الأولى، وبَنَت وعَمَّرَت وتحرَّكت. والصورة الظاهرة واحدة في الحالين، ولكن شتان ما بين هذه وتلك في حقيقة الأمر.

إن ألفاظ الشهادة التي كانت تنطقها الأجيال الأولى من المسلمين هي ذات الألفاظ التي جرت على لسان الأجيال المتأخرة: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله"، ولكن الأجيال الأولى كانت تهز بها الأرض كلها وتحركها؛ لأنها كانت تعمل في واقع الأرض برصيدها الكامل وشحنتها الكاملة، والأجيال الأخيرة لم تعد تصنع شيئًا في الأرض، بل لم تعد تستطيع حتى أن تحافظ على الوجود الإسلامي أمام الغزو العسكري، والسياسي، والاقتصادي، وأمام الغزو الفكري، الذي هو أخطر غزوٍ؛ لأنها صارت كلمة بغير شحنة ولا رصيد!

وكذلك عقيدة القضاء والقدر.. صورتها الظاهرة هي الإيمان بأن كل ما يحدث في هذا الكون وفي حياة الإنسان يتم بقضاء من الله وقدر، وأنه لا يحدث في هذا الكون العريض كله، ولا في حياة الإنسان إلا ما قدره الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ (القمر)، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ (الحديد)، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ (التوبة). وقوله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾ (التغابن)، ولكن الفارق الضخم في حقيقة هذه العقيدة بين الأجيال الأولى، والأجيال المتأخرة هو الفارق بين التوكل على الله، كما مارسته الأجيال الأولى، والتواكل الذي حدث في عصر الانحسار، ثم عصر الانحدار، وهو فارق لا يقل ضخامة عن فارق لا إله إلا الله، وفارق الصلاة، وسائر العبادات، ما بين هذه الأجيال وتلك الأجيال!

كان المسلم الأول يؤمن بأن كل ما يحدث له أو يحدث في الكون هو بقضاء الله وقدره، وأن شيئًا لن يغير ما قدره الله منذ الأزل في اللوح المحفوظ، ثم كانت نتيجة إيمانه بذلك أن يقول لنفسه: أإذا ذهبت إلى ميدان القتال، أُقْتَل بسبب ذهابي إلى هناك، أم أنه يجري عليَّ ما قدره الله لي؟ فإن كان كتب لي الشهادة فسأُقْتل بقضاء الله وقدره، وإن كان كتب لي العودة فسأعود! ثم إنني إن كان الله قد كتب عليَّ الموت فسأموت، ولو كنت في مكاني هذا، ولم أذهب إلى القتال؛ فيمضي إلى القتال بنفسٍ شجاعة، فيستبسل، فُيمضي الله قدره في الأرض،

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾ (الروم) (٤٤٩٩)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة (١٠٢)، وفي مواضع أخرى، واللفظ له.

وينصر به هذا الدين، ويمكِّن له، ثم يكون من أمره ما قدره الله تعالى له، إما الشهادة وإما النصر ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ (التوبة: ٥٢).

ولما اضطربت نفوس المنافقين وضعاف الإيمان بعد هزيمة أُحُد نزلت بينات تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها، وترسِّخها في نفوس المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران).

لذلك كان المسلم الأول يفعل وهو يكشف مجاهيل الأرض؛ لنشر الدعوة ولطلب العلم وللسعي وراء الرزق، ويمشي في مناكب الأرض ويتعرض للأخطار والمشقات، كانت القاعدة في حسِّه أن أُقْدِم وأتوكل على الله. كيف تحول هذا الإقدام إلى تقاعس وقعود في انتظار ما قدره الله؟! كذلك كان في حس المسلم الأول أن إيمانه بالقضاء والقدر لا ينفي بحال مسئوليته عن عمله حين يرتكب خطأ يعرضه للجزاء. وفي غزوة أُحُد كان الدرس هائلًا عميقًا في نفوس المؤمنين، وذلك حين خالف الرُّماة أمر قائدهم ورسولهم ﷺ، فنزل القرآن الكريم بعتاب شديد لهم على ما فعلوا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ (آل عمران).

إنه من عند أنفسكم، وفي ذات الوقت هو بإذن الله:

المسئولية عن الخطأ قائمة، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم، لا يتعارضان، ولقد كان هذا من أعظم ما تعلمته هذه الأمة، ومن أعظم ما تميزت به إزالة التعارض بين إيمان الإنسان بمسئوليته عن عمله، وإيمانه بقضاء الله وقدره، وإقراره الأمرين معًا في القلب البشري ليتوازن بينهما بقدر الله والتطلع إليه في الكبيرة والصغيرة، كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب. كيف تحَوَّل هذا التوازن البديع إلى تنصل من كل مسئولية بدعوى الإيمان بقضاء الله وقدره؟

لقد استقرَّ في حِسِّ الأمة الأولى، أن إيمانها بالقضاء والقدر لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب، لقد كانوا يدركون من جانب أن لله سننًا في هذا الكون، وفي حياة البشر غير قابلة للتغيير، ومع أن لله ﷻ سنة خارقة تملك أن تصنع كل شيء ولا يعجزها ولا يقيدها شيء؛ لأن مشيئته طليقة من كل قيد، إلا أنه جلَّت قدرته قد قضى بأن تكون سننه الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سننه الخارقة استثناءً لها، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله تعالى.

لذلك استقرَّ في حِسِّهم أنه لا بد من مجاراة السنن الجارية، إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم، أي أنه لا بد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السُّنَن الجارية، وبيَّن الله لهم ذلك بيانًا صريحًا في كتابه المنزل، فلقد قدَّر الله لدينه أن

ينتصر، ويُمكّن له في الأرض، وقدّر لكيد الكفار أن يُحبط: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الصف)، ومع ذلك فلا بد من اتخاذ الأسباب: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (محمد). فلا بد من اتخاذ الأسباب للنصر، وإن كان النصر قدرًا مقدورًا من عند الله، ولأجل ألّا تُترك هذه الأمة لتفتن بالأسباب وتظنها مؤدية إلى النتائج بمعزل عن قدر الله، كما تصنع الجاهلية المعاصرة.

لقد كان درس حُنين لتثبيت هذا المعنى في نفوس المؤمنين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التوبة)، وكان هذا كذلك من أبدع ما تعلمته هذه الأمة وتربت عليه لتتوازن في مسيرتها الأرضية بين التواكل بغير اتخاذ الأسباب وبين الاتكال على الأسباب، كيف تحول هذا التوازن الرائع إلى سلبية كاملة، وقعود عن اتخاذ الأسباب بدعوى الاتكال على الله؟!

ثم إنه لم يكن في حس الأمة الأولى أيُّ تعارض بين التسليم لقدر الله والعمل على تغيير الواقع السيئ حين يكون، وذلك حين يوجد واقع سيئ في حياة الناس، فهو واقع بقضاء الله وقدره، سواء بسبب من عند الناس كما حدث للمؤمنين في أُحُد بسبب مخالفتهم لرسول الله ﷺ أم لأمر لا مسئولية لهم فيه، كما كان الحال في طاعون عَمْواس أيام الخليفة عمر بن الخطاب، ولم تكن أسباب الطاعون معروفة يومئذ ولا وسائل علاجه، فلا مسئولية على أحد في ذلك الحين أم كان ابتلاء من عند الله تعالى؛ ليمحصهم، كما يحدث في فترات الابتلاء التي تجري بسنة من سنن الله تعالى! ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

هذا وغيره مما يصيب الناس في الأرض يحدث كله بقضاء الله وقدره، ولكن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدره، بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذي هم فيه، إنما أمرهم بالتسليم (أو الاستسلام) لقدره بمعنى الرضا بما وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه. أما القعود عنده، وعدم تغييره، أو محاولة تغييره فأمر آخر، لم يأمر الله به، ولا حث عليه، ولا علاقة له بالرضا بما وقع على أنه قدرٌ محتوم من عند الله تعالى.

ولنأخذ النماذج التي أشرنا إليها على سبيل المثال: فحين وقعت هزيمة أُحُد، بسبب من عند المؤمنين، وبقدر من عند الله في الوقت ذاته يقول ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران)، طلب الله من المؤمنين أن يسلِّموا لهذا القدر المقدور: ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ (آل عمران)، ولكن هل طلب منهم أن يستسلموا للهزيمة

ويقعدوا. ولا يحاولوا تغيير الموقف السيئ الذي وجدوا أنفسهم فيه، بحجة أنه قدر مقدور لم يكونوا ليفلتوا منه مهما حاولوا؟! كلا، إن الرسول ﷺ القائد والصاحب والمربي، تصرف في ذلك الموقف تصرفًا يدل على اتجاه مغاير تمامًا لهذا الظن؛ فقد جمع المسلمين ـ بجراحاتهم ـ للقاء العدو مرة أخرى والهزيمة لما تنته آثارها من الأجساد ولا من النفوس! وامتدح الله موقف المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول ﷺ من بعد ما أصابهم القرح: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (آل عمران).

فهؤلاء هم الذين هُزموا بقدر من الله وإن كان بسبب من عند أنفسهم في الوقت ذاته، يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فهم يتوكلون على الله ليخرجوا من الواقع السيئ إلى واقع جديد! ولا يمنعهم قدر الله السابق من التطلع إلى قدر جديد! وإذا كان قدر الله الأول قد أصابهم بخطأ ارتكبوه؛ فهم يتطلعون إلى قدر الله الآخر بعمل يقدمونه بين يدي ذلك التطلع، وهو الاستجابة لله والرسول، أي بسلوك صحيح بعد السلوك الذي وقعت فيه الأخطاء. وهو اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله، وهكذا لم يتعارض في حسهم التسليم بقدر الله الواقع مع العمل على التغيير.

وفي طاعون عَمْواس علم الخليفة عمر رضي الله عنه بخبر الطاعون، فأمر الجند بالانصراف، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: "أفِرَارًا من قدر الله"؟! قال: "نعم، نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله"[1]! وهي عبارة بليغة تدل على عمق فهم الخليفة رضي الله عنه لقضية القضاء والقدر؛ إن الطاعون قدر واقع على الناس بالفعل، ولكنه لم يقع بعد على عمر وجيشه. فالعمل على تلافيه أمر واجب، وهو يتم ـ حين يتم ـ بقدر من الله كذلك. فقدر الله بالطاعون لا يمنع قدر الله بالنجاة من الطاعون! ولقد اتخذ عمر الأسباب التي ظنها مؤدية إلى النجاة. فتمت النجاة بقدر من الله.

كان الابتلاء الذي أصاب المؤمنين على يد قريش ـ وهو سنة من سنن الله لم تتخلف مع أية جماعة من المؤمنين تواجه الجاهلية في بدء الدعوة قبل التمكين ـ واقعًا بقدر من الله، ولحكمة كذلك يعلمها الله تبارك وتعالى ويريدها: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت).

فهل منع ذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين من محاولة التغيير؟ بطلب الجوار من بعض المشركين حينًا، وبالهجرة إلى الحبشة حينًا، حتى جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة آخر الأمر؟ كلا! إن وقوع الابتلاء بقدر من الله، وبمقتضى سنة من سننه الحتمية، لا يمنع الاجتهاد في تحاشي الابتلاء أو التخلص منه، وحين يتم شيء من ذلك فإنه يتم بقدر من الله، وحين يحقق الجهد فسيكون ذلك أيضًا بقدر من الله!

لذلك لم يتعارض في حِسِّ الأمة الأولى واجب

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٣٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٥٩١٥).

التسليم لقدر الله مع محاولة التغيير تطلعًا إلى قدر جديد من عند الله، وكان هذا من روائع ما تربَّت عليه الأمة لتتوازن به بين سلبية الاستسلام التي تحطم الإرادة، وبين الرغبة التي لا تعرف التسليم.

إن عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة تمثل نقط توازن هائلة ورائعة في حس الإنسان المسلم الذي يُسَيِّر حياته بمقتضى هذه العقيدة؛ ففضلًا عن كونها حقيقة متعلقة بذات الله ﷻ وبأسمائه وصفاته وأفعاله، فهي على ذلك من أصل العقيدة، ومن جوهر لا إله إلا الله؛ لأن أي تصور بأنه يمكن أن يقع في ملك الله شيء لم يقَدِّره هو شرك لا شك فيه.

فضلًا عن ذلك فإنها عقيدة ذات مقتضى ضخم جدًّا في حياة الإنسان المؤمن، إنها نقطة توازن بين اتجاهات شتى يتعرض لها الإنسان حين لا ينضبط سلوكه وفكره، وتصوره بالمنهج الرباني الصحيح، فشعور الإنسان بعظمة الله التي لا تحدها حدود، وهيمنته ﷻ على كل شيء، وجريان الأمر كله بمشيئته، عُرْضة أن ينتهي به إلى سلبية منحسرة لا تعمل شيئًا ولا تتطلع إلى إنجاز أي شيء! وشعور الإنسان بذاتيته، ومقدرته علي العمل والتصرف، ورؤيته لإنتاجه الذي ينتجه بفكره وجسمه عُرْضَة أن ينتهي بالإنسان إلى التأله والجحود والطغيان؛ إعجابًا منه بإيجابيته وفاعليته!

ومن ناحية أخرى، فإن شعور الإنسان بعظمة الله وهيمنته، وجريان الأمر كله بمشيئته، عرضة أن ينتهي به إلى نسيان الأسباب جملة، ونسيان السنن الربانية الجارية التي أودعها الله في بنية الكون وفي حياة الإنسان. تطلعًا إلى تلك المشيئة التي لا يحدُّها حدٌّ، ولا يقيدها قيد!

كما أن شعور الإنسان بانتظام السنن التي يجري بها الكون وتجري بها حياة الناس، عرضة أن ينتهي به إلى نسيان قدر الله جملة، أو إغفاله، والتعلق بالأسباب على أنها قوانين حتمية لا بد أن يؤدي السبب فيها حتمًا إلى النتيجة.

ومن ناحية ثالثة، فإن شعور الإنسان بجريان الأمر كله بمشيئة الله، عَمِلَ هو أم لم يعمل، وأراد أم لم يرد، عرضة أن ينتهي به إلى ترك العمل جملة؛ يأسًا من أن يؤثر عمله في مجرى الأحداث أو ضنًّا بجهد لا يوصِل - بذاته - إلى نتيجة!

كما أن شعور الإنسان بتأثير عمله في مجرى الأحداث، وبأن الأحداث مترتبة على مقدار ما يعمل ونوع ما يعمل. عرضة أن ينتهي به إلى الفتنة بعمله، والظن أنه هو الذي يصنع قدره بنفسه، ويتحكم فيه كما يشاء! وإذا كانت الهِنْدُوكيَّة[1] والرَّهبانيَّة[2]، نموذجًا للنوع الأول من الانحراف: السلبية، ونسيان الأسباب جملة، والزهد في العمل والإنتاج. فإن الجاهلية المعاصرة عنوان حاد على النوع الثاني من الانحراف، شعور الإنسان المتضخم بذاتيته، وفتنته بالأسباب. وفتنته بعمله، وتوهمه أنه يصنع قَدَره بنفسه.

لقد بدأت أوربا نهضتها على عداء مع الكنيسة والدين، أي أنها في الحقيقة خرجت من جاهلية المسيحية الكنسية المحرفة إلى الجاهلية المعاصرة التي

1. الهِنْدُوكيَّة أو الهندوسيَّة: مذهب ديني في الهند.
2. الرَّهْبانيَّة: تقشُّف وتخلٍّ عن أشغال الدنيا وتَرْك ملاذها، والزُّهْد فيها، والعُزْلة عن أهلها، والاستغراق في العبادة.

بلغت ذروتها في القرن الأخير، كان الإنسان مسحوقًا في جاهلية القرون الوسطى المظلمة عندهم، تحت ضغوط كثيرة متنوعة، منها ضغط الكنيسة بطغيانها الروحي، والفكري، والمالي، والسياسي. ومنها ضغط الإقطاع بطغيانه السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي. ومنها الجهالة المتفشية، وضحالة التصورات، وضيق الآفاق، وتفاهة الاهتمامات.

ثم انفتحت أوربا على علوم المسلمين من ناحية، واحتكت بهم في حروبها الصليبية معهم من ناحية أخرى، فتغير الحال، وبدأ الإنسان هناك يحس بوجوده، ولكن على غير استقامة الإسلام وانضباطه، فقد أخذوا من المسلمين علومهم وأسس حضارتهم المادية، ولكنهم رفضوا أن يأخذوا الإسلام، ومن ثم انقلبوا من النقيض إلى النقيض دون التوقف عند نقطة الوسط الموزون، فعلى قدر انسحاق الوجود الإنساني في جاهلية العصور الوسطى كان شعور الإنسان بذاتيته في الجاهلية المعاصرة، وعلى قدر الجهل بالأسباب عامة، وُجِدت فتنة بالأسباب، وعلى قدر تفاهة العمل، وتفاهة آثاره في الحياة الواقعة، وُجِدت فتنة بالعمل، وفتنة بآثاره في حياة الناس.

وجاء التقدم العلمي والمادي الذي وُلِد مع النهضة والذي استمدت أوربا أصوله من المسلمين، فنفخ في هذه الفتنة الطامة، وخُيِّل للناس في جاهليتهم المعاصرة أن العلم هو الإله، وهو الْقَدَر وهو الذي ينشئ كل شيء، ويحكم كل شيء، والأوربي الجاهلي المعاصر قد نبذ الدِّين بكل مضمونه وإيحاءاته، ولم يعد لله صلة في حسه بحياته الواقعة على الأرض، إنما صار في حسه أنه ـ الإنسان ـ هو الذي يصوغ حياته كما يحلو له، وهو الذي يكتب قَدَره بنفسه، وهو الذي يصنع التاريخ ويصنع الأحداث[1].

وإلى جانب فتنته بنفسه إلى هذا الحد كانت فتنته في الوقت ذاته بالأسباب الظاهرة، فلقد قال له العلم: إن هناك قوانين حتمية سموها في أوربا "قوانين الطبيعة"؛ لأنهم ـ وقد نبذوا إله الكنيسة ـ رفضوا أن ينسبوا السنن الكونية إلى الله، ونسبوها إلى إله جديد، لا كنيسة له ولا تكاليف، سموه "الطبيعة" ونسبوا إليه الخلق والتدبير.

وما دامت القوانين في حسهم حتمية؛ فلا مجال للقدر إذن في تصورهم! فماذا يصنع القدر إذا كان لا يملك أن يغير ما هو حتمي الوقوع؟! ونسوا ـ في غفلتهم ـ أن ثبات السنن الجارية في الكون هو ذاته قدر مقدر من عند الله الخالق يوم خلق سبحانه السماوات والأرض! ونفوا من حسهم ـ في غفلتهم كذلك ـ إمكان تغيير هذه السنن بإرادة الله من حين يشاء؛ فنفوا المعجزات والخوارق من جهة، ونفوا إمكان تغير نظام الكون كله حين يشاء الله من جهة أخرى!

ثم بدا لهم حين اتسع علمهم ـ أو اتسعت غفلتهم ـ أن الحياة البشرية ـ بل النفس البشرية ـ تحكمها قوانين حتمية كتلك التي تحكم الكون المادي، وسرت هذه الحتمية في التفسير المادي للتاريخ عند الماركسيين،

---

١. صدر ذات يوم كتاب أوربي باللغة الإنجليزية عنوانه "الإنسان يصنع نفسه" Man makes Hemself، وكتاب آخر بعنوان "الإنسان يقوم وحده" Man Stands alone أي: بدون إله!

والتفسير الجثماني للمشاعر عند التَّجريبيِّين[1]، والتفسير الجنسي للسلوك البشري عند فرويد، وفي كثير من النظريات الاجتماعية والاقتصادية، وكلها تضع الإنسان تحت رحمة هذه الحتميات.. بل تحت طغيانها الجائر.

ثم أغفلوا ـ في عناد جاهلي ـ كل فترات الهدى في حياة البشرية، التي كانت كلها بقدر من الله، ولم تكن حتمية بأي تفسير من تلك التفسيرات الجاهلية التي تحاول أن تفسر الحياة، والتاريخ بمعزل عن قدر الله، كما أغفلوا ـ عن عمد ـ كل أثر لفترات الهداية تلك في حياة البشرية، وخاصة فترة الهداية الكبرى على يد الإسلام!

ومن الجانب الآخر وجدت ـ كما أشرنا من قبل ـ جاهليات كثيرة في التاريخ تمثل الانحراف الآخر: انحراف السلبية والانكماش والتقوقع، انتظارًا لما تصنعه الآلهة، وما تُحدثه في حياة الأفراد والجماعات من أقدار، كان ذلك في البوذية، والهندوكية، والرهبانية، ألوان من تلك السلبية والقعود وعدم إيمان الإنسان بنفسه على أنه قوة فاعلة في الأرض، أو أن لعمله أثرًا في الحياة كلها، تطلعت إلى "فناء الإنسان" سواء كان الفناء في "الكائن الأعظم" الذي يمثل الإله في حسهم، أو في تناسخ الأرواح المؤدي في النهاية إلى الفناء الأكبر في ذلك الكائن الأعظم، أو فناء الجسد بكبته وقمعه لتنطلق الروح من إساره، أو فناء السلبية في داخل الدير، أو أي نوع من أنواع الفناء! وليس بعيدًا عن ذلك مسعى الصُّوفيَّة[2] إلى الفناء في الذات الإلهية ليحدث من ذلك الوجود!

والطابع الغالب على هذه الانحرافات كلها هو الأسى والكآبة والانحسار إلى داخل النفس، بقدر ما كان الطابع الغالب على الانحراف الآخر هو المرح المجنون، والبحث عن لذائذ الحس، والبعد عن إصلاح النفس من الداخل، والانطلاق إلى خارج الذات.

بين هذين الطرفين المتناقضين تجيء عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة في الإسلام، تقرر هيمنة الله الشاملة على كل ما يجري في الكون، وفي حياة الإنسان. ولا تلغي في الوقت ذاته فاعلية الإنسان، ولا تلغي العمل، ولا تلغي اتخاذ الأسباب، في توازن كامل ينتهي بالمسلم إلى أن يؤمن بأن كل ما يحدث في الكون وفي حياته هو قدر مقدور عند الله من قبل أن يحدث ذلك بالفعل في الواقع البشري: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ (الحديد).

وفي الوقت ذاته يؤمن بأن عليه أن يعمل، وأن يتخذ الأسباب، ويؤمن كذلك بأن ما يجري من المقادير في الأرض مرتبط بالأسباب التي يتخذها " أو يدعها " وبنوع العمل الذي يقوم به: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ (الروم: ٤١)، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ﴿وَإِذَآ

١. التَّجريبيِّين: أتباع المذهب التجريبي، مذهب من يُقيم المعرفة على ما تدركه الحواس وحدها، وينكر وجود مبادئ فِطْرِيَّة في النفس وقوانين صادرة عن العقل، ويقابل المذهب العقلي.

٢. الصُّوفيَّة: جماعة من المتزهِّدين السالكين طريقة تعتمد على الزهد والتَّقشُّف والتحلِّي بالفضائل؛ لتزكو النفس وتتمكن من الاتصال بالله تعالى.

أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾(الإسراء)، ومن ثم يحس بوجوده الذاتي، ويعمل، ويتخذ الأسباب، دون أن يفتن بنفسه ولا بعمله ودون أن يفتن بالأسباب، وفي الوقت ذاته يؤمن بأن كل ما يحدث له مقدر من عند الله، دون أن يقعده ذلك عن الإيجابية والعمل واتخاذ الأسباب.

وحين يبدو هذا في حِسِّ الناس تناقضًا، فإنه يُحْدِث في حس المؤمن توازنًا جميلًا يعينه على القيام بدور الخلافة الراشدة في الأرض، ويجعله يعمل في الأرض وقلبه متطلع إلى الله في السماء، إنه يتخذ الأسباب عبادة لله، وانطلاقًا مع سنة الله الجارية، ويحس في الوقت ذاته أن النتيجة التي وصل إليها هي قَدَرٌ قدَّره الله، وليست حصيلة أسبابه التي اتخذها، وأن الأسباب لا تؤدي بذاتها أداء حتميًا إلى النتيجة، إنما تؤدي إلى النتيجة، بقدر من الله، ولو شاء الله ألا يُوصِل السبب إلى النتيجة فإن الذي ينفذ بالفعل هو إرادة الله وليس حتمية الأسباب!

وهذا هو الفارق الأصيل بين المسلم وبين نظيره من الجاهليين من هنا ومن هناك، أحدهما يقعد عن العمل ولا يحس بقيمة وجوده الإنساني. والثاني يعمل مفتونًا بالأسباب كأنها في حسه أرباب! إن المسلم الحق لا يغفل عن عِظَمِ دوره في الأرض؛ لأن قدر الله قد شاء أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض. وأن يسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأن يكرمه ويفضله على كثير ممن خلق، وأن يجعله ستارًا لقدره في الأرض، وهو لا يقل اتخاذًا للأسباب، ولا إدراكًا لقانون السبب والنتيجة عن أشد البشر اتخاذًا للأسباب، ولكنها في حسه ليست حتمية، وليست نهائية ما لم يقررها قدر من عند الله.

والأوربي المعاصر ينظر بسذاجة إلى العقلية الإسلامية، فيقول: إنها عقلية غيبية لا تؤمن بقانون السببية. وهو في قولته هذه يكشف عن جهله بأمر لا يستطيع حسه الضيق أن يلمَّ به، فالعقلية الإسلامية ـ الصحيحة ـ غيبية؛ لأنها تؤمن بالغيب، وتؤمن بقدر الله، ولكنها في الوقت ذاته عقلية علمية أصيلة، بدليل أنها هي التي اهتدت إلى المنهج التجريبي في البحث العلمي، وأهدته إلى أوربا، وهو منهج قائم كله على الملاحظة والتجربة وعلاقة السبب بالنتيجة! ولكنها ـ وهي تتعامل مع سنة الله الجارية ـ لا تغلق قلبها عن مشيئة الله الطليقة التي لا يحدها قيد على الإطلاق[1].

ومزية هذه العقلية العلمية الغيبية في آن واحد، أنها لا تُفَاجَأ حين تجد نتيجة لا تفسرها الأسباب العقلية؛ لأنها تعلم أنها تمت بقدر من الله. ولا يصيبها ما أصاب هتلر، حين اتخذ كل الأسباب التي كان في طوق بشر أن يتخذها، فلما خاب مسعاه انتحر، ولم يطق النتيجة التي قدرها الله من وراء كل الأسباب! هذه العقيدة الرائعة التي أنشأت في حياة الأجيال الأولى من هذه الأمة ما

---

١. من عجائب الجاهلية المعاصرة التي تعجز أو تزعم أنها تعجز عن فهم عقيدة القضاء والقدر في وضعها الصحيح عند المسلمين ـ أنها هي ذاتها واقعة في تناقض بين إيمانها بفاعلية الإنسان وإيجابيته، وإيمانها بالحتميات التي لا تجعل للإنسان وجودًا حقيقيًا ولا إرادة. وهي إما أن تكون غير فاطنة إلى وجود هذا التناقض، وإما أنها لا ترى مانعًا من وجوده! بينما تشير هذه الجاهلية إلى وجود التناقض في عقيدة المسلم! والأمر في حقيقته في حس المسلم توازن مريح، يجعله يبدع ما يبدع في الأرض وهو مطمئن إلى قدر الله.

أنشأت من منجزات تشبه المعجزات. ماذا أصابها خلال القرون، فانحدرت إلى مثل ما انحدرت إليه البوذية والهندوكية والرهبانية؟ كيف صارت إلى تقاعس وقعود وتَنَصُّل من المسئولية وانصراف عن التغيير، أدى كله في النهاية إلى هذا الضعف الفكري والعلمي والمادي، وهذا التخلف الحضاري الذي اجتذب قوى الشر من كل صوب تحاول اقتلاع جذور الإسلام من الأرض، وتندد بواقع المسلمين السيِّء؛ لتنفر من الإسلام ذاته، بزعم أن هذا الواقع هو الإسلام؟!

إن شكل العقيدة كما قلنا لم يتغير، ولكن جوهرها تغير تغيرًا هائلًا بكل تأكيد؛ لقد أصابه ما أصاب "لا إله إلا الله"، وبقية العبادات. أُفْرِغ من محتواه الحقيقي، وأصبح صورة بلا رصيد.

وفي أثناء ذلك كانت عقيدة القضاء والقدر قد تحولت إلى مباحث كلامية الفِرَق من حولها، ولم تعد منهجًا للتربية الإسلامية، بل قضايا فلسفية يجهد الذهن في إيجاد حلول لها، والأمة لا تربي، ولا يلتفت أحد إلى القيمة التربوية الهائلة لعقيدة القضاء والقدر في صورتها الإسلامية الصحيحة! على نفس النحو الذي تحولت به عقيدة التوحيد إلى مباحث كلامية ذهنية تجريدية باردة، لا تحرك الوجدان الديني، ولا تؤدي إلى سلوك عملي، وتزرع في القلب الشبهات أكثر مما ترسخ الإيمان! ويتناولها الدارسون على أنها العقيدة، فينعزل الدارسون عن واقع الناس الحي، وعن مقتضيات الدعوة ومقتضيات التربية، ويدورون مع الكلام حيث دار!

ثم يجيء طور على "المسلمين المعاصرين" ينسلخون فيه من عقيدة القضاء والقدر، كما انسلخ سادتهم الأوربيون من قبل، ويقولون: نريد أن نترك العقلية الغيبية التي كانت سبب تأخرنا، وتكون لنا عقلية علمية تقدمية! إن القضاء والقدر لا وجود له إلا حيث توجد الفوضى والجهل والانحطاط والتأخر، أما حيث يوجد النظام والعلم والتقدم والتخطيط العلمي والعقول الإلكترونية، فأنَّى للقدر أن يتدخل، وكل شيء محسوب له ألف حساب؟!

ويغفل هؤلاء عن معنى قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأنعام)، بل يغفلون عما هو أقرب إلى المشاهدة الحسية من ذلك الغيب الذي يوشك أن يتحقق، يغفلون عن الأمراض التي تفاجئ أولئك الحاسبين المخططين الذين يحسبون أنهم أغلقوا بحساباتهم كل فرصة لقدر الله أن ينفذ إلى واقع الأمور! أمراض من كل نوع: نفسية، وعصبية، وعقلية، وجثمانية، وأخلاقية، واجتماعية، وفكرية، وسياسية، واقتصادية... إلخ، كلها لم تكن في الحسبان!

هل كانت أمراض الحَسَّاسِيَّة[1] في الحُسْبان؟ هل كان مرض نَقْص المناعة[2] ـ الإيدز ـ في الحسبان؟

١. الحَسَّاسِيَّة: شدة تأثر جسم الإنسان بمواد معينة؛ مثل الغبار، أو بعض الأطعمة، وعادة ما تسبب العَطْس والحِكَّة والطَّفْح الجِلْدي.

٢. نقص المناعة أو الإيدز: فيروس مُعْدٍ ينتقل بالتواصل الجنسي أو بواسطة خلايا وإفرازات عضوية؛ كالدم واللُّعاب، فيسبب خَلَلًا في نظام المناعة في الجسد، ويتعرض المصاب لالتهابات حادَّة وغريبة تؤدي إلى موته.

هل كان جنوح الأحداث الإجرامية في الحسبان؟

هل كان انتشار الشُّذوذ[1] والمخدرات في غرب أوربا وأمريكا في الحسبان؟

وكل هذه ـ وغيرها ـ بوادر لغيب يوشك أن يتحقق بقدر من الله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ (الأنعام).

والمسلمون اليوم في حاجة إلى تصحيح مفهوم القضاء والقدر الذي اختل في حِسِّهم خلال القرون، فلا هو بالسلبية التي غشت القرون الأخيرة، ولا هو الفتنة بالأسباب التي توشك أن تعم العالم الإسلامي اليوم مع الغزو الفكري القادم من جاهلية الغرب، يحتاج المسلمون إلى إعادة ذلك التوازن البديع الذي تمثله تلك العقيدة في صورتها الصحيحة في حياة الإنسان، ويحتاجون أن يكفوا عن دراستها في صورة مذاهب كلامية يحشون بها رءوس طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية؛ لتصبح جزءًا من منهج التربية الإسلامية، الذي يهدف إلى إخراج "الإنسان الصالح" الذي يحقق المنهج الرباني في واقع الأرض، والذي ينفذ الله به قدره: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ (الفتح)[2].

خامسًا. الإيمان بالقدر والعمل به يتفق مع العدل الإلهي:

قول مثيري هذه الشبهة: إنَّ العدل الإلهي يتنافى مع محاسبة العباد على أفعالهم؛ لأنهم مُجْبَرون. ـ خطأ بَيِّن، فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحدًا، وقالوا: إن العبد في أفعاله غير مختار، فعدُّوا العقاب على ذلك ظلمًا؛ إذ لا معنى لأمر الشخص بأمر هو مضطر إلى مخالفته، ونهيه عن أمر هو مضطر إلى فعله.

نقول لهم: إن الله ﷻ قال: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩)، وقال ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ (فصلت)، ونقول: إن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته؛ كالأكل والشرب، والبيع والشراء، وبين ما يقع عليه بغير إرادته، كالحمى والارتعاش، والسقوط من السطح، فهو مختار في الأولى ومن عدل الله أنه سيحاسبه عليها، وفي الثانية غير مختار لذلك إذا وقعت يثيبه عليها متى صبر، قال ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلَّا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له"[3]. كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ (النجم)، وقال ﷻ: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ﴾ (النجم)، فعدل

١. الشّذوذ: الانحراف عن السلوك الجنسي الطبيعي، وهذا مما يحرمه الأسلام.

٢. مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٢٥٥ وما بعدها.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٧٦٩٢).

الله أن يحاسب الإنسان على عمله، والقرآن الكريم قد فرق بين الحسنات والسيئات، فقال ﷻ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الروم)، وقال: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (هود: ١٠١).

إن عدل الله وحكمته لا يحدُّها عقل الإنسان؛ فقد حكوا: أن رجلًا وابنه تحت نخلة في بستان، فقال الولد لأبيه: يا أبت انظر هذا التفاوت الذي نراه، أين عدل الله وحكمته في هذه النباتات، انظر إلى النَّبْتَة الصغيرة نبتة البطيخ، تثمر ثمرة كبيرة جدًّا، بينما النخلة على طولها وعظمها تنبت وتثمر هذه البلحة الصغيرة، ولا نسبة بينها وبين البطيخة، فكان من المعقول أن تثمر النخلة ثمرة عظيمة، كالبطيخة؛ لتناسب حجم النخلة، فقال الأب: يا بني، لعل لله حكمة لا نعرفها، ثم استلقى الفتي على ظهره ليستريح، وما أن غفلت عيناه حتى سقطت من أعلى النخلة تمرة، فأصابت وجهه وآلمته وصاح يصرخ، فقال له أبوه: احمد الله أنها لم تكن بطيخة[1]!

الخلاصة:

- إن الإيمان بالقدر لا ينفي كون الإنسان مختارًا قادرًا على العمل، بل يدفعه إلى الاختيار بين الخير والشر، وإلى العلم أنه سوف يُحاسَب على هذا الاختيار.
- ضل فريق في الكلام في باب القدر قائلين: إذا كان الله عالمًا بكل شيء نفعله، وعالمًا بمصيرنا إلى الجنة والنار وهو الخالق لأفعالنا، فلماذا يعذبنا؟ وهذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولًا كثيرة فاضطربت أحوالهم، ولو علموا أن الله خلق الفعل للعبد حسب إرادته ووفق هواه؛ لعلموا أن الله بعلمه الغيب يعلم أن العبد سوف يفعل ذلك فكتبه عليه.
- الفهم الصحيح للإيمان بالقضاء والقدر يدفع المسلم إلى العمل والاجتهاد، والكد وبذل ما في وسعه؛ لينال خيري الدنيا والآخرة مع حسن التوكل على الله، والأخذ بالأسباب والبعد عن التواكل والسلبية.
- الإيمان بعقيدة القضاء والقدر دفعت المسلمين الأوائل إلى العمل الدءوب والاجتهاد، فكان الأنبياء والصحابة خير مثال على التمسك بالأسباب والأخذ بها، والعمل والاجتهاد وعلى نهجهم سار الصحابة والتابعون، فقادوا الأمم بهذه العقيدة الصحيحة، كما أن الإيمان بالقدر لا يستلزم الرضا بالمعاصي.
- عقيدة القدر واحدة في وحي الله إلى جميع الأنبياء؛ لأن الله أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، وتَرْك المعاصي، ويبشرونهم بأن أهل الطاعة سوف يدخلون الجنة، وأهل المعاصي سوف يدخلون النار.
- من العدل ألا نقول إن تخلف المسلمين يعود إلى عقيدة القدر، وإنما يعود إلى الفهم الخاطئ لهذه العقيدة؛ وهذا يدل على أن المسلمين الأوائل لما فطنوا إلى مفهوم القدر الحقيقي قادوا العالم، ولما غفلنا نحن عن هذا المفهوم صرنا في مؤخرة الأمم تأخرًا وانحطاطًا.
- إن عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة تمثل نقط توازن هائلة ورائعة في حس الإنسان المسلم الذي يُسيِّر حياته بمقتضى هذه العقيدة، ففضلًا عن

١. مقال منشور بموقع د. يوسف القرضاوي.

كونها حقيقة متعلقة بذات الله ﷻ، وبأسمائه وصفاته وأفعاله، فهي على ذلك من أصل العقيدة، ومن جوهر لا إله إلا الله؛ لأن أي تصور بأنه يمكن أن يقع في ملك الله شيء لم يقدره هو شرك لا شك فيه، علاوة عن أن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تضبط سلوك وفكر المؤمن وتصوِّر له المنهج الرباني تصويرًا سليمًا.

- ليس ثمة أدنى تعارض أو تناقض بين الإيمان بالقضاء والقدر، والعدل الإلهي.

الشبهة الثالثة والعشرون

التشكيك في موقف الإسلام من الحريات(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض الطاعنين في موقف الإسلام من الحريات، ويدَّعون أنه يُهدِر حق الإنسان في حريته الفكرية والدينية، ويخضعه للنصوص الدينية، ويكرهه حتى يعتنق الدين، كما يزعمون أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام مبدأ ينافي الحرية الشخصية للإنسان.

وجوه إبطال الشبهة:

١) جاء الإسلام فأقرَّ مبدأ الحرية، وليس أدل على تعظيمه من شأن الحرية أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر.

(*) الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢) لا يعني إقرار الإسلام للحرية أنه أطلقها من كل قيد؛ لأنها بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى التي يثيرها الهوى والشهوة.

٣) لا ينظر الإسلام إلى الحرية على أنها شيء كماليٌّ ولا يعدُّها أمرًا مزاجيًّا خاضعًا للذوق والرغبة، بل أقامها على أصول ومرتكزات، واعتبرها جزءًا لا يتجزأ من مبادئه وقيمه.

٤) ما يقدمه بعضهم عن الغرب على صعيد الحرية الفكرية، والثقافية من صورة براقة، ليس إلا صورة زائفة قامت على أساس مادي بحت، وليس لها قيود دينية ولا حدود أخلاقية.

٥) مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظام من أجل صيانة الأمة، وحمايتها من إشاعة الفوضى والفساد والدمار.

التفصيل:

أولا. المفهوم الشامل للحرية في الإسلام وأنواعها:

الحرية غريزة فطرية ومفهوم رائع تلتقي عنده المشاعر، وتتطلع إليه النفوس، وهي ليست شيئًا ثانويًّا في حياة الإنسان، بل حاجة ملحة وضرورة من ضروراته باعتبارها تعبيرًا حقيقيًّا عن إرادته وترجمة صادقة لأفكاره؛ فبدون الحرية لا تتحقق الإرادة، وعدم تحقيقها يعني وَأْد جميع طموحات الإنسان، وتطلعاته، وهو ما لا ينسجم أبدًا والغايةَ من وجوده والدور المنوط به، والمسئولية التي تقع على عاتقه، وبدونها لا تتحقق ذاتية الإنسان وكرامته، وقدرته على تقرير مصيره، وبدونها أيضًا لا تتحقق سعادته.

لهذا عندما جاء الإسلام قرر مبدأ الحرية، فقال أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمته المشهورة في ذلك: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصية له: "لا تكن غيرك وقد خلقك الله حرًّا". فالأصل في الإنسان أن يكون حرًّا بحكم خلْق الله، وليس عبدًا.

وبعد أن قررَّ الإسلام الحرية أقرها، وعمل على ترسيخها في زمن كان الناس فيه مستعبدين: فكريًّا، وسياسيًّا، واجتماعيًّا، ودينيًّا، واقتصاديًّا؛ فأقر حرية الاعتقاد، وحرية الفكر، وحرية القول، والنقد، وتُعتبر هذه هي أهم الحريات التي يبحث عنها البشر، فالحرية تحت مظلَّة الإسلام حقٌّ من الحقوق الطبيعية للإنسان، ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لشأن الحرية أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر، الذي لا ينتظر الإيمان بوجوده بتأثير قوى خارجية، كالخوارق والمعجزات، وهذا ما قرره القرآن في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

إن العقيدة الإسلامية حين جاءت بنظرية الحرية لم تكن تجاري تطور الجماعة أو تُلبِّي رغباتها؛ لأن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن مُهيَّئًا لنظرية الحرية، وإنما قررت عقيدة الإسلام هذه النظرية؛ لترفع بها مستوى الجماعة وتدفعهم نحو التقدم والرقي، وتسمو بهم عن المواطن التي نزلت بهم فيها همجيتهم وأرداهم بها جهلهم، كذلك كان تقرير النظرية لازمًا لتكميل الشريعة الكاملة الدائمة.

وقد جاءت النصوص المقررة للحرية، والمبينة لحدودها نصوصًا عامة مرنة بحيث لا يمكن أن تحتاج إلى تعديل أو تبديل، وهذا يتفق مع الأساس الذي قامت عليه الشريعة، وهو عدم قابليتها للتعديل أو التبديل، ولا شك أن هذه النصوص من العموم والمرونة بحيث لا يمكن أن تضيق بأي حال مهما تغيَّرت الظروف والأمكنة وطال الزمن.

ولقد سبق الإسلام القوانين الوضعية في نظرية الحرية بأحد عشر قرنًا على الأقل؛ لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر، أما قبل ذلك، فلم تكن هذه القوانين تعترف بالحرية، بل كانت أقسى العقوبات تخصص للمفكرين ودعاة الإصلاح، ولمن يعتقد عقيدة تخالف العقيدة التي يعتنقها أولو الأمر.

هذا هو الواقع، وهذه هي حقائق التاريخ، فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الأكذوبة الكبرى التي تقول: إن الأوربيين هم أول من دعا إلى الحرية، فليعلم أنها نشأت من الجهل - أو التجاهل - بعقيدة الإسلام وتشريعاته[1]، لكن الحقيقة التي يجب التنويه عليها هي: أن الأوربيين ما عرفوا نظرية الحرية ولا الحياة الديمقراطية في الحكم والسياسة، إلا بعد الحروب الصليبية ومُكْثهم في الشرق الأوسط فترة طويلة من الزمن، اطلعوا فيها على الحياة الإسلامية، وقرءوا التراث الإسلامي الذي نقلوه معهم، وهو شاهد عليهم تزخر به مكتباتهم إلى اليوم.

لذلك فإن القائلين بأن عقيدة الإسلام مليئة بالقيود التي تمنع الإنسان من التمتع ببعض الحريات، كالحرية

---

١. التشريع الجنائي في الإسلام مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٣٧.

الفكرية والعقدية، ـ لا يبنون رأيهم على دراسة علمية أو حجج منطقية، فهم لم يدرسوا العقيدة الإسلامية وشرائعها، ولهذا فإنهم ليسوا أهلًا للحكم عليها؛ لأنهم يجهلون حقائق الإسلام ـ سواء معتقداته أو تشريعاته ـ ومن جهل شيئًا لا يصلح للحكم عليه.

والواقع أن هؤلاء الجاهلين بمعتقدات الإسلام المبنية على مدار العقول الصحيحة ـ يبنون آراءهم الخاطئة عنها على قياس خاطئ، وعلى دراسة غير منظمة؛ ذلك أنهم قاسوها على بعض العقائد الأخرى التي لا تسمح لأفرادها بالحرية في الاعتقاد والتفكير أو استخدام العقل خاصة في أمور الدين[1].

أنواع الحرية:

والحرية نوعان: نوع يتعلق **بحقوق الفرد المادية**، والآخر يتعلق **بحقوقه المعنوية**. أما الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية فتشمل:

١. **الحرية الشخصية**: والمقصود بها أن يكون الإنسان قادرًا على التصرف في شئون نفسه، وفي كل ما يتعلق بذاته، والحرية الشخصية تتضمن شيئين:

- **حُريَّة الذات**: وقد عُنِي الإسلام بتقرير كرامة الإنسان، فأوصى باحترامه وعدم امتهانه واحتقاره، وميزه بالعقل والتفكير؛ تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء).
- **تأمين الذات**: بضمان سلامة الفرد وأمنه في نفسه وعرضه وماله، فلا يجوز التعرض له بأي شكل من أشكال الاعتداء ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة).

٢. **حرية التنقل**: والمقصود بها أن يكون الإنسان حرًّا في السفر والتنقل داخل بلده وخارجه دون عوائق تمنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك).

٣. **حرية المأوى والمسكن**: ولقد نهى الإسلام عن إخراج الناس من ديارهم بغير حق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الحج: ٤٠).

٤. **حرية التملك**: ويقصد بالتملك حيازة الإنسان للشيء، وامتلاكه له، وقدرته على التصرف فيه، وانتفاعه به عند انتفاء الموانع الشرعية، وفي الحديث: "من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق"[2].

وأما الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية فتشمل:

حرية الاعتقاد: لم يُكرِه الإسلام الناس على اعتناقه، أو اعتناق سواه من الأديان، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس). وسبب نزول هذه الآية يُبين لنا إلى أي مدى وصل الإسلام في تقديس الحرية؛ فقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية إذا امتنعت المرأة من الحمل نذرت إذا ولدت ولدًا أن تهُوِّده ـ تجعله من يهود ـ وهكذا نشأ بين هاتين القبيلتين أبناء يهود، فلما جاء الإسلام، وأكرمهم الله بهذا الدين وأتم

١. المرجع السابق، ص٣٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضًا مواتًا (٢٢١٠).

عليهم نعمته، أراد بعض الآباء أن يعيدوا أبناءهم إلى الإسلام، وأن يخرجوهم من اليهودية، ورغم الظروف التي دخلوا فيها اليهودية، ورغم الحرب التي بين المسلمين واليهود، لم يبح الإسلام إكراه أحد على الخروج من دينه، والدخول في دين آخر في وقت كانت الدولة البيزنطية تقول: إما التنصر وإما القتل، وكان المصلحون الدينيون في فارس يُتَّهَمون بأبشع التُّهم.

لم يجئ مبدأ الحرية نتيجة تطور في المجتمع، وإنما مبدأ أعلى من المجتمع في ذلك الحين، مبدأ من السماء؛ ليرتفع به أهل الأرض، جاء الإسلام ليرتقي بالبشرية بتقرير هذا المبدأ، ولكن هذا المبدأ الذي أقره الإسلام مشروط بألا يصبح الدين ألعوبة في أيدي الناس، كما قال اليهود: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (آل عمران)، لهذا أراد الله عز وجل ألا يكون هذا الدين ألعوبة في أيدي الناس، فمن دخل في الإسلام بعد اقتناع؛ فليلزمه وإلا تعرض لعقوبة الردَّة.

ويترتب على حرية الاعتقاد ما يلي:

- **إجراء الحوار والنقاش الديني**: وذلك بتبادل الرأي، والاستفسار في المسائل الملتبسة، التي لم تتضح للإنسان، وكانت داخلة تحت عقله وفهمه، وقد كان الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يحاورون أقوامهم؛ ليسلموا عن قناعة ورضا وطواعية، بل إن إبراهيم عليه السلام حاور ربه ليزداد قلبه قناعة ويقينًا، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وفي حديث جبريل عليه السلام الذي استفسر فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وعلامات الساعة - دليل واضح على تقرير الإسلام لحرية المناقشة الدينية، سواء كانت بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين أصحاب الأديان الأخرى، بهدف الوصول إلى الحقائق وتصديقها: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

- **ممارسة الشعائر الدينية**: وذلك بأن يقوم المرء بإقامة شعائره الدينية، دون انتقاد أو استهزاء، ولعل موقف الإسلام الذي حواه التاريخ تجاه أهل الذمة من دواعي فخره واعتزازه وسماحته، وها هم علماء الغرب يشهدون لسماحة الإسلام، ويقرون بذلك في كتبهم، قال ميشود في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية": "إن الإسلام الذي أمر بالجهاد، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البَطارِكة[1] والرُّهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان، لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر رضي الله عنه النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمين، وحرقوا اليهود عندما دخلوها"، أي: مدينة القدس.

١. **حرية التفكير**: جاء الإسلام يدعو جميع الناس إلى النظر في الكون، وإلى التفكير﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ (سبأ: ٤٦)، وحمل حملة شعواء على الذين يتبعون الظنون، يقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ (يونس: ٣٦)، وحمل على الذين يتبعون الهوى والذين يقولون: ﴿ بَلۡ

---

١. البَطارِكة: جمع بَطْرِيك، وهو لقب يُطلق في المسيحية على رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو في طائفة من الطوائف.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ (الزخرف)، وجعلهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا، ودعا إلى حرية التفكير، وإلى إعمال العقل، وإعمال النظر، واعتمد في إثبات العقيدة الإسلامية على الأدلة العقلية، ولهذا قال علماء الإسلام: إن العقل الصريح أساس النقل الصحيح، فقضية وجود الله قامت بإثبات العقل، وقضية نبوة محمد ﷺ إنما ثبتت بإثبات العقل أولًا، فهذا هو احترام الإسلام للعقل والفكر.

ومن هنا ظهر في الإسلام نتيجة للحرية الفكرية، الحريةُ العلمية، فنجد العلماء يختلفون، ويخطِّئ بعضهم بعضًا، ويرد بعضهم على بعض، ولا يجد أحد في ذلك حرجًا، فكان العلماء ينتفع بعضهم بكتب بعض وبآراء بعض، ورأينا اختلاف الفقهاء وسعة صدورهم في الخلاف بين بعضهم البعض، هذا كله يدل على حرية الفكر، وعلى الحرية العلمية.

٢. **حرية القول**: حرية القول في الحدود التي وضعتها الشريعة تعود دون شك على الأفراد والأمم بالنفع والتقدم، وتؤدي إلى نمو الإخاء والحب، والاحترام بين الأفراد والهيئات، وتجمع كلمة أولي الأمر على الحق دون غيره، وتجعلهم في حالة تعاون دائم، وتقضي على النعرات الشخصية والطائفية، وهذا كله ينقص العالم اليوم، أو يبحث عنه العالم فلا يهتدي إليه[1].

٣. **حرية التعليم**: وهو حق كفله الإسلام للفرد، ومنحه حرية السعي في تحصيله، ولم يقيد شيئًا منه، مما تعلقت به مصلحة المسلمين دينًا ودنيا، بل انتدبهم لتحصيل ذلك كله، ولأهمية العلم، نزلت آيات القرآن الأولى تأمر النبي ﷺ بالقراءة قال ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ (العلق).

الحرية السياسية: ويُقْصَد بها حق الإنسان في اختيار سلطة الحكم، وانتخابها ومحاسبتها، وعزلها إذا انحرفت عن منهج الله، كما يحق له المشاركة في القيام بأعباء السلطة؛ لأن السلطة حق مشترك بين رعايا الدولة، وليس حكرًا على أحد.

وقد تجلت الحرية السياسية في الإسلام من خلال مبدأ "الشورى" الذي نطق به القرآن بشكل واضح وصريح ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الشورى: ٣٨)، فلا ديكتاتورية ولا استبداد ولا إرادة مفروضة في الإسلام، بل هناك تشاور من أجل الوصول إلى الحكم الأفضل، وقال ﷻ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

لم تكن نظرية الشورى في الإسلام نتيجة لحال الجماعة؛ فقد كان العرب في أدنى دركات الجهل، وفي غاية التأخر والانحطاط، وإنما قرَّر الإسلام النظرية؛ لأنها قبل كل شيء من مستلزمات الشريعة الكاملة المستعصية على التبديل والتعديل؛ ولأن تقرير النظرية يؤدي بذاته إلى رفع مستوى الجماعة، وحملهم على التفكير في المسائل العامة والاهتمام بها، والنظر إلى مستقبل الأمة نظرة جدية، والاشتراك في الحكم بطريق غير مباشر، والسيطرة على الحكام ومراقبتهم.

وظاهر من صيغة النَّصَّيْن السابقَين المقرِّرَين لمبدأ الشورى في الإسلام، أنهما عامَّان مرنان إلى آخر حدود

---

١. التشريع الجنائي في الإسلام مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مرجع سابق، ج١، ص٣٤.

العموم والمرونة، بحيث لا يمكن أن يحتاج الأمر إلى تعديلها أو تبديلها في المستقبل، وفي هذا بيان لما قلناه من أن الشريعة تتميز بصبغة الدوام وأنها لا تقبل التبديل والتعديل[1].

هذه هي الحرية التي قررها الإسلام وأقرها، الحرية المنضبطة، عكس الحرية المطلقة للغرب، التي تؤدي إلى الفساد والانحلال.

ثانيًا. ضوابط الحرية في الإسلام:

لا يعني إقرار الإسلام للحرية أنه أطلقها من كل قيد وضابط؛ لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن المعلوم أن الهوى يدمر الإنسان أكثر مما يبنيه؛ ولذلك نهى الإسلام عن اتِّباعه، والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه مدني بطبعه، يعيش بين كثيرين من بني جنسه، فلم يقر لأحد بحرية دون آخر، ولكنه أعطى كل واحد منهم حريته، كيفما كان، سواء كان فردًا أم جماعة، ولذلك وضع قيودًا ضرورية تضمن حرية الجميع، وتتمثل الضوابط التي وضعها الإسلام في الآتي:

- ألا تؤدي الحُرية إلى تهديد سلامة النظام العام وتَقْوِيض أركانه.
- ألا تُفوِّت حقوقًا أعظم منها، وذلك بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ونتائجها.
- ألا تؤدي حرية المرء إلى الإضرار بحرية الآخر.

وبهذه القيود والضوابط ندرك أن الإسلام لم يقر الحرية لفرد على حساب الجماعة، كما لم يثبتها للجماعة على حساب الفرد، ولكنه وازن بينهما، فأعطى كلا منهما حقه، من أجل هذا لم تُوضع الأحكام في الإسلام اعتباطًا أو تقييدًا للحريات، وإنما قصد بها تحقيق مقاصد عامة، وقد حصر العلماء هذه المقاصد في ثلاثة:

المقصد الأول: حفظ كل ضروري للناس في حياتهم:

والأمر الضروري هو ما تقوم عليه حياة الناس، ولا بد منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فُقد اختل نظام حياتهم، وعمت فيهم الفوضى وانتشر الفساد. والأمور الضرورية خمسة أشياء هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وقد شرع الإسلام لكل واحد من هذه الضروريات الخمس أحكامًا تكفل إيجاده وإقامته، وأحكامًا تكفل حفظه وصيانته، فكل حكم يكفل إقامة هذه الأمور الخمسة أو حفظها هو حكم ضروري.

المقصد الثاني: توفير ما هو حاجيٌّ للناس:

والأمر الحاجيٌّ: هو ما يحتاج إليه الناس للتيسير واحتمال مشاقِّ التكليف، وأعباء الحياة، وإذا فُقد لا يختل نظام حياتهم ولا تعم الفوضى، ولكن ينالهم الحرج والمشقة، فالأمور الحاجية بهذا المعنى تشمل كل ما يرفع الحرج، ويخفف مشاق التكليف وييسر طرق التعامل.

المقصد الثالث: تحقيق ما فيه تحسين لحال الفرد والجماعة:

والأمر التحسيني: هو ما تقتضيه المروءة والآداب وسير الأمور على أحسن مِنْهاج، وإذا فُقِدَ لا يختل نظام الحياة ولا ينال الناس حرج كما إذا فُقد الأمر الحاجي، ولكن تكون حالهم مستنكرة في تقدير العقول الراجحة

1. المرجع السابق، ص٣٧.

والفطرة السليمة. والأمور التحسينية بهذا المعنى ترجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وكل ما يقصد به سير الناس في حياتهم على أفضل الطرق وخير المناهج[1].

وبهذا يتضح لنا أن مقاصد الإسلام من تلك التكاليف ليست تقييد حريات الناس، وإنما هي ضمان حريات الناس على الوجه الأكمل، فالحرية مكفولة للجميع لكنها تنتهي عندما يبدأ منها ضرر الآخرين وإلا صارت فوضى واضطرابًا.

ثالثًا. مرتكزات الحرية في الإسلام:

الحرية في الإسلام ليست حرية متأرجحة هَشَّة أو عشوائية غائمة، ولكنها تنطلق من أسس وقواعد ثابتة ورئيسية لا ترتكز عليها الحرية فحسب، بل النظام الإسلامي بأسره، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول: إن المرتكزات التي تقوم عليها الحرية في الإسلام هي من أقوى الأسس والقواعد التي تقوم عليها فكرة أو مفهوم ما في أي نظام آخر.

فالإسلام لا ينظر إلى الحرية بصفتها شيئًا كماليًّا، ولا يعتبرها أمرًا مزاجيًّا خاضعًا للذوق والرغبة، بل أقامها على أصوله واعتبرها جزءًا لا يتجزأ من مبادئه، بل إن الباحث المتتبع ليجد الحرية في كل التشريعات الإسلامية والمناهج التي وضعها الإسلام في شتى مجالات الحياة، ومن أهم تلك المرتكزات:

١. العبودية لله تعالى:

وتعني: الانقياد التام والطاعة الكاملة لله، وهو ما يعني التحرر من كافة العبوديات والانقيادات لأية جهة أخرى، وهذا ما يكشف عن التحرر الحقيقي للإنسان من كافة الأغلال والقيود التي طالما كبلت إرادته وفكره، فالعبودية لله تعني أسمى أنواع الحرية؛ فهي تحرر الإنسان ليس من قيود الظلم والأوثان فحسب؛ ولكنها تحرره كذلك من قيود النفس، وأهوائها الجامحة، وتفسح المجال لعنصر العقل؛ لكي يتخذ القرارات بشكل سليم بعيدًا عن التأثيرات الكاذبة.

صحيح أن العبودية لله لا تسمح للإنسان بأية حرية حيال الله تعالى، ولا العمل خارج إطار المنهج الإلهي، ولا التحرك خارج إطار المسار الرباني، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦). لكن هذه العبودية تمنحه الحرية الكاملة من أي قيد من القيود التي تحاول أن تفرضها عليه الأفكار والعقائد التي لا تَمُتُّ إلى المبدأ الإلهي بصلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٢. رضا الله تعالى:

انطلاقًا من قاعدة العبودية لله، قال ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٥)، يصبح لزامًا على الفرد المسلم أن يتحرك في الحياة، ويسعى طبقًا لمرضاة الله تعالى؛ فالإنسان المسلم يدرك أن المطلوب منه تحصيل الرضا الإلهي، وعليه أن يَجِدَّ بكل ما يتاح له من قوى وطاقات؛ لتحقيق ذلك الرضا، وبهذا تُحفظ للحرية

---

١. المرجع السابق، ص٢٠٣.

حيويتها، وتصان عن كل عملية يراد بها تقليصها أو الالتفاف عليها.

ويمتاز مقياس "رضا الله" عن أي مقياس آخر بميزات أساسية؛ فهو مقياس من النظرة الروحية العامة إلى الحياة والكون، وليس مقياسًا مرتجلًا، كما أنه يزيل كل تناقض من الصعيد العملي، على عكس كثير من المقاييس التي يقدمها فلاسفة الأخلاق؛ كاللذة، أو المنفعة، ونحوهما، فالإنسانية حين تأخذ بالمقياس العملي الذي ينادي به الإسلام، يزول كل لون من ألوان الصراع والتناقض؛ لأن رضا الله تعالى لا يتناقض ولا يختلف.

٣. مسئولية الإنسان المسلم أمام الله تعالى:

قد يوجد عنصر المسئولية في كثير من الأنظمة، لكنه لا يتجاوز في كثير من الأحيان مسئولية الفرد تجاه القوانين المعمول بها، أما مسئولية الإنسان المسلم فتختلف جوهريًّا عن تلك المسئولية؛ لأنها نابعة من باطن الإنسان، وماثلة أمامه دائمًا وأبدًا، فالإنسان المسلم مسئول أمام جهة مُطَّلِعة عليه تراقبه، وتشاهد عن كَثَبٍ كل تحركاته وسكناته، بل مطَّلعة حتى على أفكاره وخلجات قلبه، ويظل عنصر المسئولية هو الدافع القوي نحو تحقيق الإرادة الإلهية، وتطبيق الأحكام الإسلامية وتقليل مدى الخروج على تلك الأحكام، وخفْض مستوى انتهاك الحقوق الإنسانية والاصطدام بمبدأ الحرية الذي يحظى بأهمية فائقة في الإسلام.

وعنصر المسئولية يشير من جهة أخرى إلى "حرية الإنسان" ويعبر عن اختياره، وهو ما يكشف عن مدى الاهتمام الذي يوليه الإسلام للحرية، فالمسئولية التي لا تقترن بالحرية تصبح مجرد لفظة فارغة لا قيمة لها، فالمسئولية تعني أولًا أن الإنسان حر، وثانيًا: التزامه وانضباطه.

رابعًا. زيف الحرية الفكرية الغربية:

إن البشرية رغم قطعها لأشواط بعيدة في المجال العلمي، إلا أنها وللأسف لا زالت متخلفة على الصعيد الإنساني، لا سيما في البلدان الرائدة في المضمار العلمي، ويعود ذلك إلى ابتعاد تلك البلدان عن الدين وتشبثها بالماديات، فالعلم وحده غير قادر على تهذيب الإنسان والارتقاء به خُلقيًّا، إنما هذه أمور لا ينهض بها سوى الدين، ومما يَحُزُّ في النفس أن نجد العلوم قد أضحت في خدمة إرادة الشر في عصرنا هذا.

ورغم قيام ثورات كثيرة خلال مسيرتها الطويلة إلا أن أغلب تلك الثورات، إنما كانت بسبب ما تزخر به قلوب المستضعفين من المشاعر الشخصية المتقدة بسبب ظلم الآخرين واستهتارهم بحقوق الجماعة ومصالحها، لا على أساس من الرؤية الإلهية لمفاهيم العدل والمساواة والحرية، وتلك الثورات لا تَعْدُو ثورة على جذور الاستغلال وحقيقته، على عكس الثورات التي قامت على أساس الإسلام وبوحي من رسالته التحريرية.

والإسلام ضد الحرية المطلقة التي تتحول في آخر المطاف إلى تَعدٍّ على مصالح الآخرين وحقوقهم، وتطلعهم إلى حياة هادئة، فالحرية المطلقة لا يمكن أن تُوَفَّر للفرد العادي الذي يعيش ضمن مجتمع مترابط؛ لأن الحرية المطلقة لكل فرد في المجتمع تصطدم بحريات الآخرين، ولكي يحتفظ كل فرد بنصيبه من

حريته بعيدًا عن تدخلات الآخرين، لا بد له أن يتنازل عن شيء منها، فالإنسان الذي يُساق إلى غير ما يريد ويُكْرَه على غير ما يُحب ويُجرع من الأفكار والأنظمة ما لا يقبله، لا يمكن أن يكون سعيدًا، ثم إن السعادة لا تتم إلا بالأمن، ومن لا حرية له لا أمن له.

فالحرية المطلقة فكرة لا يمكن تحقيقها في أي مجتمع حتى في المجتمعات الغربية رغم أنها تبعد كل البعد عن الحرية المنضبطة، لكنها حرية غير مطلقة أيضًا؛ بدليل وجود القوانين والعقوبات المفروضة لتضمن عدم تخطي تلك القوانين والتمرد عليها، عكس الحرية المنضبطة التي ينادي بها الإسلام، والتي تؤمن بالمبدأ القائل: "لا تنتهي حرية كل فرد إلا حيث تبدأ حريات الآخرين"، فليس للفرد الحق في أن يفعل ما يشاء، ويقوم بما يحلو له دون حدود وقيود، وبذلك تعد الحرية التي يرفع الإسلام لواءها الصيغة الأمثل للحرية؛ لأنها تحافظ ليس على حرية المجتمع وحقوقه المشروعة فحسب، بل على حرية الفرد نفسه، من خلال ضبطها لحرية الآخرين، وعدم السماح له بتهديد حريتهم. وعلى هذا فإن الإسلام لا يهدر حق الإنسان في الحرية الفكرية، ولا يقهره على اعتناق الدين، بل يكفل له جميع الحريات بالضوابط التي وضعها لتلك الحرية.

خامسًا. مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة الإسلامية:

لا تخلو أمة من الأمم في أنظمتها من تطبيق مبدأ النهي عن المنكر فتطبيق القانون على أفرادها، وإلزامهم به هو في حد ذاته نهي عن المنكر، فكل ما ينص القانون على تحريمه وضع له عقوبات لمن ينتهكه ويتعداه، فهو نهي عن المنكر. وتنفيذ العقوبة على المخالفين للقانون صيانة للأمة جميعها، من إشاعة الفوضى، والفساد والدمار، ولم يقل أحد: إن تطبيق القانون على الخارجين عنه ينافي حريتهم الشخصية.

وشريعة الإسلام إن كلَّفت أتباعها بالأخذ على أيدي المفسدين، فما ذلك إلا حماية لهم، ولغيرهم من الفساد، والإفساد، كما جاء في الحديث: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقًا، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا"[1]. فنهى الفرد عن التعدي على حقوق الآخرين حماية للآخرين من تعديه، وحماية لمتلكاته من أن يتعدى عليها غيره، فكما يُنهَى هو عن التعدي على غيره يُنْهَى غيره عن التعدي على حقوقه، فالنهي عن المنكر حماية للحريات، وليس مصادرة لها، ولم يقل عاقل: إن الحرية تعني الانفلات، وأن يفعل الإنسان باسمها كل ما يحلو له، منكرًا كان أو معروفًا.

كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعني اللجوء إلى القوة من أول درجات التغيير، بل لا يُلْجَأ فيه إلى استخدام القوة إلا في نهاية الأمر، إذا فشلت كل الوسائل في منع المنكر؛ كالقول اللطيف، والنصح والإرشاد، والوعظ بالحكمة، والقول الحسن، ثم الزجر والتخويف والتهديد بالقول لا بالفعل، فإذا لم يمتنع

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٢٣٦١)، وفي موضع آخر.

عن المنكر بعد ذلك يُدفع المنكر بأيسر ما يندفع به ولا يجوز التعدي، فإذا تعدى المغيِّر للمنكر واستعمل وسيلة تزيد عما يقتضيه الحال، فهو مسئول عن هذه الزيادة.

كما يشترط في المنكر أن يكون موجودًا في الحال، فلا يُحاسَب عما سبق فعله بأثر رجعي، وأن يكون المنكر ظاهرًا، فلا يتجسس عليه، فالأصل أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه، فكل هذه الضوابط[1]، وغيرها مما فصل في كتب الفقه تحكم عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا تصير فوضى عارمة.

يقول الشيخ عبد القادر عودة: لقد أوجبت الشريعة الإسلامية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لتجعل من كل إنسان رقيبًا على غيره من الأفراد والحكام، ولتحمل الناس على التناصح والتعاون، وعلى الابتعاد عن المعاصي، والتناهي عن المنكرات، ولقد ترتب على إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن أصبح الأفراد ملزَمين بأن يوجه بعضهم بعضًا، وأن يُوجِّهوا الحكام، ويقوِّموا عوجهم، وينتقدوا تصرفاتهم، والتوجيه أساسه الأمر بالمعروف، والنقد أساسه النهي عن المنكر، ولقد فهم المسلمون الأوائل هذا حق الفهم وسلَّموا به تسليمًا؛ فهذا أبو بكر يصعد المنبر بعد مبايعته، فيقول: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم"، وهذا عمر يقول بعد توليته الخلافة: "من رأى فيَّ اعوجاجًا فليُقوِّمه"، وترتب على إيجاب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أن أصبح الأفراد ملزمين بالتعاون على إقرار النظام وحفظ الأمن ومحاربة الإجرام، وأن يقيموا من أنفسهم حماة لمنع الجرائم، وحماية الأخلاق، وكان هذا كله الضمان الكافي لحماية الجماعة من الإجرام، وحماية أخلاقها من الانحلال، وحماية وحدتها من التفكك، وحماية نظامها من الآراء الطائشة، والمذاهب الهدامة، بل كان فيه الضمان الكافي للقضاء على المفاسد في مكمنها، وقبل ظهورها وانتشارها.

ولم تعرف القوانين الوضعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا ابتداءً من القرن الماضي؛ حيث بدأت تعترف للأفراد بحق النقد، وحق التوجيه، وتعترف للأفراد بالقبض على المجرم في حالة التلبس وتسليمه إلى الجهات المختصة، وتعطي في بعض الحالات للأفراد الحق في منع الجاني بالقوة من ارتكاب الجريمة، إذا كانت ماسة بصالح الجماعة؛ كقلب نظام الحكم، وتخريب المنشآت العامة. ولكن القوانين الوضعية مع هذا لم تأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على إطلاقه وإنما قصرت تطبيقه على حالات معينة، بخلاف الشريعة التي تطبقه في كل الحالات، وفي جميع الجرائم[2] ®.

الخلاصة:

- جاء الإسلام فأقرَّ مبدأ الحرية، وليس أدل على

---

١. انظر: التشريع الجنائي في الإسلام مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مرجع سابق، ج١، ص٥٠٠.

٢. انظر: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤١٣هـ/ ١٩٩١م.

® في **"فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الخامسة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية).

تعظيمه من شأن الحرية، أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر.

- إن العقيدة الإسلامية حين جاءت بنظرية الحرية لم تكن تجاري تطور الجماعة أو تلبي رغباتها؛ لأن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن مهيئًا لنظرية الحرية، وإنما قُررت هذه النظرية لترفع مستوى الجماعة وتدفعهم نحو التقدم والرقي.
- لا يعني إقرار الإسلام للحرية أنه أطلقها من كل قيد أو ضابط؛ لأنها بهذا الشكل تهبط من أفق الحرية إلى مستنقع الفوضى التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن ثم وضع قيودًا ضرورية تضمن حقوق الجميع وتتمثل هذه الضوابط في:
    - ألَّا تؤدي الحرية إلى تهديد سلامة النظام العام.
    - ألَّا تفوت حقوقًا أعظم منها، وألَّا تؤدي إلى اضطراب.
- لا ينظر الإسلام إلى الحرية على أنها شيء كمالِيٌّ، ولا أمرًا مزاجيًّا خاضعًا للذوق والرغبة، بل أقامها على أصوله، واعتبرها جزءًا لا يتجزأ من مبادئه وقيمه.
- ما يُقدَّم عن الغرب على صعيد الحرية الفكرية والثقافية، ليس إلا صورة زائفة بَرَّاقة قامت على أساس مادي بحت، ليس له قيود دينية ولا حدود أخلاقية.
- مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يهدف إلى صيانة الأمة وحمايتها من إشاعة الفوضى والفساد والدمار فيها، ويجعل كل إنسان رقيبًا على غيره من الأفراد والحكام؛ لتحمل الناس على التناصح والتعاون وعن الابتعاد عن المعاصي والتناهي عن المنكرات.

الشبهة الرابعة والعشرون

دعوى أن الدين يسلب أتباعه حريتهم وكرامتهم ويخضعهم لقيوده وحدوده(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الدين يسلب العبد حُريَّته وكرامته، فيظل مُقيَّدًا بالأوامر والنواهي والمعاملات والعقوبات والحدود في كل جوانبه الحياتية، حتى إنه لا يسمح له بإعمال عقله فيما يُفرض عليه من أمور الدين، مُسلِّمًا فقط بما يُمليه عليه رُهبان الدين ورجاله، الذين يحللون ويحرمون ويتوسطون بين العبد وربه، ويتساءلون: أية حرية وأية كرامة تلك التي ينشدها الإنسان من اعتناق هذا الدين؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذا الحكم إن صدق فإنه يصدق على غير الإسلام؛ لأنه جاء ليحرر الإنسان من كل حقارة ومذلة.

٢) أعلى القرآن من شأن العقل، فهو لا يفتأ يخاطب العقول ويوجهها إلى النظر والتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض لاستلهام العبرة والعظة والبرهان واليقين.

٣) الإسلام كرم الإنسان ورد له حقوقه المسلوبة، ولم يكرهه أو يجبره على اعتناقه إلا بالتصديق الكامل واليقين التام.

٤) ليس في الإسلام رهبانية، ولا واسطة بين العبد

(*) بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

وربه، ولا سلطة لأحد على أحد إلا بالحق.

٥) العقل له حدوده الإدراكية، فهناك أمور أبعد من أن يحيط بكنهها وماهيتها.

التفصيل:

أولا. هذا الحكم إن صدق فإنه يصدق على غير الإسلام:

لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من كل مذلة وحقارة، وأتاح له حرية التفكير والتعبير، والاعتقاد، فأمره بالتفكر والتدبر حتى يشعر بإنسانيته عندما يُعمِل عقله ويتحمل مسئولية اتخاذ قراره، بل إن أول ما يحرص عليه الإسلام هو التخلص من العبودية والخضوع لغير الله ﷻ، وتقوية وتشجيع حرية النزوع الفطري في الإنسان إلى السمو والرقي، بدءًا من حرية الاعتقاد وانتهاءً بحرية الرأي والقول والفعل.

فمثلًا: لم يفرض الإسلام على معتنقيه وأتباعه أفكارًا معينة عن شكل الأرض، وعمر الإنسان على سطح الأرض، تخالف ما وصلت إليه حقائق العلم الثابتة، وقال لهم: إن هذه أفكار مقدسة؛ لأنها منزَّلة من عند الله، ومن خالفها فهو كافر ملحد، كما في بعض ديانات غير المسلمين، بل على العكس من ذلك، نجد القرآن يدعو إلى العلم، واكتشاف حقائق الكون، يقول الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾ (يونس)، ويقول ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ (المجادلة)، ويقول ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)، ولا يوجد دين دعا إلى تقدير العلماء واحترامهم مثل الإسلام، يقول ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"[1]، أو "كفضل القمر على سائر الكواكب"[2]، ويقول أيضًا: "إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم"[3].

ثانيًا. إعلاء القرآن من شأن العقل البشري:

لا يزال القرآن يخاطب العقول ويوجهها إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ﴾ (آل عمران)، وقال ﷻ: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الروم: ٨)، كل هذا وغيره كثير يؤكد تلك الحقيقة، وهي دعوة الإسلام إلى صحوة العقل، واستخدامه في البحث والاكتشاف والاختراع، على عكس ما يدَّعي هؤلاء، وما كان

---

١. صحيح: أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب من قال: العلم الخشية وتقوى الله (٢٨٩)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء ﷺ (٢١٧٦٣)، وابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة ﷺ والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء ﷺ (٢١٧٦٣)، وابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة ﷺ والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢).

الإسلام ليدعو أتباعه لاستخدام العقل، ثم يسلب منهم حريتهم، وكرامتهم، ولو كان ذلك صحيحًا لما دعاهم إلى استخدام العقل والفكر، بل كان يدعوهم إلى ترك عقولهم جانبًا وعدم استخدامها في شيء، ولكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، فلقد نعى على الكافرين تقليدهم الأعمى بدون حجة أو برهان، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة).

بل إن القرآن يرفض أن يقبل الإنسان شيئًا وهو غير مقتنع به، حتى الدخول في الإسلام نفسه؛ بل إن الإسلام قد حرَّم إكراه أحد على الدخول فيه ما دام غير مقتنع، وأمر بترك حرية الاختيار للناس جميعًا في أعظم الأمور شأنًا وهو الدين قال ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، فهل ثمة بعد ذلك حرية؟ وهل يوجد على وجه الأرض دين أو هيئة أو منظمة أو جماعة، أطلقت مثل هذه الحريات؟ فكيف يدَّعي هؤلاء أن الإسلام يسلب حرية أتباعه، ومن أين أتوا بهذا الكلام، وما دليله عندهم؟! ألم يقرءوا تلك الآيات السابقة؟

يحسن بنا أن نعرض لما كتبه العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" تحت عنوان "فريضة التفكير في كتاب الإسلام"، يقول: من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتًا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء، وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف. ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو ضمنيَّة إلى العقل، أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئًا من الزراية بالعقل أو التحذير منه؛ لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل إنها تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يُحثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلام فيها المنكِر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته؛ فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يُناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يَعُمُّ الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة، وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام المجمل؛ إذ هي جميعًا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء.

فالعقل في مدلول لفظه العام ملكة يُناط بها الوازع الأخلاقي، أو المنع عن المحظور والمنكر، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة "عقل" التي يؤخذ منها العقال، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر، فإن كلمة "مايند" ***Mind*** وما خرج من مادته في اللغات الجرمانية، تفيد معنى الاحتراس والمبالاة وينادى بها على الغافل الذي يحتاج إلى التنبيه، ونحسب أن اللغات في فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة في معنى العقل لها دلالة على الوازع أو على التنبيه والاحتراس.

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور، وهي على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقي، وإدراك أسبابه وعواقبه، تستقل أحيانًا بإدراك الأمور مما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي، أو بالحسنات والسيئات.

ومن خصائصه أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائجه وأحكامه، وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة "الحكم" وتتصل بها ملكة الحكمة، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه.

ومن أعلى خصائص العقل الإنساني "الرشد"، وهو مقابل لتمام التكوين في العاقل الرشيد، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم؛ لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد، حيث لا نقص ولا اختلال، وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك.

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها؛ فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، ولا يذكر عرضًا مقتضبًا، بل يذكره مقصودًا مفصَّلًا، على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان.

فمن خطابه إلى العقل عامة ـ ومنه ما ينطوي على العقل الوازع ـ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ (البقرة).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ (المؤمنون).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ

يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الروم).

ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يوسف).

ومنه في سورة الحشر بيانًا لأسباب الشقاق والتدابر والعداوة بين الأمم: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحشر).

وهذا عدا الآيات الكثيرة التي تبتدئ بالزجر، وتنتهي إلى التذكير بالعقل؛ لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان، كقوله تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة)، وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (آل عمران)، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (المائدة)، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنعام)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (هود)، وقوله تعالى: ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وفي غير هذه السور الكريمة تنبيه إلى العقل في مثل هذا السياق يدل عليه ما تقدم في هذه الآيات.

إن هذا الخطاب المتكرر إلى العقل الوازع يضارعه في القرآن الكريم خطاب متكرر مثله إلى العقل المدرك أو العقل الذي يقوم به الفهم والوعي، وهما أعم وأعمق من مجرد الإدراك. وكل خطاب إلى ذوي الألباب في القرآن الكريم، فهو خطاب إلى اللب ـ هذا العقل المدرك ـ الفاهم؛ لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية. وقال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (يوسف:١١١)، وقال تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة).

ومن هذه الآيات نتبين أن اللب الذي يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية، تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقل الذي يكف صاحبه عن السوء، ولا يرتقي إلى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الطيب والخبيث، والتمييز بين الحسن والأحسن في القول.

أما العقل الذي يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي والرؤية، فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحيانًا، وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق في أحيان أخرى، فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم، وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانًا في المدلول - كما قدمنا - ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الأخرى. قال الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ (البقرة)، وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٩١)، وقال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام)، وقال تبارك وتعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (النحل)، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الروم: ٨)، وقال عز وجل: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنعام)، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥)، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس)، وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ (ق).

وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ (الغاشية)، وقال عز وجل: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (القصص)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (السجدة)، وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ (آل عمران)، وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (المؤمنون)، وقال عز وجل: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد)، وقال عز وجل: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ (الحشر)، وقال عز وجل: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ (البقرة)، وقال عز وجل: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ (الأنعام)، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ (الرعد)، وقال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (النحل)، وقال عز وجل: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ (عبس)، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (القصص)، وقال عز وجل: ﴿قَالُوا۟

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ (البقرة: ٢٤٧)، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

وقال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة)، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (الكهف)، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرحمن) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق)، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران).

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير في الإسلام، وتبين منها أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر، ويحسن الادكار والرواية، وأنه هو العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال، وليس بالعقل الذي قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون، فإن الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع، وفي كل عُرْف وسنة، ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف في الإسلام، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يُعْتَذر للمجنون بجنونه، فإنها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير.

ويندب الإسلام من يدين به إلى مرتبة في التفكير أعلى من هذه المرتبة التي تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة؛ فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة في الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩)، ويدل عليها أن الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علمًا به من عباد الله الصالحين، كما جاء في قصة موسى وأستاذه عليهما السلام.

والذي ينبغي أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه، لم يأت في القرآن عرضًا، ولا تردد فيه كثيرًا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره[1].

ثالثًا. تكريم الإسلام للإنسان:

القاعدة الأساسية في الإسلام أن الإنسان مُكرَّم على

---

١. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، د. ت، ص٥: ١٩.

سائر المخلوقات، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء)، وهو خليفة الله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ولقد رفع الظلم عن الناس بتحريمه، فالله تعالى عَدْل لا يظلم، كما في الحديث: "يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا"[١]. وحق الحقوق بين الناس جميعًا، فشرع حق الحاكم والمحكوم، وحق الزوج والزوجة، وحقوق الأبناء، وحقوق الجوار.. إلى غيرها مما شرع الإسلام من الحقوق التي كانت مهضومة ومسلوبة قبله، كحقوق المرأة، وحقوق الرقيق والضعفاء والمساكين، فأعاد لهم حقوقهم واعتبارهم وكرامتهم في المجتمع. فلن تأتي منظمة أو هيئة في العالم بمثل ما جاء به الإسلام في شأن حقوق المرأة، وحقوق الرقيق خاصة. فهل يُقال بعد ذلك إن الإسلام يسلب أتباعه حريتهم وكرامتهم، إن هذا لإفك عظيم®!

رابعًا. لا رهبانية ولا واسطة في الإسلام:

ليس في الإسلام انقطاع الإنسان للعبادة والتبتل مطلقًا، وعدم مراعاة شئون الحياة؛ لأن الطبيعة الإنسانية تأبى ذلك، وما كتب الله ذلك على بعض من قبلنا إلا لأنهم ابتغوا بها رضوان الله، ولكنهم لم يرعْوها حق رعايتها، وحدث الفساد الخلقي داخل دور العبادة عندهم أبشع بكثير مما يجري خارج المجتمع على أيدي الفساق والمنحلِّين[٢].

وليس في الإسلام وساطة بين العبد وربه، يحتكرها بعض الناس، ولا يستطيع غيرهم أن يتصلوا بربهم إلا عن طريق هؤلاء الكهنة، ولا تقبل منهم التوبة والاستغفار من الذنوب إلا بالجلوس أمام الكاهن على كرسي الاعتراف، وإعلان الكاهن بقبول توبته، إنما جعل الإسلام علاقة العبد بربه مباشرة، وحرَّم اتخاذ الوسائط حتى ولو كانوا أولياء، فلا ينجو الإنسان إلا بعمله. فليس للحاكم ولا لرجال الدين في الإسلام أن يفرضوا على الناس العُشُور[٣]، فهي ليست لله ولا للمساكين، إنما ليعيش بها رجال الدين في بزخ لا يحلم به الأباطرة في عصر من العصور.

وليس في الإسلام أن يفرض الحاكم أو رجال الدين السخرة على الناس، أي: أن يعملوا في فلاحة الأرض المملوكة لهم بغير أجر يومًا كل أسبوع، بل إن النبي ﷺ حتى مع أعدائه اليهود بعد هزيمتهم في خيبر أعطاهم الأرض يعملون فيها مقابل نسبة من إنتاجها.

وليس في الإسلام أن يتعين على الناس أن ينحنوا عند مرور الحاكم أو الكاهن بهم حتى تلتصق جباههم بالأرض، ولو كانت الأرض مملوءة بالوحل والطين.

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

® في **"تكريم الإنسان في الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي **"هبوط الفكر الإلحادي بقيمة الإنسان"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى من هذا الجزء. وفي **"دونية النظرة المادية إلى الإنسان"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثلاثين، من هذا الجزء.

٢. انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٤٧.

٣. العشور: أي أن يُقدِّم الناس لهم عُشْرَ ما لهم هبة خالصة لهم من دون الله.

وليس فيه صكوك غفران يبيعها رجال الدين للناس؛ ليغفروا لهم ذنوبهم ويدخلوهم الجنة، مقابل مبالغ مادية معينة من المال.

إن الحاصل في الإسلام أن مَن أراد أن يرجع عن ذنوبه فعليه بالتوبة إلى الله تعالى بشروطها، والنبي ﷺ يعلن أنه لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًّا، ولا حتى نفسه، إلا أن يتغمَّده الله برحمته، بل يقرر أن قرابته ونسبه من أحد لن ينفعه إذا لم يسرعْ به عمله.

ونجده ﷺ ينهى أصحابه عن الغلوِّ في مدحه، ويقول: "فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله"[1]. ويُهدِّئ من رَوْع رجل هابه حين لَقِيه ويقول له: "هوِّن عليك، فإني لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَدِيد"[2][3]. وحينما يريدون صُنْع طعامٍ لا يتعالى على أصحابه، بل يشاركهم ويقوم بأصعب عمل، وهو جمع الحطب، ويستشير أصحابه في السِّلْم والحرب، ولا يفرض رأيه عليهم، كما في غزوات: بَدْر وأُحُد والخندق، ويأخذ بمشورتهم، وقد أمره الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وأثنى على المؤمنين المتصفين بهذه الصفة فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨).

ومضت الأمة على ذلك، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يستشير أصحابه في كل شأن لم يُنَصَّ عليه في الدين، فاستشارهم في جمع القرآن، وكان يجمع أصحاب رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعرف شيئًا من شئون الدين أو الدولة، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ برأي رعيته، ويعلن صواب من أصاب منهم، ويعلن خطأه في شجاعة، وقصة المرأة التي اعترضته وهو يخطب في شأن المُهور، وأعلن خطأه عقب ذلك قائلًا: "أصابت امرأة وأخطأ عمر" قصة مشهورة.

وعلماء الدين في الإسلام لا وصاية لهم على أحد، فليس لهم حق إلهي ولا عصمة، ولا يملكون الغفران أو الحرمان، ولكنهم يقدمون للناس دين الله الذي عرفوه، وتبقى مسئولية الإنسان عن نفسه أمام ربه.

أما التعاليم والتكاليف التي جاء بها الإسلام في صورة أوامر ونواهٍ، فليست فيها أي قيود على أحد؛ فهي أمور لتزكية النفس وتطهيرها، وصون المجتمع من الفساد والرذيلة، وحِفْظ حقوق الناس، من أَنْفُسٍ وأموال وأعراض ودماء، فما شُرِعَ القصاص إلا لحفظ الدماء والأنفس وضمان عدم التعدي على الآخرين، وما شرع حد الزنا إلا لحفظ الأعراض، وضمان عدم التعدي عليها، وما شرع قطع اليد للسارق إلا لضمان حفظ أموال الناس... إلخ. وما شُرعت العبادات، من صلاة وصيام وزكاة وحج إلا لتطهير النفس وتزكيتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، قال الله تبارك وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٦١)، وفي موضع آخر.

٢. القَدِيد: اللحم المقطَّع والمملَّح المجفَّف في الشمس.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة ق (٣٧٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

هـذا بالإضـافة إلى الأسرار والمقاصـد والحكـم الأخرى مـن وراء هـذه التـشريعات والتـي خـاض في ذكرها العلماء، ولا يتسع المقام هنا لسردها.

إن الدين الإسلامي دين لا يعـرف الكَهانـة[1]، ولا يتوسط فيه السَّدَنة[2] والأحبار بين المخلـوق والخـالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يـسمو بـه إلى المحـراب بشفاعة من وليٍّ متسلط أو صاحب قداسة مطاعة، فـلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملـك التحـريم والتحليـل، ويقضي بالحرمان أو بالنجاة؛ فليس في هـذا الـدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان، ولن يتجـه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرًّا طليقًا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سـلطان كهانهـا الحـاكمين بـأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى.

لا هيكل في الإسلام: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، ولا كهانة فيه حيث لا هيكل، فكـل أرض مسجد، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله، وديـن بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب ـ بداهـة ـ إلى غير الإنسان العاقل، حرًّا طليقًا من كل سـلطان يحـول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم، كذلك يكـون الخطاب في الدين الذي يُلْزِم كل إنسان طـائره في عنقـه ويحاسبه بعمله، فلا يؤخذ أحد بعمل غـيره، قـال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور)، وقال ﷻ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم).

فإذا كان في الأديـان ديـن يجتبـي القبيلـة بنـسبها أو يجتبي المرء قبل مولـده؛ لأنـه مولـود فيهـا، أو كـان في الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله، فليس في الإسـلام إنـسان ينجـو بـالميلاد، أو يهلـك بـالميلاد، ولكنه الدين الذي يُوكَل فيه النجاة والهـلاك إلى سَـعْي الإنسان وعملـه، ويتـولى فيـه الإنـسان هدايتـه بفهمـه وعقله، ولا يبطـل فيـه عمـل العقـل أن الله بكـل شيء محيط، فإن خلق الإنسان العاقل لا يـسلبه القـدرة عـلى التفكير، ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير.

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الإسلام ووصـاياه، وتأتي فيه الوصايا المتكـررة بالتعقـل والتمييـز منتظـرة مقدرة لا موضع فيهـا للمـصادفة، ولا هـي ممـا يطـرد القول فيه متفرقًا غير متصل عـلى نـسق مرسـوم، فإنهـا لوصايا منطقية في دين يفرض المنطق الـسليم عـلى كـل مستمع للخطاب قابل للتعليم، وهكـذا يكـون الـدين الذي تصل العبادة فيه بين الإنسان وربـه بغـير واسـطة ولا محاباة، ويحاسب فيه الإنسان بعمله كـما يهديـه إليـه عقله، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد[3] ®.

خامسًا. محدودية عمل العقل الإنساني:

١. حدود الإدراك العقلي في القضايا العقدية:

العقل منحة ربانية أعطاها الله للإنسان، بيـد أن لهـا عملًا محدودًا، وعن هذا العمل يحـدثنا د. عبـد الـرحمن

---

١. الكَهانة: حِرْفة الكاهن، وهي ادعاء معرفة الأسرار أو أحوال الغيب.

٢. السَّدَنة: جمع سادن، وهو الحاجب.

٣. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، مرجع سـابق، ص١٩: ٢١.

® في "الفرق بين التقوى الإسلامية والرهبنة النصرانية" طـالع: الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الزنيدي فيقول: العقل ذو طبيعة محدودة من حيث نوعية المعقولات، فالعقل في هذا النطاق يستطيع معرفة كثير منها على وجه صحيح لا زيف فيه من حيث طبيعته هو، وفي مقابل ذلك هناك أشياء أخرى ليس في طاقته علمها؛ لأنها تتجاوز حدود هذه الطاقة؛ كالبصر، ففي إمكانه رؤية أشياء في عالمنا المادي كثيرة على وجه صحيح لا تزوير فيه، لكن طاقته تَكِلُّ عن إدراك أشياء أخرى كوجه الله سبحانه، فإذا جاء يوم القيامة أمد الله المؤمنين بقوة إبصار تفوق هذه القوة، فرأوا ربهم عيانًا، لعل هذا الإمداد يتجاوز البصر إلى سائر مدارك الإنسان، ومنها العقل.

كذلك، فإن العقل نسبي من جانبه الكسبي، نتيجة المؤثرات الخارجية من جهة، وحركته من جهة أخرى، فالنسبية من هذا الجانب تتطرق إلى الذات العارفة، سواء كانت مصدرًا أم وسيلة، في مجال معرفة حقائق الوحي - خاصة السمعيات - ومن هنا انتقد علماء السلف المتكلمين والفلاسفة، الذين سعوا جهدهم للوصول إلى علم مطلق في حقائق العقيدة - لا يقدر عليه إلا الله - فكان نصيبهم الإخفاق، وقيدوا - علماء السلف - العلم المطلوب بأنه بقدر الطاقة البشرية، وفي حدود قوى الإنسان المتاحة له، واعتبروا ما تحت هذا القيد كافيًا في إيصال الإنسان إلى مستوى من اليقين، لا يتحقق في كثير من معارفه الأخرى، كما أنه كافٍ في تحقيق مطلوب الشرع من الإنسان.

يقول الشاطبي: إن الله جعل للعقول في إدراكها حدًّا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلًا إلى الإدراك المطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون، فالشيء الواحد من جملة الأشياء، يعلمه الباري تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أحكامه، ولا في أحواله، بخلاف العبد، فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص.

بل إن القرآن قد أوضح المسالك التي يسلكها العقل ليصل إلى هذه الحقائق، فيعرف أنها حق، وأن ما سواها باطل، كما نبه ﷺ إلى المواقع التي تصد عن السير في تلك السبل، أو عن الوصول إلى الحقيقة، أو تحجبه عنها، وذلك حينما أمر العقل بأن يتجرد للحق، ويتحرر من سلطان الأعراف والعادات، التي تتوارثها المجتمعات حتى تصبح مُسَلَّمات جارية لا تقبل النقاش، ومن ثم تكبل العقل عن الانطلاق، ورؤية الحق إذا ما خالفها، حيث تكتسب قداسة بتواطؤ الآباء والأجداد عليها.

لهذا ندد القرآن الكريم كثيرًا بالجمود على أعراف ليس لسلطانها أدنى سبب غير وراثتها عن السابقين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف)، كما يُحرِّر العقل من سلطان القوى المهيمنة في المجتمعات؛ سواء كانت سيطرة المنحرفين من الذين يتكلمون باسم الدين، أو لرجال السياسة الغاوين، أو للإعلام المُضِلّ.

فالإدراك المطلوب الذي يتعلق بتلك الحقائق يرتبط بإثبات وجودها أو وجود ما أُثبت لها، وما يترتب عليه

من آثار وصفات، دون أن تنظر إلى ما وراء ذلك، بتعقُّل الكيفيات التي يترتب عليها من آثار وصفات هذه الأشياء الغيبية؛ لأن العقل قاصر عن التكييف الصحيح لهذه الأشياء؛ وذلك أنها خارجة عن نطاق الزمان والمكان والمادة، المحدود بها عقل الإنسان، والذي لا يستطيع تجاوزها، مهما حلَّق به الخيال؛ لأنه سيركب لماهية هذه الأشياء من الأجزاء التي يأخذها من عالم المادة، ولهذا نهى الشرع عن ذلك، قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١)، وقال أيضًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾ (الإسراء). وكما جاء عن النبي ﷺ في الحديث: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ﷻ"[١].

ولهذا كان عاقبة الذين أجهدوا عقولهم بالبحث في حقائق صفات الله ﷻ وأفعاله أن تخبطوا، وقاسوا الله على خلقه، وأوجبوا عليه أشياء، وقبَّحوا صدور أشياء منه، وحسَّنوا أخرى إلى ذلك، ولعل حوار أبي الحسن الأشعري ـ حين كان معتزليًّا[٢] ـ مع شيخه الجبائي يعكس لنا مدى ما وصلوا إليه من تكييف لصفات الله يقوم على تنظيرها وفق الحدود البشرية، سأل أبو الحسن عن ثلاثة إخوة ماتوا: مؤمن، وكافر، وصبي، ما عاقبتهم؟

أجاب الشيخ الجبائي: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصبي من أهل النجاة، فسأل الأشعري ولِمَ؟ فقال الجبائي: لأنه يقال: إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة، وليست لغيره، فرد الأشعري قائلًا: فإذا قال الصبي لم أقصر، ولكني متّ قبل أن أتمكن من عملها، فقال الجبائي: إن الله يقول له: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت، فكانت مصلحتك في الموت صغيرًا، فرد عليه الأشعري: فإذا قال الكافر: ولماذا لم تراع مصلحتي أنا الآخر، فأموت صغيرًا؟ فبهت الشيخ، ولم يُحر جوابًا.

وليس في هذا حَجْر على العقل الإنساني، ولكنه توجيه له أن يعمل في حدوده ومجاله الذي يدركه، وحفظ له من التيه والضياع في أوديةٍ ليس له فيها دليل، ولا هاد.. كما يعترف علماء الطبيعة أن كثيرًا من الحقائق لا ندركها كما ندرك الأشياء المحسوسة، وإنما نعرفها عن طريق الاستنباط والتعليل، وكلاهما طريق فكري نبتدئ فيه بواسطة حقائق معلومة حتى ننتهي إلى أن الشيء الفلاني يوجد هنا، ولم نشاهده مطلقًا، فلا نستطيع توصيف وضعيته. يقول السير آثر أدبختن (١٩٤٤م): "نجد لكل شيء صورة ذات وجهين: أحدها ملحوظ، والآخر صورة فكرية، لا سبيل إلى مشاهدتها، بأي ميكروسكوب، أو تلسكوب"، فإذا كان هذا إقرار العلماء بعجز العقل عن إدراك ماهيات

١. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم من اسمه محمد (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالله ﷻ، فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله ﷻ في حدث العالم (١٢٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٨).

٢. المُعتزِلي: نسبة إلى المعتزلة، وهم فِرْقة من الفلاسفة المسلمين تعدُّ أول مذهب في علم الكلام الإسلامي، اعتمدت على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية، نشأت في البصرة في أواخر القرن الأول الهجري، ويرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري حينما سُئل الحسن عن مسألة "مرتكب الكبيرة".

أشياء بين يديه أو في متناول أجهزته، فلا ريب أن حقائق عالم الغيب أبعد على العقل من أن يحيط بكنهها وماهيتها.

أما فيما يتعلق بمنهج العقل في هذا الميدان من منظور إسلامي فقد تجلى في:

- اعتماد الإسلام على الفطرة التي أودع الله في قرارتها هذا الدين، حيث تكون عونًا لصاحبها في عرفان الحق في هذا السبيل، في جانبها الإلجائي الذي تحدو به صاحبها للبحث عن الحق والالتزام به، وفي جانبها الإمكاني الذي عليه يقوم فهم العقل لكثير من مسائل العقيدة.
- وعندما يعرض لهذه الفطرة ما يحجب رؤيتها، فإن الأدلة العقلية التي جاء بها الوحي، بخصائصها التي تفرد بها، كفيلة بإيقاظ هذه الفطرة، وجلاء صدئها لتشرئب إلى الحق وتطمئن إليه.
- كما أن للعقل عملًا فيما عرضه الوحي من قضايا العقيدة، يتمثل في تلقيها بصفتها هبة من لدن الله للإنسان، وتفهمها بقدر الطاقة البشرية.
- وهذا الإيمان والمعرفة إنما يتناول وجود هذه القضايا، دون الإغراق في تعقل حقائقها، وتكييفها، مما يضل فيه العقل عن الحق، ولا يجني فائدة.
- كما أن العلم المطلوب في هذا المجال ليس على الصورة التي فرضها المتكلمون ورسموها فيها، فالعلم محدود بحدود الطاقة البشرية، كما أن له طرقًا عدة، وليس محصورًا في القياس البرهاني وحده.

٢. حدود العقل في ميدان التشريع:

إن ثمة شروطًا ضرورية يجب أن تتوفر في العقل الإنساني؛ ليكون مؤهلًا للاستقلال بالتشريع للحياة البشرية، وهذه الشروط هي:

- العلم بحقيقة الإنسان كما هي في نفس الأمر.
- العلم بحقيقة الخير والشر على الإجمال والتفصيل.
- العلم اليقيني بما ستكون عليه الحياة البشرية في مستقبلها.

وقد تبين من خلال ما وجَّهته الدراسات النقدية للعقل أنه مخفق في الوفاء بتلك الشروط جميعًا، حيث:

- بقي الإنسان عصيًّا على فهم العقل البشري له؛ لما ينطوي عليه من جانب وحي غيبي - ميتافيزيقي - لا يخضع لمناهج العقل التحليلية.
- أخفقت معايير القيم الخلقية وقوانين الأنظمة عن إقامة السلوك البشري على نحو تتحقق به سعادة الإنسان، وأمنه.
- لم يتجاوز هذا العقل في حكمه على مستقبل الحياة البشرية المتفردة في أحداثها - خلافًا للمادة - الظن والتخمين.

ويضاف إلى ما سبق في مجال نقد العقل في هذا المجال شرط رابع وهو: تحرر العقل من التأثر بالأشياء الخارجية؛ بحيث لا يكون لها تأثير على ما يقدمه من أحكام، وهذا ما يصف به العلمانيون العقل الذي سيتولى تخطيط الأنظمة بنفسه، حيث يكون في حالة صفاء فطري خالص، وهو الصورة التي رسمها كانت للعقل الذي سيتسلم سلطة التشريع للأخلاق.

فهل يا ترى له وجود في عقل الإنسان الذي عاش في بيئة معينة، وتعلم علومًا متنوعة، واكتسب ما شاء

من ثقافات، وصار لصاحبه وضع اجتماعي ومادي معين، هل باستطاعة هذا العقل أن يتجرد من الهوى وحظ النفس، والعوامل الأخرى، فيستقرئ فطرته مباشرة؟!

الحقيقة التي تشهد بها الحياة البشرية أن العادة والوراثة والمصالح المباشرة والنوازع الغريزية والشهوات عوامل لا يستطيع العقل أن يتخلص من تأثيرها كلها أو بعضها.

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه الحقائق، مبينًا جهل الإنسان بنفسه، وبمستقبل حياته، وبحقيقة الخير والشر في الأفعال، وبتأثره بالعواطف.

فإذا ما تجاوزنا الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي في مدى أهلية العقل في هذا الميدان، وجدنا تاريخ التشريع، والنظم يشهد بصدق النتيجة التي أدت إليها المقدمات السابقة القاضية بعدم قدرة العقل على الاستقلال باعتباره مصدرًا للمعرفة في هذا المجال، من خلال ما طَبَع الأنظمة التي قدَّمها من اختلال وتطرف وتأرجح ذات اليمين، وذات الشمال، وإفراط في جانب يقابله تفريط في الآخر، واستعباد من فئة لغيرها مما ليس في وسعنا أن نفيض فيه.

وحسبنا هنا قول دوفرجيه، الذي يُعتبر أحد العمالقة في فقه القانون الدستوري في العصر الحديث: "إن القانون الوضعي كان دائمًا خادمًا للسلطة الحاكمة، تستخدمه لأغراضها، مخالفة بذلك الأوضاع الطبيعية؛ فهي إذا أرادت أمرًا، فإنها تبادر إلى إصدار قانون، تقيد به حريات الناس، وتأكل به أموالهم، تحل به الحرام، وتحرم به الحلال".

وبعد، فلا يبقى أمامنا سوى البحث عن مصدر آخر يحقق لنا ما عجز العقل عن تحقيقه، مصدر أعلى من العقل تتوفر فيه الشروط السابقة التي لم تتوفر في العقل، وما هذا المصدر سوى الوحي، الذي أنزله الله خالق الإنسان العليم بحقيقته، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد بين ﷻ انفراد الوحي بمصدرية هذا المجال، وأن على الإنسان أن يتجاوز مصادره الضعيفة ليتلقاه منه، قال ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ (النجم).

كما بيَّن ﷻ أن من تجاوز هذا الوحي إلى غيره فقد أقحم نفسه في ميادين ليس فيها سوى الاضطراب والشقاء: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ (ق)؛ أي: في أمر مضطرب لا ثبات له ولا قرار، وهو الباطل الذي مالوا إليه بعد أن حادوا عن الحق، ومن هنا فقد تكفل الوحي بهذا الميدان، كما تكفل بسابقه ميدان العقيدة.

وخلاصة القول في مجال العقل في ميدان الشريعة أن الله ﷻ قد أودع في فطرة الإنسان معرفة الحسن والقبح، والخير والشر، لكن هذه المعرفة لا تتجاوز معرفة القيم في جملتها، دون تفاصيلها، وحسبها أن تكون مُهيَّأة لاستقبال العلم اليقيني فيها من الوحي، وأن تكون شاهدًا في النفس على صدق هذا العلم. وقد أنيطت بالعقل مهمة البحث عن الحكم الشرعي واستخراجه من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، وتكييف الواقع الإنساني على ضوئها بتطبيق أحكامها على الجزئيات الموجودة فيه، وملاحقة ما يجد من أحداث؛ لتبقى

مربوطة بشرع الله.

ولعله من البيِّن هنا أن هذا العمل المنوط بالعقل يتفق مع فطرته وحدود إدراكه، وأنه يختلف مع الاتجاه العقلي الذي فَرَض على العقل ما ليس في طاقته بأن يشرِّع ابتداء دون مدد يستقي منه، أو ضوابط يسير في ضوئها[1] ®.

الخلاصة:

- ادعاء أن الدين يسلب أتباعه حريتهم وكرامتهم، إن صدق على الأديان الباطلة، فإنه لا يصدق على دين الإسلام؛ لأنه جاء ليحرر الإنسان من عبودية غير الله، وأتاح له حرية التفكير والتعبير والاعتقاد، وأشعره بكرامته وإنسانيته، حينما جعله حرًّا في اتخاذ قراراته.
- القرآن دائمًا يخاطب العقول، ويوجهها إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض؛ لاستلهام العبرة والعظة، فكيف يدعوهم إلى ذلك، وهو يسلب منهم حريتهم وكرامتهم؟!
- آيات القرآن ترفض أن يقبل الإنسان شيئًا، وهو غير مقتنع به، حتى الدخول في الإسلام نفسه؛ اعتبارًا لإرادته واختياره، فكيف يُتَصور أن فيه سلبًا لحرية الإنسان وكرامته؟!
- الإسلام هو الذي أعطى للإنسان كرامته وردَّ له حقوقه المسلوبة، بل فضَّل الإنسان على سائر المخلوقات واستخلفه في الأرض، بل إن تعاليمه سبقت كل مواثيق حقوق الإنسان، وقصرت دونها كل دساتير العالم في هذا المجال.
- ليس في الإسلام رهبانية، ولا واسطة بين العبد وربه، ولا سلطة لأحد على أحد، بل إن علماء الإسلام وحُكَّام المسلمين كانوا مع رعيتهم سواءً أمام الشريعة والقضاء.
- تعاليم الإسلام جاءت لتزكية النفوس وتطهيرها، وصون المجتمع من الفساد والرذيلة، وحفظ حقوق الناس، وليست فيها أي قيود.
- اعتماد الإسلام على الفطرة التي أودع الله في قراراتها هذا الدين؛ لتكون عونًا لصاحبها في معرفة الحق والالتزام به.
- العقل له حدوده الإدراكية، وهناك أمور أبعد من أن يحيط بكنهها وماهيتها، كأمور الغيب، وكذلك لا يستقل بالتشريع في الحياة البشرية، إنما يفهم مراد هذه الأمور دون أن تصطدم بمبادئه وفطرته السوية.

---

1. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، مرجع سابق، ص٤٠٥: ٤١٥.

® في **"مجالات عمل العقل في الإسلام وحدوده"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة. والوجه الثالث، من الشبهة الثانية عشرة؛ من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

المحور الرابع

شبهات حول الفرق والمذاهب الفكرية

الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى أن الدين أفيون الشعوب (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن "الدين أفيون الشعوب"؛ إذ إنه يفعل فيها ما يفعله المخدِّر في متعاطيه؛ وذلك أنه يخدِّر الكادحين والمظلومين عن ثورتهم أو عن إحساسهم بالألم، بما يمنِّيهم من نعيم الآخرة الذي أُعِدَّ للصابرين على الظلم، والراضين بالشقاء.

ويرون أن هذا الأمر ينطبق تمامًا على الدين الإسلامي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قولهم إن: "الدين أفيون الشعوب" دعوى نادى بها كارل ماركس، مريدًا بها أن الدين يفعل في الشعوب ما يفعله المخدِّر في صاحبه. ولقد طبق الشيوعيون في الشرق الإسلامي هذه الدعوة على الإسلام.

٢) إن هذه المقولة تصدُق على غير الإسلام، ولا تصدق على الإسلام بحال من الأحوال.

٣) إن ثمة أدلة من القرآن الكريم والحديث وأقوال الصحابة الكرام ﷺ ـ تهدم هذه الفرية من أساسها.

(*) إفلاس الماركسية، أحمد حسين، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م. آراء يهدمها الإسلام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. موقع البلاغ www.balogh.com، موقع www.louemorocco.net

التفصيل:

أولا. أصل مقولة "الدين أفيون الشعوب":

تلك مقولة كارل ماركس، ودُعاة الشيوعية في الشرق الإسلامي يردِّدونها وراءه، ويريدون تطبيقه كذلك على الإسلام.

وكارل ماركس أو غيره من الدعاة الأولين للشيوعية ربما كانوا معذورين في ثورتهم على الدين ورجاله، بسبب الملابسات الخاصة التي واجهتهم هناك فقد كان الإقطاع يمثل أبشع أدواره في أوربا، وفي روسيا بوجه خاص، حيث يموت الألوف جوعًا كل عام، ويموت الملايين بالسل وغيره من الأمراض، والصقيع يقضي على عدد مماثل.. كل ذلك والإقطاعيون يلغون في دماء أولئك الكادحين، ويعيشون في ترف فاجر يستمتعون فيه بكل ما يخطر على القلب من ألوان المتاع. فإذا خطر للكادحين أن يرفعوا رءوسهم، بل إذا خطر لهم أن يحسوا مجرد إحساس بالظلم الذين يعيشون فيه، أسرع رجال الدين يقولون لهم: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أخذ رداءك فاترك له الثواب أيضًا". وذهبوا يخدرونهم عن ثورتهم أو إحساسهم بالألم، بما يمنونهم به من نعيم الآخرة الذي أعد للصابرين على الظلم، والراضين بالشقاء.

فإذا لم تفلح الأماني البعيدة فليفلح التهديد. فمن عصى سيده الإقطاعي فهو عاص لله وللكنيسة ولرجال الدين. ولنذكر أن الكنيسة ذاتها كانت من دورات الإقطاع، وكان لها ملايين من رقيق الأرض تستعبدهم لحسابها الخاص، فكان طبيعيًّا أن تقف في صف القيصر

والأشراف ضد الشعب المكافح؛ لأن الملّاك جميعًا معسكر واحد ضد المكافحين، ولأن الثورة - يوم تقوم - لن تعفي أحدًا من مصاصي الدماء سواء كانوا من الأشراف أو من رجال الدين.

فإذا لم تفلح الأماني والتهديد معًا فلتوقع العقوبات فعلًا على الثائرين، ولتوقع باسم تأديب الخارجين على الدين والملحدين بآيات الله.

ومن هنا كان الدين عدوًا حقيقيًّا للشعب هناك. وكانت قولة في محلها تلك التي قالها كارل ماركس: "الدين أفيون الشعوب"... هناك!

ولكن الشيوعيين في الشرق الإسلامي يشيرون إلى مسلك رجال الدين المحترفين في استرضاء ذوي السلطان على حساب الكادحين من الشعب، وتَمْنِية هؤلاء بالجنة التي أُعِدَّت للصابرين؛ ليرضوا بما هم فيه من هوان وظلم، ويستمتع المجرمون وهم آمنون. ويستشهدون مثلًا بما كان من بعض رجال الأزهر في عهد فاروق، كانوا يقبِّلون يده ويلقبونه بالملك الصالح، ويدعون له، ويؤولون آيات القرآن على مزاجهم، ويزيفون معالم الإسلام ليستخرجوا من هذه وتلك ما يثبِّت سلطانه، ويمنع الشعب المكافح من الثورة عليه، وإلا اعتُبِر هذا الشعب خارجًا على أوامر الله التي توجب الطاعة لأولي الأمر!

ثم يخلط الشيوعيون بهذه الحقيقة شبهةً مؤداها أن الإسلام ذاته يأمر بهذا الفحش؛ إذ يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢) ، أو يقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه)، فالإسلام إذن ككل دين، أفيون يخدر المكافحين[1].

ثانيًا. صِدْق هذه المقولة على غير الإسلام:

قيلت هذه العبارة - الدين أفيون الشعوب - في حقّ أوربا عندما عطَّلت الكنيسة فيها العقل وجمَّدته، وشكلت طبقة من الإكليروس متميزة، ظهر منها، ما لا يليق بها، وخاضت صراعًا عنيفًا بين العلم والدين، وقالت للإنسان: "أطع وأنت أعمى". لذلك جابهت العلماء وحرقت بعضهم، وعلى سبيل المثال جعلت القول بكروية الأرض ودورانها جريمة. هذه الأحوال المعطلة للعقل، والصادة عن العلم، والواقفة عقبة كئود في سبيل تقدمه - يحق فيها ما قيل عنها.

أما الدين الذي جعل من تعاليمه تقديس العقل، وتكريم العلم والعلماء في أي اختصاص، فلا ينطبق عليه مثل هذا القول، إن الدين الذي من تعاليمه قوله الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، لا ينطبق كذلك عليه القول المذكور، والدين الذي جعل من مبادئه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١) لا ينطبق عليه القول المذكور.

"ونخلص مما سبق إلى أن الصياغة الصحيحة الموافقة للواقع لمثل هذه المقولة التي نحن بصدد مناقشتها: الدين - في أوربا - أفيون الشعوب".

ثالثًا. الأدلة التي تهدم هذه المقولة:

هناك شواهد وأدلة من إسلامنا، كل واحد منها

١. شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٨٤، ١٨٥.

كاف لرد الفرية القائلة: "الدين أفيون الشعوب".

يقول الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)﴾ (النساء)، فهل يصحُّ جَعْل هذا الدين الذي يجعل كل المجالس التي ليس فيها إصلاح وخير للمجتمع لا خير فيها أفيونًا؟! إنه دين المجتمع الفاضل المتكافل المتحابّ.

دين يجعل من مبادئه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39)﴾ (النجم)، دين ينبذ الكسل والتواكل، ويحب السعي والعمل، استعاذ نبيه ﷺ من الجبن والبخل والعجز والكسل، دين يجعل السعي مبدأ، والعمل أساسًا، ـ ليس أفيونًا.

دين يجعل من تعاليمه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: 105)، دين يقدِّس العمل ويأمر به، دين يحث على الحركة الدائبة في طلب الرزق الحلال ـ ليس أفيونًا.

دين ورد في دستوره: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم)، فدين يعلِّم أتباعه، ألَّا تواكل، وأنتم في أضعف حالة من القوة والنشاط، لن يصلكم رزقكم إلَّا بالعمل، قدموا طاقتكم وابذلوا ما في وسعكم، فهو دين حياة، وليس أفيونًا، فالخطاب في الآية الكريمة لمريم وهي في ساعة الولادة، ومع ذلك لم يرسل الله لها رزقها دون حركة وعمل، بل قال لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25)﴾ (مريم)، وهذا تعليم للمؤمنين، ألَّا رزق بدون سعي، فلا رُطب بدون هزِّ جذع النخلة، فدين هذه تعاليمه، هل هو أفيون؟ لا أحسب عاقلًا يقول هذا.

قال نبي الإنسانية ﷺ: "لأنْ يحتطب أحدكم حِزْمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه"[1]. وقال ﷺ: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[2]. فهل دين فيه هذا التقدير للعمل والعمال، دين تخدير وأفيون؟ أيقول عاقل هذا؟

كان عمر رضي الله عنه يرى الرجل فيسأله عن مهنته، فإذا قال: لا مهنة لي، سقط من عينه رضي الله عنه. ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رجل مظهر للنسك متماوت، فخفقه بالدرة، وقال: "لا تُمت علينا ديننا، أماتك الله". وقال على المنبر: "من أحيا أرضًا ميتة فهي له".[3] وكان يشجِّع الناس على استقطاع الأرض الفلاة؛ بُغْيَة إعمارها، فأين تخدير الأفيون؟

قال النبي محمد ﷺ: "اللهم بارك لأمتي في بُكورها"[4]، فالإسلام نَبْذٌ للكسل، وهمة عالية في استقبال نهار جديد.

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشرب والمساقاة، باب بيع الحطب والكلأ (2245)، وفي مواضع أخرى.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (1966).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضًا مواتًا، معلقًا عنه به.
4. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (1319)، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور (2236)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1300).

وأخيرًا ـ والأدلة الداحضة كثيرة ـ نقول: لقد كانت هذه الأمة في أفيون ـ في مخدر ـ عندما كان بأسها بينها شديدًا، وعدوها يتربع فوق أرضها، مخدرة عن عدوها بثاراتها وغزوها، سكرانة في تفاخر أجوف، وعظمة مفتعلة. فجاء الموقظ، جاءها المحيي، جاءها المنشط، جاءها الحافز، جاءها المنبه. لقد لامست "الله أكبر" أسماع العرب فأيقظتهم، وجاءت تربية رسول الله ﷺ فأحيتهم، وجعلت حب المعالي هدفًا فتحفز المارد المسلم.. فإذا جيشه في الصين شرقًا، وفي قلب فرنسا غربًا، إن دينًا يجعل العرب الذين كانوا ضائعين في جزيرتهم يفتحون العالم بعقيدة إخاء ومحبة وإنسانية وعزة، ليس أفيونًا فلو كان الإسلام أفيونًا لما وصل به المسلمون إلى الصين والهند، وإندونيسيا، وغيرها.

ونقول: إن كل عقيدة ـ ولو أنها ادعت العلمية وجعلتها شعارًا براقًا ـ جعلت من أتباعها نسخًا كربونية من عقل إنسان يخطئ ويصيب، بل جعلتهم آلات انعدمت فيهم الروحانية، يشقون ويتعبون ويحلمون بجنة موعودة، وفردوس منتظر، بينهم وبينها اختلاف في الاتجاه قدره مئة وثمانين درجة، مثل هذه العقيدة، ولو ادعت العلمية، واتهمت غيرها بما اتهمت، هي أفيون الشعوب، والمصيبة أكبر عندما نعلم أنها غارقة في مخدراتها ونراها تنطق، وهي بهذه الحال، أن غيرها مخدر، وهي اليقظة العلمية.. رحم الله العقاد، عندما اطلع على فكر وفلسفة هؤلاء، ثم كتب كتابه "المذاهب الهدامة أفيون الشعوب"؟!

يقول المفسرون في آية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء:٣٢): إنها نزلت بشأن امرأة قالت: لماذا يختص الرجال بالجهاد في سبيل الله وتحرم من ذلك النساء؟ وقيل: إنها نهي عن التمني الفارغ مع القعود عن العمل؛ لأنه يؤدي إلى الحسد ـ وهو شعور منحرف ـ دون إنتاج عملي يفيد منه المجموع. أي أنها دعوة للناس أن يعملوا ما ينالون به الفضل، بدل أن يتمنوا وهم قاعدون.

أمّا الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ (طه) فهي دعوة إلى الاستعلاء على القيم المادية، التي قد تدعو إلى إكبار أصحابها في أعين المحرومين منها. والخطاب فيها على الأرجح موجه إلى رسول الله ﷺ لإصغار شأن الكافرين الذين في أيديهم من متاع الحياة الشيء الكثير، ولكنه هو أعلى منهم بما معه من الحق القوي. فهي في واد آخر غير ما يفهمه منها السطحيون!

ويظهر أن هؤلاء المفسرين في صدر الإسلام كانوا يعلمون أن الشيوعية ستظهر بعد ألف عام، وأن دعاتها سيتهمون الإسلام، فقاموا ينفون عنه التهمة، وينتحلون التفاسير التي تحول الحق عن وجهته، فأبدوا هذه الآراء التي تحمل الرد الكافي على الشيوعيين وغير الشيوعيين[1]!

الخلاصة:

- "الدين أفيون الشعوب" مقالة نطق بها كارل ماركس، اخترعها؛ ليزعم بها أن التدين مخدِّر ومبلِّد للشعوب، وكلامه هذا صحيح إذا قصد به الدين

١. شبهات حول الإسلام، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٨٧.

المسيحي، ورجال الكنيسة في أوربا، أما إذا قصد به الإسلام، فكلامه مردود؛ لأنه الدين الصحيح الحنيف ملة إبراهيم، الذي أمر الله خلقه بإقامته، دين يلهب القلوب والمشاعر، مُحرك لجميع الأحاسيس والقوى، دافع بها إلى الأمام، لا يقبل من أهله الذل والاستكانة، والخضوع للظلم، ومجاملة الأعداء، والسكوت عن الباطل، والفساد، أو الجمود على طقوس وأوضاع ما أنزل الله بها من سلطان. إنه يوجب عليهم النهوض والاستعداد بكل قوة، وتسخير كل دابة ومادة على وجه الأرض، أو في جوفها أو في أجوائها؛ كيلا يغلبهم عدوهم في ذلك، وأن يجعلوا جميع مواهبهم وطاقاتهم في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، وقمع المفتري والبراءة ممن جانب دينه وتنكَّر حكم شريعته.

- هذا الدين الصحيح على العكس مما قاله كارل ماركس وأتباعه وتلاميذه، أما الأديان الأخرى المزعومة من لاهوتية وثنية فيصح أن يُقال عنها: إنها أفيون للشعوب؛ لتقيد أهلها بالخرافات.
- إن ثمَّة أدلة من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة الكرام ﷺ تهدم فكرة الأفيونية تلك من أساسها.

الشبهة السادسة والعشرون

الزعم أن الشيوعية تغني عن الدين عمومًا وعن الإسلام خصوصًا(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الدِّين وسيلة لخداع الناس، خاصة الفقراء والمساكين والمتعصِّبين، وما الحياة إلا مادةٌ تحكمها الطبيعة بقوانينها التطورية؛ فلا إله، ولا أخلاق، وصلاح الناس إنما في تشيعهم، لا تديُّنهم أو إسلامهم، ذاهبين إلى أن النظرة الشيوعية الماركسية تُغني عن التَّدين عمومًا، وعن الإسلام خصوصًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الشيوعية أو الماركسية مذهب لا يعترف بالله ولا بالوحي؛ لأنه لا يؤمن بما وراء المادة، ويعتبر الدين خدعة للسيطرة على عقول المستضعفين، والعوامل الاقتصادية - في حسابهم - هي المحرك الأول للأفراد والجماعات، وقد ساعد على انتشاره فساد العقيدة النصرانية، كما أنه يُعَدُّ خلاصة الإلحاد الذي نادى به أصحاب الفكر الفلسفي الأوربي في عصور النهضة.

٢) تأسست الشيوعية لصالح المشكلة اليهودية التي لن تجد حلًّا - في تقديرهم - إلا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره، وإذابة الأديان كلها في بوتقة الماركسية.

٣) الشيوعية عقيدة تعادي الأديان كلها، وتخص الإسلام بمن العداوة ولها أساليب متنوعة في حربه.

(*) تعالوا نعيد النظر فيما نعتقد، حسن يوسف، دار الشعب، القاهرة، د. ت.

٤) الإسلام يقر بوجود الله الخالق المدبر، ولم يشغل الشعوب عن المطالبة بحقوقها، ولكنه قضى على العنصرية. وهو يرفض الشيوعية ويحاربها ويقاومها.

التفصيل:

أولا. الشيوعية (الماركسية): نشأتها، تطورها، أفكارها:

يشير د. القرضاوي إلى أن الشيوعية هي العدو الثالث للإسلام والمسلمين بعد الاستعمار والصهيونية فيقول: "تعد الشيوعية عقيدة وفكرة ومذهبًا، كما أنها نظام دولة، وحكومة منبثقة عن العقيدة، فهي - باعتبارها عقيدة وفكرة - تعادي الأديان كلها، وتخص الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة، إنها فكرة مادية تقوم على فلسفة (المادية التاريخية) التي قال بها ماركس، والتي لا ترى وجودًا إلا للمادة، ولا تؤمن بما وراء المادة، أو الحس - الميتافيزيقا - وما دام الله الخالق للكون والإنسان غير مادي، بمعنى أنه لا يُرى ولا يُلمس ولا يُشم ولا يُذاق ولا يُدرك بأية حاسة من الحواس المعروفة، فهي لا تؤمن بوجوده، بل لا تعترف بحاكميته لخلقه، ولا بحقِّه - جل شأنه - في أمرهم ونهيهم والتشريع لهم.

إن فلسفة ماركس تؤكد ما قاله الفلاسفة الماديون قديمًا وحديثًا، مثل فويرباخ الذي قال: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله! فالدين في نظر الشيوعيين خرافة روجتها طبقات الملوك والنبلاء الأثرياء والإقطاعيين وأمثالهم؛ لإلهاء الفقراء والطبقات الكادحة والمسحوقة في المجتمعات البشرية عن المطالبة بحقوقهم، والثورة على ظالميهم، على أمل أن يعوضوا عن ذلك في الجنة. والدين بهذا الاعتبار يعد مخدِّرًا أو أفيونًا للشعوب، كما قال ماركس ومن تبعه.

والشيوعية لها فلسفة في تفسير الكون والحياة والإنسان والتاريخ، تناقض فلسفة الإسلام وفكرته الكلية في تفسير هذه الأشياء؛ فالكون هو هذا المادي المنظور، ولا يوجد كون آخر غير منظور، ولا خالق يدبر هذا الكون. والحياة هي هذه التي نعيشها، ولا حياة أخرى وراءها للحساب والجزاء. والإنسان هو هذا الغلاف الطيني المادي الذي نراه، ولا روح فيه. والتاريخ إنما تحركه وتسيِّره عوامل اقتصادية بحتة، وعلاقات الإنتاج وأساليبه هي التي تحدد مسيرته"[1].

أما العوامل الروحية والأخلاقية والفكرية، فليس لها اعتبار يُذْكَر.

والشيوعية تقوم على فلسفة حتمية الصراع بين الطبقات. وقد كانت روسيا مقرًّا لقيام الشيوعية؛ لكثرة أقطاب اليهود القاطنين فيها، ولوجود مجموعة من منكري اليهودية، والمذاهب الاشتراكية[2] على أرضها أمثال: لينين وترتسكي وستالين[3].

وقد نُسبت تلك الفلسفة المادية إلى اثنين، هما: ماركس ولينين، فصارت تسمى بالماركسية - اللينينية، وقد برزت هذه المادية التاريخية ممثلة لرد فعل عنيف

١. أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٠٥ وما بعدها.

٢. الاشتراكية: مذهب سياسي واقتصادي يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التوزيع والتخطيط الشامل.

٣. المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٤، د. ت، ص١١٥، ١١٦.

سياسي وفلسفي، على المجتمع الرأسمالي[1] الأوربي في القرن التاسع عشر. كانت السمة الغالبة على ذلك المجتمع وجود طبقتين اجتماعيتين متعاديتين: طبقة برجوازية[2] رأسمالية، تقوم على ركائز الإنتاج والاقتصاد والمال والسياسة، وطبقة كادحة صناعية، أو زراعية، أو حرفية، خاضعة لسيطرة الطبقة الأولى. وهكذا ثبتت الاشتراكيات الحديثة، في مناخ القرن التاسع عشر في أوربا في وقت كانت الرأسمالية التي تفجرت في أوربا بعد الإصلاح الديني بها، قد وصلت إلى حالة من الإفلاس، نتجت عن فساد العقيدة المسيحية في الغرب، فلم تعد هذه العقيدة قادرة على أن تفسر العالم للإنسان الأوربي، تفسيرًا يقبله عقله أوضميره أو حسه الديني، فجاءت تلك الاشتراكيات الحديثة، لتسد ذلك الفراغ.

ولكن ثورات عام ١٨٤٨م فشلت، وبذلك خابت آمال ماركس، وزاد من خيبة أمله طرده من ألمانيا، حيث سافر إلى باريس، وقابل هناك الفيلسوف الألماني أنجلز (١٨٢٠ : ١٨٨٥م) الذي كان قد أمضى في إنجلترا بعض الوقت متصلًا بالاشتراكيين الإنجليز، وفي سنة ١٨٤٩م، طرد ماركس من باريس، فذهب إلى بروكسل، وبصحبته زميله وصديقه أنجلز، وقضى ماركس بقية حياته في تهذيب (البيان الشيوعي). وفي عام ١٨٦٧م نشر الجزء الأول من كتابه (رأس المال)، ثم قام أنجلز بإصدار الجزأين الثاني والثالث في عامي ١٨٨٥م، و ١٨٩٥م على التوالي، بعد موت المؤلف ويتضمن المجلد الأول جوهر تعاليم ماركس، وكان ماركس يحلم بأن تتفجر ثورته الشيوعية في إنجلترا، أكثر البلاد الرأسمالية تقدمًا في ذلك الوقت، ولكن كتب لها أن تتفجر في أكثر البلاد تخلفًا في ذلك الوقت، في روسيا القيصرية، وسهر على تطبيق الماركسية في روسيا بعد الثورة البلشفية (لينين)، وإلى الرجلين - ماركس ولينين - صارت الاشتراكية الحديثة، أو العلمية، أو الشيوعية، أو (الماركسية - اللينية) تُنسب إلى هذين الرجلين، ومن الاتحاد السوفيتي انتقلت الشيوعية، بعد الحرب العالمية الثانية إلى بلاد أوربا الشرقية.

وهدمت الشيوعية كل أساس قامت عليه الرأسمالية، فصادرت الحرية السياسية، وألغت الملكية الفردية، وحاربت الأديان السماوية، واعتبرتها من أسباب تخلف الشعوب، وأنكرت وجود الله، وجعلت للناس إلهًا جديدًا هو الدولة، وعلى رأسها رئيسها بطبيعة الحال[3].

وهناك عوامل كثيرة ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم، ومكَّنت للمذهب الشيوعي والإلحاد المدمر في أوربا، أهمها[4]:

١. ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك

١. الرأسمالي: نظام اقتصادي تكون فيه رءوس الأموال مملوكة لأصحاب الأموال الموظَّفة، وغير مملوكة للعمال.

٢. البُرجوازيَّة: طبقة اجتماعية وسطى نشأت في عصر النهضة الأوربية بين الأغنياء والزُّرَّاع، وأصبحت دعامة النظام النِّيابي، ثم صارت في القرن التاسع عشر الطبقة التي تمتلك وسائل الإنتاج.

٣. العقيدة الإسلامية والأديولوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، مرجع سابق، ص٨٦: ٨٨.

٤. انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٥٦ ومابعدها.

النصارى على استعباد الشعوب النصرانية واستذلالهم واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

٢. فساد الديانة النصرانية، وبطلانها ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، الأمر الذي يسهل على أتباعها التنكر لها، والكفر بها، بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها، وينتقدها ويبين خطأها.

٣. طفرة العلوم الكونية، والصناعية، والآلية، طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النظرية فِرْية ظاهرة معلومًا كذبها، ومعروفًا كاذبها.

وقد أدت هذه الطفرة بالاتحاد السوفيتي إلى أن يكون القوة الثانية في العالم بلا منازع في أقل من نصف قرن من الزمان، فسبقت روسيا بذلك بلادًا سبقتها على طريق التقدم، بأكثر من مائتي سنة؛ كإنجلترا وفرنسا، ففي عام ١٩١٣م كان نصيب روسيا القيصرية من الإنتاج الصناعي العالمي يزيد قليلًا عن ٤ ٪، وبعد ذلك صارت الصناعة السوفيتية تمثل حوالي ١/ ٥ من الإنتاج العالمي، رغم أن البلاد لا تمثل أكثر من ١/ ١٥ من سكان العالم. وكان الاتحاد السوفيتي أول بلد في التاريخ يرسل رجلًا إلى الفضاء.

ولقد كانت هذه الإنجازات هي التي حَدَت بالدارسين والباحثين إلى دراسة الشيوعية، وجعلت من الاشتراكية مطلبًا عزيزًا تسعى إليه دول العالم الثالث؛ لتختصر طريقها إلى المستقبل، بعد أن ضيَّع الاستعمار عليها الكثير من الفرص في الماضي.

٤. ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ، ونفوره من القيود والأنظمة التي تحدُّ من ميوله وتوجه غرائزه، لا سيما إذا وجد مشجعًا على ذلك مؤيدًا له في نزعته التحررية الإباحية التحللية من كل القيود الأخلاقية والالتزامات الدينية الشرعية.

٥. غيبة الحكم الإسلامي، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل الإسلام وسلطانه الروحي، وانحساره عن المد الخيري الذي كان يمنح البشرية في شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية والأخلاقية البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ إن الفترة التي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي كان الإسلام قد ران عليه عقائد الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والدمار؛ نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنيه عنه، فوجد ذلك المذهب الإلحادي جوًّا خاليًا للتضليل والمغالطة والفساد، فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونسب كل ضعف في الناس إليها، وكفر بها وحاربها، ووجه نقده إليها بلا هوادة.

أما والله لو وجد هذا المذهب الإلحادي الإسلامَ حاضرًا ما غاب، فوجد اختراعاته، وتفوقه في كل مجالات الحياة العلمية، من كونية وتقنية وتشريعية وروحية، ووجد عدله في شعوبه ورحمته للناس أجمعين، ووجد سعادته تغمر أهله وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم ـ لما أمكنه أن يقول، فضلًا عن أن يصول أو يجول.

من أين استقى ماركس أفكاره التي بنى عليها نظرته الشيوعية؟

إن الراصد لتاريخ البشرية يرى أن حقيقة الألوهية كانت هي الطابع المشترك الذي لم تتخل عنه البشرية، ولم ترفضه إلا في الندرة عن طريق الواحد بعد الآخر، وإن كان تخليها عن طريق تصورها عن طبيعة الإله أو ذاته، حتى جاء عصر النهضة الأوربية، ونادى أصحاب الفكر الفلسفي الأوربي بأن كل العقائد المضادة للخبرة الإنسانية، والملاحظة التجريبية يجب أن تُستَبعد، ونظروا إلى النبوءات، والمعجزات والوحي، وكل الشعائر والطقوس الدينية بوصفها خرافة، وشبَّه فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) خلق الله للكون بتجميع صانع الساعات للساعة، ثم انقطاع صلته بها بعد ذلك.

ورفض دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م) العقائد الدينية على أساس عدم إمكانية البرهنة عليها، لا بالتجربة العلمية، ولا بالعقل الإنساني، وهاجم هيوم رب فولتير نفسه قائلًا: "إننا رأينا الساعات تُصْنع، ولم نر العالم يُخْلَق"، وأعلن هيوم أيضًا عدم اقتناعه بالبرهان القائل بضرورة وجود حياة أخرى، يتحقق فيها العدل في الثواب والعقاب، نظرًا لعدم تحقق ذلك في هذه الدنيا.

وزعم فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) أن الدين مصدره اللاشعور، لا الوحي، وزعم استحالة البرهنة على صحة الإيمان الديني، ومن ثم أنكر وجود الله.

وظهر نيتشه بالمذهب الوضعي الذي أنكر الإله والدين، وآمن بالطبيعة والمادة على أساس أن هذه الطبيعة هي التي تكون عقل الإنسان، والإنسان بناءً على هذا لا يملي عليه من خارج الطبيعة، وبناءً على هذا اعتبروا أن الدين خداع؛ لأنه وحي من وراء الطبيعة، وما وراء الطبيعة لا يحبونه، فلما جاء كانط طالب بأن يحل العلم الواقعي محل اللاهوت، ثم جاء ماركس آخر سلسلة في حلقة الإلحاد، وبلغت الفلسفة المادية ذروتها لديه؛ فأنكر وجود الإله، والأديان عنده أفيون الشعوب، ولم ير وجودًا إلا للمادة، ورأى أن المادة توجد قبل أن يوجد العقل، وما دام الأمر كذلك؛ فالمادة في نظره أكثر أهمية وأكثر اعتبارًا من العقل، إذ العقل متوقف على المادة في وجوده.

إن الماركسية مذهب فلسفي يؤمن بالحس وقيمته في التوجيه، وهو ضد الدين والعقل معًا، ويرى أن المادة أزلية، وأن العوامل الاقتصادية هي المحرك الأول للأفراد والجماعات، وبناء على هذا التصور أقام ماركس حتمياته التي تتلخص فيما يأتي:

- ديكتاتورية الطبقة العاملة.
- إيجاد المجتمع الإنساني عديم الطبقات.
- ظهور الدولة التي لا تعرف رجل الشرطة.
- التبشير بالحكومة العالمية.

ونعود فنتساءل: من أين استقى ماركس أفكاره التي بنى عليها هذا التصور؟ هل تكونت لديه نتيجة لدراساته المكثفة عن العوامل التاريخية، والاقتصادية، واستقراءاته الواسعة عن الأديان خاصة، والأمم والشعوب عامة، أو أنه سُبق بهذه الأفكار التي أقام عليها بنيان الماركسية، ولا يتعدى دوره فيها عن إبرازها والمطالبة بتطبيقها؟

للإجابة عن هذا التساؤل علينا أن نستعرض مع د. عبد الرحمن عميرة مبادئ الماركسية وقواعدها؛ لنعرف من أي المصادر استقى ماركس نظريته التي عُرِفت فيما بعد بالاشتراكية العلمية، أو الشيوعية:

١. لقد استخدمت الماركسية "مبدأ النقيض" لتحقيق مخططها، ومبدأ النقيض سابق على ماركس، فقد استخدمه نيتشه لتأييد العقل، وأقام هيجل عليه فلسفته لتأييد العقل والوحي. أما ماركس فقد استخدم مبدأ النقيض، وطبقًا لاستخدام مبدأ النقيض في القيم أصبحت هذه القيم تتغير، وأصبح الاعتقاد بثباتها وهمًا، وطبقًا لاستخدامه في دائرة الجماعة، أصبحت الجماعة غير مستقرة وينتظر فيها التحول حتمًا، ثم الانقلاب من وقت لآخر، فالملكية تتحول إلى الإقطاع، والإقطاع يتحول إلى الرأسمالية، والرأسمالية إلى ديكتاتورية العمال، وديكتاتورية العمال إلى الشيوعية، أو الحكومية العالمية. وأصبح الشيء الطبيعي لديها يتغير إلى مقابله، والقيمة الخلقية تتغير إلى نقيضها، والجماعة تتحول إلى ضد نظامها، كما أصبح هذا التحول منتظرًا وضروريًّا. وما يتحول إليه الأمر هو الأفضل؛ فالحال الجديدة للشيء، والقيمة والجماعة أفضل من الحال السابقة.

٢. واستخدمت مبدأ "تبعية العقل في وجوده لوجود المادة "الذي أسس عليه كانط فلسفته الوضعية، وبناء على ذلك فإنها لا ترى استقلالًا للعقل؛ فضلًا عن سيادته على غيره، وأصبح العقل في نظرها انعكاسات للمادة، أي: مظهرًا لها؛ ولأن وجود العقل غير مستقل عن المادة، وإنما وجوده كظاهرة لها فقط، أصبح الله غير موجود إطلاقًا في نظرها؛ لأنه ليس شخصًا، بل مجرد عن التشخيص الحسي، ومجرد عن التحديد الواقعي في هذه الحالة، ولذا فهو غير موجود عندها؛ لأن الموجود هو مادي فقط، أو ظاهر للمادة، والمادة هي الموجودة وحدها وجودًا أوّليًّا أصيلًا، وظاهرة المادة تابعة في الوجود لها.

وإن تبعية العقل للمادة أحلَّت "الجبر" محل "الاختيار" في توجيه الفرد، وأصبح الفرد لذلك مُجبرًا لا اختيار له، مُجبرًا ببيئته، وبوراثته، وبحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الخصوص، وهنا يبقى شعار الماركسية التطور الحر لكل فرد، الذي هو - أي الفرد - التطور للجميع.

٣. واستخدمت مبدأ "التفويض في الدين"، الذي اتجه إليه فويرباخ في فلسفته الإنسانية الطبيعية، وعلى نحو ما دعا فويرباخ إلى جعل علم الإنسان بدل الدين، وإلى جعل الإنسانية معبود الإنسان، وإلهه الأكبر، جعلت الماركسية الجماعة والدولة معبود الإنسان، وجعلت العلم المادي مصدر التوجيه له في حياته بدلًا من الوحي، أو بدلًا من العقل كمصدر للمعرفة، وإذ تجعل الدولة معبود الإنسان؛ فالآخرة ليست وراء هذه الحياة التي نعيش فيها، والجزاء ليس في دار أخرى بل هو في هذه الدار وحدها، والقربى التي يتقرب بها عابد الله إليه هي هنا إنكار الفرد والعمل من أجل الدولة.

٤. وإذ تختار الماركسية التفسير المادي التاريخي في التدليل على صحة مبدأ النقيض كمبدأ ضروري — في تحول الجماعة وانقلابها، إلى دولة ذات طبقة واحدة

عمالية، رد توافق نيتشه على أن التاريخ يكونه عظماء الفكر والسياسة، وإنما يُقر عكس ذلك: يقر قوة واحدة مادية فيه - كقوة مكونة له وموجهة لسيره - هي القوة الاقتصادية؛ فهي القوة الخالقة المحددة للتجمع ولعظماء الفكر والسياسة، واستخدمت فكرة "العقل المجرد" التي عرفت لهيجل على نحو نفسي لا فكري؛ وذلك كي تشرح نمو الإنسان وتطوره في تفكيره واتجاهه في حياته، متأثرة في ذلك بتصوير شتين تال، وهي ترتب على ذلك وجوب العناية بكل ما هو شعبي من لغة عامية وفن وعادات تبالغ في تقديرها وتفضيلها[1].

وهكذا بدأت أفكار كارل ماركس مجموعة من أفكار سابقيه، لكن أفكاره الاشتراكية كانت أكثر إقناعًا من أفكار سابقيه من الفلاسفة الاشتراكيين، لما له من كمٍّ وفير من المعرفة، وأهداف هي أهداف رجل ثوري، وأدوات ووسائل هي أدوات عالم.

ثانيًا. علاقة الشيوعية باليهودية:

يتحدث د. القرضاوي عن علاقة الشيوعية باليهودية فيقول: الشيوعية هي بنت اليهودية، ولا تنكر هذه العلاقة في روسيا أو في غيرها من البلاد، ومن أدلة هذه العلاقة ما يأتي:

١. أن كارل ماركس مؤسس الشيوعية نفسه من أسرة يهودية عريقة؛ فقد كان جدُّه حاخامًا معروفًا عندهم، وكذلك كان والده، وإن اضطر إلى اعتناق البُروتستانتيَّة[2] في منتصف عمره؛ لكي يستطيع أن يمارس مهنته في بيئة ألمانية تكره اليهود، ولا تثق بمعاملاتهم، وتقيد عليهم ممارسة بعض المهن والحرف، ولقد ظلت العقيدة اليهودية تعمل عملها في نفس ماركس، وأخذت المشكلة اليهودية قدرًا كبيرًا من كتاباته وتفكيره، وقد ألقى اللوم في اضطهاد اليهود على الظروف الاقتصادية التي تكتنف الجماعات التي تعيش بينها اليهود، لا على العناد اليهودي نفسه الذي يريد أن يفرض منزلته - كشعب الله المختار - على الجماعات الأخرى، بكل الوسائل - ومنها الربا - مما يدفع هذه الجماعات إلى المقاومة والاستنكار والانتقام من اليهود.

ولقد كان ماركس وثيق الصلة بل التلمذة على مؤسس النظرية الصهيونية وفيلسوفها الأول موثه هيس الذي وضع أسس الحركة الصهيونية نظريًّا وتطبيقيًّا في كتابه العميق "الدولة اليهودية"، وفي بحثه الآخر "روما والقدس" اللذين استوحى منهما هيرتزل الزاد الفكري للترويج للحركة الصهيونية، وقد وصف ماركس صديقه موثه هيس، فقال: "إنني قد اتخذت هذا العبقري قدوة لي ومثالًا، لما يتحلى به من دقة في التفكير وتوارد في الخواطر، وتوافق في الآراء مع عقيدتي وما أؤمن به".

وكثير من أقطاب الفكر الصهيوني المعاصر يؤكدون صلة ماركس بالصهيونية وإخلاصه لها؛ مثل الحاخام

---

١. انظر: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، مرجع سابق، ص١٢١ وما بعدها.

٢. البُروتستانتيَّة: مذهب ديني مسيحي، نشأ عن حركة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر، وتدعو إلى تحرُّر الفرد من سلطان الكنيسة وتجعله مسئولًا أمام الله تعالى وحده، وتتبعه عدد من الكنائس؛ كالإنجيلية والمِعْمِدانية وغيرهما، وتقابلها الكاثوليكيَّة الرومانية، والأرثوذكسيَّة الشرقية.

لويزرونس في كتابه "أغرب من الخيال" قال: "إن كارل ماركس حفيد الحاخام مردخان ماركس كان في روحه واجتهاده وعمله ونشاطه، وكل ما قام به وأعد له من فكر وأسلوب أشد إخلاصًا لإسرائيل من الكثيرين ممن يتشدقون اليوم بأدوارهم في مولد الدولة اليهودية".

٢. لقد انتهى كارل ماركس في دراسته للمشكلة اليهودية إلى أنها لا تحل نهائيًّا إلا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره، وإذابة الأديان والقوميات كلها في بوتقة الماركسية، وما دامت الماركسية فكرة وحركة تتوخى إخضاع المجتمع إلى "طليعة ثوريَّة" تجمع في يدها كل مقدرات الأمة؛ فقد وجد اليهود في هذه الفكرة ما يتفق واعتقادهم بأنهم "شعب الله المختار"، لذلك جاهدوا أن يكونوا هم هذه "الطليعة القيادية" المختارة، لكل الحركات الماركسية في العالم.

ولا غرو أن وَجَدت تعاليم ماركس في روسيا يهوديًّا خارق الذكاء، حديدي العزم، استطاع أن يحول الماركسية من فكرة وحركة إلى ثورة ودولة تتسلم زمام الحكم في روسيا، ذلك هو لينين الذي لولا أساليبه الماكرة ما كان هناك احتمال لوصول الماركسيين في أي مكان إلى سدة الحكم، كما هو رأي أكثر المؤرخين.

كان لينين يهودي الأصل، وكانت زوجته ورفيقة حياته في العمل الماركسي يهودية أيضًا، وكذلك الأغلبية الساحقة من زملائه، وأعوانه في الحركة الماركسية خارج الاتحاد السوفيتي وداخله، في سدنة الحكم البلشفي، وفي أيام منفاه، أمثال تروتسكي ورادك وروزا لوكسمبورج.. وعشرات غيرهم من أقطاب الحركة الماركسية كلهم من اليهود من مختلف الجنسيات؛ ولهذا لا نعجب إذا كان أكثر زعماء الحكم الشيوعي الجديد من اليهود، بعضهم روس، وبعضهم بولنديون، وبعضهم من ألمانيا، ومن غيرها من البلاد والتبعيات.

٣. وفي الأيام الأولى من تسلُّم البلشفيك الشيوعيين الحكم في روسيا، وفي الأسبوع الأول بالضبط من حكم لينين سنة ١٩١٧م، أصدرت الحكومة السوفيتية قرارين رئيسيين:

- **أحدهما**: اعتبار العداء لليهود جريمة يعاقب عليها القانون.
- **وثانيهما**: إعلان الحكومة السوفيتية برياسة لينين التأمين الكامل لحق اليهود في وطن قوي لهم في فلسطين، وليس شيء أدل على هذا القرار من تغلغل النفوذ اليهودي في الدولة الاشتراكية الأم ـ منذ بدء قيامها ـ حتى إنها لتصدر في الأسبوع الأول من حكمها مثل هذا القرار الخطير، في نفس الوقت الذي صدر فيه أيضًا "وعد بلفور" المشهور، وإن هذا الوعد الإنجليزي وذاك القرار الروسي ليدلان على مدى المكر اليهودي، ومبلغ سيطرته على القوى السياسية الكبرى في العالم، وإن كان الناس يعرفون "وعد بلفور" ويذكرونه، ولكنهم يجهلون قرار لينين الذي ظهر أثره جليًّا فيما بعد في محافل هيئة الأمم، ودور الاتحاد السوفيتي، والدول الشيوعية قاطبة، في إيجاد إسرائيل وإبقائها.

٤. وفي معبد الماركسية الرئيسي في موسكو ظل خبراء الشئون العربية السوفييت مقصورين على المثقفين من الثوريين اليهود، من مختلف الجنسيات؛ فأكبر خبير في أول سنوات الحكم البُلشُفي سنة ١٩١٧: ١٩٢٧م في الشئون العربية والإسلامية كان

المدعو ميخائيل بافلوفيتش واسمه الحقيقي لازار فالثمان، وهو يهودي عيَّنه البلشفيك رئيسًا للجمعية العلمية للدراسات الشرقية، وتولى هذا اليهودي تحرير مجلة "الشرق الجديد" التي أصبحت مصنفًا ومرجعًا رئيسيًّا لأي تخطيط عقائدي أو سياسي، أوتنفيذي، بالسياسة السوفيتية، والماركسية العالمية في "الكومنترن" بشأن قضايا العرب والإسلام. وتكفَّل الاجتهاد اليهودي بإعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي من الزاوية الماركسية؛ ليفهم أهل الحل والربط في السياسة السوفيتية، وفي "الكومنترن" مواطن الضعف والقوة في دنيا العرب والإسلام.

٥. ولا عجب أن رأينا دعاة الماركسية الثورية الأوائل في العالم العربي من اليهود؛ فأول حزب شيوعي في مصر سنة ١٩٢١م كان على يد اليهودي روزنبرغ، وهو صاحب مخزن لبيع الجواهر في الإسكندرية، ثم تطورت الماركسية على يد جماعة من اليهود في مصر رُمز لها باسم "حدتو"، أي: الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، والذي أسَّس هذه الحركة وموَّلها ودعا لها يهودي أجنبي إيطالي الأصل ادَّعى أنه مصري الجنسية اسمه هنري كوريل صاحب بنك كوريل بالقاهرة، وكل المنظمات اليسارية في مصر كان يقوم عليها اليهود: حركة "دال شين" يرأسها يوسف درويش، وريمون دويك وهما يهوديان، وحركة "اسكرا" يرأسها إيلي شوارتز، وهو يهودي، وحركة "م ش م" ترأسها أوديت وسلامون زوجها، وهما يهوديان، وهذه هي التنظيمات الشيوعية الرئيسية في مصر قبيل الحرب الفلسطينية وخلالها، وهي التي اندمجت وانقسمت بعد ذلك حتى وصلت إلى حوالي ثلاثين منظمة، لم تخرج عن سيطرة اليهود، وتاريخ اليسار الماركسي الثوري في العراق مدين أيضًا لليهود في التنظيم، والحضارة والتمويل، وكذلك اللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعي السوري اللبناني، كان سكرتيرها العام هو جاكوب تيبر، وكان يهوديًّا روسيًّا.

٦. كشفت اليهودية عن عملها ومخططها في نجاح الثورة، فصرح جاكوب شيف المليونير اليهودي بأن الثورة الروسية نجحت بفضل دعمه المالي، وقال: "إنه عمل على التحضير لها مع رفيقه تروتسكي"، وفي استكهولم كان اليهودي واربورغ ينفق بسخاء على هدم النظام القيصري، ثم انضم إلى هذه المجموعة من أصحاب الملايين اليهوديان: والف اشبورغ وجيفولوفسكي، وتقول إحدى الصحف الفرنسية القديمة في عددها رقم ١١٥، الصادر عام ١٩١٩: "المعروف أن الحركة البلشفية ليست سوى حركة يهودية سريَّة، ويوجهها التمويل اليهودي فضلًا عن القيادات اليهودية فكرًا وتنظيمًا"، وتقول أيضًا: "إن الهدف من تمويل الثورة الشيوعية من قبل الرأسماليين اليهود هو إقامة دولة إسرائيل في فلسطين".

لقد عبَّر ماركس بالصراع الطبقي عن الحقد اليهودي ضد الآخرين، ولم يرَ بين العامل ورب العمل سوى الكراهية والبغضاء والسرقة والاستغلال، متجاوزًا كل أشكال ومعاني العلاقات الإنسانية الأخرى ومتمردًا عليها، فربُّ العمل ضد العامل. والعاملُ ضد رب العمل، والعمال طبقة اجتماعية متميزة، وأرباب العمل طبقة أخرى، والطبقة هنا في

تفكير ماركس نوع من "الفيتو" من الحي اليهودي الخاص، بمعنى أوضح: اليهودية في مواجهة غيرها، أي: الحقد اليهودي في مواجهة الاضطهاد.

وعن حاجة اليهودية إلى الاندماج في المجتمعات البشرية، أي: إلى كسر الطوق من حولها، عبَّر ماركس بالأُمَمِيَّة[1]، أي: بالإخاء الإنساني، وهكذا وفق ماركس شيوعيًّا بين نظرة اليهودية الحاقدة، وحاجتها إلى الخروج من العزلة، لقد كان الصراع الطَّبَقي[2] هو التعبير عن الحقد اليهودي والكراهية المتأصلة، كما كانت الأممية هي التعبير عن الحاجة إلى كسر أطواق الحصار، والخروج من "الفيتو" الإجباري مع البقاء فيها اختيارًا.

فإذا علمنا أن لليهود فكرًا سريًّا متوارثًا وعقيدة باطنية قلَّما يفصحون عنها، جاز لنا أن نعتقد أن شيوعية ماركس كانت تعبيرًا عن المسألة اليهودية وحلًّا لها. وحياة الشيوعية التي تنتهي بها مراحل الصراع بين الطبقات والتي يعيش العمال فيها في نعيم مقيم، هي الفكرة المعروفة في الديانة اليهودية من حياة اليهود آخر الزمن في أرض الميعاد التي تفيض شهدًا ولبنًا، وتكون الحياة لليهود وحدهم والآخرون خدم لهم، فقد صورها ماركس ببعض التحوير ولكن الفكرة واحدة[3].

ثالثًا. معاداة الشيوعية للأديان كلها، ولا سيما الإسلام.

لقد شارك ماركس في موجات الإلحاد العارمة التي تتابعت على البشرية في القرن التاسع عشر؛ لتقتلع الإيمان من قلوب معتنقيه، فأخرج في عام ١٨١٤م، مع صديقه أنجلز "المانفستو ***The Manefest***" الذي أصبح فيما بعد دستور الحزب الشيوعي، وفي هذا الدستور أعلن ماركس عن موقف الشيوعيين من الديانات جملة فقال: "إنه - أي الدين - الأفيون الذي يُخَدِّر الشعب لتسهل سرقته، وإنه كان وسيلة الإخضاع الروحي، كما كانت الدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادي".

ولا تخرج هذه الخزعبلات في مضمونها وحقيقتها الباطلة عما كان يردده الأقدمون أو الدَّهْرِيُّون[4] الذين حكى القرآن الكريم مقولاتهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الجاثية)، ثم يأتي الابن البكر للماركسية لينين، وفي خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي، والذي عقد في أكتوبر عام ١٩٢٠ يقول: "إننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالًا، ومحافظة على مصالحهم، إننا نُنكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت

١. الأُمَمِيَّة: تكتُّل أو تحالف بين مجموعة دول أو اتجاهات لها شرعية عالمية.

٢. الصِّراع الطَّبَقي: صراع طبقة اجتماعية مستغِلَّة لنيل حقوقها من طبقة اجتماعية مستغَلَّة.

٣. أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٠٩ وما بعدها.

٤. الدَّهْرِيُّون: نسبة إلى الدهريَّة، وهي فِرْقة مادية ظهرت في العهد العباسي، جحدت الصانع المُدَبِّر وقالت بقِدَم الدهر، وبأن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه، كما أنكرت أي شيء لا يمكن إدراكه بالحواس.

عن طاقات وراء الطبيعة ـ غير الإنسان ـ والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية، وتؤكد أن كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول الفلاحين، والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع، ونعلم أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري؛ فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود لطبقة البُروليتاريا"[1].

وكتب لينين يقول: "إن البحث عن الله لا فائدة منه، ومن العبث البحث عن شيء لم يخبأ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد، وليس لك إله؛ لأنك لم تخلقه بعد، والآلهة لا يبحث عنها، وإنما تُخْلَق".

إن هؤلاء الأفاك الإقطاعيين ينكرون الله؛ لأنهم لا يرونه ولا يشاهدونه أمامهم، إنهم لا يؤمنون إلا بالحسي، ولا يصدقون إلا ما تقع عليه أبعادهم أو تلمسه أيديهم، لقد كان الإلحاد في القديم إلحادًا متخفيًا مستترًا، لا يعلن عن نفسه، ولا يحاول أن يكشف عن ذاته، أما في العصر الحديث فهو إلحاد متنمر له بنود وأعلام، وصحف وأبواق، وإذاعات ومرئيات.

لقد هاجمت بعض الصحف العالمية موجة الإلحاد في الاتحاد السوفيتي، وقالت: هذا شيء مخالف لطبيعة النفس البشرية، كيف يتسنى للإنسان أن يعيش دون حقيقة يؤمن بها ويعمل من أجلها؟

فخرجت "صحيفة برافدا" الناطقة بلسان الشيوعية، والمعبرة عن سياسة الهيئة الحاكمة هناك فقالت: ومن قال إننا لا نؤمن بشيء؟ إن من يقول بذلك يتجنى علينا ولا يذكر حقيقة وضعنا، نحن نؤمن بثلاثة أشياء: كارل ماركس ولينين وستالين، ولا نؤمن بثلاثة أشياء: الله والدين والملكية الخاصة[2].

ويوضح د. يوسف القرضاوي حملة الشيوعية على الإسلام فيقول: وقد حملت الشيوعية على الإسلام، وبرزت سافرة مكشوفة القناع منذ سيطرة الشيوعيين على الحكم في روسيا، فقد عقد أعضاء "الكومنترن" ـ وهو الهيئة الدولية للشيوعية ـ مؤتمرًا في مدينة باكو بالقوقاز من ١٩/ ٧ إلى ٧/ ٨ سنة ١٩٢٠م، كان رئيسه كارل راديك اليهودي الماركسي العتيد، وكان اللحن الرئيسي لهذا المؤتمر هو خلق شعار "حركة التحرير الوطني" للشعوب العربية والإسلامية.

وقد تمخَّض مؤتمر باكو عن بيان موجَّه إلى الشعوب الإسلامية، اشتمل هذا البيان على عبارات ونداءات ـ بشأن القضية الفلسطينية ـ لا زالت دستورًا للماركسية الدولية والعربية إلى اليوم، مثل: "انظروا ما فعل الاستعمار البريطاني في فلسطين، لقد ساعدوا اليهود الأبرياء، فإذا استمر هذا العداء ستضعف قوى الطرفين: العربي واليهودي؛ ليسود الاستعمار البريطاني والرجعية العربية عليهما معًا، وتتمزق صفوف الجماهير العربية واليهودية معًا".

وللشيوعية أساليب متنوعة في حرب الإسلام، ومقاومة الاتجاه الإسلامي، من بينها: الدراسات الخبيثة المضللة التي يقوم بها كُتَّاب الشيوعية ومستشرقوها، فكما أن للمسيحية مبشريها الذين يلبسون مسوح

١. البُروليتاريا: طبقة العُمَّال الكادحين المستغَلَّة التي تكونَّت مع بداية العصر الرأسمالي في إنجلترا أولًا ثم في أوربا، وهي تعمل دون أن تملك شيئًا.

٢. انظر: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، مرجع سابق، ص١٤٤ وما بعدها.

الدين، وهم يستحلون الكذب على الإسلام ونبيه وتاريخه، نرى للشيوعية مبشريها الذين يتزيون بزي أهل العلم والبحث، وما هم من العلم والبحث في شيء، إنما هم ناشرو أكاذيب، ومروِّجو أباطيل.

ومن وسائل الشيوعية كذلك التخريب من الداخل، وذلك بالتسلل إلى داخل المجتمع الإسلامي، واصطياد السطحيين المخدوعين الذين تضللهم الشعارات البراقة، فيركضون وراء سرابها مصدقين، والمحرومين الذين أجَّجَ النظام الاجتماعي في صدورهم نار الحقد على كل الأوضاع القائمة، فلم يعودوا يفكرون إلا في الهدم والتدمير، والعملاء الذين يتسترون بالثورية والماركسية؛ لينفذوا منها لضرب الإسلام في عقر داره وعدائه أهله أنفسهم. ومن أساليب الشيوعية في محاربة الإسلام تحريض الحكومات الموالية على الإسلام والحل الإسلامي، ومقاومة الاتجاه الإسلامي الصحيح، والإيعاز إلى الحكومات العلمانية الموالية لها، والتي تمدها أو تكبلها بالقروض والمساعدات، والسلاح والخبراء، والإيحاء إليها بضرب الحركات الإسلامية الواعية بقسوة، وتشريد رجالها في غير رحمة ولا هوادة، وشن حملات التضليل الجبار لتلويث سمعتها، وتحريف أهدافها، وتشويه أساليبها، وتنفير العامة والخاصة من دعوتها.

إن الماركسية لا تعرف عن الإسلام سوى أنه السد المنيع الذي يقف في طريق انتشارها، ويحول بين الناس وبين اعتناقها.. من أجل ذلك حاربت الشيوعية الإسلام حربًا لا هوادة فيها، وأطلقت على منهجه الشائعات الباطلة، والأقوال المضللة، واتهمت أصحابه بالرجعية والتخلف، ولم تقتصر المعركة بين الشيوعية و الإسلام على مجرد الاتهامات والأباطيل. بل قام جيشها الأحمر بحملات متتابعة على المسلمين، ولكنه لم يحرز نصرًا، ولم يعد بغنيمة الأمر الذي جعل مولتوتوف أحد زعماء الشيوعية يقول: "لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام".

رابعًا. بين الإسلام والشيوعية:

إن الإسلام لم يكن أبدًا أفيونًا يُخَدِّر الشعوب، ويشغلها عن المطالبة بحقوقها، بل على العكس من ذلك، فإن الإسلام هو الذي أسقط طغيان الطبقية الظالمة في مكة فدافع عن المظلومين ضد ظالميهم، فحرر العبيد، وقضى على العنصرية، وسَوَّى بين الناس وأعاد الأمور إلى نصابها، وظل الإسلام هو العامل الفعال والعنصر الأقوى في تحرير الأمم المقهورة والشعوب المسلوبة، التي قُهِرت تحت اضطهاد المستعمر الأجنبي ردحًا طويلًا من الدهر، بل إن التاريخ يثبت أن الإسلام قد وظَّف فريضة الجهاد لتحرير الشعوب من الاضطهاد الديني والعرقي، كما حدث مع أقباط مصر، حيث كانت تحت تسلط الإمبراطورية الرومانية، ومع الأمم التي كان يحكمها الفرس.

إن الإيمان بإله الكون وخالقه ومدبِّره يعني انتظام الكون والحياة، وأن كل شيء يسير لهدف وغاية يعمل لها، وما دامت الحياة هادفة فهي حياة بحق، أما حياة بلا هدف، فهي والموت سواء، والإلحاد قرين الفوضى والعبثية؛ لأنه لا يقيم للحياة وزنًا، ولا يجعل لها هدفًا أسمى سوى هذه الحياة الفانية، كما يقولون: إن هي إلا

أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر.

فإذا كانت الشيوعية أو الماركسية ترفض الإسلام، وتتخذه عدوًّا لها، فإننا ـ نحن المسلمين ـ نرفضها كذلك، بل نقاومها ونحاربها، لعوامل وأسباب منها:

١. الشيوعية مذهب مادي ضد العقيدة:

إن الشيوعية مذهب مادي ينكر كل ما وراء الحس وما بعد الطبيعة، فلا يؤمن أن للكون إلهًا، ولا أن للإنسان روحًا، ولا يؤمن بأن بعد الدنيا آخرة، ولا أن لله تعالى رسلًا وأنبياء أرسلهم لهداية الناس، وكل ما يقال في هذا المجال، إنما هو أباطيل اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء والأقوياء لابتزاز الضعفاء والحكام والمحكومين؛ فالماركسية، أو الشيوعية تتبنى هنا ما قاله بعض الفلاسفة الماديين: إن الله لم يخلق الإنسان، بل الإنسان هو الذي يخلق الله، والدستور الروسي الشيوعي يقول: لا إله والحياة مادة.

يقول أنجلز في كتابه "ضد دوهرنج": "ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس عن القوى الخارجية على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى العالم شكل قوى فوق الطبيعة".

إن الشيوعية ليست ضد العقيدة الإسلامية وحدها، ولكنها ضد المسيحية، وضد كل الأديان والرسالات الإلهية؛ لأن أساس الدين الوحي، وهو شيء غير مادي، ولكن لو كان الدين مجرد انعكاس للظروف الاقتصادية ولأسلوب الإنتاج خاصة، فلماذا عاش دين كالمسيحية ألفي عام، رغم تطور أساليب الإنتاج؟! بل لماذا عاشت اليهودية أكثر من ذلك؟ ولماذا تعددت الأديان في البيئة الواحدة رغم وحدة الوضع الاقتصادي، وأسلوب الإنتاج؟ ولماذا كان في الهند مسلمون وهندوس، وكان في الشرق العربي مسلمون ونصارى؟

إن الإنسان ـ بناء على فلسفة ماركس ـ ليس مسئولًا عن تصرفاته وسلوكه؛ لأنه مجبر عليها لا محالة، يقهره عليها الوضع الاقتصادي، وأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه، ومقتضى هذا التفسير أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور والشرور لها ما يسوغها ويبررها، فقد كانت في وقتها أمورًا لا مفر منها، تفرضها أساليب الإنتاج، ومظالم عصر الرق الروماني، ومظالم عصر الإقطاع، ومظالم الرأسمالية الغربية، وكلها لم تكن في الحقيقة مظالم، إنها أثر حتمي للوضع الاقتصادي، أو لأسلوب الإنتاج الذي ساد في المجتمع.

وكأن ماركس بهذه الفلسفة البائسة يعتذر عن ظلم الظالمين، أو يحامي عما اقترفت أيديهم، من موبقات في حق المستضعفين والمسحوقين، ثم إن الشرف، والصدق، والعدل، والشهامة، وغيرها مما نعتبره فضائل ـ لا مكان لها في قاموس الماركسية، فليس عندها قيمة ثابتة، ولا فضائل دائمة، فكل هدف الماركسيين أن يدحروا خصومهم، ويبنوا مجدهم ولو فوق أشلائهم.

٢. الشيوعية ضد الشريعة:

إن الشيوعية لا تعترف بشريعة الإسلام، ولا تعترف بالله تعالى آمرًا أو ناهيًا، محللًا أو محرِّمًا، فلا تقبل أحكامه في العبادات من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وعمرة، ولا أحكامه في شئون الأسرة من الزواج وما يتعلق به، والطلاق وتوابعه، وحقوقه الزوجية، وحق الميراث، وغير ذلك فهي ترفض تعدد الزوجات،

وكذلك الطلاق، والميراث بضوابطه الشرعية، وهي ترفض أحكام الشريعة في الملكية وحقوقها، وواجباتها، وفي طرائق تملُّك المال، وتنميته، وفي سائر أجزاء النظام الاقتصادي في الإسلام، وهي ترفض أحكام العقوبات الإسلامية؛ مثل حد الزنى، وحد السرقة، وحد الحرابة، وحد القذف، وحد الشرب، وحد الردة، وغيرها من العقوبات النَّصِّية والتقديرية والتعزيرية.

٣. الشيوعية ضد الأخلاق:

إن الشيوعية تنكر أن في الحياة قيمًا أخلاقية ثابتة، وفضائل عامة مطلقة، إنما تؤمن بالأساس بأساليب الإنتاج، فالنظام الرأسمالي الذي يقر الملكية الفردية يقتضي تحريم السرقة حتى تصان الملكية، فإذا انتفت الملكية الفردية بدأ تحريم السرقة غير ذي موضوع! وهكذا الحرية الفردية، والعفة الجنسية، وغيرها من الفضائل، إنما كانت فضائل في مرحلة معينة، وليس من الضروري أن تبقى فضائل أبدًا.

٤. الشيوعية ضد الحرية:

إن الشيوعية في كل بلاد الدنيا عدو لحرية البشر، وفلسفتها قائمة على وَأد الحريات السياسية، واتخاذ الديكتاتورية سبيلًا لها؛ فما تكاد تقبض العصبة الاشتراكية على زمام الحكم، حتى تنصب المشانق لقصف رقاب المعارضين، وحتى تسل سيف الإرهاب على المواطنين، وتفتح السجون والمعتقلات، والمنافي، وتصادر الأموال، والملكيات، وتعمل على تبرير الوسيلة، والأخلاق والأديان التي تحرم القسوة والاضطهاد والتعذيب ونحوها، إنما هي صناعة برجوازية.

٥. الشيوعية مذهب متناقض:

إن الشيوعية الماركسية لا ترى في الوجود قيمة مطلقة، كل المبادئ والقيم والأفكار هي نسبية متغيرة؛ لأنها انعكاس للظروف الاقتصادية، أو لأسلوب الإنتاج، فإذا تغير، تغيرت تلك القيم والأفكار. وكان يجب أن ينطبق هذا على الماركسية نفسها وفكرتها عن التاريخ، فإنها ليست إلا انعكاسًا للعصر الذي عاش فيه ماركس وأحواله الاقتصادية.

وعلى هذا لا تعود الماركسية صحيحة مطلقًا في كل زمان ومكان، ربما كانت لزمان ماركس وبيئته، ولا تصلح للأزمنة التي تليه، والبيئات التي لم تعشها، فالمفروض مع تغير الزمن أن تتغير النظرة والتفسير، ولكن الماركسيين لا يقبلون هذا أبدًا، فوقعوا بهذا في تناقض واختلاف لا مخلِّص لهم منه بحال من الأحوال، ولم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يحل هذا الإشكال.

ويبدو تناقض الماركسية الفكري في صورة أخرى؛ ذلك أن ماركس يرى الصراع بين الطبقات أمرًا حتميًّا، حتى إذا نجحت الشيوعية انتهى هذا القانون الحتمي، ومن تناقض الماركسية أنها ترفض الغيبيات التي يجيء بها الدين؛ لأنها لا تؤمن إلا بما هو محسوس وواقع، ثم تفحصها فإذا هي مشحونة بالتنبؤات التي لا يسندها حس ولا يؤيدها واقع، ومن تناقض الماركسية أيضًا أنها رفضت الدين الذي ورثته الإنسانية عن طريق النبوات، والكتب السماوية، ثم اصطنعت هي عقيدة - في رأي أتباعها - لها كل ما للدين من خصائص.

٦. الشيوعية ضد وحدة الأمة:

إننا نؤمن بأن المسلمين أمة واحدة، تجمعهم وحدة العقيدة، ووحدة العبادة، ووحدة الآداب، ووحدة القبلة، ووحدة المشاعر، ووحدة التشريع: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: ١٠)، والشيوعية ترفض الدين - كما ترفض القومية - رابطة بين الناس، فهي تعمل على تقسيم المجتمع الواحد، فتؤجج صراع الطبقات؛ لتستفيد منه في النهاية، وتنادي العمال أن يتحدوا ضد الطبقات الأخرى، والإسلام يؤاخي بين الطبقات جميعها، ويوجب إقامة العدل بينها، ولا ينحاز لطبقة ضد أخرى.

٧. الشيوعية أداة الصليبية في حربنا:

إن الشيوعية هي أداة الصليبية الغربية في حربنا، إنها يئست أن تدخلنا في دينها، فاكتفت بأن تخرجنا من ديننا، لم تستطع أن تجعلنا نصارى، فلتحاول أن تجعلنا شيوعيين؛ لتفسح المجال للمبشرين الماركسيين بعد فشل المبشرين المسيحيين. إن المهم هو هدمنا، ولا بأس أن يكون بمعاول حمراء، المهم أن نتخلى عن مصدر قوتنا ووحدتنا "الإسلام"، وإن أصبحنا بغير دين قط.

٨. الشيوعية دعوة رجعية:

إنها دعوة رجعية دعوة إلى الانتكاس بالبشرية، وليس إلى تقدم الإنسانية، هي رجوع بالإنسان إلى العبودية، ورجوع بالفكر والإيمان إلى الجبرية، ورجوع بالإنسانية إلى الوثنية، ورجوع بالأخلاق والقيم إلى الحيوانية، كما أنها انحطاط بالإنسان من أفق الرشد الذي يؤمن بالغيب إلى حَضِيض الطفولة الإنسانية، فالطفل هو الذي لا يؤمن إلا بالحس، فإذا رشد ونضج بدأ يدرك المعنويات، ولا يزال يرتقي حتى يؤمن بالغيبيات.

٩. الشيوعية مذهب لا حاجة لنا به:

إن الشيوعية مذهب لا يعالج مشاكلنا، ولا يلبي مطالبنا، وليس لنا به حاجة، لقد قامت الشيوعية؛ لتعالج مشكلات الرأسمالية المتجبرة، المصاصة للدماء، التي تأكل عرق العمال، ولا تعطيهم من الأجر ما يكفيهم.

ومن يدري لعله لو اطلع على نظام الإسلام الذي يقر الملكية الخاصة ويحميها، ولكنه لا يتدخل لحمايتها إلا إذا جاءت من طرق مشروعة، ثم هو يضع قيودًا على المالك في تنميته لما يملك، واستثماره له، وفي تصرفه واستهلاكه وإنفاقه، كما يلزمه بواجبات اجتماعية مالية، بعضها موكول لضميره، وبعضها تقوم الدولة على تنفيذه، وأبرز هذه الواجبات هو الزكاة التي بها يزكِّي المالك نفسه ويطهر ماله.

لقد جاء الإسلام؛ ليحد من طغيان الأغنياء، وليرفع من مستوى الفقراء، وليقيم التوازن الاقتصادي، ويحقق العدل الاجتماعي، ويربط بين الاقتصاد والإيمان، وبين الاقتصاد والأخلاق، ويجعل الأمة كلها كالأسرة الواحدة، بل كالجسد الواحد لو اطلع ماركس على محاسن هذا النظام، وقواعد هذا المنهج، لربما وجد فيه ضالته، وأغناه عن منهجه الذي شط فيه عن الصواب وحاد عن الصراط المستقيم[1].

إن الملكية الخاصة ليست من وجهة نظر الإسلام

١. أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١١٥ وما بعدها.

حقًّا مطلقًا أو مقدسًا، ولكنها وظيفة اجتماعية قبل أن تكون أي شيء آخر، فالله ﷻ هو المالك المطلق لكل شيء، وما البشر إلا خلائف الله، ومسئولون أمامه عن كل ما يملكون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأنعام).

ولا يجوز أن تنفصل الملكية عن العمل؛ لأن العمل فريضة وواجب يمليه حق الحياة، فإذا ما تخلت الملكية عن العمل وصارت إلى التحكم والتجبر باستغلال عمل الغير قهرًا؛ فقد فقدت صفة الملكية الحلال، ووجبت مصادرتها لذلك؛ لمنع الضرر عن المؤمنين، وتحويلها شرعًا لصالح الجميع، وهكذا تعد الملكية العامة في نظر الإسلام وسيلة، وليست غاية في حد ذاتها، وهذه الوسيلة ترجع إليها الدولة كلما اقتضت الضرورة ذلك، أي في حدود مقتضيات الصالح العام، وليس لمجرد التضييق على التملك المشروع.

إن الإسلام قد أقام نظامًا اقتصاديًّا يحقق المساواة، وتكافؤ الفرص، ولا يسمح بالاستغلال، أو بالسيطرة الطبقية، قبل أن تظهر الماركسية، والنظريات الاشتراكية الأخرى بمئات السنين.

وهذا النظام يتخذ من العمل قيمته الأساسية، فيجازي كل فرد بقدر عمله، ولما كانت قدرات واستعدادات الأفراد غير متساوية؛ فإنه لا مفر من وجود مستويات مختلفة من الأعمال والمسئوليات والدخول، وهذه المستويات المختلفة هي ما يصطلح على تسميته بالدرجات الاقتصادية، ومثل هذه الدرجات لا غنى عنها أيضًا لتدرج مراتب المسئولية التي لا يحسن بدونها سير الجماعة الإنسانية، يقول الله ﷻ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأحقاف)، ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الزخرف).

وما من مجتمع يسير على مبدأ تقسيم العمل والتخصص إلا وتوجد فيه مثل هذه الدرجات المتصاعدة في الدخل والمسئولية، بحكم الضرورة، والتفاوت المسموح به في مستويات الدخل والمسئولية، إنما يكون بمستوى درجات اقتصادية متقاربة، وليس على صورة طبقات اجتماعية متنافرة.

هذا، ولحماية المجتمع الإنساني من النكسات وإساءة استخدام المال، أو إساءة استعمال السلطة، فرض الإسلام حدًّا أعلى للدخل تركه مرنًا، وخاضعًا لتقدير الحاكم في ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة. ولئن لم يحدد الإسلام قدر هذا الحد الأعلى؛ لأنه حد نسبي بطبيعته، إلا أنه قرر المبادئ، أو الأبعاد التي يجب أن تؤخذ دائمًا في الاعتبار عند تحديده من وقت لآخر، طبقًا لما يتمشى مع الظروف الموضوعية السائدة، هذه المبادئ والأبعاد التي يمكن تلخيصها فيما يأتي:

- ألا تترك الأموال تتجمع في أيدي قلة متميزة من الأغنياء إلى الحد الذي يمكِّنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم، يقول ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٢٧).
- ألا تتجمع الأموال لدى مثل هذه القلة المتميزة

على نحو يؤدي إلى الترف والتبذير والانغماس في الملذات وميوعة الحياة اللينة. فمثل هذه السلبيات أو الأمراض الاجتماعية لا تلبث أن تؤدي إلى تدهور وانهيار المجتمع، وهذه حقيقة تاريخية أكدها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء).

- أن اكتناز الأموال المتجمعة لدى الأغنياء - حتى إذا لم يستخدموها أداة للسيطرة أو ينغمسوا في الترف والملذات - يعوق دورة الإنفاق ومن ثم يلحق أضرارًا بالغة بالجماعة.

- ألا تتجمع الأموال لدى بعض الأفراد عن طريق بَخْس حقوق الآخرين وسوء استغلالهم، كأن تفرض أسعار احتكارية باهظة على المستهلك قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف: ٨٥).

وما كان فرض الإسلام لهذا الحد الأعلى بأبعاده الأربعة سالفة الذكر إلا وسيلة لإعادة توزيع الدخل القومي بين الأفراد على النحو الذي يحقق العدالة، حيث يأخذ من هؤلاء الذين يكسبون ويحوزون أكثر مما يكفي؛ ليعطي هؤلاء الذين يكسبون ويحوزون أقل مما يكفي، وما التوسع في نظم الضرائب المباشرة التصاعدية، التي تركز على فئات الدخل الأعلى بوجه خاص، جنبًا لجنب مع التوسع في برامج الخدمات المجانية العامة إلا تطبيقًا مستحدثًا لهذا المبدأ القديم، الذي نجده واضحًا كل الوضوح في قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل، لما وجهه واليًا على أهل اليمن: "فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم"[1].

وفي قول علي بن أبي طالب ﷺ: "إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما منع به غني، والله سائلهم عن ذلك"، كما أكد عمر بن الخطاب نفس المعنى بقوله البليغ: "كل ترف بإزائه حق مُضَيَّع".

ولعل أفضل تسمية للنظام الاقتصادي الاجتماعي الإسلامي أنه: "نظام المقاسمة الطوعية والإلزامية في مال الله المتوفر من العمل في خيرات الأرض، بين المتساويين والمتكافلين بأخوة الإيمان، وشريعة القرآن".

على مثل هذه المقاسمة والسواسية يقوم المجتمع الذي يتضافر أفراده على دعم طاقته الإنتاجية، وزيادة كفاية إنتاجه، جنبًا لجنب مع العمل على تحقيق عدالة التوزيع المثلى لناتجه القومي، وبهذا الربط بين الكفاية التي يوفرها العمل وبين العدالة التي يوفرها الإسلام للأخوة في المجتمع المؤمن، تؤدي زيادة الإنتاج التي يزيد بها الدخل القومي إلى اطراد التحسن في مستويات الحياة لجميع المواطنين؛ ذلك لأن الزيادة التي تتحقق في الإنتاج والدخل القومي لا تذهب إلى فئات الدخل الأعلى، كما هو الأغلب في النظام الرأسمالي الحر، ولكنها تذهب إلى فئات الدخل الأدنى، وترفعها تدريجيًّا، عاملة بذلك على تضييق الفجوة بينها وبين الفئات الأعلى، وعلى هذا النحو تسير عملية تذويب الفوارق بين الطبقات؛ بهدف إزالة النظام الطبقي

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٢٥)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٣٢).

بالأسلوب العلمي، واستنادًا إلى مبدأ التكافل الاجتماعي النامي والنشط في إطار الإخاء الصادق والعملي بين المؤمنين.

بهذا السلام الاجتماعي يتميز الاقتصاد الإسلامي، ويتحدد الخلاف بين المسلمين والماركسيين حول مفهوم وتطبيق العدالة الاجتماعية، هذا الخلاف الذي لا يدور حول أسلوب التطبيق بقدر ما يدور حول مفهوم "الصراع الطبقي"، وهو يرجع أساسًا إلى التباين الواضح بين المفهوم الإنساني والمفهوم الحيواني للصراع والتنازع من أجل البقاء، فالمفهوم الإنساني في ضوء الإسلام يعني التصدي لعوامل النكسة والقوى المضادة والمعوِّقة التي تعترض طريق التقدم الحتمي، ولا يلجأ إلى العنف إلا في حدود مقتضيات الضرورة، وبدون مغالاة، بينما المفهوم الحيواني للصراع في النظرية الماركسية، يفترض العداء غريزيًّا بين البشر، وينزع دائمًا إلى العنف، ويفتعل عمليات التصفية إظهارًا لدموية الصراع!

المتاهة الماركسية:

ونقطة خلاف مهمة أخرى بين المسلمين والماركسيين، تتمثل في: أن دعائم السواسية والمقاسمة والعدل الاجتماعي كما يقيم بها الإسلام مجتمع المؤمنين، تلغي بتطبيقاتها الموحدة فكرة الشيوعيين في وجود مرحلتين للتطبيق الاشتراكي، وهما في نظرهم مرحلة الاشتراكية ومرحلة الشيوعية، وذلك لسبب بسيط واضح، وهو استحالة تصور وجود حد أعلى لوفرة الإنتاج والسلع، وكذلك حد أعلى للعدل في المقاسمة.

وإذا كان الشيوعيون يصفون المرحلة الشيوعية بأنها هي المرحلة التي يحصل فيها الفرد على حاجته الكاملة أيًا كان عمله، رافعين شعار "الكلٍ بقدر حاجته على أن يؤدي من العمل بقدر طاقته"، بينما يصفون المرحلة الاشتراكية السابقة لها بأنها المرحلة التي يجزى فيها كل فرد بقدر عمله.

إذا كان هذا وصف الشيوعيين للمرحلتين، وتمييزهم لكل منهما عن الأخرى، فإنه لا يعدو كونه مجرد خداع لفظي، أو متاهة نظرية في منطق الماركسية؛ إذ إنه يستحيل - عمليًّا - مهما حققنا من زيادة للإنتاج، ومهما زعمنا أن إنتاجنا وصل إلى مرحلة الوفرة، أن نترك كل فرد يقدر حاجته بنفسه، ويحصل على حاجته طبقًا لتقديره الخاص، سواء أكان باتجاه الإسراف، أم كان تدليلًا واستجابة للأمزجة المتقلبة في أهوائها!

إنه لا يمكن أن يكون المقصود بتعبير "الكل بقدر حاجته" أكثر من تقدير نَمَطِي لما يمكن أن يتعارف عليه المجتمع كتصور يحصل فيه الفرد على حاجته الكاملة لحاجة الفرد إجمالًا، وهذا التقدير النمطي لحاجة المواطن لا بد منه حتى يمكننا حساب الأهداف الإنتاجية المقرر تحقيقها في إطار الخطة، ولكي نستطيع الإفادة من نظام الإنتاج الكبير القائم أساسًا على التنميط، أي التوحيد النمطي للاحتياجات والمنتجات وحصر تنوعها في حدود الضرورة التي تحكمها الفائدة المستهدفة. ولقد برئ الاقتصاد الإسلامي بكل مبادئه من مثل هذه النزعات[1].

---

١. انظر: مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة مع حقائق الإيمان والحياة، سلسلة تصدرها الهيئة الثقافية بالمقاولين العرب، مرجع سابق.

الخلاصة:

- الشيوعية عقيدة وفكرة ومذهب، أسسه اليهودي كارل ماركس، وهي عقيدة تعادي الأديان كلها، وتخص الإسلام بمزيد من العداوة، وهي لا تعترف بالله، ولا بالوحي ولا بالرسل؛ لأنها لا ترى وجودًا إلا للمادة ولا تؤمن بما وراءها، والعوامل الاقتصادية عندها هي المحرك الأساسي للأفراد والجماعات، وهي تعتبر الدين خدعة للسيطرة على عقول الفقراء والمستضعفين، وقد ساعد على انتشارها ظلم الكنيسة، وفساد العقيدة النصرانية المنافية للعقول، والطفرة التي حدثت في العلوم الكونية والصناعية آنذاك.
- أفكار ماركس هي خلاصة الإلحاد الذي نادى به أصحاب الفكر الفلسفي الأوربي في عصر النهضة، لكن أفكاره الاشتراكية كانت أكثر إقناعًا من أفكار سابقيه؛ لما له من كم وفير من المعرفة، وأيضًا لأهدافه الثورية، وأدواته المعرفية.
- وتعد الشيوعية بنتًا لليهودية، والعلاقة بينهما علاقة وثيقة، أسسها ماركس اليهودي لتحقيق أهداف اليهود البعيدة، وإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين بعد إذابة الأديان والقوميات كلها في بوتقة الشيوعية.
- والشيوعية عقيدة ومذهب يعادي كل الأديان وينكرها، ويخص الإسلام بمزيد من الحقد، وله أساليب شتى في محاربته ومحاولة القضاء عليه، ومنها: التخريب من الداخل، باصطياد السطحيين وتضليلهم بالشعارات البراقة والخادعة، ومقاومة الاتجاه.
- وقد وقف الإسلام من الشيوعية موقف العداء؛ لأنها مذهب مادي ينكر وجود الله، وما وراء الحس، والإسلام يقر بوجود الله الخالق المدبر، وكما أنه لا يعد أفيونًا مخدِّرًا للشعوب كما زعم الماركسيون؛ فهو لم يشغل الشعوب عن المطالبة بحقوقها، بل سارع وقضى على العنصرية، وأزال طغيان الطبقات الظالمة، كما أنه لا يحتاج إلى الماركسية في شيء، وله نظمه الاقتصادية التي - إذا تحققت في مجتمعاتنا - أخذت بزمامها نحو التقدم والقيادة، ولقد رأينا كيف ضاعت الماركسية، وقُضِي عليها قبل أن تحقق الإصلاح والنفع الاقتصادي اللذين وعدت بهما.

الشبهة السابعة والعشرون

دعوى ألوهية الإنسان للإنسان(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أنه ليس هناك إله خارج النفس الإنسانية، فالإنسان هو إله الإنسان وهو المشَرِّع له، ويستنتجون من ذلك أنه إذا كان الإلحاد قد حرر الإنسان من عبادته لله، فإن التصوف قد حرره من قيود الشريعة.

وجها إبطال الشبهة:

1) الذي له الحق في التشريع لخلقه هو الله وحده؛ فهو الذي خلقهم، وهو أعلم بما يصلح أحوالهم.

(*) حقيقة التوحيد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط٨، ٢٠٠٦م. الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق.

٢) الإلحاد لم يحرر الإنسان من الله، ولكنه أذلَّه لغيره، والتصوف لم يُحرره من الشريعة، ولكنه ضبط سلوكه وقوَّمه وزكَّاه.

التفصيل:

أولا. الله وحده هو المشرِّع لأنه الخالق:

من الشِّرْك الأكبر الذي يخفى على كثير من الناس اتخاذ غير الله مُشرِّعًا وابتغاء غير الله حكمًا، وبعبارة أخرى: إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم، أو لغيرهم من البشر، فيحلون لهم ويحرمون عليهم ما شاءوا، ويشرِّعون لهم من الأنظمة والقوانين، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار، ما لم يأذن به الله تعالى، وما يضاد شرعه سبحانه، فيتبعهم الآخرون ويطيعونهم فيما شرعوا ووضعوا، كأنه شرع إلهي أو حكم سماوي يطاع ولا يعصى.

إن الذي له الحق في التشريع للخلق هو الله وحده؛ فهو الذي خلقهم ورزقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فمن حقه وحده إذن أن يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرِّم عليهم؛ لأنه رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وليس لأحد غيره من الربوبية والملك والألوهية ما له، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع.

إن العالم كله هو مملكة الله ﷻ، والناس في هذه المملكة عبيده ورعاياه، وهو سبحانه سيد هذه المملكة وحاكمها، فله وحده أن يحكم ويشرع ويحلل ويحرم، وعلى الرعية أن يسمعوا ويطيعوا، فمن ادعى من الرعية أن لأحد فيها حق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والحكم والتشريع، دون إذن من سيد المملكة أو حاكمها - فقد جعل من بعض عبيد الملك شريكًا له في الملك، منازعًا له في سلطة السيادة، وفي اختصاصه بالحكم والسلطان.

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشرك وسمَّاهم مشركين؛ لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم وما حرموا عليهم، وقرن القرآن ذلك بعبادتهم للمسيح ابن مريم، سواء بسواء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ (التوبة).

وهذه الآية قد قرأها النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي ؓ عندما أتاه وفي عنقه صليب من ذهب، فقال له رسول الله ﷺ: "يا عدي، اطرح عنك هذا الوَثَن"، وسمعه يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، قال النبي ﷺ: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرَّموه"[1].

فقد دلَّت هذه الآية وما فسرها من حديث رسول الله ﷺ على أن من أطاع غير الله في معصية، أو اتبعه فيما لم يأذن به الله فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا، وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله،

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة (٣٠٩٥)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أن يقلد أحدًا من أهل دهره (٢٠١٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

والذي دلت عليه كلمة الإخلاص "لا إله إلا الله"؛ فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم عبادة لهم، وسماهم أربابًا، أي: شركاء لله عز وجل في العبادة، وهذا هو الشرك الأكبر، فكل من أطاع مخلوقًا واتبعه في غير ما شرعه الله ورسوله، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا، وإن لم يُسمِّه بذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ (الأنعام)، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ (الشورى).

وإذا كان هذا حكم القرآن والسنة فيمن اتخذ غير الله مشرِّعًا واتبعه فيما لم يأذن به، فكيف بمن جعل نفسه لله نِدًّا، فأعطاها حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الألوهية®؟!

ثانيًا. الإلحاد لم يحرر الإنسان من عبادة الله عز وجل:

إن الشرك واتخاذ الأنداد يأتي انسياقًا مجردًا عن الوعي، ومسايرة بلهاء لكبراء أفسدوا في الأرض، وقهروا الناس على عبادة الطواغيت، تلك حال مؤسفة؛ لأنها تسلب عقول المستضعفين وتخدع عقول المستكبرين، وتجعل الكل في غيبوبة عقلية. وما كان الله ليظلمهم، لقد منحهم العقل وبسط لهم دلائل التوحيد، وأقام لهم آيات الأنفس والآفاق وأنزل لهم الوحي، وقدَّم لهم النور، فاستحبوا العمى على الهدى، وآثروا متاع الحياة الدنيا الرخيص؛ فلا يلومن أحد إلا نفسه، وستأتي لحظة لاريب فيها يتبادل الناس فيها الاتهامات ويتقاذفون المسئولية، ويتبرأ كلٌّ من كلٍّ، قال عز وجل: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾ (ص).

إن الإلحاد لم يحرر الإنسان من الله عز وجل، ولكنه أذلَّه لغيره، فلقد استعبد الإنسان شهواته ونزواته، فالإلحاد وإنكار الله تعالى أصاب الإنسان بكل مظاهر الذِّلة والمرض والألم، يقول يونج العالم النفسي الشهير: طلب مني أناس كثيرون من جميع الدول المتحضرة مشورة لأمراضهم النفسية في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى إلا الحرمان من العقيدة الدينية، ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا لأنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشْفَ أحد هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية.

فما هذا الشيء الذي فقدوه ولم يشرحه يونج؟ إنه الإيمان بوجود الله القوي القادر، الذي يتضرع إليه الإنسان في السراء والضراء ويستصرخه ساعة المحنة، وهو الإيمان بحياة أخرى باقية.

والإلحاد الذي أنتجته الفلسفة الحسية المادية النفعية يحرم الإنسان من كل هذه النعم ويدعه بلا أمل ولا أمان، ويقبل الإنسان على الدنيا فيصدم بالآخرين، ويحتدم الصراع، ويتردد الإنسان بين الملل والألم كما يقول شو بنهور: الملل إذا فاز في الصراع وأشبع بطنه وفَرْجه، والألم من الحرمان إذا انهزم ولم يشبع حاجاته.

فالإلحاد يهدم الدين، ولا يعطي الناس بديلًا، ولعل

® في "تفرُّد الله بحق التحليل والتحريم" طالع: الشبهة السابعة والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

هذا هو ما يفسر لنا مظاهر التعاسة والجريمة وإدمان الخمر، والانتحار و الشعور بالملل والقلق والغُربة النفسية في المجتمعات المُلْحِدة[1]، فمن العبودية لله وحده تكون حرية الإنسان، ومن الاستعلاء على الله تكون عبودية الإنسان لكل ما سوى الله[2].

إن التوحيد هو المنشئ لكرامة الإنسان وحريته، وبغيره يصير الإنسان عبدًا لشيء صنعه بيديه، يستوي أن يكون هذا الشيء تمثالًا أو آلة من الآلات أو اختراعًا من الاختراعات أو هوى النفس أو رغبات الحواس[3].

فالإلحاد، إذن قد أذل الإنسان واستعبده، وهذه أحط الدرجات للإنسان الذي كرمه الله ﷻ على سائر مخلوقاته: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾ (التين)®.

كما أن التصوف الحق لم يُحرِّر الإنسان من الشريعة كما زعم هؤلاء المشككون، فإن التصوف ـ بمعناه الصحيح ـ ليس معناه الانحلال، ولا إطلاق العنان للشهوات والهوى، بل هو طريقة لضبط النفس وضبط السلوك الإنساني وتقويمه وتزكيته؛ حتى يكون في أعلى الدرجات، وليرتفع بالنفس الإنسانية عن الدنايا، هذا هو قَصْد التصوف وغايته، أما عن انحرافات بعض المنتسبين إلى التصوُّف، وإدخالهم ما ليس من دين الله في الدين، فإن ذلك لا يُعَدُّ من التصوف الذي معناه الزهد، وإيثار الآخرة على الدنيا.

فكيف ينتسب إلى الإسلام رجل تحرر من كل الأوامر والنواهي التي جاء بها القرآن الكريم أو جاءت بها السنة النبوية، وليعلم هؤلاء الطاعنون على الإسلام أن المسلم ليس بمنأى عن أحكام الله ﷻ، ولا بمنأى عن شريعته؛ فإن هناك عقوبات قررتها الشريعة الإسلامية وبيَّنتها، فمن خالفها ـ أيًا كان ـ فقد أوجب على نفسه حكمًا شرعيًّا من أحكامها، يستوي في ذلك الناس جميعًا، على التفاصيل التي في كتب الفقه الإسلامي، فالتصوف إذن لم يحرر الإنسان من الشريعة، وما ينبغي له، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ (النور)®.

وإنا نتوجه إلى من يدَّعون أن الإنسان إله للإنسان ـ بسؤال مؤدَّاه: إذا كنتم تنكرون أن الله ﷻ هو الإله المعبود بحق، وتدعون أن الإنسان إلهٌ للإنسان، فهل يُعقَل لديكم أن يكون من يَعْبُد ومن يُعْبَد سواءً؟ هل يُعْقل في عرفكم أن يكون العابد والمعبود بَشَرَيْنِ؟!

الخلاصة:

- الذي له الحق في التشريع هو الله؛ لأنه الخالق

---

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص٣٧، ٣٨.

٢. الله في العقيدة الإسلامية: رسالة جديدة في التوحيد، أحمد بهجت، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٤، د. ت، ص١١٧.

٣. المرجع السابق، ص١٢٠.

® في "**هبوط الفكر الإلحادي بقيمة الإنسان**" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

® في "**التصوف السني والتصوف الفلسفي وحقيقتهما**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

والمنعم على العباد، واتخاذ غيره مُشرِّعًا، أو ابتغاء غيره حكمًا من الشرك الأكبر؛ فالله ﷻ سيد مملكة العالم وحاكمها، فله وحده أن يحكم ويُشَرِّع في هذه المملكة.

- الشرك واتخاذ الانداد يأتي انسياقًا مجردًا عن الوعي، ومسايرة بلهاء لكبراء أفسدوا في الأرض، وقهروا الناس على عبادة الطواغيت، وهذه حال تسلب عقول المستضعفين، وتخدع عقول المستكبرين، وتجعل الكل في غيبوبة عقلية.
- إن الإلحاد استعبد الإنسان وجعله يُذَلُّ لمخلوق مثله، وهو بذلك لم يتحرر من الله؛ وذلك مبعوث يوم القيامة، وهو محاسَب على الصغير والكبير.
- أما التصوُّف الحق فإن هدفه ضبط السلوك، وحمل النفس على الطاعة، وتهذيبها، وهو مع هذا وذاك محكوم بقواعد وأصول شرعية لا ينفك عنها، ولا تنفك عنه، فمن خالف الشريعة في كبير أو صغير حُوسِب، ولم يُتْرك ليفعل ما يشاء كيفما يشاء.

الشبهة الثامنة والعشرون

دعوى التشابه بين زيارة المسلمين لبيت الله الحرام وزيارة بعضهم لمقامات مشايخهم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المنتسبين إلى البابية والباطنية والبهائية أنهم يزورون شيوخهم؛ عملًا بما جاء في القرآن وفي الحديث مما يوجب زيارة بيت الله الحرام، وهم بهذا يتوهمون أن زيارتهم لمقامات شيوخهم والتمسُّح بها يماثل زيارة بيت الله الحرام واستلام الحجر الأسود.

وجها إبطال الشبهة:

1) البابية والباطنية والبهائية وما شاكلها فِرَقٌ كافرة بإجماع الأمة، وديانات مبتدعة خارجة عن الإسلام، هدفها هدْمه والقضاء عليه، وتلبيس المسلمين في ثوابت دينهم.

2) زيارة البيت الحرام فرض واجب على القادرين من المسلمين، وقياس زيارة القبور عليها قياس خاطئ. ثم إن العبادات أمورٌ توقيفية، الأصل فيها التوقف عمَّا لم يؤمر به، ولا يجوز الزيادة فيها إلا بدليل صحيح من الكتاب والسنة.

التفصيل:

أولا. البابية والباطنية والبهائية وما شاكلها فِرَق ضالَّة هدفها هدْم الإسلام:

البابية والباطنية والبهائية وما شاكلها ديانات مبتدعة خارجة على الإسلام وتعاليمه، وهي لا تُعبِّر عن الإسلام من قريب ولا من بعيد، فكل من يدعي ألوهية أي عبد من عباد الله ﷻ، أو حلول إلهٍ في شخصٍ خارجٌ عن الإسلام باتفاق الأمة الإسلامية، وإن أعلن انتماءه للإسلام أو تسمَّى بأسماء المسلمين؛ إذ إن هذه الملل تخالف صراحة تعاليم الإسلام وأصله في الاعتقاد المتمثل في التوحيد ونفي الشرك، وقد أصدر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر السابق بيانًا واضحًا بشأن البهائية، ونشرته جريدة الأهرام في

(*) البهائية في ميزان الشريعة، د. عمارة نجيب، د. محمود عثمان، وزارة الأوقاف، القاهرة، رسالة الإمام، العدد الثاني، رمضان ١٤٠٥هـ.

عددها الصادر يوم ٢١/ ١/ ١٩٨٦م تحت عنوان "البهائية باطلة ومعتقدها كافر مرتد عن الإسلام"، يقول فيه: "والبابية والبهائية فكر خليط من فلسفات وأديان متعددة ليس فيها جديد تحتاجه الأمة.. إنها تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمار"، ويقرر الشيخ جاد الحق "أن الإسلام لا يقر أي ديانة أخرى غير ما أمرنا القرآن باحترامه كالمسيحية واليهودية؛ لأن كل ديانة أخرى غير مشروعة، ومخالفة للنظام العام".

إن هؤلاء الذين أجرموا في حق الإسلام والوطن يجب أن يختفوا من الحياة، لا أن يجاهروا بالخروج على الإسلام، وأصدرت لجنة الفتوى بالأزهر في ٢٣/ ٩/ ١٩٥٠م، بيانًا بكفر هذه الطائفة، وفي العام نفسه أصدرت جبهة علماء الأزهر تحذيرًا ضد البهائية[١] ®.

هدف هذه الفرق هو القضاء على الإسلام:

تهدف هذه الفرق - البابية والباطنية والبهائية وأمثالها - إلى القضاء على الإسلام، وإن اتخذت أحيانًا شكل دعوة دينية أو خلقية أو اجتماعية، وتهدف كذلك إلى تشكيك المسلمين في دينهم بمحاولة التقريب بين المسيحية والإسلام. ومن مهامها إضعاف مقاومة المسلمين للأجانب بتحريف تفسير آيات الجهاد. وكذلك فتح الباب أمام اليهود ومساعدتهم في السيطرة على أرض فلسطين، ومنع كل الاتجاهات المناهضة لإسرائيل في فلسطين[٢].

ثانيًا. قياس خاطئ مغلوط:

إن زيارة البيت الحرام فرض واجب على المسلم القادر، وذلك في تشريع الحج إليه، وأداء المناسك عنده، وهذا أمر تعبُّدي توقيفي مأمور به في القرآن الكريم، ومنصوص عليه في السنة المطهرة. وزيارة المسجد النبوي من المستحبات، ولا يجوز شد الرحال، إلى غيرهما، سوى المسجد الأقصى بفلسطين، كما قال النبي ﷺ: "لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى"[٣].

أي أن ذلك أمر منصوص عليه، فلا يزاد عليه، فمن زاد فقد ابتدع في دين الله ما ليس منه.

وأما قياس زيارة قبور الأولياء الصالحين، على زيارة هذه المساجد، فقياس خاطئ، فضلًا عن أن تكون زيارة لغير أولياء الله، بل لكفار بإجماع الأمة، فشتان بين زيارة البيت الحرام، والمسجد النبوي، وزيارة قبور الصالحين أو الطالحين على حد سواء.

وأقصى ما يفعله المسلمون - عن جهل من بعضهم - الذين يزورون قبور الصالحين أنهم يدعون الله تعالى عندها على اعتبار أنها أماكن يقبل فيها الدعاء - وهذا باطل - أو أنها تذكرهم بهؤلاء الصالحين فيعملون

١. مجلة الزهراء، تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، العدد الثالث والعشرون، ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٨٤، ٣٨٥.

® في **"حقيقة البهائية وصلتها بالمذاهب المنحرفة"** طالع: الوجهين الثاني والخامس، من الشبهة الحادية والثلاثين؛ من هذا الجزء.

٢. عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة، د. محمد عبد المنعم القيعي، مرجع سابق، ص١٤٦.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٣٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد (٣٤٥٠)، واللفظ له.

بعملهم، ويتذكرون الآخرة عند زيارتهم لها.

العبادات في الإسلام أمور توقيفية:

لا تجوز الزيادة على المشروع من العبادات في الإسلام إلا بدليل صحيح من كتاب أو سنة، وكذلك لا يجوز النقصان منها؛ فمثلًا صلاة الصبح ركعتان، فلا يجوز الزيادة على ذلك، لا يجوز كذلك أن يتساءل المرء: ولماذا هي ركعتان؟ العقل يعجز عن إدراك الحكمة من وراء ذلك، فلا يسأل بل يُسلِّم ويفوض، ومن هنا يُعْلم المسلم المتبع لدينه ولنبيه، والمسلم الساخط الناقم على دينه وعلى تشريعاته، ولا يُقْبَل من أحد ـ كائنًا من كان ـ أن يحرف القرآن الكريم، وآياته عن مواضعها، ومن يفعل ذلك يلحق باليهود والنصارى، الذين سقطوا في هذا المنزلق، فخرجوا عن دين الله الحق، وطمسوا معالم الدين الذي جاء به أنبياء بني إسرائيل.

الخلاصة:

- إن البابية والباطنية والبهائية وغيرها فرق ضالة مرتدة عن الإسلام، هدفها هَدْمه والقضاء عليه وإخراج المسلمين منه شيئًا فشيئًا.
- ليس ثمَّة أدنى تشابه بين زيارة المسجد الحرام، وزيارة بعض الناس لقبور مشايخهم ومقاماتهم؛ لأن الإسلام حرَّم الغُلُو في الصالحين، وحرَّم إقامة المساجد على القبور، حتى لا يتخذها الناس سبيلًا للابتداع المؤدي إلى الشرك، وأما تنزيل زيارة مقامات الصالحين ـ أو غيرهم ـ على زيارة المسجد الحرام، فهذا تنزيل في غير محله، وقياس خاطئ لا يصح.

الشبهة التاسعة والعشرون

الزعم أن ما عليه الصابئة ديانة وتوحيد(*) ®

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين أن ما عليه الصابئة ديانة وتوحيد، ويستدلون على هذا بأن القرآن قد أثبت ذلك وذكره في ثلاثة مواضع؛ حيث قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحج)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة)، وذلك في سياق المدح والثناء عليها.

وجها إبطال الشبهة:

١) الصابئة من أقدم الفرق التي تشعب الحديث عنها؛ فقد تطلق على كل من خرج عن دين قومه إلى دين آخر، وقد تطلق على عبدة الكواكب، وقد تطلق على عبدة الملائكة، فكيف يكون أصحابها أصحاب ديانة توحيدية؟!

(*) موقع صيد الفوائد.

® في "حقيقة الصابئة وعقيدتهم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

٢) ليس هناك في القرآن أدنى إشارة إلى عَدِّ ما عليه الصابئة ديانة وتوحيدًا وإن التفسير الصحيح لآيات سور: البقرة والمائدة والحج كفيل بأن يَدْفع هذا الفهم الخاطئ.

التفصيل:

أولا. الصابئة حقيقتها وطوائفها:

تعتبر الصابئة من أقدم الفرق والطوائف التي اختلفت كتب الفرق والتاريخ في الحديث عنها، بل تشعب فيها الحديث واختلط، وذهبت الآراء في عقيدتها مذاهب شتى، واختلفت بالمؤرخين لها والمنصفين عند ذكرها السبل والمذاهب.

فالعرب تسمِّي كل خارج عن دين إلى غيره صابئًا، ومن هنا كان يقال للرجل إذا أسلم في بدء البعثة: قد صبأ، بل ذكرت المصادر أن قريشًا كانت تسمي النبي ﷺ وصحابته الكرام ﷺ، صُباة: أي: الخارجون على دين قومهم.

ولما أسلم أبو ذر الغفاري ﷺ قيلت له هذه الكلمة بعد إسلامه، وعندما ذهب سعد بن معاذ ﷺ إلى مكة عاتبه أبو جهل لدخوله في دين الصابئين؛ أي: المسلمين، ولما قدم خالد بن الوليد ﷺ على بني خزيمة، نادوه بأنهم: صبئوا، أي دخلوا في دين الإسلام[١].

والذي يجب التنبيه عليه أن المسلمين لم يرتاحوا لهذه التسمية، بل كانوا يكذِّبون كل من يطلقها عليهم؛ إذ لما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش قائلًا: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، وذلك حين دخل في الإسلام، فنادى عمر ﷺ من خلفه قائلًا: لقد كذب إني أسلمت. فتكذيب عمر ﷺ وغيره للوثنيين من أهل مكة يشعر بأن أهل مكة إنما أطلقوا على المسلمين هذه التسمية إهانة لهم، وازدراءً بهم، وإلا لما انزعج المسلمون منها.

ونخلص من هذا أيضًا إلى أن لفظ "الصابئة" لفظ مذموم عند المشركين؛ إذ أطلقوها على من خرج عن دينهم، وعند المسلمين كذلك؛ إذ لم يرضوه لأنفسهم، فالصابئة كلمة مذمومة عند الجميع، فكيف يكونون أهل توحيد والتوحيد أسمى شيء يكون عليه الإنسان؟!

كما ذكر النيسابوري في تفسيره: أن الصابئة كانوا يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور. وذكر الألوسي في تفسيره أن الصابئين قوم مدار مذاهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائط، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة منهم إلى هياكلها، فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهند مفزعها الثوابت، وجماعة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عن أحد شيئًا[٢].

ويقول عنهم البيضاوي في تفسيره: "يقال إنهم يعبدون الملائكة، كما يقال إنهم يعبدون الكواكب". كما قال الألوسي في تفسيره: "وهم كما قال حسن جلبي، وغيره قوم خرجوا من دين اليهود والنصارى

١. موقع صيد الفوائد.

٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، عند تفسير الآية.

وعبدوا الملائكة"[1].

أرأيت كيف تشعب الحديث عنها، ولم يذكر أحد أنهم أهل توحيد؟! وقد أصاب الشهرستاني الصواب حين قال في سبب تسمية هذه الطائفة بالصابئة: صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنة الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم: صابئة.

طوائف الصابئة:

يجد المتتبع لأخبار الصابئة في كتب التاريخ والملل والنحل، أنهم لم يكونوا طائفة واحدة، ولم يجمعهم مذهب واحد، ولم تؤلف بينهم تعاليم وشعائر معينة، إلا أن المؤرخين، وكُتَّاب الملل والنحل يكادون يجمعون على أنهم فرقتان:

الفرقة الأولى: هم الذين عُرِفوا في الفكر الإسلامي باسم "الحرانية":

وقد نبه البيروني إلى أن هؤلاء - الصابئة الحرانية - ليسوا هم الصابئة على وجه الحقيقة، وأنهم تسموا بالصابئة في عهد الدولة العباسية سنة ٢٨٨هـ ليعدوا في جملة من تُؤْخَذ منه الجزية وترعى له الذمة، وكانوا قبلها يسمون بالحنفاء والحرانية.

ويوضح الأستاذ إسماعيل مظهر ذلك فيقول: "إنهم تسموا بهذا الاسم في زمن الخليفة العباسي عندما مَرَّ بـ "حران" ليحارب إمبراطور بيزنطة، فاطلع على أحوالهم، ووقف على حقيقة ديانتهم فطلب منهم أن يعتنقوا دينًا من الأديان قبل أن يعود من الحرب، فدلهم بعض الدهاة - بعد أن دفعوا له الأموال - على أن يتسموا بالصابئة، وهي من الأديان المذكورة في القرآن".

وقال الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة في مقدمة كتابه "رسائل الكندي الفلسفية" ما نصه: ومن الجائز أن يكون هؤلاء الصابئة أتباع ديانة قديمة قد اختلطت بالفلسفة، ولعل نحلتهم توحيد قديم يرجع إلى إبراهيم عليه السلام عادت إليه بعض التصورات البابلية القديمة، وبعض مظاهر الوثنية التي حاربها النبي إبراهيم عليه السلام ثم تغذت بعد فتح الإسكندر للشرق بعناصر فلسفية يونانية.

وكانت الصابئة الحرانية تسكن شمال العراق، ومركزهم الكبير في حران، وهي مدينة قديمة جدًّا، وتقع في شمال الجزيرة قرب منابع نهر البلخ أحد روافد الفرات، واشتهرت حران بأنها كانت مقرًّا لعبادة القمر، وظلت كذلك حتى بعد أن انهارت دولة الكلدانيين ودولة الفرس.

الفرقة الثانية: الصابئة المندائيون أو المنديون:

وهم الذين تخلفوا ببابل من أسرى بابل الذين سباهم نبوخذ نصر - الذي ينطقه العامة بختنصر - إليها من بيت المقدس بعد تدميره هيكل سليمان، وقد اعتادوا العيش في أرض بابل، فآثروا البقاء بها، ولم يرجعوا مع السبي العائد إلى بيت المقدس، بعد أن حررهم قورش الفارسي من الأسر، فسمعوا أقاويل ومعتقدات المجوس وصبوا إلى بعضها، فأصبح مذهبهم مزيجًا من المجوسية واليهودية والنصرانية، وانتشروا في بلاد الرافدين. وتنتشر هذه الطائفة في الكوت، والعمارة، والناصرية، وواسط، وبغداد، وفي الأهواز على شاطيء

---

١. أنوار التنزيل، البيضاوي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

نهر كارون في إيران، ويسمِّيهم العامة بـ "الصبية"[1].

ثانيًا. التفسير الصحيح للآيات التي استند إليها مثيرو الشبهة:

لم يرد لفظ "الصابئين" في القرآن على أنهم أصحاب ديانة توحيدية، وذلك أن الآيات الثلاث الآتية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ (الحج)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾ (المائدة) ليس فيها - مطلقًا - ما يدل على إثبات القرآن التوحيدَ للصابئة، فقد ذكرت آية سورة الحج - على سبيل المثال - المجوس والذين أشركوا إضافة إلى الصابئين والنصارى، فهل يعتبر الذين أشركوا، أو المجوس أهل توحيد؟! أو حتى النصارى الذين هم أهل تثليث؟!

إن ادعاءَ أن القرآن أثبت التوحيد للصابئين ادعاءٌ باطل؛ فالقرآن يرد على كل أَفَّاكٍ أثيم بتركيبه المعجز، وترتيب الكلمات فيه، ووضعها في سياق معين، فترتيب الطوائف المذكورة في آية البقرة يراد منه الترتيب الرتبي، أي أنها ذكرت الأمثل والأسبق إلى أن وصلت لمن ليس له كتاب، فالمؤمنون بالكتب المنزلة السابقة - كصحف إبراهيم وغيرها - أولًا، يليهم اليهود لتقدم نبيهم وسبق زمانهم، يليهم النصارى لتأخر نبيهم وزمانهم، وآخرهم الصابئون؛ لكثرة مخالفتهم ولما أحدثوه في مذهبهم من بدع وخرافات، علاوة على أنهم ليسوا أهل كتاب منزل[2].

فهم - الصابئون - لا كتاب لهم ولا توحيد لهم، وإن ادَّعوا أن لهم كتابًا يُدْعَى: الجنزا أو الكنز، فالقرآن لا يذكر عنوان كتابهم هذا، في حين ذكر التوراة والإنجيل، وكيف يُثبت هذا الكتاب، وهو لم يُجْمع ولم يُنْسَخ إلا في القرن السابع والثامن الميلادي، فهذا كتاب ملفق لم ينزل من عند الله، جاءوا به ليقووا مركزهم أمام السلطة الإسلامية، ويصبحوا من أهل الكتاب، بحيث يعاملون مثل اليهود والنصارى.

كما أن الصابئين لا يعترفون بالأنبياء، اعتقادًا منهم أنهم مجرد بشر، ويذكر الشهرستاني أنهم يذهبون إلى أن الأنبياء طالما أنهم من جنس البشر، لهم نفس الشكل، وهم مخلوقون من نفس المادة، يأكلون ما نأكل، ويشربون ما نشرب، وهم بشر مثلنا - فلماذا إذن نحن مضطرون لطاعتهم؟ ماذا يميزهم عنا حتى نتبعهم؟ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)﴾ (المؤمنون).

فكيف يكون من لا كتاب له من عند الله، ولا إيمان له بالأنبياء - أهل توحيد وعقيدة سليمة خالية من الشوائب؟!

وسبب تأخير "الذين أشركوا" في الذكر في آية الحج؛ يتمثل في أنهم - وإن تقدمت لهم أزمنة، وكانوا في عهد أكثر الأنبياء - لما كانوا أكثرية في عهد الرسول ﷺ

---

١. موقع صيد الفوائد.

٢. موقع صيد الفوائد.

اعتُبروا من أهل زمانه، وبذلك يكون زمنهم متأخرًا عن زمن من سبقهم فأُخِّر ذكرهم، وقدم ذكر الصابئين على النصارى؛ لأن زمنهم أسبق من زمن النصارى.

والترتيب في آية سورة المائدة كان لغرض تجدر الإشارة إليه، فقد ورد لفظ "الصابئين" منصوبًا بالياء في آيتي (البقرة والحج) عطفًا على محل اسم إن، بينما ورد اللفظ نفسه مرفوعًا (الصابئون) بالقطع عما قبله في آية المائدة، والتغيير في الحكم الإعرابي عن طريق القطع لا يعدُّ فصيحًا إلا إذا كان لهدف يُراد التنبيه عليه.

فإذا قلنا: إن محمدًا وزيدًا وعمرو قادرون على منازلة خالد، فلا يكون هذا القول فصيحًا وبليغًا إلا إذا كان عمرو في مظنَّة العجز عن منازلة خالد، فأردنا بهذا القطع أن ننبه المخاطب إلى خطئه في هذا الظن، كما أردنا أن نؤكد على أن عمرًا يقدر على ما يقدر عليه زميلاه محمد وزيد، وما في آية المائدة من هذا القبيل.

فالصابئون وإن لم يكونوا أهل الكتاب إلا أن حكمهم كحكم أهل الكتاب - اليهود والنصارى - في ارتباط الجزاء - وهو نفي الخوف عنهم يوم القيامة - بالشرط، وهو الدخول في الإسلام عن اعتقاد صحيح، وإيمان خالص بالمبدأ، والمعاد، واقتران ذلك بالعمل الصالح، وبهذا يتساوي الجميع في نظر الإسلام إذا ما دخلوا فيه، فلا فرق بين الجميع في الجزاء الأخروي، فضلًا عن محْوِ الإسلام لخطاياهم.

وزاد القطع إلى الرفع في "الصابئون" الحكم توكيدًا، فيكون الصابئون مرفوعًا على الابتداء، والخبر محذوفًا، ويكون تقدير الكلام: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. والصابئون كذلك)، وجاء في تفسير المنار: ولما كان هذا - أي: إشراك الصابئين مع اليهود، والنصارى في الحكم غير معروف عند المخاطبين في هذه الآية، وكان الصابئون غير مظنة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السماوية - حَسُنَ في شرع البلاغة أن ينبه على ذلك بتغيير نسق الإعراب. أرأيت كيف دلَّ سياق الآيات وتركيبها على بعدهم عن التوحيد وعلى أنهم ليسوا أصحاب كتاب.

إن الفهم الصحيح للآيات يقضي بأن كلًّا من الذين آمنوا بألسنتهم فقط، والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس، إذا آمنوا حقًّا بالله وباليوم الآخر، وعملوا صالحًا فلهم الأجر والثواب عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. فالآيات تتضمن معنى "الشرط" أي: أنهم - الصابئين - لم يؤمنوا ولم يعملوا صالحًا، لكن إذا آمنوا وعملوا صالحًا، فيكون جزاؤهم أن: لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والذي فَهِمَه مثيرو الشبهة خلاف ذلك، فقد فهموا أنَّ الله عز وجل - طالما أنه قد قال: فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - حكم عليهم بأنهم أهل توحيد، وبأنهم محببون إليه.

ويدفع هذا الفَهْم الخاطئ كل أقوال المفسرين؛ فالرازي مثلًا يقول في تفسيره لآية سورة البقرة: "إن قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ غير المراد في قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ونظيره في

الإشكال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ (النساء: ١٣٦)، فلأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون وجوهًا:

أحدها: وهو قول ابن عباس، أن المراد: الذين آمنوا قبل مبعث محمد بعيسى - عليهما السلام - مع البراءة عن أباطيل اليهود والنصارى، مثل قس بن ساعدة، وبحيرا الراهب، وحبيب النجار، وزيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، ووفد النجاشي، فالمعنى: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل لليهود، والذين كانوا على الدين الباطل للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد عليه السلام بالله وباليوم الآخر وبمحمد ﷺ، فلهم أجرهم عند ربهم.

ثانيها: أنه تعالى ذكر في هذه السورة طريقة المنافقين ثم طريقة اليهود، فالمراد من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب، وهم المنافقون، فذكر المنافقين، ثم اليهود، والنصارى، والصابئين، فكأنه تعالى قال: هؤلاء المبطلون كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي، صار من المؤمنين عند الله، وهو قول سفيان الثوري"[1]، وقال نحو ذلك الألوسي والزمخشري، وغيرهم.

كما أن سياق آية الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الحج)، لم يتعرض مطلقًا للمدح والثناء، وإنما بيّن أن الله على كل شيء شهيد؛ وذلك لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام، ولقد كان ذلك داعيًا إلى التساؤل عن أحوال الفِرَق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وعن الدين الحق؛ لأن كل أمة تدَّعي أنها على الحق، وأن غيرها على الباطل، وتجادل في ذلك. فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة، إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا[2].

فهذه الآية لم تأت في سياق مدح ولا ثناء، لكي يُدَّعَى أنهم مقربون لله وأنهم أهل توحيد! وبذلك تتضافر الآيات بكل قوة؛ لتثبت بطلان هذا التوهم.

الخلاصة:

- الصابئة هم كل من خرج عن دينٍ ليعتنق دينًا آخر، أو هم عبدة الكواكب، أو عبدة الملائكة... إلخ، فكيف يكون مَنْ هذه حاله من أهل التوحيد؟!
- الصابئة لم يجمعهم مذهب واحد، ولم تؤلِّف بينهم تعاليم وشعائر معينة، وهم فرقتان: فرقة تُدعى "الحرانية"، وفرقة تُدعى "المندائية" أو "المندية"، والصابئة لا كتاب لها ولا توحيد، وإن ادَّعوا أن لهم كتابًا يُدْعى "الجترا" أو "الكترا"، كما أنهم لا يعترفون بالأنبياء.
- تتضافر الآيات على نفي كون الصابئين أهل توحيد، ولم يرد في القرآن مطلقًا أنهم أصحاب ديانة توحيدية، يؤكد ذلك ما جاء في آيات البقرة والمائدة والحج.
- الآيات تتضمن معنى الشرط. أي: إذا آمن

---

١. التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج٨، ج١٧، ص٢٢٢.

هؤلاء الصابئون وعملوا صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولا تتضمن أية إشارة إلى أن الله تعالى أثنى عليهم؛ لأنهم آمنوا به وأقروا له بالوحدانية، وذلك أن هؤلاء الطاعنين لم ينتبهوا إلى المفارقة الظاهرة بين قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة:٦٢)، وقوله ﷻ: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ (البقرة: ٦٢).

الشبهة الثلاثون

إنكار نظرة الإسلام المتوازنة إلى الإنسان (*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر دعاة المادية على الإسلام نظرته المتوازنة للحضارة الإنسانية عمومًا، وللإنسان خصوصًا روحًا وجسدًا، ويزعمون أن الإنسان الجسد هو المقوِّم الأمثل والأوحد للحضارة المادية، وهذا ـ في ظنهم ـ ما دفع فرويد إلى تصور الإنسان على أنه مجموعة من الغرائز الجسدية التي تَهْوي به إلى أصله الهابط، وهو القرد كما يؤكد دارون.

وهم بهذه الدعوى، ينكرون صلاحية المنهج الإسلامي لإرساء مقوِّمات الحضارة الإنسانية، ويشككون في الأسس التي يبني بها الإسلام شخصية المسلم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) اختلفت نظرة الإسلام للإنسان روحًا وجسدًا عن نظرة الحضارة المادية له، فالأولى عادلة متوازنة بين الروح والجسد، أما الأخرى فمادية متدنية؛ وذلك أن تصور الإنسان بوصفه مجموعة من الغرائز الجسدية تصور خاطئ؛ فالتعادل لا يتم ولا يتحقق إلا بَعَدِّ الإنسان روحًا وجسدًا.

٢) إن الارتقاء المادي ليس دليلًا أو مقياسًا للرقي الإنساني المأمول، فعلى الرغم من التقدم الذي وصلت إليه الحضارة الغربية ـ فإنها لم تحقق السعادة الإنسانية.

٣) لو كان تجريد الإنسان من روحه، والنظر إليه على أنه جسد فقط يقيم حضارة إنسانية؛ لما بحث ضحايا المادية عن الإسلام بديلًا روحيًّا.

التفصيل:

أولا. النظرة الإسلامية المتوازنة للإنسان:

لقد ذَمَّ مثيرو هذه الشبهة الإسلام، بما ينبغي أن يُمْدَح به، وذلك حين أنكروا عليه نظرته المتوازنة إلى الإنسان، على أنه روح وجسد معًا.

وإن حضارة الإسلام لا تقف عند النظرة المتدنية للإنسان، التي تغفل جانب الروح وإنما وإن كانت لا تغفل واقع الإنسان الذي يتمثل في أنه جسد، لا تغفل واقعه الآخر بأنه روح، فإن له عقلًا وقلبًا، وفي هذه تفترق عن سائر الحضارات من أعز مكان وأشرفه، حيث تتجه إلى حضارة المثل، والقيم، والأخلاق، ولا

(*) أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.

® في "رعاية تعاليم الإسلام لجانبي الروح والجسد" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

تغفل ـ بعد ذلك ـ بقية القوى.

والروح والجسد ثنائية شديدة الوضوح في الماديات، فالجسم مطية، والروح راكب، لا غنى لأحدهما عن الآخر، بيد أن الروح سيد مطاع، والجسد خادم مطيع، وهذه الروح لا تفارق الجسد، إلا مرة واحدة، حين يقبضها ملك الموت، ولا أحد يستطيع أن يعطي رأيًا في ماهيتها، فقد حسمها الله بشكل قطعي في قوله ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء).

ثم إن للجسد حقوقًا ومتطلبات، لكن لا قيمة لجسد فارقته روحه، فهو جثة هامدة خاوية مهما تكن ضخمة وجميلة، فهي بعد الفراق شيء موحش، وإنما جمالها بحسن الازدواج مع الروح، وعند نقل هذا المعنى إلى مجاله الشرعي، نجد أن العبادات الأربع العملية، بل سائر التعبدات تجمع بين الجسد والروح.

إن رسالة الإنسان في هذه الحياة تتطلب مزيدًا من الدرس والتمحيص، ووظيفته العتيدة في ذلك العالم الرحب يجب أن تُحدَّد، وتبرز حتى يؤديها ببصيرة ووفاء وقوة ومضاء. إن بعض الناس جهل الحكمة العليا من وجوده، فعاش عاطلًا في زحام الحياة، وكان ينبغي أن يعمل ويكافح، أو عاش شاردًا عن الجادة تائهًا عن الهدف، وكان ينبغي أن يشق طريقه على هدى مستقيم، والنظرة الأولى في خلق آدم وبنيه، كما ذكرها القرآن الكريم، توضح كل شيء في هذه الرسالة.

لقد بدأ هذا الخلق من تراب الأرض وحدها، والبشر جميعًا في هذه المرحلة من وجودهم، ليس لهم فضل يمتازون به، أو يُعْلِي مكانتهم على غيرهم من الكائنات، فكم تساوي حفنة من التراب؟ لا شيء بالطبع. بل إن القرآن الكريم وصفهم في هذه المرحلة بما يدل على تفاهة الشأن، قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ (السجدة).

إن الإنسان كائن عظيم حقًّا، بيد أن عظمته ترجع إلى نسبه السماوي الروحي لا إلى نسبه الأرضي المادي، ومن الناس من يقدرون نسبهم الإلهي هذا فيجعلون الحياة تزدان بالمعرفة والكرامة والفضيلة. ومنهم من تستهويهم نزعات الحمأ المسنون، فيجعلون الحياة تسود بالشهوات والمظالم والأنانية وتسخير الإنسان لأتفه شيء في الكون.

المادية تشد الناس إلى أسفل:

النزاع الأبدي بين الناس في هذه الحياة أساسه: أتكون الهيمنة للحيوان الرابض في دم الإنسان، يتحرك بنزعات القسوة والأثرة وحدها، أم تكون الهيمنة للقلب الإنساني المتطلع إلى الكمال، والسلام، والحب، والإيثار؟

ذاك ما يجب أن يُعْرف بجلاء وأن ترتفع حناجر المصلحين به، وقد حملنا ـ نحن المسلمين ـ حضارة أعلت قدر الإنسان، ولفتت نظره إلى أن ملكوت السماوات والأرض ممهد له، قال ﷻ: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠).

إن هذا التسخير لآفاق السماء، وفجاج الأرض، وجعلها في خدمة الإنسان يتضمن إشارة بينة إلى أن الإنسان خلق ليكون سيدًا لا مهانًا، إن سجود الملأ

الأعلى له في السماوات، معناه أن يحيا على ظهر هذه الأرض سيدًا، موفور الحرمة مدعوم المكانة، إذ وظيفته أن يخلف الله في أرضه، ولكن لا يجوز عند انشغاله بأعباء العيش الأرضية أن ينسى حقوق ربه الذي أسندها إليه، والذي قوّاه عليها، قال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (المؤمنون).

وقد صالح الإسلام في تعاليمه بين مطالب الجسد، ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا، وواجبات الآخرة، فكأن الإنسان ـ بعد هذا الصلح الذي عقده الإسلام ـ كيان واحد يستقبل به عالمًا ليست فيه فواصل بين الموت والحياة.

وتوضيحًا لهذا المنهج الوسط قيل لكل إنسان: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (القصص).

ليس في الإسلام إذن انفصال بين العمل للدنيا، والعمل للآخرة، فإن العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة، ما دام مقرونًا بشرف القصد، وسمو الغاية، وليس فيه تغليب للجسد على الروح، ولا للروح على الجسد، إنما فيه تنظيم دقيق يجعل معنويات الإنسان هي التي تتولى قياده، وتتمسك بزمامه، فلا هو براهب يقتل نداء الطبيعة، ويميت هواتف الفطرة، ولا هو مادي يتجاهل سناء الروح، وأشواقها إلى الرفعة والخلود.

إن الإسلام يلحُّ على كل إنسان فوق ظهر الأرض ألا ينسى نسبه السماوي، وألا يتجاهل أصله المنبثق من روح الله، وللجسد كذلك حقوق مقدرة، وقد قال الله في وصف أنبيائه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الأنبياء). لكن توفير هذه الحقوق ليس إلا لصيانة الفؤاد والفكر، وحماية القلب والعقل، فما أشبه هذا الجسم، بزجاجة المصباح الكهربائي، إنما هي التي تصقل الضوء وتحد الشعاع، فلو انكسرت ذهب الضوء واحتبس التيار.

ومع ذلك فالمحافظة على هذه الزجاجة وتلميعها وإزالة الغبار من فوقها شيء غير مقصود لذاته، بل مقصود لينطلق الضوء من خلالها صافيًا نقيًّا، وقد أمر الإسلام بتطهير البدن وتزكية الروح، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (البقرة)، وطهارة الروح أساسها حسن الصلة بالله، وطهارة البدن بإزالة ما لا يليق بمكانة إنسان كريم على الله، له رسالة سماوية مجيدة.

إن عبادة الجسد وعبادة المادة والتمرد على الأساس الإلهي في الحياة الإنسانية عوج لا يتمخض إلا عن الشر والبلاء، وآفة الحضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات، وأخرست نداء الروح، وأطلقت نداء الطين، وجحدت أن الإنسان نفخة من روح الله، ورأت أنه ـ كلًّا وجزءًا ـ نشأ من الأرض، فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى، يذكر الله ولي نعمته وسر عظمته، ونحن نؤكد أن شرف الإنسانية أولًا وآخرًا في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه، والحرية الحقيقية ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء، ويرتفع إذا شاء، ولكنها تتمثل في أن يخضع لقيود

الكمال، وأن يتصرف داخل نطاقها وحده: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ (الأحزاب).

يقول رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك"[1]. ما الحرية التي هَفَتْ إليها الشعوب وتَنَادى بها كبار القلوب؟ إنها حق البشر في تأمين الوسائل التي يحيون بها زكية نقية، وليست حقَّ امرئ - أيِّ امرئ - في أن ينسلخ عن طبيعته، أو يتمرد على فطرته، إن الحرية ليست حق الإنسان أن يتحول حيوانًا إذا شاء، أو يجمد نسبه الروحي إلى رب العالمين، أو يقترف من الأعمال ما يوهي صلته بالسماء، ويقوي صلته بالتراب، فإن الحرية بهذا المعنى لا تعدو قلب الحقائق، وإبعاد الأمور عن مجراها.

والواقع أنك لن تجد أعبد ولا أخنع من رجل يدَّعي أنه حُرٌّ فإذا فتشت في نفسه وجدته ذليلًا لشهواته كلها، ربما كان عبدًا لبطنه أو فرجه، وربما كان عبدًا لمظاهر يرائي بها الناس، أو لمراسم يظنها مناط وجاهة، فإذا فقد بعض هذه الرغائب، رأيته أتفه شيء، ولو كان يلي أكبر المناصب بل لو كان ملكًا تدين له الرقاب، وهكذا فإن الحرية المطلقة لا تنبع إلا من العبودية الصحيحة لله وحده®.

ثانيًا. فشل الجانب المادي المحض في تحقيق السعادة الإنسانية:

ليس الجسد - كما زعموا - هو المقوم الأمثل للحضارة الإنسانية، الأمر الذي دفع فرويد إلى تصور الإنسان بوصفه مجموعة من الغرائز الحسية؛ إذ إن الروح هي التي تسعد الإنسان بالطاعات والعبادة، ولذلك نجد أن العبادة تسمى بالجانب الروحي للإنسان، وهذا الأمر يجعل النصارى واليهود حين يدخلون الإسلام يجدون الطمأنينة التي لم يتذوقوها من قبل، يقول فاسان مونتيه: "اخترت الإسلام لأني شعرت بالراحة في ظلاله، فهو لا يفصل بين الروح والجسد".

فربما تكون الروح قادرة على تحقيق مبدأ التعادل لدى الإنسان، فلا يكون تحت ضغط النفس وشهواتها فقط، ربما يقابل النفس التي تجنح إلى دفع جسد الإنسان وعقله نحو الإيغال في الشر، ومع ذلك فإن هناك أنفسًا مطمئنة للخير كارهة للشهوات. وبناء عليه يتحقق في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره، فلا الجسد يطغى على الإنسان فينقلب حيوانًا تسيره غرائزه، ولا العقل يطغى عليه فينقلب إلى خيال بعيد عن الواقع والحياة، ولا القلب وأشواقه يطغى فينقلب الإنسان إلى راهب، ينقطع عن الدنيا، وما فيها، وإنما يسير بقدر، كما أن كلاً خُلِقَ بقدر.

والأخلاق الإسلامية قَوَّمت هذا الجانب؛ فمن خصائصها التوازن بين مطالب الروح والجسد، فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات، بل تصونها في إطارها الشرعي، فمن حق الإنسان إشباع رغباته

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧).

® في **"تكريم الإنسان في الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

بالضوابط الشرعية مع اتباع الروح بالذكر والطاعة والعبادة.

فالصلاة - مثلًا - جسدها: القيام، والقعود، والركوع، والسجود، والأعمال البدنية، وهي مما يحفظه الكثير من المسلمين ويتعلمونه ويسألون عنه، إلى حد التعمق في الجزئيات وما وراءها. وروحها: الخشوع والإخبات والانكسار لله وتحقيق العبودية والذل والاعتراف لله المجيد بالعظمة والكبرياء والألوهية، وهناك تناسب بين التنافس والحفاوة بروح الصلاة وجسدها، وهو أن أداء الصلاة، ولو ظاهرًا، يعني طاعة الإنسان لربه والتزامه بأمره وقيامه بركن من أركان الدين دون شك، لكن يجدر بالمصلي أن يدري لماذا أمره الله الحكيم بأداء الصلاة في أوقاتها وعلى هيئاتها؟ وأن يتساءل عن الأثر الذي تحدثه في نفسه، وعلاقاته، ومجريات حياته! وكذلك الصوم والزكاة والحج، فهذه العبادات لها مقصدان عظيمان:

أولهما: بناء النفس بناءً إيمانيًّا أخلاقيًّا صادقًا، أساسه التقوى واليقين، ففي الصوم قال ﷻ: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾(البقرة)، وفي الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وفي الحج: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾(البقرة: ١٩٧)، وفي الزكاة: ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(التوبة: ١٠٣). وهكذا كل العبادات تقوم على بناء الذات الإنسانية وإصلاحها أخلاقيًّا وعقديًّا، وإيمانيًّا.

ثانيهما: إصلاح علاقة الفرد مع الآخرين، من خلال القيم والأخلاق وحفظ الحقوق، في كل النواحي وعلى كافة المستويات.

وكل العبادات في الأديان السماوية السابقة وفي ديننا الحنيف عبارة عن منظومة واحدة تصب في هذين المقصدين: بناء الفرد والعلاقة مع الأخرين، وأي معنى للصوم عندما يصوم الإنسان عن كل ما هو مباح في الأصل، ثم هو يفطر على سوء الخلق والأنانية، وحب الذات، مما هو محرَّم أصلًا.

وفي هذا يختلف منهج الإسلام بوصفه حضارة، في مختلف المجالات عن منهج الحضارة الغربية، إن المنظومة الإسلامية الحضارية تعطى للدين أولوية وتقدر الله حق قدره، أما المشروع الغربي للحضارة فقد أنزل اللهَ منزلة لا تليق به حتى جعلته بطلًا في بعض الأساطير عند اليونانيين، إلا أن المشروع الحضاري الإسلامي يعطي الكمال المطلق لله وينزهه عن الشبيه، كما في قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾(الشورى)، كما أن الإسلام وضع حدودًا فاصلة بين الحلال والحرام، والأشياء التي حرمها لم يكن تحريمها عبثًا، أما الحضارة الغربية فقد أغفلت جانب مراقبة الله، فالحرية عندها بديل عن الدين.

ويزيد على ذلك أن المشروع الحضاري الإسلامي يعطي أولوية للبناء الداخلي، فالله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١)، فالنهضة والحضارة لا تقومان بالعوامل الخارجية، ولا بالمعونات.

أما الحضارة الغربية، فهي حضارة شيئية فقط، وتجعل من الإنسان وسيلة، فهي تعرض المرأة سلعة تُبَاع وتُشْتَرَى، ثم تدعي بعد ذلك أنها تدعو لتحريرها ومساواتها بالرجل، أما الحضارة الإسلامية فهي

حضارة متوازنة تقدر الأشياء بقدرها، ولا تبخسها حقها، وترى أن الروح أيضًا ضرورية، كما أن العقل ضرورة، فالإسلام يجمع بين هذه الثلاثية في تآلف.

كما أن الأخلاق في الحضارة الإسلامية مطلقة، وليست نسبية كما في الحضارة الغربية التي ليس لديها مشروع إنساني، وكل العرب والمسلمين الذين يعتقدون أن لها مكانًا بين الحضارات، فإنهم سرعان ما سيكتشفون زيف اعتقادهم، وإذا ساروا في فلكها، فإنهم يسيرون في طريق الانتحار، والغواية، ويجب أن ندرك أن هذه الحضارة الغربية غير صالحة للمسلمين؛ لأنها حضارة ليست عادلة، فهي قائمة على القهر، والظلم، واستعمار الشعوب، وامتصاص خيراتها، ولا تعرف حقوق الإنسانية بالمعنى العام للإنسانية.

إن الارتقاء المادي لأمة من الأمم ليس دليلًا، أو مقياسًا لرقيها الإنساني، فقد تمخضت الحضارة الأوربية عن حروب مدمرة، واستعمار ظالم، وإذا كانت هذه الحضارة فيها بعض آثار العلم، فليس ذلك دليلًا على الرقي المأمول! ولأن يعيش الناس في عصر الجمل والسفينة الشراعية سالمين مسالمين خير لهم من أن يعيشوا في عصر الفضاء والقمر متناحرين. ومن ثم اتجه الباحثون إلى العامل الخلقي للأمة، فهو يتصل بالروح لا بالجسد، وهو وحده آية التقدم المنشود، فإذا قام نظام الأمة على أساس من الخلق القويم فقد ضمنت الأمة علاج أكثر الشرور، وحرصت على أن تمد للإنسانية يدًا بيضاء تعمل على رأب الصدع وبرء الجراح®.

® في **"السعادة بين التوراة والإنجيل والقرآن"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ثالثًا. لهذا أنا أسلمت:

إن ما سبق كله هو ما دفع ليوبولد فايس - على سبيل المثال - المستشرق اليهودي الأصل للإعلان عن إسلامه، حين زار القاهرة، فالتقى بالإمام مصطفى المراغي، فحاوره حول الأديان، فانتهى إلى الاعتقاد بأن "الروح والجسد في الإسلام هما بمنزلة وجهين توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله".

ولقد كان ليوبولد رجل التساؤل والبحث عن الحقيقة، وكان يشعر بالأسى والدهشة لظاهرة الفجوة بين واقع المسلمين المتخلف وبين حقائق دينهم المشعة، وفي يوم حاور بعض المسلمين منافحًا عن الإسلام ومحمِّلًا المسلمين تبعة تخلفهم عن التدهور الحضاري؛ لأنهم تخلفوا عن الإسلام، ففاجأه أحد المسلمين بهذا التعليق: فأنت مسلم، ولكن لا تدري! فضحك قائلًا: "لست مسلمًا، ولكنني شاهدت في الإسلام من الجمال ما يجعلني أغضب عندما أرى أتباعه يضيعونه".

ولكن هذه الكلمة هزت أعماقه، ووضعته أمام نفسه التي يهرب منها حتى أثبت القدر صدق قائلها، حين نطق ليوبولد - الذي تَسَمَّى بـ "محمد أسد" بعد إسلامه - بالشهادتين. لقد كان محمد أسد طرازًا نادرًا من الرحالة في عالم الفكر والروح. يقول: جاءني الإسلام متسللًا كالنور إلى قلبي المظلم، ولكن ليبقى فيه إلى الأبد، والذي جذبني إلى الإسلام هو ذلك البناء العظيم المتكامل المتناسق، فالإسلام بناء تام الصنعة، وكل أجزائه قد صيغت ليُتم بعضها بعضًا.. ولا يزال الإسلام - على الرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخر المسلمين - أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر.

ويقول: إن الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع نواحي الحياة؛ إذ يهتم اهتمامًا واحدًا بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، والفرد والمجتمع، إنه ليس سبيلًا من السبل، ولكنه السبيل الوحيد، فالإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة، فالإسلام لا يجعل احتقار الدنيا شرطًا للنجاة في الآخرة[1].

الخلاصة:

- الحضارة الإسلامية لا تقف عند نظرة الغرب المتدنية للإنسان، فهي ـ وإن كانت لا تغفل واقع الإنسان على أنه جسد ـ لا تغفل واقعه على أنه روح.
- ليس الجسد كما زعموا هو المقوم الأمثل للحضارة الإنسانية؛ إذ ربما تكون الروح قادرة على تحقيق مبدأ التعادل لدى الإنسان، فلا يكون تحت ضغط النفس وشهواتها فقط، وبناء عليه يتحقق في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره.
- قَوَّمت الأخلاق الإسلامية في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره، وحفظت التوازن بين مطالب الروح والجسد، فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات المباحة، بل تضعها في إطارها الشرعي.
- الارتقاء المادي ليس دليلًا على الرقي الإنساني، فالحضارة الغربية، وإن كانت فيها بعض آثار العلم، إلا أنها تمخضت عن حروب مدمرة، واستعمار ظالم.
- النظرة المادية الغربية للإنسان دفعت عقلاء الغرب أمثال "فانسان مونتيه" و"ليوبولد فايس" إلى إعلان إسلامهم؛ إذ إن الإسلام يَعُدُّ الروح والجسد وجهين توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله ﷻ.

الشبهة الحادية والثلاثون

الزعم أن البهائية ناسخة للإسلام(*)

مضمون الشبهة:

زعم البهائيون أن الله تجسد في شخص زعيمهم "بهاء الله" وظهر فيه، وأن محمدًا ﷺ ليس خاتم الأنبياء والرسل ـ كما يؤمن المسلمون ـ وأن الله قد اختص "بهاء الله" ببيان أسرار الحقائق الكلية التي أرسل بها رسله وخفيت على الناس كافة، ويدَّعون أن "البهائية" أتت لهذا العالم بفكرٍ جديد، كاتحاد الأديان والأجناس، وترك التعصبات، والمساواة بين المرأة والرجل، والسلام العالمي، وهم بهذا يرفضون كون الإسلام خاتم الأديان السماوية، ورسوله خاتم الأنبياء والرسل.

وجوه إبطال الشبهة:

١) البهائية بدعة ظهرت في بلاد فارس، قام بها نفر

---

[1]. انظر: مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق. الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق. العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق. البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، مرجع سابق. التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

(*) المؤامرة الخفية ضد الإسلام والمسيحية، د. أحمد محمد عوف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، القاهرة، مطبوعات الأزهر، ١٩٨٥م. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

من الخارجين عن الإسلام وعن سائر الديانات.

٢) البهائية مذهب مُستنسَخ من أخلاط من ديانات شتى وعقائد باطنية، ليس فيها جديد تحتاجه أية أمة لإصلاح شأنها، وعقيدتها وشريعتها ليستا من الإسلام في شيء.

٣) تقوم عقيدة البهائيين على أن الله ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ ليس له وجود إلا بظهوره في مظهر البهاء، وكان يظهر قبل ظهور البهاء في مظاهر تافهة هي الديانات السابقة، وأن الوحي ينزل على أتباع هذه الديانة.

٤) أسرف البهائيون في تأويل القرآن والميل بآياته إلى ما يوافق مذهبهم، حتى شرعوا من الأحكام ما يخالف إجماع المسلمين.

٥) هناك علاقة وطيدة بين البهائية والمذاهب والاتجاهات المعادية للإسلام، والتي أنشئت لخدمة الصهيونية العالمية، وتثبيت أقدام اليهود في فلسطين .

٦) البهائية في ميزان الإسلام هي فرقة خارجة عن الدين بإجماع المسلمين، نبذها المجتمع الإسلامي وتصدى لها بحزم، وهناك صور عدة ومظاهر شتى تظهر من خلالها مقاومة المسلمين لها.

التفصيل:

أولا. ظهور البابية أو البهائية:

لقد ظهرت البهائية أو البابية في بلاد فارس، بوصفها بيعة نشرها نفر من الخارجين على الإسلام، بل عن سائر الديانات السماوية الأخرى، وقد حمل وزرها رجل يدعي: ميرزا علي محمد الشيرازي، الذي أطلق على نفسه لقب "الباب" أي: الواسطة الموصِّلة إلى الحقيقة الإلهية، وكان هذا اللقب من قبل شائعًا عند الشيعة التي ظهرت بينها هذه البدعة مأخوذة من حديث موضوع: "أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها"[1]. ومن ثم أطلق على هذه البدعة "البابية". ثم كان من خلفاء هذا المبتدع رجل اسمه "حسين نوري" أطلق على نفسه لقب "بهاء الله"، ومن هنا أطلق على هذه البدعة اسم "البهائية".

ولد بهاء الله في شهر المحرم ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م، وكان أبوه يعمل في مأمورية المالية في مازندران، وقد أنجب سبعة من الأبناء، كان حظّ الباب منهم اثنين، هما "حسين نوري" ـ هذا المترجم له ـ "ويحيى علي" الذي لقب فيما بعد بـ "صبح أزل"، وقد التقى الأخوان بالباب صاحب بدعة "البابية" في لقاء سرِّيٍّ، وبايعاه فيه على الكفر، ووعداه بالترويج لدعوته، وكان ذلك عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م، أي: عندما كان سن البهاء ٢٧ سنة، وكان من آخر زعمائهم وأشهرهم "عباس أفندي عبد البهاء" المتوفى عام ١٩٢٣م، ثم "شوقي أفندي الرباني" المتوفى عام ١٩٧٥م.

ولقد كان مصير صاحب هذه البدعة الأول "علي محمد الشيرازي" ـ الذي كان يدَّعي أنه الباب الموصِّل إلى الله، وأنه المهدي المنتظر ـ القتل في عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م ـ بمعرفة الحكومة الإيرانية القائمة في ذلك الوقت ـ استجابة لنداء العلماء والفقهاء الذين

١. موضوع: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (١١٠٦١)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ وذكر أمير المؤمنين علي ﷺ (٤٦٣٩)، وقال عنه الألباني في السلسلة الضعيفة: حديث موضوع (٢٩٥٥).

أفتوا بردَّته عن الإسلام، كما نَفَت حكومة إيران خليفته ميرزا حسين علي نوري إلى تركيا، حيث انتقل إلى أرض فلسطين ومات فيها، ودفن في حيفا عام ١٨٩٢م.

وقد جهر مؤسس هذه البدعة بدعوته بشيراز في جنوب إيران، وتبعه فيها بعض الناس، وأرسل بعض أتباعه إلى جهات مختلفة في إيران للإعلام بمذهبه، وبث مزاعمه ودعواه؛ ليضل بها الناس عن سبيل الله، فقد ادعى أنه نبي يوحَى إليه، وجاء بكتاب "البيان" ـ كله أغاليط وأخطاء ـ زعم أنه وحي أنزله الله عليه وعارض به القرآن ـ الذي لا يعارض ولا يمكن أن يعارض إلى يوم القيامة، فالله هو الذي أنزله ونظمه ورتبه ـ بل لقد ادعى هذا الدَّعيُّ نسخ القرآن والإسلام، واعتبر وجوده قيامة جديدة، وظهوره طورًا محدثًا في تاريخ النبوات، وسلسلة الحوادث العظمى في تاريخ العالم، ودعا إلى مؤتمر عقد في بادية "بدشت" في إيران عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، أفصح فيه عن خيوط هذه العقيدة، وأعلن خروجه عن الإسلام وعقيدته.

فالبهائية إذن تطور للبابية تلك التي تنسب إلى الباب علي محمد الشيرازي، ولكن الحركة البابية لم تعد تنسب إلى "الباب" فقد آثر الناس أخيرًا أن يطلقوا على هذه الفرقة التي تفرعت عن مذهب علي محمد الشيرازي، والتي انتشرت تعاليمها شيئًا فشيئًا، اسم "البهائية" الذي يسمي أتباعه أنفسهم به كي يتميزوا عن البقية الباقية من البابيين المحافظين المتمسكين بكتاب "البيان"، والذين ينهجون نهجًا آخر، ونعني بهم أتباع يحيى صبح الأزل في مقابل أتباع المازندراني.

ثانيًا. حقيقة البهائية:

إن مذهب البهائية في مجموعه مذهب مصنوع من أخلاط من البُوذيَّة، والبَرْهَميَّة[1]، والوثنية، والزَّرادَشتيَّة[2]، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومن العقائد الباطنية؛ فأتباع هذه النِّحلة ينفون الألوهية عن الله الحق، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولا بالجنة ولا بالنار، وتبعوا في هذا الدهريين، وقد أنكروا أن رسول الله محمدًا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء.

فهي إذن فكر خليط بين فلسفات وأديان متعددة، ليس فيها جديد تحتاجه الأمة الإسلامية لإصلاح شأنها وجمع شملها، بل وضح أنها تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمار في سلسلة أفكار مريضة ونِحَلٍ ابتُلِيَت بها الأمة الإسلامية؛ حربًا على الإسلام وباسم الدين.

أما ما ذهبت إليه البهائية من أنها قد أتت للعالم بالجديد الذي لم يُسْبَق إليه، ولم يدر في خلد المصلحين قبلها، فهو زيف وباطل يكذبه الواقع، ومن ذلك: ادعاؤهم اتحاد الأديان والأجناس، وهي دعوى باطلة؛ إذ كيف يجمع الإنسان بين توحيد وتثليث، وإيمان وكفر، وتشبيه أو تجسيم وتنزيه.

جاء في كتاب "بيان للناس": "إن البهائية ليست حركة إصلاحية، بل حركة استغلها الاستعمار لصالحه،

---

١. البَرْهَميَّة أو البَرْهَمانيَّة: ديانة هندية تقول بإله مجرَّد أعلى، خلق العوالم كلها، وتجعل للناس طوائف مغلقة على رأسها الكهنة، وتدعو إلى تقديم القرابين، وتأخذ بالتناسخ ليتخلَّص المرء من القيود التي تربطه بالدنيا، وذهب مؤرِّخو الفِرَق الإسلامية إلى أنها تنكر النبوَّات والبعث، وتُحرِّم لحوم الحيوان.

٢. الزَّرادشتيَّة: ديانة فارسية قديمة أوجدها "زرادشت"، تقوم على عبادة وثنية في إطار الصراع بين قُوَى النور وقُوى الظلام.

وتلتقي مع الماسونيَّة[1] في هدفها، وهو صرْف الناس عن أديانهم السماوية والعمل لصالح الإنسانية تحت شعار جديد".. والحقيقة أن البهائية تتطلع إلى جمع العالم على اليهودية، يقول عباس أفندي ـ من أواخر دعاتهم: "الجميع يجدون فيها ـ أي في البهائية ـ دينًا عموميًّا في غاية الموافقة للعصر الحاضر، وأعظم سياسة للعالم الإنساني.. إنه يريد أن يوحِّد بين المسلمين والنصارى واليهود، ويجمعهم على أصول ونواميس موسى عليه السلام الذين يؤمنون به جميعًا".

سُئل عبد البهاء عن معنى "البهائية" فأجاب: "لكي تكون بهائيًّا يلزمك أن تحب العالم وتحب الإنسانية، وتجتهد في خدمتها، وتعمل للسلام العام، والأخوة العامة". كذلك زعموا أنهم يدعون إلى المساواة بين الرجل والمرأة، وترك التعصبات، والسلام العام.

والحقيقة أن البهائية تقوم على التناقض، ولا تستقر على مبدأ؛ فالباب ومن بعده البهاء، وعباس أفندي يقولون بالشيء ونقيضه في وقت واحد؛ ولأن ديانتهم المزعومة تقوم أيضًا على الخديعة والتغرير بالناس فهم لا يثبتون على مبدأ واحد، فتراهم إذ يرفعون شعارات الحرية والإخاء الإنساني، ويعلنون احترام القيم الإنسانية، وينادون بنزع السلاح، وتحقيق السلام العالمي، ونبذ الحروب وبمساواة المرأة بالرجل، يحرِّضون أتباعهم على قتال المسلمين، ويعلِّمونهم التفنن في بث الفرقة والفساد بينهم.

يقول البهاء في مجموعة الألواح التي كتبها بنفسه: "إياك أن تجتمع مع أعداء الله في مقعد، ولا تسمع منهم شيئًا، ولا يُتْلَى عليك من آيات الله العزيز الكريم"، وقد دسَّ البهاء السم لأخيه "صبح أزل" فقتله، وأمر أتباعه بقتل أتباع أخيه، وتتبُّعهم في البلاد وتَشْريدهم، وكان يأمر بقتل كل من لا يعتنق دينه.

فهذا الكلام ينقضه ما جاء في بعض كتاباتهم وكتابات المروجين لأفكارهم، من دعوة إلى وحدة الأديان، ووحدة أصل الإنسان، وإلى نبذ الحروب والاعتداءات والكراهية، والتعصبات، وبذلك يتبين غش البهاء وتدليسه في قوله: "عاشروا مع الأديان بالروح والريحان"، وقوله: "ينبغي لك ألَّا تنفصل عنها ـ أي عن الديانات الأخرى ـ فلتعلم أن الملكوت ليس خاصًّا بجمعية مخصوصة، فإنك يمكنك أن تكون بهائيًّا مسلمًا، وبهائيًّا ماسونيًّا، وبهائيًّا مسيحيًّا، وبهائيًّا يهوديًّا".

ثالثًا. عقيدة البهائيين:

قرر حسين على المازندراني الملقَّب بالبهاء عقيدة البهائيين في ألواحه ووحيه المزعوم، وفسرها دعاته في كتبهم، ونشراتهم، واستقرت على النحو التالي:

١. أساس عقيدتهم أن الله ليس له وجود الآن إلا بظهوره في مظهر البهاء، وكان يظهر ـ أي الله ـ قبل البهاء في مظاهر تافهة في الديانات السابقة، وأن الله عندما يظهر في البهاء الأبهى، يكون قد بلغ الكمال الأعلى، فالله قد ظهر فيه وتجسد، والناظر إليه وإلى جماله لا يرى إلا الله.

---

[1] . الماسونيَّة: التعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية السريَّة للبنَّائين الأحرار والمقبولين من غير الماسون، وهي أكبر جمعية سريَّة في العالم، ولها علاقة بالصهيونية العالمية، وتنقسم إلى محافل، وقد تأسَّس أول مَحْفَل كبير لها عام ١٧١٧م، وقد انضم لها عدد كبير من مشاهير وزعماء العالم، ويتعارفون فيما بينهم بإشارات وشعارات رمزية.

فالحلول الذي قالت به النصارى قالت به البهائية، فبعد ظهور الله - حسب زعمهم - في الأئمة الاثني عشر، وهم أئمة الشيعة - ظهر في شخص اسمه "أحمد الإحسائي"، ثم في شخص "الباب"، ثم في أشخاص من تزعموا هذه الدعوة من بعده.

ولقد ادَّعى "بهاء الله" أولًا أنه "الباب"، ثم ادعى أنه "المهدي"، ثم ادعى النبوة الخاصة، ثم ادعى النبوة العامة، ثم الألوهية، وذلك كله باطل، ومخالف لنصوص القرآن الكريم، فالله ﷻ منزه عن المكان، وبالتالي عن الحلول، وادعاء النبوة تكذيب للقرآن الكريم، أو جحود له؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وبعد، فهذه دعوى للألوهية واضحة، زعمها "بهاء الله" لنفسه؛ إذ لم يترك صفة من صفات الله تعالى، إلا انتحلها، ولا فعلًا من أفعاله ﷻ إلا ادعاه هذا المغرور، ولا اسمًا من أسمائه ﷻ إلا خلعه على نفسه، ويضع البهاء نفسه في مقام المشرِّع الأعلى الذي يملك المحو والإثبات، فهو يسقط التكليف بالكلية، عن المريض والهرم، مع أن الله تعالى يأمر نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر). والإسلام لا يعفى من التكليف إلا المجنون، حتى يفيق من جنونه، والصبي حتى يبلغ سن الرشد، والنائم حتى يستيقظ.

والمتتبع لكُتب الباب والبهاء وأقوالهما، وكذلك أقوال كبار أتباعهما لن يجد صعوبة في التعرف على دعواهما للألوهية. وأتباعهما يتوجهون إليهما بالعبادة، فهم لا يستعينون إلا بهما، ولا يتوجهون بنداءاتهم وأدعيتهم إلا إليهما، ولا يسألون المنافع والحاجات إلا منهما: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (النمل).

٢. ادعاء بعضهم نزول الوحي عليهم، وأن بعضهم أفضل من سيدنا محمد ﷺ ووضعهم كتبًا تعارض القرآن، وادعاء أن إعجازها أكبر من إعجاز القرآن. فالبهائيون يتصورون أن لهم وحيًا يتمثل في كتاب "إيقان" و "مجموعة الألواح المباركة". وقد أرسل البهاء هذه الألواح إلى الملوك والقياصرة، وينسب للبهاء أيضًا كتاب الأقدس الذي هو أهم ما كتب وألَّف، وقد ادَّعى أنه ناسخ لجميع الكتب السماوية الأخرى، بما فيها القرآن الكريم، وقد حاول المازندراني أن يجعله على نسق الآيات، والسور القرآنية، وضمنه - كما يزعم - الأحكام والشرائع في ملكوت الله طوال العصر الجديد.. هذه هي كتب البهائية التي زعموا أنها وحي من الله. وقد كان الله في بادئ الأمر - حسب زعمهم - يوحي للباب الشيرازي، بعد ذلك زعموا أن كل هذه الكتب وحي إلهي أوحاه البهاء نفسه على اعتبار أنه مظهر الله ﷻ وصفاته وأفعاله، أو أنه الإله.

٣. ادعاء حسين على المازندراني أن الباب كان نقطة، وأنه مثل محمد، وعيسى، وموسى، ومهمته إنما هي التبشير بمجيء البهاء، كما جاء الأنبياء يبشرون بظهور الله في البهاء، فعند البهائيين مظاهر أمر الله هم: برهما، وبوذا، وكونفوشيوس، وإبراهيم، وموسى، والمسيح، ومحمد، والباب الشيرازي، وكانت مهمتهم في رسالتهم التبشير للحسين على المازندراني الذي هو عندهم مظهر صفات الله كلها، من دون الله ﷻ كما يقول الملحدون..

وعندهم أن من ينكر ظهور الله تعالى في البهاء لا يستطيع إثبات أي دين من الأديان.

وجاءت البهائية في تقليدها الأعمى والأحمق للباطنية، فزعمت أن كل رموز الوحي الإلهي بقيت خفية المقاصد حتى على الرسل أنفسهم إلى أن ظهر الميرزا حسين على، فبين هو ما كان خافيًا على الرسل. كما زعمت أن في كل حرف من كلمات الله أسرارًا وحقائق، لم يُحِطْ بها أحد علمًا سوى الميرزا حسين علي، حتى جاء بكتاب "الإيقان" وفيه كَشْف كل الرموز، وفَكُّ خاتم النبيين، وتبيين ما خفي على المرسلين؛ لأنه هو الله الذي اختص نفسه بالتأويل، أما الرسل السابقون جميعًا، فقد اختصهم الميرزا "حسين علي" الأزلي الأبدي بالتنزيل فقط.

وهذا إفك مفترى، فرسل الله قد أدوا الأمانة، وبلَّغوا رسالات ربهم، وخاتمهم محمد ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل).

٤. ادعاؤهم أن القرآن ليس معجزة، وهو من عمل محمد ﷺ على أساس أن الله ليس متكلمًا، ولكن صفاته وأفعاله هي صفات مظاهر الله في الأرض، فالقرآن إذن من عمل محمد. وكذلك المعجزات الحسية التي ثبتت له ينكرها البهائيون، ويقولون: إن صريح آيات القرآن تنفيها مثل قول الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩)، ويفسرونها على غير وجهتها، ويقبلون من المعجزات فقط البشارات التي يصورونها على أنها تبشر بالبهاء.

٥. وعند البهائيين أن البهاء هو الموعود، وقيامه ورسالته هي البعث، والابتغاء إليه هو الجنة، ومخالفته هي النار، ومن هنا يتضح أن الأديان السابقة والأنبياء - عند البهائيين - مهمتهم التبشير بالبهاء، وبوحيه، وأن ظهوره - أي البهاء - هو ظهور الله الأبهى وأن أتباعه وحتى الذين يمتازون بالعلم والذكاء والخبث منهم يدعونه ربًّا.

تلك هي عقيدة البهائية والتي نجد فيها تناقضًا واضحًا ومصادرات ظاهرة للعقل، ومناهجه الصحيحة، فإذا ما انتقلنا إلى الشريعة عندهم، وجدنا ما هو أكثر مخالفة للعقل، فنجدها نسخًا للأديان على الرغم من أنها تدعي أنها دين سماوي.

رابعًا. شريعة البهائيين:

أسرف البهائيون في تأويل القرآن، والميل بآياته إلى ما يوافق مذهبهم، حتى شرعوا من الأحكام ما يخالف ما أجمع عليه المسلمون، ومن ذلك:

١. **نسخ الشرائع**: يزعم البهائيون أن شريعتهم ناسخة للشرائع كلها، بما فيها الإسلام، فيزعمون أن لهم صلاة، وزكاة، وصومًا، وحجًّا، وكأنهم يريدون أن يقولوا إن أركان البهائية خمسة كما أن أركان الإسلام خمسة، ولكن هذه الأركان قد نسخت وتغيرت طبقًا لعقيدة البهائيين في نسخ جميع الشرائع.

٢. **الصلاة**: إن قبلة البهائيين في الصلاة هي حيث يكون بهاء الله، وهم يتجهون إلى حيفا، بدلًا من المسجد الحرام، مخالفين قول الله ﷻ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة: ١٤٤). والصلاة عندهم تسقط عن الضعيف،

والهرم، والمريض، والمسافر، والمتكاسل. كما أنهم جعلوا الصلوات ثلاثًا بدلًا من خمس، وعندهم كل صلاة ثلاث ركعات، ويكفي أداء واحدة منها فقط.

٣. **الصوم**: قالوا إن الصوم هو ترك الطعام، والشراب، وما عدا ذلك فهو مباح، ووقت الصوم عندهم هو شهر العلاء، وهو آخر شهر في السنة البهائية، التي تتكون من تسعة أشهر ومدة الشهر تسعة عشر يومًا مخالفين في ذلك قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (التوبة: ٣٦)، وقول الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩)، مخالفين الأمر المحسوس المحسوب الذي يتمثل في أن الشهر القمري إما تسعة وعشرون يومًا وإما ثلاثون يومًا، وهو أيضًا، ما أنبأ به الرسول محمد ﷺ.

ويرفع الصوم عن العاجز والمريض والحامل والمرضع والمتكاسل والنساء حين يجدن الدم، والمشتغل بالأعمال الشاقة، وقد جعل قبل الدخول في شهر الصوم خمسة أيام خصَّها بالشهوات والملذات سماها الخمسة المباحة يأتي فيها الشخص ما يشاء من المنكرات والموبقات.

٤. **الزكاة**: تزعم البهائية أن الزكاة مفروضة على البهائيين، ولكن كتبهم لم تبين مقدار الزكاة، ولا نصابها، ولا على من تجب.

٥. **الحج**: يبطل البهائيون الحج إلى مكة، وحجهم حيث "بهاء الله" إلى حيفا، مخالفين بهذا صريح القرآن الكريم في شأن فريضة الحج، وهو واجب على المستطيع من الرجال، وليس واجبًا على البهائيين، ولا توجد عند البهائيين تفاصيل واضحة عن كيفية الحج، ولا عن شعائره، مخالفين بهذا صريح القرآن الكريم في شأن فريضة الحج.

٦. **الطهارة**: البهائيون يعدُّون كل شيء طاهرًا، ويرفعون حكم النجاسة عن كل ما تعتبره الأديان نجسًا، ويأمر البهاء بالغسل كل أسبوع مرة، وغسل الأرجل في الصيف مرة واحدة في اليوم وفي الشتاء كل ثلاثة أيام مرة، وليس هناك أي نوع من أنواع الطهارة غير الذي ذكرناه إلا تنظيف الثياب بماء الورد والعطور.

٧. **الجهاد في سبيل الله**: ألغى البهائيون الجهاد في سبيل الله ضد الأعداء، تلك الفريضة الثابتة، بصريح القرآن، وصحيح السنة النبوية، ودعوتهم هذه محاولة للقضاء على الأمة الإسلامية، وعلى كل دولة من دولها؛ إذ هي في الاستجابة لها قضاء على روح الكفاح، ودعوة إلى الاستسلام للمستعمرين والمغامرين، وهذا ما يؤكد انتماءهم للصهيونية العالمية، بل إنهم نبت يعيش في ظلها وبأموالها وجاهها.

وهذه بعض نماذج من أقوال البهاء:

يقول البهاء: "انتهت قيامة الإسلام بموت علي محمد الباب، وبدأت قيامة البيان، ودين الباب، بظهور من يظهره الله ـ يعني نفسه ـ فإذا مات انتهت قيامته، وقامت قيامة الأقدس ودين البهاء، ببعثة النبي الجديد". ويقول: "كان المشركون أنفسهم يرون أن يوم القيامة خمسون ألف سنة! فانقضت في ساعة واحدة،

أفتصدقون يا من عميت أبصاركم ذلك؟! وتعترضون أن تنقضي ألف سنة في سنين معدودة". ويقول: "ليس لأحد أن يحرك لسانه، ويلهج بذكر الله أمام الناس حتى يمشي في الطرقات والشوارع". ويقول: "كتب عليكم تجديد أثاث البيت في كل تسعة عشر عامًا" ويقول: "أُحل للرجل لبس الحرير لقد رفع الله حكم التحديد في اللباس واللحى". ويقول: "قد مُنِعْتم من ارتقاء المنابر فمن أراد أن يتلو عليكم آيات ربه فليجلس على الكرسي".

خامسًا. الصلة بين البهائية والمذاهب المنحرفة الأخرى:

إن الصلة بين البهائية والمذاهب الهدامة باتت واضحة؛ فالمتأمل في خطوط نشأتها، وخيوط نسيجها يهتدي إلى أنها ربيبة الاستعمار والصهيونية، فهي سلسلة أفكار ونحل ابتليت بها الأمة الإسلامية حربًا على الإسلام والمسلمين، وليس أدل على ذلك من التعاطف الكبير الذي أبداه زعماء البهائية، نحو الاستعمار والخدمات الكبيرة التي أدُّوها للمستعمرين، ومن التكريم الذي كرم به الإنجليز والروس زعماء البهائية، أمثال: الباب، والبهاء، والمازندراني، وابنه عباس أفندي عبد البهاء.

فلقد تعاطف البهائيون مع الاستعمار الإنجليزي كما تعاطفت الدعوات المماثلة للإنجليز معهم، أمثال السيد أحمد خان، وغلام أحمد القادياني وأتباعهما، فلقد ركز البهائيون هم وهؤلاء على الدعوة إلى ترك الجهاد، ووضع الأسلحة عن العواتق والرضا بكل ما يفعل بهم، والاصطبار على الظلم والضيم، والخضوع أمام كل مستبد جبار، والتخلي عن الحرية والاستقلال، واجتناب الاشتغال بالسياسة، وكان العباس عبد البهاء منافقًا ظاهر النفاق، فبينما يتظاهر بتأييد العثمانيين والدعاء لهم يعمل على إسقاط دولتهم متعاونًا مع المستعمرين والصهاينة. ولما هزمت الدولة العثمانية أمام الإنجليز والهنود وسقطت فلسطين، عبَّر بهائي كبير هو "أشلمنت" عن هذا بقوله: "وكان الابتهاج في حيفا عظيمًا عندما استولت الجنود البريطانية والهندية عليها".

وأما اليهود، فإن موقفهم وراء البهائية أكثر وضوحًا، فلقد ساعدوا على نشأتها واحتضنوها وحاولوا تنقيتها باعتناقها والدعاية لها، وتمويلها بهدف تحطيم الإسلام من داخله، ولقد كان هذا من أكبر الدوافع وراء اعتناق البهائية.

ومما يبين علاقة البهائية بالمحافل الماسونية ـ التي أُنشئت لخدمة الصهيونية العالمية، وتثبيت أقدام اليهود في فلسطين الإسلامية ـ أن هيكل البهائية من الناحية التنظيمية والحركية والإعلامية جاء على صورة هيكل المحافل الماسونية الصهيونية، حتى جاءت الألفاظ المستعملة متقاربة في الهيكلين.

فالبيان ومعرفة الأسرار موكولة إلى المظهر الأعظم الأنوري الذي يعني: (البهاء) زعيم البهائية، وكذلك الأمر عند الماسونية، فالمحفل الماسوني يطلق عليه المحفل النوراني الأعظم، فلا عجب إذا وجدنا المساعدات، وأوجه التعاون المختلفة من الصهيونية للبهائية، حتى فتحت خزائن المال اليهودي؛ لتمويل حركة البهاء التي تمثل بدورها هجومًا شرسًا على الإسلام باسم الإسلام، وتدعم تعاليم بني إسرائيل بنصوص من الكتاب المقدس تدسها على الإسلام

وتدَّعيها عليه، ويواكب عهد البهاء حركة التآمر اليهودية - أثناء مؤتمر "بال" - التي وضعت خريطة ممتلكات إسرائيل من النيل إلى الفرات، وشاركت البهائية كطرف أساسي في التآمر؛ لإسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا تمهيدًا لدخول اليهود أرض فلسطين.

وقد كتب عبد البهاء رسالة حمل فيها على سلطان المسلمين في تركيا؛ لأنه فرَّق بين اليهود والمسلمين في الحقوق والواجبات.

وقد لعب مقر البهائية في جبل الكربل دورًا رئيسيًّا بوصفه وكرًا للرءوس العاملة ضد الإسلام والمسلمين، وعلى رأسها الصهيونية العالمية، ومنهم من أصبح عضوًا في القيادة اليهودية، بعد إعلان قيام إسرائيل.. وظل عبد البهاء تابعًا مخلصًا لأعداء الإسلام، يقدم خدماته المتعددة للإنجليز واليهود، حتى أنعمت عليه الحكومة البريطانية بإنعاماتها العديدة، وقد اهتم اليهود بأخبار البهائية، اهتمامهم بأخبار محافلهم الماسونية، فكانت الصحف اليهودية والإذاعة، بتل أبيب يغطيان أخبار الجمعية البهائية، ويقدمان التهاني الحارة في كل المناسبات السعيدة للبهائيين، وقد عبر ممثِّلو البهائية عند اجتماعاتهم بـ "بن جوريون" عن الودِّ والتعاون مع حكومة إسرائيل.

سادسًا. تصدِّي المجتمع الإسلامي لخطر البهائية:

هناك صور عدة يظهر من خلالها مدى مقاومة المسلمين لخطر البهائية، ومن مظاهر ذلك:

- أن المجتمع الإيراني - والذي شهد بداية ظهور تلك البدعة - قد عارض هو وعلماؤه وحكومته هذه البدعة حين ظهورها، وناظروا مبتدعها الأول "الباب"، وحُكِمَ عليه بالردة، وأُعْدِم في تبريز في شهر يوليو سنة ١٨٥٠م.

- وحين وفدت هذه البهائية إلى مصر قاومتها كل السلطات، وصدرت كل الفتاوى التي كشفت زيفها، وأظهرت أنها نحلة باطلة لخروجها عن الإسلام بدعوتها للإلحاد وللكفر، وأن من يعتنقها يكون مرتدًّا عن الإسلام؛ فالإسلام لا يقر أي ديانة أخرى غير ما أمرنا القرآن باحترامه.

- ولقد ناشد الأزهر المسئولين كي يقفوا بحزم ضد هذه الفئة الباغية على دين الله، وعلى النظام العام للمجتمع الإسلامي، وأن ينفذوا حكم الله عليها، ويسنوا القانون الذي يستأصلها ويهيل التراب عليها وعلى أفكارها؛ حماية للمواطنين جميعًا من التردِّي في هذه الأفكار المنحرفة عن صراط الله المستقيم؛ فهؤلاء الذين أجرموا في حق الإسلام والوطن يجب أن يختفوا من الحياة، فالأمر يدعو إلى المسارعة النشطة من السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية؛ لإعمال شئونها.

- وقد أنَّمت فتاوى علماء الإسلام والأحكام المختلفة من جهات القضاء، ثم الفتاوى القانونية المتعاقبة، هذه المذاهب وحكمت ببطلانها، ثم صدر القرار الجمهوري الذي حذر نشاط البهائية، حتى أطلت الفتنة برأسها مرة أخرى في وقت تزاحمت فيه الأفكار الوافدة الفاسدة، التي ساعدت على بروز طوائف من الجماعات، كلٌّ له فكر شارد، حتى ادعى بعض الناس النبوة.

وسُئل فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة العربية السعودية سابقًا عن الذين اعتنقوا مذهب "بهاء الله" الذي ادعى النبوة، وادعى حلول الله فيه، هل يسوغ للمسلمين دفن هؤلاء الكفرة في مقابر المسلمين؟

فأجاب: إذا كانت عقيدة البهائية كما ذكرتم فلا شك في كفرهم، وأنه لا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين؛ لأن من ادعى النبوة بعد نبينا محمد ﷺ فهو كاذب وكافر بالنص وإجماع المسلمين؛ لأن ذلك تكذيب لقوله ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، ولما تواترت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه خاتم الأنبياء، ولا نبي بعده، وهكذا من ادعى أن الله ﷻ حالٌّ فيه، أو في أحد من الخلق فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن الله سبحانه لا يحل في أحد من خلقه بل هو أجلُّ وأعظم من ذلك، ومن قال ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين، مكذب للآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق العرش، قد علا وارتفع فوق جميع خلقه، وهو سبحانه العلي الكبير الذي لا مثيل له، ولا شبيه به، وقد تعرف إلى عباده بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف: ٥٤)، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة التي درج عليها الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودرج عليها خاتمهم محمد رسول الله ﷺ ودرج عليها خلفاؤه الراشدون وصحابته المَرْضِيُّون والتابعون لهم بإحسان إلى يومنا هذا.

هذا، وقد جرت محاورةٌ بين سُنِّيٍّ وبهائيٍّ نشرتها مجلة "الهدي النبوي" لأنصار السنة في القاهرة، في أعداد أربعة صدرت في عامي ١٣٦٨هـ، ١٣٦٩هـ، وقد صرح البهائي في هذه المحاورة أن بهاء الله رسول الطائفة البهائية، يزعم أنه رسول ناسخ للشرائع التي قبله نسْخ تعديل وتلطيف، وأن كل عصر يحتاج إلى رسول، وصرح أيضًا بإنكار الملائكة، وأن حقيقة الملائكة هي أرواح المؤمنين العالية، وظاهر كلامه أيضًا إنكار المعاد الجثماني، وإنكار ما أخبر به الرسول ﷺ عن الدجال، ولا شك أن دعوى البهائي الرسالة وزعمه أن كل عصر يحتاج إلى رسول كفر صريح[1].

الخلاصة:

- البهائية فرقة ضالّة تحارب الإسلام وأتباعه منذ أكثر من قرن من الزمان وهي تظاهر أعداء الأمة الإسلامية، وتناصرهم في القضاء على هذه الأمة، وعلى الإسلام.
- البهائية في مجموعها مذهب مصنوع من أخلاط من: البوذية، والبرهمية، والوثنية، والزرادشتية واليهودية، والمسيحية، والإسلام، والعقائد الباطنية، وأتباع هذه النحلة ينفون الألوهية عن الله، وينكرون البعث والجزاء، وأنكروا كذلك كون النبي ﷺ خاتم الأنبياء، ومن ثم فهي فكر خليط بين فلسفات وأديان متعددة تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمار في سلسلة

---

١. انظر: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، مرجع سابق، ص٢٥١: ٢٨٨. مجلة الزهراء الصادرة عن كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، مرجع سابق. بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة، جاد الحق علي جاد الحق، دار الحديث، مصر، ٢٠٠٤م، ج٤، ص٤٠٢: ٤٢٠.

أفكار مريضة ونحل ابتليت بها الأمة الإسلامية، والبهائية فرقة لا تنتمي إلى الإسلام في شيء، حتى وإن تظاهر أتباعها بذلك، وتسمّوا بأسماء إسلامية؛ لأنهم لا يتفقون معنا لا في شرائع ولا في عقائد. ثبت انتماء هذه الفرقة للتيارات المعادية للإسلام التي تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتثبيت أقدامهم في فلسطين.

- إن الصلة بين البهائية والمذاهب الهدامة باتت واضحة؛ فالمتأمل في خطوط نشأتها وخيوط نسيجها يهتدي إلى أنها ربيبة الاستعمار والصهيونية، وليس أدل على ذلك من أن هيكل البهائية من الناحية التنظيمية والحركية والإعلامية جاء على صورة هيكل المحافل الماسونية الصهيونية حتى إن الألفاظ المستعملة في الهيكلين متقاربة إلى حد التطابق.

- ولقد تصدَّى علماء المسلمين لهذه الدعوة وأبانوا زيفها وفسادها، وأفتوا بكفر معتنقيها، فهي سلسلة أفكار مريضة ونِحَلٌ متعددة وفلسفات شتى ابتليت بها الأمة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (آل عمران).

الشبهة الثانية والثلاثون

الزعم أن الإنسان خُلِقَ مصادفة(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الجاحدين أن الإنسان خلق مصادفة

(*) نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق.

دون قصد، وأن الذرات انتظمت عَرَضًا فخُلق، وهم بهذا يشككون في خلق الله تعالى للإنسان، وفي الهدف الأسمى من خلقه، وهو عبادة الله تعالى.

وجها إبطال الشبهة:

١) القول بالمصادفة وُجِدَ قديمًا عند فلاسفة اليونان، وهذا بعينه ما وُجِدَ عند الدَّهريِّين المحدثين.

٢) العلم الحديث يعارض فكرة أن الكون ـ والإنسان جزء منه بطبيعة الحال ـ خُلق مصادفة، فهناك العديد من الحقائق العلمية التي تهدم هذه الفكرة.

التفصيل:

أولا. القائلون بأن الكون خُلِق صدفة:

لقد وجد قديمًا عند فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت دون أية غائية أو علة خارجية لوجودها، وبُني العالم على المصادفة المحضة. وهذا ما وجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على استقامة، فاصطكت اتفاقًا؛ فحصل عنها العالم الذي نراه الآن. وإن كثيرًا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة؛ لئلا يفسروا الكون بخالق، ومن هؤلاء من ذهب إلى أن المادة تركبت اتفاقًا من الأوزون[1] والهيدروجين[2]

١. الأُوزُون: طبقة من غاز الأكسجين ثلاثي الذرات تحيط بالأرض على ارتفاعات عالية منها، وهو أنشط كيميائيًّا من الأكسجين العادي، يحمي الكائنات الحيَّة على سطح الأرض من مخاطر الأشعة فوق البنفسجية المُنْبَعثة من الشمس، ويستعمل أيضًا في تعقيم الهواء ومياه الشرب.

٢. الهيدروجين: غاز عديم اللون والطعم والرائحة، وهو أخفُّ العناصر، يتَّحد مع الأكسجين بنسبة خاصة فيكوِّن الماء.

والأكسجين[١]، ومنها تكونت الحياة، ووصل الأمر إلى أن زعم بعضهم أنه قادر على خلق الإنسان يقول: "ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان".

ويلخص بعضهم تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة، فيقول: "ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة"[٢].

ثانيًا. معارضة العلم الحديث لفكرة المصادفة:

هناك العديد من الحقائق العلمية الحديثة التي تهدم فكرة أن العالم خُلق صدفة، ومن ذلك:

١. البنية الوظيفية للبروتين لا يمكن أن تنشأ مصادفة:

البُروتينات[٣] جزيئات ضخمة، تتكون من أحماض أَمِينِيَّة[٤] مرتَّبة في سلسلة معينة، وبأعداد محددة، هذه الجزيئات هي اللبنات الأساسية للخلية، وأبسط منها تتكون من خمسين حمضًا أمينيًّا، ومنها ما يحتوي على آلاف الأحماض الأمينية وأي نقص أو زيادة أو تغيير في أماكن هذه الأحماض التي يختص كلٌّ منها بوظيفة معينة داخل الخلية الحية، يجعل جزيء البروتين كومة لا نفع فيها، وهناك عشرون حمضًا أمينيًّا مختلفًا، فإذا اعتبرنا أن مُعدَّل احتواء جزيء بروتين من الأحماض الأمينية (٢٨٨) حمضًا، يكون هناك (١٠٣٠٠) من التراكيب الحمضية المختلفة. واحد فقط من كل هذه السلاسل المحتملة تشكل جزيء البروتين المطلوب، أما باقي سلاسل الأحماض الأمينية الأخرى، فهي إما عديمة الفائدة، أو ضارة للكائن الحي، وبعبارة أخرى: نسبة احتمال التشكل التصادفي لجزيء بروتين واحد فقط، كالذي تحدثنا عنها سالفًا هي (١ في ١٠٣٠٠). وإمكانية حدوث (١٠٠ من رقم فلكي) (١ وأمامه ٣٠٠ صفر) هي بكل المقاييس والأحوال الفعلية صفر؛ أي: مستحيلة. على أن هذا الجُزِيء[٥]، الذي يتألف من ٢٨٨ حمضًا أمينيًّا يعتبر متواضعًا بالمقارنة مع الجزيئات العملاقة التي تحتوي على آلاف الأحماض الأمينية، وإذا طبقنا حسابات الاحتمال على هذه الجزيئات العملاقة، نجد أن كلمة "مستحيل" غير كافية، وإذا كان احتمال التشكل التصادفي لجزيئة من هذه الجزيئات البروتينية مستحيلًا، فإن إمكانية تجمُّع مليون من هذه الجزيئات عن طريق الصدفة بطريقة منظمة لتشكيل خلية بشرية متكاملة أمر أكثر استحالة بملايين المرات، ثم إن الخلية ليست مجموعة من البروتينات، بل تحتوي ــ بالإضافة

---

١. الأكسجين: عنصر غازي من عناصر الهواء، عديم اللون والطعم والرائحة، يكوِّن خُمْس الهواء الجوي، وهو أساس التَّأكسُد والاحتراق، وضروريٌّ لتنفس الإنسان والحيوان والنبات.

٢. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٧٧، ٧٨.

٣. البُروتينات: جمع بروتين، مادة عضوية أساسها التركيبي الأحماض الأَمِينية، توجد بكثرة في حبوب القَرْنيَّات واللحوم والأجبان وغير ذلك، وهي إحدى المواد الثلاث الرئيسة لغذاء الإنسان والحيوان.

٤. الأحماض الأَمِينيَّة: المكونات الأساسية التي تنحل إليها البروتينات في أثناء الهضم، ثم تعود بروتينات كما كانت إذا ما دخلت خلايا الجسم.

٥. الجُزِيء: أصغر جزء مستقل من المادة يمكن أن يكون منفردًا، وتظهر فيه خواص المادة وصفاتها، ويتركب من عِدَّة ذرات.

لها ـ على أحماض نووية ودهون، وفيتامينات، ومواد كيميائية، أخرى مثل: الإلكتروليت[1]، وجميعها منظمة بانسجام، وانتظام وبنسب محددة من الناحية البنيوية والوظيفية، وكل منها يعمل بوصفه لبنة أساس، وبهذا البيان اتضح أن البنية الوظيفية للبروتين لا يمكن أن تنشأ مصادفة.

٢. خلية واحدة تتحدى مقولة المصادفة:

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا، وهي تتكون من خمسة عناصر؛ هي: الكربون[2]، والهيدروجين، والنيتروجين[3]، والأكسجين، والكبريت[4]، ويبلغ عدد الذرات في الجُزيء الواحد (٤٠ ألف ذرة)، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصرًا موزعة بقدر معلوم، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوِّن جزيئًا واحدًا من جزيئات البروتين، يمكن حسابه لمعرفة كميات المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًّا؛ لكي تؤلف هذا الجزيء، وقد حاول العلماء حساب المدة الزمنية التي يجب أن تستغرقها عملية خلط العناصر المذكورة فوجدوا أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبًا في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون ملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدَّرها العالم السويسري "تشارلز يوجيه جاي" بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين!

كل هذه الأرقام المستحيلة يطلبها قانون الصدفة؛ لتكوين جزيئة واحدة من جزيئات الخلية الحية. ألا يكفي خلق الإنسان من بلايين الخلايا الحية التي تحركها إشعاعة الحياة، تلك النعمة الإلهية في المادة، ألا يكفي هذا لكي يؤمن من زعم الصدفة بأن هناك خالقًا للكون خلق الإنسان، وهو الله الخالق الواحد الأحد؟!

٣. اختزال عدد الكُرُوموسومات[5] إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية:

هذا الاختزال لا يمكن أن يكون مطلقًا نتيجة مصادفة عمياء، قال أحد الباحثين المعاصرين إن

---

١. الإلكتروليت: أُيُونات الصوديوم أو البوتاسيوم أو الكلور اللازمة في الخلايا لتنظيم الشحن الكهربائي وتدفق جزيئات الماء عبر غشاء الخلية.

٢. الكربون: عنصر لا فِلِزِّي أساسي في تكوين الفحم بجميع أنواعه، يوجد على صور مختلفة بعضها متبلور كالفحم، وبعضها غير متبلور كالماس، ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحية.

٣. النيتروجين: عنصر غازي يشكل ما يقارب خُمس الهواء بالكتلة، لا لون له ولا رائحة، ويدخل هذا الغاز في العديد من المعادن وفي البروتينات، ويستخدم بشكل واسع في العديد من الصناعات المهمة ومنها الأمونيا، وحمض النتريت والأسمدة.

٤. الكبريت: مادة معدينة لا فِلِزِّيَّة صفراء اللون، هشَّة لا تنحل في الماء، عديمة الطعم والرائحة، شديدة الاشتعال، ذات لهب أزرق، توجد حول البراكين، تدخل في صناعة البارود الأسود، ومبيدات الحشرات وتركيب بعض المستحضرات الصيدلية؛ كالأدوية والمراهم، وفي صناعة الثِّقاب.

٥. الكُرُوموسومات: جمع كروموسوم، أو كروموزوم، وهو مادة جرميَّة شكلية نووية تكون في نواة الخلية، وتظهر عند انقسام الخليَّة انقسامًا غير مباشر، وعدد الكروموسومات في الخليَّة نوعي لا يتغير وقد عُرِّبت باسم الصبغيات.

"معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم، التي نسميها "الخلايا" كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة".

وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة، وكل خلية من هذه الخلايا تتكون أساسًا من مادة نطلق عليها اسم "البروتوبلازم"[1]، وتوجد بداخل كل خلية من هذه الخلايا محتويات عديدة ذات وظائف محددة، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم الكروموسومات وعدد هذه الكروموسومات ثابت في خلايا كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات، وفي كل خلية من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه الكروموسومات، وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين فإن كل خلية جديدة لا بد أن تحتوي على العدد نفسه من الكروموسومات وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنسانًا.

والخلايا دائمة الانقسام، ويحدث هذا في جميع ساعات اليوم حتى في أثناء نومنا، إن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بد أن تحتوي على ستة وأربعين كروموسومًا فيما عدا نوعين من الخلايا، هما الخلايا التناسلية، هذه الخلايا التناسلية تُنتج خلايا تحتوي على نصف الستة والأربعين كروموسومًا فقط، ويحدث هذا لحكمة بالغة؛ إذ إن الخلية الذكرية - الحيوان المنوي - لا بد أن تندمج مع الخلية الأنثوية - البُوَيضَة - لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وهي ما نُطلِق عليه اسم "الخلية المُلقَّحة"، وبهذا الاندماج يعود عدد الكروموسومات في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي، وهو ستة وأربعون كروموسومًا، وهذه الخلية المُلقَّحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين كروموسومًا توالي انقسامها فتصبح خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا، وهكذا حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من بطن أمه، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنسانًا كامل النمو، في كل خلية من خلاياه ستة وأربعون كروموسومًا، كما هو الحال في خلايا جسد أبيه، وأمه، وأجداده، وجميع أفراد الجنس البشري.

إن اختزال عدد الكروموسومات إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية خاصة؛ لكي تندمج فيعود العدد الأصلي للكروموسومات في الخلايا - لا يمكن مطلقًا أن يكون نتيجة مصادفة عمياء، بل لا بد أن يكون نتيجة تخطيط دقيق من قوة عليا تعرف ماذا تفعل، وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة، واحتمال الخطأ. ألا يكفي هذا الترتيب وحده دليلًا على وجود قوة عليا مدبرة مقدِّرة حكيمة؟! لا يمكن إذن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام؛ إذ إن المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات.

٤. اهتمام العلماء التجريبيين بدراسة الإنسان من الناحية العضوية:

بعد دراسة العلماء التجريبيين لطبيعة الإنسان من

---

١. البُروتوبلازم: مادة حيَّة معقَّدة مكوِّنة لخلايا الكائن الحي.

الناحية العضوية خرجوا بنتائج لا يملك الإنسان تجاهها إلا أن يقول: سبحان الله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يسخر من الماديين الذين يقولون بالمصادفة، فماذا قال التجريبيون؟

- **مخ الإنسان**: إن ملايين الأخبار تجري على جهازنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجِّه القلب في تدفقه وفي حركاته وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في الحركات الرئوية، هذا النظام موجود في مخ الإنسان، وفيه يوجد ألف مليون خليَّة عصبيَّة[1]، ومن هذه الخلايا الأنسجة العصبية، ويجري في هذه الأنسجة نظام إرسال واستقبال للأخبار بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، ومن خلال هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا.
- **حاسة التَّذوُّق**: توجد ثلاثة آلاف من الشُّعيرات[2] المتذوقة، ولكل منها مسلك عصبي متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يحس الإنسان بالمذاقات المختلفة، ولولا هذه الشعيرات ما شعر الإنسان بطعم حلاوة أو مرارة.
- **وفي حاسة الإبصار**: يوجد في كل عين مائة وثلاثون مليونًا من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ.
- **حاسة السمع**: يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا.
- **حاسة الإدراك والإحساس**: توجد أنسجة حسية على امتداد جلد الإنسان، فإذا قربنا شيئًا حارًّا فإن ثلاثين ألفًا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحسُّ بهذه العملية وترسلها إلى المخ، وإذا قربنا شيئًا باردًا إلى الجلد، فإن ربع مليون من الخلايا ترسل هذا الإحساس إلى المخ فيرتعد الجسم، ثم تتسع الشرايين الجلدية فيسرع المزيد من الدم إليها وتزودها بالحرارة.
- **النظام العصبي**: في الإنسان يشتمل على عدة فروع، منها الفرع المتحرك ذاتيًّا ويقوم بأعمال الهضم، والتنفس، وحركات القلب، وتحت هذا الفرع يوجد نظامان: أحدهما: النظام الخالق للحركة، والثاني: المانع للحركة، وهذا النظام يقوم بعملية المقاومة والدفاع. والنظام الأول لو ترك الأمر له لزادت حركات القلب، زيادة يترتب عليها موت صاحبها، ولو ترك الأمر للنظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفًا تامًّا، ولكن توزعت أعمال النظامين بدقة وعناية، فالنظام الثاني يسود عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية[3].

فهل يُعْقَل بعد هذه الدلائل الكبرى التي أودعها الله ﷻ في الإنسان أن يزعم هؤلاء أنه خُلِق صادفة®؟!

---

١. الخليَّة العصبيَّة: هي التي تُكوِّن النسيج العصبي وتتألف كل منها من جسم مركزي بما فيه نواة وسيتوبلازم، وتخرجه منه لِيْفة دقيقة تُسمَّى المحور وفُريع أو أكثر.

٢. الشُّعيرات: قنوات دموية دقيقة تماثل الشَّعرة في دِقَّتها، تحمل الدم.

٣. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٨٦ وما بعدها.

® في "**تهافت القول بالصدفة في خلق العالَم**" و"**ظهور الغائية في خلق الإنسان والحيوان والنبات**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الخلاصة:

بهذا العرض بطل الزعم القائل: إن الإنسان خلق مصادفة وذلك للآتي:

- الدلائل المعجزة في الإنسان، والخلايا المكونة لجسمه لا يمكن أن تنشأ مصادفة، حيث إن البنية الوظيفية للبروتينات، والتي تتكون من الآلاف من الأحماض الأمينية، والتي تختص كل منها بوظيفة معينة، داخل الخلية الحية، لا يمكن أن تنشأ مصادفة.
- الفترة الزمنية التي يجب أن تستغرقها عملية خلط العناصر - الكربون، الأيدروجين، النيتروجين، الأكسجين، الكبريت - لتكوين جزيئة واحدة من جزيئات الخلية الحية ١٠ مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.
- اختزال عدد الكروموسومات إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات؛ لكي تندمج فيعود العدد الأصلي للكروموسومات في الخلايا، وذلك لحكمة بالغة، وهدف عظيم، فالخلية الذكرية - الحيوان المنوي - لا بد أن تندمج مع الخلية الأنثوية - البويضة - لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وبهذا الاندماج يعود عدد الكروموسومات في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي وهو ستة وأربعون كروموسومًا، لا يكون هذا الاختزال مطلقًا نتيجة مصادفة عمياء.
- العلماء التجريبيون انكبوا على دراسة الإنسان من الناحية العضوية فوجدوا دلائل معجزة، وآيات بينة في:

١. مخ الإنسان.

٢. في حاسة الذوق.

٣. في حاسة الإبصار.

٤. في حاسة الإدراك والإحساس.

٥. النظام العصبي.

- فخرجوا بنتائج لا يملك الإنسان تجاهها إلا أن يقول: سبحان الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يَسْخر من الماديين الذين يزعمون المصادفة في الخلق.



المصادر والمراجع

- إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي سيد عبد الله، دار الآفاق العربية، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت.
- آراء يهدمها الإسلام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م.
- أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، د. إدوار جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- أضواء البيان، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إفلاس الماركسية، أحمد حسين، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين: نشأته وتطوره ومذاهبه المعاصرة، د. صابر عبد الرحمن طعيمة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الله في العقيدة الإسلامية رسالة جديدة في التوحيد، أحمد بهجت، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٤.
- الله يتجلى في عصر العلم: ترجمة: د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان، د. ت.
- الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، مصر، ١٩٩٩م.
- الإنسان والغيب، د. حبيب الله حسن، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، طبعة خاصة.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، القاهرة، مطبوعات الأزهر، ١٩٨٥م.
- بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة، جاد الحق علي جاد الحق، دار الحديث، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- البهائية في ميزان الشريعة، د. عمارة نجيب، د. محمود عثمان، وزارة الأوقاف، القاهرة، رسالة الإمام، العدد الثاني، رمضان ١٤٠٥هـ.
- البيان في تحليل الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، المقطم للنشر والتوزيع، مصر، د. ت.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- تاريخ الفرق الإسلامية، د. محمود محمد مزروعة، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- التشريع الجنائي في الإسلام مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، عثمان جمعة ضميرية، دار الكلمة الطيبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ.
- تعالوا نعيد النظر فيما نعتقد، حسن يوسف، دار الشعب، القاهرة، د. ت.
- التفسير الكبير، الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٠١هـ.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار الرسالة، القاهرة، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، د. ت.
- توحيد الخالق والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد المجيد عزيز الزنداني، دار السلام، القاهرة، ط٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت عليَّان، دار الشوَّاف، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجنة والنار، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- حقيقة التوحيد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط٨، ٢٠٠٦م.
- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤١٣هـ/ ١٩٩١م.
- حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.
- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ.
- دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام، دار الفكر العربي، مصر، ط٢، ١٩٨٧م.
- الدين، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، مصر، ط١، ٢٠٠١م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- سلسلة القصص القرآني: آدم عليه السلام، حمزة النشرتي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨م.

- شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.
- شرح المجيد في شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن النجدي الحنبلي، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤١٩هـ.
- الشفاعة: محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، أخبار اليوم، يوليو، ١٩٩٩م.
- صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حَبَنَكة الميداني، دار العلم، دمشق، ط٤، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- العقائد الإسلامية، السيد سابق، مطبعة دار التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٦م.
- العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.
- عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا، د. ت.
- عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة، د. عبدالمنعم القيعي، مجلة رسالة الإمام، العدد ٩، ١٩٨٦م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، د.أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ٢٠٠٥م.
- العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- الفتن والملاحم، ابن كثير، دار الصابوني، السعودية، د.ت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- في مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم، د. يحيى هاشم، د.ت.
- فيض القدير، المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٥م.

- قضايا إسلامية: مناقشات وردود، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٤م.
- كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- المؤامرة الخفية ضد الإسلام والمسيحية، د. أحمد محمد عوف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- مجلة الزهراء، تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، العدد الثالث والعشرون، ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨م.
- محمد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا، د. ت.
- مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق: حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٤، د. ت.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن الزنيدي، ضمن منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ١٩٩٢م.
- مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، المقاولون العرب، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- مفهوم الشيطان في الفكر العربي، د. ناصر وهدان، القاهرة، ١٩٩٩م.
- من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- موجز دائرة المعارف، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- نظرات جديدة في القرآن المعجزة، محمد عادل القلقيلي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، مصر، ط١، ١٩٨٥م.
- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط٦، ١٩٦٠م.
- الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، لواء. أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- وظيفة الدين في الحياة، د. محمد الزحيلي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٩٩٩م.
- وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد بن عبد السلام، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١١، ١٤٢٢هـ.
- اليوم الآخر في الكتاب والسنة، د. عبد الباقي أحمد عطا الله، دار المنار، مصر، ط١، ١٩٨٨م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الرابع

ج ٧

شبهات حول الإيمان والتدين